

تاريخ الفلسفة

المجلس
الأعلى
للثقافة



455

المجلد الخامس

الفلسفة الحديثة

من توماس هوبز إلى باركلي

فردريك كوبلستون

ترجمة : محمود سيد أحمد

المشروع القومي للترجمة

تاريخ الفلسفة

(المجلد الخامس)

تأليف : فردريك كوبلستون

ترجمة : محمود سيد أحمد

مراجعة وتقديم : إمام عبد الفتاح إمام



٢٠٠٣

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

– العدد : ٤٥٥

– تاريخ الفلسفة (المجلد الخامس)

– فردريك كوپلستون

– محمود سيد أحمد

– إمام عبد الفتاح إمام

– الطبعة الأولى ٢٠٠٢

هذه ترجمة كتاب :

History of Philosophy (Volume 5)

Modern Philosophy :

The British Philosophers From

Hobbes to Hume,

Frederick Copleston

Image Books

Doubleday , 1963

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

7 مقدمة بقلم المراجع
15 تصدير
17 الفصل الأول : هوبز (١)
53 الفصل الثاني : هوبز (٢)
77 الفصل الثالث : أفلاطونيو كمبردج
95 الفصل الرابع : لوك (١)
111 الفصل الخامس : لوك (٢)
147 الفصل السادس : لوك (٣)
167 الفصل السابع : لوك (٤)
191 الفصل الثامن : نيوتن
207 الفصل التاسع : مشكلات دينية
223 الفصل العاشر : مشكلات الأخلاق
259 الفصل الحادي عشر : باركلي (١)
273 الفصل الثاني عشر : باركلي (٢)
295 الفصل الثالث عشر : باركلي (٣)
331 الفصل الرابع عشر : هيوم (١)
373 الفصل الخامس عشر : هيوم (٢)
403 الفصل السادس عشر : هيوم (٣)
433 الفصل السابع عشر : هيوم (٤)
447 الفصل الثامن عشر : هيوم ما له وما عليه
497 ملحق : مراجع مختصرة

تقديم المراجع

هذا هو المجلد الخامس من موسوعة كوبلستون الكبرى فى تاريخ الفلسفة، وهو يتابع فى هذا المجلد دراسة الفلسفة الحديثة، فيعالج الفلاسفة البريطانيين من «توماس هوبز» إلى «ديفيد هيوم» فى ثمانية عشر فصلاً.

ويبدأ بدراسة هوبز فى فصلين، ويستهل الفصل الأول - كالمعتاد - بدراسة حياته وأعماله، ثم يتحدث عن طبيعة الفلسفة وغايتها وأقسامها. ويرى أن الفلسفة لا تدرس سوى «الجسم». لكن الجسم نوعان: جسم طبيعى؛ لأن الطبيعة هى التى صنعتها، وجسم صناعى، صنعتها إرادة الناس، وهو الدولة التى يسميها «بالإله الفانى». وهكذا يمكن تقسيم الفلسفة عند هوبز إلى قسمين: فلسفة طبيعية، وفلسفة مدنية. وتنقسم الأخيرة إلى قسمين هما: الأخلاق والسياسة.. لكن المهم هنا هو أن الفلسفة ما دامت تدرس «الجسم المتحرك» فهى تستبعد من مجالها موضوع وجود الله، بل اللاهوت بأسره..

إذا كان المؤلف قد عالج فى الفصل الأول «ميتافيزيقا الحركة» عند هوبز على نحو ما تتمثل فى الجسم الطبيعى، فإنه يخصص الفصل الثانى لدراسة الفلسفة المدنية لا سيما السياسة بعد أن عرض للأخلاق فى نهاية الفصل الأول، وهو يبدأ بالحديث عن حالة الطبيعة عند هوبز أو حالة «حرب الكل ضد الكل» التى يشهد سعيها بسبب أن الناس متساوون بالطبيعة فى القدرات الذهنية والجسدية، فضلاً عن أن كل فرد يبحث عن بقائه الخاص ولذته عن طريق المنافسة، وفقدان الثقة بالآخرين...

وهنا لا بد أن ننبه إلى دقة المؤلف فى مسألتين:

الأولى: أن المؤلف يعي تماماً أن حالة الحرب ليست مرحلة تاريخية مرت بها البشرية فى الماضى، وإنما هى مرحلة افتراضية أو هى «استنتاج من النظر فى

طبيعة الإنسان وانفعالاته...» (ص ٤٤). وتلك مسألة أساسية لا ينتبه إليها كثيرون ممن يظنون أن «حالة الحرب» هي المرحلة البدائية الأولى التي بدأت منها المجتمعات البشرية.

الثانية: أن المؤلف عندما يعرض بالتفصيل لنظرية هوبز في نشأة الدولة عن طريق «العقد الاجتماعي» الذي يتنازل فيه الأفراد لصاحب السيادة ، يدرك تماماً أن «صاحب السيادة» ليس بالضرورة ملكاً (أى أن هوبز ليس بالضرورة من أنصار الملكية المطلقة كما يزعم بعض المؤرخين) أى لا يهم أن يكون فرداً واحداً، فقد يكون عدة أفراد، ومن هنا كانت السلطة المطلقة هي - فى الواقع - سلطة الدولة، ويمكن أن نقول بعبارة أكثر دقة (وربما كانت حديثة أكثر) هي سلطة القانون...

أما فى الفصل الثالث فيتحدث المؤلف عن أفلاطونى كمبرذج. فإذا كان هوبز قد استبعد من الفلسفة كل نظر فى الله، لأن الفلسفة لا تدرس سوى الأجسام المتحركة، فإن هؤلاء الفلاسفة قد استلهموا المذهب الأفلاطونى، واستمدوا منه إلهامهم من حيث إنه تفسير روحى ودينى للواقع. ومن هنا جاءت تسميتهم بالأفلاطونيين، وإن لم يكن المذهب الأفلاطونى يعنى عندهم «فلسفة أفلاطون» فحسب، بل التراث الكلى لميتافيزيقا أفلاطون حتى أفلوطين. وقد أكد هؤلاء الفلاسفة إيمانهم بقدرة العقل البشرى فى أن يبلغ حقيقة موضوعية عن الله، وأن يقدم لنا معرفة بقوانين أخلاقية كلية مطلقة.

ويبدأ المؤلف فى الفصل الرابع فى «دراسة لوك» على مدى أربعة فصول، فيدرس فى هذا الفصل - كالمعتاد - حياته وأعماله، وتأسيسه للمذهب التجريبي الذى يستهله بالتخلص من نظرية الأفكار الفطرية التى رُوِّجت لها المدرسة الديكارتية، بغية تطهير الأرض استعداداً لإرساء الأسس التجريبية للمعرفة، التى تقول - باختصار شديد - «إن التجربة هي أساس كل الأفكار». أما الفصل الخامس فيتحدث فيه المؤلف عن تفاصيل المذهب التجريبي عند «لوك» - ويعرض للأفكار بنوعها: البسيطة والمركبة؛ وهو يميّز بينها على أساس أن الأفكار البسيطة هي تلك التى تأتىنا عن طريق حاسة واحدة فقط كحاسة البصر بالنسبة لفكرة لون الورد، أو حاسة الشم بالنسبة لرائحتها... إلخ. وهناك أفكار مركبة تأتىنا عن طريق أكثر من حاسة مثل فكرة المكان

أو الامتداد، والشكل، والسكون، والحركة... إلخ؛ لأنها تتكون من انطباعات على العين واللمس يمكن إدراكها...

غير أن الأفكار بنوعها - البسيطة والمركبة - تأتيان من الإحساسات، ويصنف «لوك» الأفكار البسيطة إلى أربعة أنواع، مبيناً ما بينها من خواص مشتركة، ومن أهمها «... إننا نستقبلها بصورة سلبية...» ثم يقسم الأفكار المركبة إلى أفكار عن الأعراض، وأفكار عن الجواهر... إلخ مبيناً كيف أنها تتكون من ربط أفكار بسيطة من أنواع مختلفة.

وفي الفصل السادس يتحدث المؤلف عن المعرفة عند لوك بدرجاتها الثلاث: الحدسية، والبرجماتية، والحسية... وكذلك معرفة وجود الله التي تتم عن طريق البرهان.

أما الفصل الأخير عن لوك - وهو الفصل السابع - فهو دراسة لنظرية «لوك» الأخلاقية، وكذلك نظريته السياسية التي يعرضها في كتابه «بحثان عن الحكومة المدنية»؛ حيث عرض في البحث الأول الجانب السلبي من هذه النظرية، وهو نقد كتاب «سير روبرت فلمر» الذي عنوانه: «الحكم الأبوي» الذي يدافع فيه عن الحق الإلهي للملوك على أساس أنه كان لأدم «سلطة ملكية» منحها الله له، وقد انتقلت إلى الملوك عن طريق أبنائه. وموقف فلمر «العظيم» هو أن «الناس ليسوا أحراراً بالطبيعة».

ويرفض لوك - بحسم - هذه النظرية عن الخضوع الطبيعي للناس، ويثبت في رسالته الثانية أن الناس كانوا أحراراً ومتساوين بالطبيعة في «حالة الطبيعة الأولى» التي هي حالة الحرية؛ فضلاً عن أن الإنسان في هذه الحالة كانت له حقوق طبيعية. والحق الطبيعي الذي أولاه لوك اهتماماً كبيراً هو حق الملكية. لقد منح الله الأرض للناس، ومنح كل ما فيها من أجل إعالتهم ورفاهيتهم. وعلى الرغم من أن الله لم يقسم الأرض والأشياء الموجودة عليها، فإن العقل يبين أنه لا بد أن تكون هناك ملكية خاصة لا من حيث ثمار الأرض فحسب، بل أيضاً من جهة الأرض نفسها... وهكذا تنشأ الدولة؛ إذ يرى «لوك» أن «الغاية الأساسية من وراء اتحاد الناس في دولة، والخضوع لحكومة ما، هي المحافظة على ممتلكاتهم...». فالناس يتحدون معاً في مجتمع من أجل المحافظة المتبادلة على حياتهم، وحياتهم، وأموالهم التي أطلق عليها الاسم العام

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

أما الفصل السابع عشر فيجعله حول السياسة، وأصل المجتمع والحكومة، وطبيعة الولاء وحدوده. ويجعل الفصل الثامن عشر، وهو آخر فصول الكتاب بعنوان: «هيوم ما له وما عليه».

ولعل أولى الملاحظات التي يلاحظها القارئ على محتويات هذا الكتاب هي غزارة المادة العلمية، وتمكّن المؤلف من الموضوعات التي يعرض لها، وقدرته على العرض، وبراعته في التحليل، وعودته الدائمة إلى تصور الفلاسفة..

لكننا مع ذلك نأخذ عليه بعض المآخذ القليلة على النحو التالي:

أولاً: لا ينسى «الأب» كويلاستون أبداً أنه عالم في اللاهوت، وهي سمة لازمتة تقريباً في جميع المجلدات من المجلد الأول حتى الآن؛ فهو - مثلاً - عندما يتحدث عن فلسفة هوبز السياسية نراه يتسامل عن «ما يناظر نظرية هوبز عن الدولة في فلسفة العصور الوسطى» ويجيب: «ربما نفترض أن القديس أوغسطين قد أعدّ لهذه النظرية أكثر من القديس توما الأكويني..» مع أن القديس أوغسطين بنظرته التي تنظر إلى نشأة الدولة على أنها نتيجة «للخطيئة الأصلية» - يتعدّ تماماً عن نظرية هوبز «التعاقدية»، لأن الأولى «دينية» تماماً، بينما الثانية «بشرية» تماماً أيضاً، ولعل هذا هو السبب في أن المؤلف يعود فيقول إن هذا التشابه: «ليس سوى جزئي، ويجب عدم التركيز عليه». (ص ٦٤).

ثانياً: وهو عندما يتحدث عن «لوك» ونقده للأفكار الفطرية لا يفوته أن يعلن لنا أن القديس توما الأكويني في القرن الثالث عشر أثبت أن كل أفكارنا الطبيعية ومعرفتنا، مؤسسة في التجربة، ولا وجود لأفكار فطرية ص ٩٥. ومع ذلك فهو لا يطلق على الأكويني اسم «الفيلسوف التجريبي».. على نحو ما فعل مع لوك!!

ثالثاً: وهو حين يتحدث عن النظرية السياسية عند لوك نراه يدافع عن المنظر «اللاهوتي» سير روبرت فلمر، فيرى أن فلمر لم يكن في حقيقة الأمر غيباً كما يصوره لوك؛ لأنه نشر أعمالاً ذات أهمية أعظم من كتابه «الحكم الأبوي» بيد أن كتابه قد نُشر حديثاً، وأثار نقاشاً... إلخ (ص ١٥٦ - ١٥٧) - وحتى لو افترضنا جدلاً أن فلمر نشر كتاباً أخرى «عظيمة» - على حد تعبير المؤلف - فهل يمنع ذلك أن يكون «غيباً» فيما قاله

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ويقول المؤلف عن هويز «الفلسفة والاستدلال عنده متلازمان» ص ٢٠ ، وهويز يستبعد اللاهوت من مجال الفلسفة: «لأن اللاهوت ليس عقلياً..» (ص ٢٠).

فالحكم على المعرفة والفلسفة، وأى مجال من مجالاتها هو «حكم عقلى»، والمنهج الرياضى هو الاستدلال العقلى، حتى فى مجال السياسة لدرجة أن بعض المؤرخين يرون أنه كان يريد أن يكون «إقليدس السياسة»! فكيف يمكن بعد ذلك كله أن نصفه بأنه «فيلسوف تجريبى»؟..

جانب من الخطأ الذى يقع فيه القارئ فى الحكم على مذهب هويز حين يعتبره «فيلسوفاً تجريبياً» يرجع إلى ماديته.. مع أنه ليس ثمة تعارض على الإطلاق بين العقلانية والمادية، فإذا كانت الرياضيات هى النموذج الأول للعقلين، والمذهب العقلى عموماً؛ ليس ثمة تعارض بين الرياضيات والمادية، وليس ذلك اكتشافاً نسوقه لأول مرة بل هو حقيقة كشف عنها ليبنتس فى عصر هويز نفسه! (١).

ومهما يكن من شئ، فالموضوع - كما سبق أن ذكرنا - «خلافى».. وفيه كثرة من الآراء المختلفة ، لكن ذلك لا يقلل أبداً من أهمية هذا الكتاب الذى يحتوى على مادة علمية غزيرة، من المؤكد أنها سوف تعمل على إثراء المكتبة الفلسفية العربية، كما أننا نرجو أن يكون إضافة إلى المشروع الرائد: المشروع القومى للترجمة.
والله نسال أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد...

(١) قارن كتابنا : «توماس هويز : فيلسوف العقلانية..» ص ١٢٩ وما بعدها.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

تصدير

هدفى فى الأصل - كما ذكرت فى تصدير المجلد الرابع من هذا العمل - هو أن أغطى فلسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر، بما فى ذلك فلسفة كانط، فى كتاب واحد. غير أنه قد تبين لى أنه من غير الممكن أن أفعل ذلك، فقسمتُ الموضوع بين ثلاثة كتب، معالجاً كل كتاب منها بوصفه مجلداً منفصلاً. ومع ذلك فإنى أبقيت على خطى الأصلية إلى هذا الحد، فهناك فصل تمهيدى مشترك ومراجعة ختامية عامة مشتركة للمجلدات: الرابع، والخامس، والسادس. أما الفصل التمهيدى فقد وضعت، بالطبع، فى بداية المجلد الرابع وهو «من ديكارت حتى ليبنتس» فى حين شكلت المراجعة الختامية، التى اقترحت أن أناقش فيها - ليس من وجهة نظر تاريخية فحسب، بل من وجهة نظر فلسفية أيضاً - طبيعة، وأهمية، وقيمة الأساليب المتنوعة للفلسف فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، أما الفصل الأخير من المجلد الرابع فهو «من فولف حتى كانط» الذى يضم عصر التنوير فى فرنسا، وعصر التنوير فى ألمانيا، ونشأة فلسفة التاريخ، ومذهب كانط. وبالتالي، فإن المجلد الحالى، وهو «من هوبز حتى هيوم» الذى خصصته للفكر الفلسفى البريطانى من هوبز فصاعداً، بما فى ذلك فلسفة الحس المشترك عند المدرسة الإسكتلندية والتى تمثل الجزء الثانى من المجلد الرابع الذى خططت له أولاً وهو «من ديكارت حتى كانط»، لا يتضمن فصلاً تمهيدياً أو مراجعة ختامية، ولما كان ترتيبه يختلف إلى هذا الحد عن ترتيب المجلدات الثلاثة الأولى، فإننى اعتقد أنه من المستحسن أن أعيد هنا التفسير الذى قدمته من قبل فى مقدمة المجلد الرابع.

الفصل الأول

هوبز (١)

حياته وكتاباتاته - غاية الفلسفة وطبيعتها واستبعادها لكل لاهوت -
تقسيمات الفلسفة - المنهج الفلسفى - مذهب هوبز الإسمى - العلية
والآلية - المكان والزمان - الجسم والأعراض - الحركة والتغير -
الحركات الحيوية والحركات الحيوانية - الخير والشر - الانفعالات -
الإرادة - الفضائل العقلية - المذهب الفردى الذرى

١ - ولد توماس هوبز- مؤلف إحدى الرسائل السياسية الأكثر شهرة فى التراث
الأوروبى، فى «مالسبرى» عام ١٥٨٨ . كان والده قسيساً . قام هوبز فى عام ١٦٠٨
- عندما رحل من أكسفورد - بخدمة أسرة «كافنديش» ، وأمضى من عام ١٦٠٨ حتى
١٦١٠ متنقلاً بين فرنسا وإيطاليا وهو يعمل مدرساً خصوصياً لابن «اللورد
كافنديش» ، الذى أصبح فيما بعد الإيرل الأول لديفنشير . وعند عودته إلى إنجلترا شغل
نفسه بأعمال أدبية، وقام بترجمة «ثوكيديدز» إلى اللغة الإنجليزية، وقد نُشرت الترجمة
عام ١٦٢٨ . كانت له علاقات مع «فرنسيس بيكون» الذى توفى عام ١٦٢٦ ، ومع لورد
هيربارت أوف تشيربرى، غير أنه لم يكرس نفسه للفلسفة.

ورجع هوبز مرة ثانية إلى فرنسا فى عام ١٦٢٩ حتى عام ١٦٣١ ، وعمل فى ذلك
الوقت مدرساً خصوصياً لابن سير جرفس كلتون ، وعرف كتاب الأصول^(١) لإقليدس
أثناء زيارته لباريس. وقد أشار المؤرخون إلى أن هوبز لم يستطع مطلقاً - على الرغم
من جميع جهوده - أن يكتسب درجة المعرفة الرياضية والاستبصار التى بلغها ديكارت
فى سن مبكرة جداً ، لكن على الرغم من أنه لم يكن رياضياً عظيماً، فإن التقاءه
بالهندسة هذا قد أمدّه بمثاله الدائم للمنهج العلمى. وأثناء زيارته لباريس، انجذب أيضاً
إلى مشكلة الإدراك الحسى، وعلاقة الإحساسات بحركات الأجسام والصفات الثانوية.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

بترجمة أعمال «هوميروس» كلها إلى اللغة الإنجليزية، وكتب كتاباً عن البرلمان طويل الأجل. كما أنه انشغل كثيراً بالجدال والحوار، ولذلك أجرى مناظرة أدبية مع «برامهول»، أسقف ديرى، حول موضوع الحرية والضرورة، التى دافع فيها عن وجهة نظر حتمية. كما أنه انشغل أيضاً بجدال وحوار مع عالم الرياضيات «واليس» Wallis، الذى نشر «لؤلؤة هوبز فى الهندسة»^(٢) الذى تعرّضت فيه أخطاء هوبز الرياضية لانتقادات حادة. كما أنه تعرض لهجوم من رجال الدين بصفة خاصة، بحجة الهرطقة والإلحاد. ومع ذلك، بعد أن نجا من الدولة والسلطة بسلام ونجاح، لم تفكك به المراعات الشفهية، وبقي حياً حتى شتاء ١٦٧٩. ومات وهو فى الحادية والتسعين من عمره^(٤).

٢ - يؤكد هوبز - مثل بيكون - الغاية العملية للفلسفة، «فغاية أو مجال الفلسفة هو أننا قد نستعمل لمنفعتنا أثراً رأيناها من قبل؛ أو قد ننتج تلك الآثار نفسها التى نتصورها فى أذهاننا، عن طريق انطباق الأجسام بعضها على بعض، كلما سمحت المادة والقوة والاجتهاد بذلك، من أجل حاجة الحياة البشرية... إن غاية المعرفة القوة... ومجال كل تأمل هو أداء فعل ما أو شىء ما»^(٥). إن الفلسفة الطبيعية تقدم فوائد واضحة للبشرية. غير أن الحياة البشرية ابتليت بمصائب، التى كان من أهمها الحرب الأهلية، التى اندلعت لأن الناس لم يفهموا بصورة كافية قواعد السلوك والحياة السياسية. «وبالتالى، أصبحت معرفة تلك القواعد هى الفلسفة الخلقية»^(٦). إن المعرفة قوة فى كل من العلوم والسياسة.

لكن على الرغم من أن المعرفة الفلسفية قوة، بمعنى أن وظيفتها هى المساهمة فى رخاء الإنسان المادى، والسلام الاجتماعى والأمن، فإنه لا ينبج من ذلك أن كل معرفة تكون معرفة فلسفية. إن هوبز فيلسوف تجريبي، فيما يتعلق بالأساس البعيد للمعرفة الفلسفية. فالفيلسوف يبدأ بما هو مُعطى، أى يبدأ بالتطابعات حسية تتطبع علينا عن طريق أجسام خارجية، وبذكرياتنا عن هذه الانطباعات. إنه يبدأ بمعطيات حسية، يبدأ بما يسميه هوبز «الآثار أو المظاهر». ولكن على الرغم من أن وعينا المباشر بالمظاهر أو الظواهر، وبذكرياتنا عنها تؤلف معرفة، وعلى الرغم من أنها تكون الأساس البعيد للفلسفة، فإنها ليست معرفة فلسفية. «وعلى الرغم من أن إحساس الأشياء وبذكرياتها، وهى أمور مشتركة بين البشر وكل المخلوقات الحية، هى معرفة، لأن الطبيعة أعطتها

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

شرطية: أعنى «إذا كان هذا، كان ذاك، وإن يكن هذا، يكن ذاك، ولو كان هذا، سيكون ذاك»^(١٣).

لقد رأينا أن الفلسفة عند هوبز تهتم بالتفسير السببى (العلى)، وهو يقصد بالتفسير السببى تفسيراً علمياً للمسار التولدى الذى يؤدى إلى ظهور نتيجة ما إلى حيز الوجود. وينجم عن هذا أنه إذا لم يظهر شيء إلى الوجود عن طريق المسار التولدى، فإنه لا يمكن أن يكون جزءاً من موضوع الفلسفة. ومن ثم يستبعد الله، والحقيقة الروحية، من دائرة الفلسفة. «إن موضوع الفلسفة، أو الموضوع الذى تعالجه، هو كل جسم نستطيع أن نتصور منشأه (أصله)، ويمكن أن نقارن، عن طريق أى استدلال، بينه وبين أجسام أخرى، أو ما هو قابل للتركيب والحل: أعنى، كل جسم يمكن أن تكون لدينا أى معرفة عن أصله أو خصائصه... وبالتالي تستبعد الفلسفة اللاهوت، وأعنى باللاهوت النظرية التى تقال عن الله، الأزلى، الذى ليس له منشأ (أصل)، والذى لا يمكن الإحاطة به، والذى لا يوجد فيه شيء ينقسم أو يتركب، ولا يمكن أن نتصور له أى منشأ»^(١٤). كما يتم استبعاد التاريخ أيضاً؛ لأن «هذه المعرفة ليست سوى تجربة (أى تذكر) أو مستندات، وليست استنتاجاً عقلياً»^(١٥). ولا يمكن السماح بشباه العلوم، مثل التنجيم.

وهكذا تهتم الفلسفة بأسباب الأجسام وخصائصها. وهذا يعنى أنها تهتم بالأجسام المتحركة. لأن الحركة هى «السبب الكلى»، الذى «لا يمكن أن يكون هناك أى سبب آخر إلى جانب الحركة». وينشأ «تنوع الأشكال من تنوع تلك الحركات التى تشكلها»^(١٦). وربما لا يكون هذا التفسير لطبيعة الفلسفة وموضوعها مقبولاً للجميع، كما يلاحظ هوبز. إذ سيقول البعض إنها مسألة تعريف، وإن أى شخص حر فى أن يُعرف الفلسفة كما يريد. وهذا صحيح «على الرغم من أننى أعتقد أنها ليست معضلة فى أن أبرهن على أن تعريفى للفلسفة يتفق مع المعنى الموجود عند كل الناس»^(١٧). ومع ذلك، يضيف هوبز القول بأن أولئك الذين يبحثون عن نوع آخر من الفلسفة، يجب عليهم أن يقبلوا مبادئ أخرى. أما إذا تم قبول مبادئه هو الخاصة، فستكون الفلسفة على النحو الذى يتصوره.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

بالدين الطبيعي: إن حب الاستطلاع أو حب معرفة الأسباب يؤدي بالإنسان، بصورة طبيعية، إلى أن يتصور سبباً ليس له سبب، «حتى إنه من المستحيل أن نبحث بعمق في أسباب طبيعية دون أن نميل بالتالي إلى الاعتقاد بأن هناك إلهاً واحداً أزلياً، على الرغم من أنه لا يمكن أن يكون لديهم (أي الناس) أى فكرة عنه في عقولهم، أو أى جواب عن طبيعته»^(٢٤)؛ لأن «الإنسان قد يتصور عن طريق الأشياء المرئية في هذا العالم، ونظامها المدهش، أن هناك سبباً لها، يطلق عليه الناس اسم «الله»، ومع ذلك لا تكون لديه فكرة أو صورة عنه في عقله»^(٢٥). وبمعنى آخر، يؤكد هوبز أنه لا يمكن الإحاطة بالله. وإذا نسبنا إلى الله صفة مثل «لامتناه»، فإنها لا تكون بمثابة فكرة إيجابية عن الله، بل تعبر عن عدم قدرتنا على تصوره. وبالتالي فإننا نستخدم اسم «الله» لا ليجعلنا نتصوره، بل لأننا لا نستطيع الإحاطة به، ولا نستطيع تصور عظمته وقوته، ولكننا نبجله»^(٢٦). وعلى نحو مماثل لا تكون ألفاظ مثل: الروح، واللامادى معقولة في ذاتها. وبالتالي فإن الناس الذين يصلون عن طريق تأملهم إلى التسليم بالله واحد، لا متناه، قادر على كل شيء، أزلي، يختارون الاعتراف بأنه لا يمكن الإحاطة به، ويفوق فهمهم، أفضل من تعريف طبيعته عن طريق روح لا مادية، ويعترفون بالتالي أن تعريفهم غير معقول، أو إذا أعطوا له هذا اللقب، فإن ذلك لا يكون بصورة جسامطيقية، بقصد أن يجعلوا الطبيعة الإلهية مفهومة، بل عن إيمان وورع، لكي يبجلوه بصفات، أو بمعان، بعيدة مثلما يستطيعون أن يفعلوا ذلك عن ضخامة أجسام مرئية^(٢٧)، وبالنسبة للوحى المسيحى، الذى تعبر عنه الكتب المقدسة، لم ينكر هوبز أن هناك وحياً، لكنه يطبق نفس المبادئ فى تأويله للألفاظ المستخدمة. فكلمة روح، إما أن تعنى جسماً لطيفاً دقيقاً وسائلاً أو تُستخدم بصورة مجازية أو بصورة غير معقولة تماماً، «لأنه لا يمكن الإحاطة بطبيعة الله؛ أعنى لا نستطيع أن نفهم شيئاً عما عساه أن يكون، لكننا نفهم فقط أنه موجود، ومن ثم لا نخبر الصفات التى ننسبها إليه بما عساه أن يكون، ولا تعبر عن رأينا فى طبيعته، ولكن تعبر عن رغبتنا فى تبجيله عن طريق هذه الأسماء كما نتصور معظم أسماء الشرف بيننا»^(٢٨).

لقد رأى بعض الشراح فى كل ذلك استمراراً وتشديداً للميل الذى كان ظاهراً من قبل عند مفكرى القرن الرابع عشر مثل «أوكام» وأولئك الذين ينتمون إلى الحركة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

هو فى رأى هوبز إلحاد؛ لأن القول بأن الله جوهر لا جسمى يعنى القول بعدم وجود إله، لأن الجوهر لابد أن يكون جسمياً.

٢- ومع ذلك، فإن القول بأن الفلسفة لا تهتم إلا بالأجسام وخصائصها، وأسبابها فقط، لا يعنى القول بأنها لا تهتم فحسب بالأجسام بالمعنى المادى، وإنما تقارن فى الامتداد بالعلوم الطبيعية. «لأن نوعين أساسيين من الأجسام، مختلفين تماماً عن بعضهما البعض، يقدمان أنفسهما للبحث عن منشئهما وخصائصهما»^(٣٣) يُطلق على الأول منهما اسم «الجسم الطبيعى»، لأن الطبيعة هى التى صنعتها، بينما يُطلق على الثانى اسم «الدولة»، وقد صنعتها إرادات الناس واتفاقهم»^(٣٤). وهكذا يمكن تقسيم الفلسفة إلى قسمين: فلسفة طبيعية، وفلسفة مدنية. وفضلاً عن ذلك يمكن تقسيم الفلسفة المدنية؛ لأننا لكى نفهم طبيعة الدولة ووظيفتها وخصائصها لابد أن نفهم فى البداية ميول الناس، وعواطفهم، وسلوكهم؛ ويُسمى ذلك القسم من الفلسفة الذى يعالج هذا الموضوع «بالأخلاق»، بينما يُسمى القسم الذى يعالج واجبات الإنسان المدنية «بالسياسة»، أو يأخذ لنفسه فقط اللفظ العام «الفلسفة المدنية». وينجم عن هذا التحليل لموضوع الفلسفة تقسيم العناوين التى يقبلها هوبز لعرضه المنظم (النسقى): عن الجسم الذى يعالج الأجسام الطبيعية، وعن الإنسان الذى يعالج ميول الإنسان، ووجداناته، وسلوكه، وعن المواطن الذى يعالج الدولة، وواجبات الإنسان المدنية.

ومع ذلك، فإن هذا التقسيم ليس تاماً؛ إذ يلاحظ هوبز فى الكتاب الذى يخصصه «عن المواطن» أنه كما أن البحر البريطانى والأطلنطى والهندي يكون المحيط، فكذلك تكون الهندسة، والفيزياء، والأخلاق الفلسفة. وإذا نظرنا إلى النتائج التى ينتجها جسم ما متحرك وحصرنا انتباهنا فى حركة الجسم فقط، فإننا نرى أن حركة النقطة تنتج خطاً، وتنتج حركة الخط سطحاً مستويًا، وهكذا. وينشأ من هذه الدراسة «جزء من الفلسفة نطلق عليه اسم الهندسة»^(٣٥)، ومن ثم نستطيع أن ننظر إلى النتائج التى يحدثها جسم متحرك فى جسم آخر عندما ننظر إلى الأجسام على أنها كليات. ونستطيع بالتالى أن نطور علماً للحركة. ونستطيع أيضاً أن ننظر إلى الآثار التى تحدثها حركة أجزاء جسم ما. إننا نستطيع أن نصل مثلاً إلى معرفة طبيعة الصفات الثانوية ومعرفة ظواهر مثل الضوء. وتشمل «هذه الاعتبارات ذلك الجزء من الفلسفة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

هوبز بأسره قد خُطط ليكون استنباطاً من تحليل للحركة والكم، حتى على الرغم من أنه لم ينجح في واقع الأمر، في تحقيق هدفه. فقد كان قريباً من «بيكون» في إصراره على الوظيفة العلمية للفلسفة أو للعلم وغايتها، لكن كان تصوره للمنهج الملائم الذي يُستخدم في الفلسفة مختلفاً أتم الاختلاف عن تصور بيكون. إذ أن بيكون أكد التجربة، في حين أن هوبز أخذ وجهة نظر غامضة من الذين يعتمدون على التجربة، وتمسك بفكرة منهج يذكرنا بوضوح بمنهج الفلاسفة العقليين الأوروبيين من أمثال ديكارت.

ويتضمن تفسير تصور هوبز للمنهج الفلسفي قدرًا كبيراً من الحقيقة. غير أني أعتقد أنها وجهة نظر مبسطة للغاية وتحتاج إلى تعديل، لسبب واحد هو أن هوبز لم يتصور على الإطلاق أنه يستطيع أن يبدأ بتحليل مجرد للحركة، ثم ينتقل بطريقة استنباطية خالصة دون أن يدخل أي مادة تجريبية مستمدة من التجربة. لقد كان بحق فيلسوفاً نسقياً. فقد اقتنع بأن هناك اتصالاً بين الفيزياء وعلم النفس والسياسة، وبأن وجهة نظر متماسكة ونسقية عن الفروع المختلفة للفلسفة ممكنة في ضوء مبادئ عامة. بيد أنه كان على وعي تام بأن المرء لا يستطيع أن يستنبط الإنسان والمجتمع من قوانين الحركة المجردة. فلو أننا استطعنا أن نستنبط أي شيء، فهو القوانين التي تحكم «حركات» الإنسان، وليس الإنسان نفسه. كما رأينا توأماً هناك معطيات تُعطى تجريبياً تكون الموضوع البعيد للفلسفة، حتى على الرغم من أن معرفة هذه المعطيات، منظوراً إليها على أنها مجرد وقائع معطاة ليست فلسفة. عندما يقول هوبز: إن الاستدلال يعني الحساب، وإن الحساب يعني الجمع والطرح، فإنه يمضي في تفسير أنه يستخدم هذه المصطلحات المذكورة أخيراً بمعنى «التركيب» و«القسم» أو «الحل». ويُسمى منهج الحل، بوجه عام، بالمنهج التحليلي، كما يُسمى المنهج التركيبي باسم المنهج التأليفي^(٤٠). وبالتالي، يضم المنهج الفلسفي أو الاستدلال تحليلاً وتركيباً. في التحليل يسير الذهن من الخاص إلى العام أو إلى مبادئ أولى. فلو بدأ شخص ما، مثلاً، بفكرة الذهب، فإنه يستطيع أن يصل عن طريق «التحليل» إلى فكرة الصلب، والمرئي، والثقل، وأفكار أخرى كثيرة أكثر كلية وعمومية من الذهب نفسه، وقد يقوم بتحليل هذه الأفكار مرة ثانية، حتى يصل إلى أشياء أكثر كلية وعمومية... واستنتج

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

القديمة، فإنه يجب علينا أن نسلم بالدين الذي ندين به للهندسة^(٤٣)؛ إذ إن صنوف التقدم في علم الفلك - مثلاً - لا تكون ممكنة إلا عن طريق الرياضيات، وبدون الرياضيات لا يكون هناك تقدم، كما أن الفوائد التي تنعم بها العلوم التطبيقية ترجع إلى الرياضيات. ولو أن فلاسفة الأخلاق أجهدوا أنفسهم لتبين طبيعة المواطن والأفعال البشرية كما يفهم الرياضيون بوضوح طبيعة الكم في الأشكال الهندسية^(٤٤)، فسوف يكون من الممكن استبعاد الحرب، وتحقيق سلام مستقر.

ويفترض ذلك أن هناك رابطة وثيقة بين الرياضيات والفيزياء. ويصر هوبز في حقيقة الأمر - على هذه الرابطة. «إن أولئك الذين يدرسون الفلسفة الطبيعية ستكون دراستهم عبثاً، ما لم يبدؤوا بالهندسة، وهؤلاء الكتاب أو المعارضون منهم، إذا جهلوا الهندسة، لا يفعلون شيئاً سوى أنهم يجعلون قُرَاعهم ومستمعهم يضيعون وقتهم سدى»^(٤٥). بيد أن ذلك لا يعني أن هوبز حاول أن يستنبط من التحليل المجرد للحركة والكم ومن الرياضيات الفلسفة الطبيعية كلها. فعندما وصل إلى الجزء الرابع من رسالته «عن الجسم»، التي أعطاها عنوان «الفيزياء أو ظاهرة الطبيعة»، لاحظ أن تعريف الفلسفة الذي قدمه في الفصل الأول يبين أن هناك منهجين: «منهج يبدأ من منشأ (أصل) الأشياء إلى نتائجها الممكنة، والمنهج الثاني يسير من نتائجها أو مظاهرها إلى منشأ ممكن لهذه النتائج ذاتها»^(٤٦). وقد اتبع المنهج الأول في الفصول السابقة، ولم يؤكد شيئاً سوى التعريفات ومضامينها^(٤٧). وهو الآن على وشك استخدام المنهج الثاني، «اكتشاف بعض الطرق والوسائل التي ربما تكون قد نشأت - ولا أقول نشأت - عن طريقها ظواهر الطبيعة وآثارها، التي نعرفها عن طريق الحس، وذلك عن طريق هذه الظواهر والآثار»^(٤٨). إنه لا يبدأ الآن من تعريفات، بل من ظواهر محسوسة أو من مظاهر، ويبحث عن أسبابها الممكنة.

وبالتالي، إذا أكد هوبز ارتباطاً بين استخدام هذين النوعين من المنهج وبين تعريفه للفلسفة، فإنه يمكن الزعم إلى حد معقول أن إدخاله لمادة تجريبية جديدة لا يوصف بصورة ملائمة بأنه «إخفاق في تحقيق هدفه. وفي هذه الحالة لا يكون لدينا ما يبرر اتهامه بعدم الاتساق؛ لأنه يقوم ببداية جديدة عندما يصل إلى علم النفس والسياسة. إنه لم يقل، بحق، إنه يجب أن ندرس في البداية الرياضيات والفيزياء، لكي

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الذين حاولوا أن يبدعوا مذهباً، لكن من المهم أيضاً أن نؤكد حقيقة وهي أنه لم يكن متحمساً ومتعصباً للاستنباط الخالص.

هـ - واضح إذن أن المعرفة الفلسفية، كما ينظر إليها هوبز، تهتم بما هو كلى وعام، ولا تهتم بما هو جزئى، إن الفلسفة تهدف إلى معرفة متماسكة ونسقية للعلاقات السببية على ضوء المبادئ الأولى أو الأسباب (العلل) الكلية. ويؤكد هوبز فى الوقت نفسه موقفاً اسمياً عندما يعالج الأسماء. فالفيلسوف الفرد، على حد قوله، يحتاج إلى علامات لكى تساعده على أن يتذكر أو يسترجع أفكاره، والأسماء هى هذه العلامات. وفضلاً عن ذلك، فإنه إذا نقل أفكاره إلى الآخرين، فلا بد أن تكون هذه العلامات قادرة على أن تخدم كدلالات، يمكنها أن تقوم بذلك عندما ترتبط معاً فيما نسميه «بالكلام». ويقدم بالتالى التعريف التالى: الاسم هو كلمة نختارها على هوانا لكى تكون علامة^(٥٠)، تشير فى ذهننا فكرة تشبه فكرة كانت لدينا من قبل، وعندما نلتفظ بها للآخرين، قد يكون بالنسبة لهم دلالة تدل على فكرة تكون لدى المتكلم أو لم تكن لديه من قبل فى ذهنه^(٥١). وهذا لا يعنى أن كل اسم لابد أن يكون اسماً لشيء ما. ولا تدل كلمة «لا شيء» على نوع خاص من شيء ما. غير أن الأسماء التى تدل على أشياء يكون بعضها ملائماً لشيء واحد (مثل هوميروس أو هذا الشخص)، بينما تكون الأخرى مشتركة بين أشياء كثيرة (مثل: إنسان أو شجرة). ويطلق على هذه الأسماء المشتركة تعبير «الأسماء الكلية». أعنى أن لفظ «كلى» يكون محمولاً للاسم، وليس للموضوع الذى نطلق عليه اسماً. لأن الاسم هو اسم أشياء فردية كثيرة نأخذها بصورة جمعية. ولا يكون كل واحد منها كلياً؛ ولا يكون هناك أى شيء كلى بجانب هذه الأشياء الفردية. وعلاوة على ذلك، فإن الاسم الكلى لا يرمز إلى أى مفهوم كلى. «فكلمة كلى ليست على الإطلاق اسم أى شيء يوجد فى الطبيعة، وليست اسم فكرة أو شيئاً خيالياً نكوّنه فى الذهن، بل هى باستمرار اسم كلمة ما أو اسم ما؛ حتى إننا عندما نقول إن مخلوقاً حياً، أو حجراً، أو روحاً، أو أى شيء آخر، هو كلى، فيجب ألا يفهم من ذلك أن أى شخص، أو حجر... إلخ، هو كلى أو يمكن أن يكون كلياً، بل يجب أن يفهم من ذلك أن كلمة: مخلوق حى، حجر... إلخ، هى أسماء كلية، أى أسماء مشتركة بين أشياء كثيرة، وأن التصورات التى تطابقها فى ذهننا تكون صوراً وخيالات لمخلوقات حية

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

والأذنين، والأجزاء الأخرى من جسم الإنسان، وينتج تنوعاً من المظاهر عن طريق هذا التأثير. وأصلها جميعاً هو ما نطلق عليه اسم الحس، لأنه لا وجود لتصوير في ذهن الإنسان لم يحدثه في البداية، بصورة كلية عن طريق أجزاء أعضاء الحس وتُستمد بقية التصورات من هذا الأصل^(٨). ولذلك على الرغم من أن الكلية لا تخص إلا كلمات فقط، تدل على «أفكار»، فإن هناك علاقة غير مباشرة بين الأقوال الكلية والواقع، حتى إذا كان علينا أن نأخذ «الواقع» هنا ليعنى مجال المظاهر أو الظواهر. وهناك، في واقع الأمر، فرق بين التجربة التي يوحد هوبز بينها وبين الذاكرة والعلم. «فالتجربة»، إذا شئنا أن نستشهد بعباراته الشهيرة «لا تقرر شيئاً بصورة كلية»^(٩). لكن العلم، الذي «يقرر بصورة كلية» يقوم على التجربة الحسية.

وبالتالى، إذا أكدنا الجانب التجريبي من فلسفة هوبز، فمن الممكن أن نبرهن على أن نزعتة الاسمية لم تصبها عدوى المذهب الشكوى، أى لم يصبها شك في الإشارة الفعلية إلى قضايا علمية. وقد يترتب على ذلك، في واقع الأمر، أن العلم يهتم بمجال الظواهر. لأن الظواهر تنتج صوراً، وتترجم الصور إلى كلمات، وارتباط هذه الكلمات في الكلام يجعل العلم ممكناً. لكن قد يقال إنه يمكن تطبيق نتائج العلم على مجال الظواهر. ولا يستطيع الفيلسوف أو العالم أن يقول شيئاً عن أى مجال آخر. وتكون النظريات التي نكوّنُها، والتفسيرات السببية، بناء على أساس اسمي، افتراضية وشرطية، كما يقول هوبز. لكن من الممكن أن نتحقق من صدق - أو على الأقل أن نختبر - نتائج علمية في التجربة، على الرغم من أن هوبز - الذي لم يقدر المنهج التجريبي في العلم بصورة كبيرة - لم يتحدث، في حقيقة الأمر، عن التحقق من الصدق.

كان هوبز، بالطبع، بعيداً للغاية عن أن يكون فيلسوفاً تجريبياً فحسب، على الرغم من وجود جانب تجريبي مهم في فكره بالتأكيد. فما يؤكده عندما يتحدث عن الفلسفة والعلم هو استنباط نتائج من مبادئ. وكما رأينا، فقد أدرك بوضوح استخدام المنهج التحليلي أو الاستقرائي في الوصول إلى معرفة المبادئ، غير أن ما أكدّه بوصفه علامة للإجراء العلمي هو استنباط نتائج من قضايا ثابتة. ومن المهم أن نلاحظ عبارته الواضحة التي تقول إن المبادئ التي يبدأ منها الاستنباط هي التعريفات، وإن هذه التعريفات لا تكون سوى تفسير لمعاني الكلمات. إن التعريفات هي «تقرير الدلالات

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

أنه من الخطأ أن نقول إن «التعريف هو ماهية أى شىء»^(٦٧)، فإنه يرفض صورة من صور التعبير استخدمها أرسطو. والملاحظة التى تنجم عن ذلك مباشرة، هى أن «التعريف ليس ماهية أى شىء»، وإنما هو كلام يدل على ما نتصوره عن الماهية بسبب ذلك، لا يكون بذاته «توكيداً شكيكاً». لأنه يمكن أن يؤخذ ليعنى أن لدينا فكرة ما أو تصوراً ما عن الماهية، فكرة يدل عليها الاسم الذى نفسره فى التعريف. ويمكن علاوة على ذلك، أن نشير إلى أنه عندما يقول هوبز إن كلمة ما هى «مجرد اسم» فإنه لا يعنى بالضرورة أن الفكرة التى تدل عليها الكلمة لا ترتبط بالواقع على الإطلاق. فعندما يقبل، مثلاً، لأغراضه الخاصة المصطلح الأرسطى «المادة الأولى»، فإنه يتسائل عما عساه أن تكون هذه المادة الأولى أو *materia prima*، ويجب أنها «مجرد اسم»^(٦٨). غير أنه يضيف مباشرة القول «مع أنه اسم ليس بدون فائدة؛ لأنه يدل على تصور جسم دون النظر إلى أى صورة أو عرض آخر سوى القدر أو الامتداد، وملاءمته لأن يستقبل صورة أو عرضاً آخر»^(٦٩). إن «المادة الأولى، والجسم بوجه عام هما لفظان مترادفان عند هوبز. وليس هناك جسم بوجه عام». ولهذا تكون المادة الأولى عدماً»^(٧٠). أعنى أنه لا وجود لشيء يناظر الاسم. وبهذا المعنى يكون اللفظ «مجرد اسم»، لكنه يدل على طريقة تصور أجسام، وأجسام موجودة، ولذلك حتى على الرغم من أن الاسم ليس اسماً لشيء ما، فإن له علاقة بالواقع.

ومع ذلك، حتى إذا كان القول بأن هوبز فيلسوف شك، هو قول يحتوى على مبالغة، فإنه يظل صحيحاً أنه إذا انتقلنا من العلة إلى المعلول أو من المعلول إلى العلة، لا نبلغ معرفة إلا بمعلولات ممكنة أو بعلى ممكنة. فالمعرفة اليقينية الوحيدة التى نستطيع أن نكتسبها هى معرفة مضامين القضايا. فإذا تضمنت «أ» «ب»، وإذا كانت «أ» صادقة كانت «ب» صادقة.

ويبدو لى أن هناك ضروباً من الشطط المختلفة من التفكير فى تفسير هوبز للفلسفة أو العلم أخفق فى تمييزها بوضوح. فالفكرة الموجودة فيما نسميه «العلم الطبيعى» التى تذهب إلى أن النظريات التفسيرية افتراضية فى طابعها، والقول بأننا لا نستطيع، فى أحسن الأحوال، أن نبلغ سوى درجة عالية جداً من الاحتمال، نقول ربما يمثل ذلك أحد ضروب شطط التفكير الموجودة عند هوبز. والفكرة التى تذهب إلى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الوصف الأكثر ملاءمة لأن نعطينه لهويز. وليس هناك خلاف - دون شك - في أن النزعة الاسمية تؤدي أو ستؤدي، إلى النزعة الشككية. غير أن هويز ربط - لحسن الحظ - نزعته الاسمية بوجهات من النظر نادرًا ما تتطابق معها. ولا شك أن قدرًا كبيرًا من الغموض ينشأ من الإخفاق في التمييز بصورة كافية بين الفلسفة، والرياضيات، والعلم التجريبي. لكن يصعب أن نلوم هويز على هذا، إذ لم يتم التمييز بوضوح، بين الفلسفة والعلم في القرن السابع عشر، ولا غرابة أن هويز قد فشل في التمييز بينهما بصورة كافية. لكنه، بحصر الفلسفة في دراسة الأجسام، جعل، بالتأكيد، الأمر أكثر صعوبة لأن يفعل ذلك أكثر مما كان على أية حال.

٦ - تهتم الفلسفة - كما رأينا - باكتشاف العلل. فماذا يعنى هويز «بالعلة»؟ العلة هي مجموع أو جملة كل هذه الأعراض، في كل من الأعراض الفاعلة والمتقبلة، من حيث إنها توافق إنتاج المعلول المطروح، ولأن كليهما يوجدان معًا، فإنه لا يمكن أن نعنى سوى أن المعلول (المسبب) يوجد معهما؛ أو ربما يوجد إذا غاب أحدهما^(٧١). ولكن لكي نفهم هذا التعريف، لابد أن نفهم أولاً ما يعنيه هويز «بالعرض». إنه يُعرّف العرض بأنه «طريقة تصورنا للجسم»^(٧٢). وهذا التعريف، كما يؤكد، هو نفس التعريف الذي يقول إن «العرض هو القدرة التي توجد في جسم لتنتج فينا تصورًا معينًا عنه»^(٧٣). وبالتالي، إذا اخترنا أن نسمى الأعراض «المظاهر» أو «الظواهر»، فإننا نستطيع أن نقول إن العلة لمعلول ما هي عند هويز إلا مجموع الظواهر، في كل من الظواهر الفاعلة والمتقبلة، التي تتزامن في الطريقة التالية لإنتاج المعلول، فإذا كانت كل مجموعة الظواهر حاضرة، فإننا لن نستطيع تصور غياب النتيجة. أما إذا كانت إحدى مجموعة الظواهر غائبة، فلن نستطيع تصور إنتاج المعلول أو النتيجة. ومن ثم، فإن علة أى شيء هي مجموع الشروط المطلوبة لوجود ذلك الشيء، أعنى الشروط المطلوبة في كل من الشيء الفاعل والشيء المتقبل. فإذا ولد الجسم (أ) حركة في الجسم (ب)، فإن الجسم (أ) يكون فاعلاً، ويكون الجسم (ب) متقبلاً. وهكذا إذا سخّنت النار يدي، فإن النار تكون هي الفاعل، وتكون يدي هي التي تستقبل الفعل. إن العرض الذي يتولد في غير الفاعل هو معلول فعل النار. ولا بد أن يتغير تعريف العلة - أى سبب النتيجة - (العلة كلها) تغييرًا طفيفًا «فمجموعة كل الأعراض الفاعلة، وتلك التي تستقبل الفعل،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وفي استطاعتنا أن نلاحظ في التفسير السابق لتحصيل هوبز للعلية كيف يستخدم المصطلحات الأسكولائية، ويؤولها أو يعزو إليها معاني وفقاً لفلسفته الخاصة. ونحن نبقى على العلة الفاعلة فقط. وبالتالي، إذا كانت العلة بأسرها حاضرة أنتجت المعلول (أو النتيجة). والواقع أن هذه العبارة صادقة بالضرورة، بمجرد أن نقدم تعريف هوبز للعلّة، لأن المعلول إذا لم ينتج، فلن تكون العلة علّة تامة. وفضلاً عن ذلك، كلما كانت العلة تامة في لحظة ما، أنتجت المعلول في نفس اللحظة. لأنه إذا لم ينتج، فسيكون هناك شيء ناقص ضروري لإنتاجه، ولا تكون العلة، بالتالي، تامة، كما هو مفترض^(٧٦).

ويستمد هوبز من تلك الاعتبارات نتيجة مهمة. لقد لاحظنا أنه عندما تكون العلة حاضرة، فإن المعلول ينتج باستمرار وعلى الفور. وبالتالي، فإنها لا يمكن إلا أن تنتج، عندما توجد العلة. ومن ثم ينتج المعلول من العلة بالضرورة. وهكذا فإن العلة هي علّة ضرورية، والنتيجة هي بالتالي أن «لكل المعلولات التي نتجت أو ستنتج ضرورتها في أشياء سابقة»^(٧٧). ويعلن ذلك في الحال بطلان كل حرية في الإنسان، إذا أخذت الحرية، على الأقل، لتعني غياب الضرورة. والواقع أننا إذا وصفنا فاعلاً بأنه حر بقولنا ببساطة إنه لا يعوقه في نشاطه شيء ما، فإن طريقة الحديث هذه يكون لها معنى، لكن إذا قصد أي شخص بالوصف شيئاً غير «التحرر من الإعاقة عن طريق المعارضة، فإنني لا أقول إنه مخطئ، ولكني أقول إن كلماته دون معنى، أعني أنها خُلف محال»^(٧٨). إن العلة عندما تكون موجودة، فإنه ينتج عنها المعلول بالضرورة. وإذا لم ينتج المعلول، فإن العلة (أي العلة التامة) لا تكون حاضرة. وهذا هو كل ما يقال عنها.

الفلسفة تهتم بالتالي بالعلية الضرورية، ولا شيء سواها. ويكمن النشاط العلّي في إنتاج الحركة عن طريق فاعل في شيء متقبل للفعل، ويكون كل من الفاعل والمتقبل للفعل جسمين. إن أفكاراً مثل: الوجود من العدم، والنشاط العلّي اللامادي، والعلل الحرة، ليس لها مكان في الفلسفة. فنحن نهتم، ببساطة، بفعل الأجسام المتحركة في أجسام متحركة مجاورة، ويقوانين علم الحركة التي تعمل بصورة ضرورية وآلية. وينطبق ذلك على النشاط البشري كما ينطبق على نشاط الأجسام اللاحية، وبهذا المعنى تعمل القوانين بطرق مختلفة. لكن للحمية الآلية، عند هوبز، الكلمة الأخيرة، في

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

نتخيله دون أى حدود معينة، أعني بوصفه ممتداً إلى ما لا نهاية. (وعلى نحو مماثل، عندما نقول إن العدد لامتناه، فإننا لا نعنى سوى أنه لا يمكن التعبير عن عدد، أو أن العدد اسم غير محدود). وبالنسبة لقابلية انقسام الزمان والمكان إلى ما لا نهاية، فإن ذلك يؤخذ بمعنى هو «أن ما ينقسم، إنما ينقسم إلى أجزاء قد تنقسم مرة أخرى» أو من حيث إن «أصغر شيء يمكن أن ينقسم لا وجود له، أو كما يرى علماء الهندسة، الكم ليس على هذا النحو من الصفر، لكن الكمية الأصغر فقط هي الموجودة»^(٨٧).

٨ - الأساس الموضوعي للمكان هو، كما رأينا، الجسم الموجود، الذى يمكن أن ننظر إليه مجرداً من كل الأعراض. ويُسمى «الجسم» بسبب امتداده، ويُسمى «موجوداً»؛ لأنه لا يعتمد على فكرنا. «ولأنه لا يعتمد على فكرنا، فإننا نقول إنه شيء يقوم بذاته، أى بوصفه أيضاً موجوداً لأنه يوجد بدوتنا»^(٨٨). ويُسمى أيضاً «الموضوع» «لأنه يوجد فى مكان متخيل ويخضع له، بمعنى أنه قد يمكن فهمه عن طريق العقل، كما يمكن إدراكه عن طريق الحواس. وبالتالي، فإن تعريف الجسم قد يكون هكذا: الجسم هو ما يكون له استقلال عن فكرنا. ويتأق أو يلازم جزءاً ما من المكان»^(٨٩). ومن ثم تدخل موضوعية الفكر البشرى أو استقلاله فى تعريف الجسم. غير أن الجسم يُعرف فى الوقت نفسه بالنسبة إلى فكرنا، لا بوصفه معتمداً عليه، ويمكن معرفته لأنه يخضع لمكان متخيل. وإذا أخذ المرء هذه الفكرة بذاتها، فسيجد أنها تحمل صبغة كانطية بصورة ملحوظة.

ويمتلك الجسم أعراضاً. وقد قدمنا من قبل تعريف العرض وهو «طريقة تصورنا للجسم». بيد أن تفسيراً إضافياً يمكن أن يكون ملائماً هنا. فإذا تساءلنا «ما الصلب؟»، فإننا نسأل عن تعريف اسم عيني. «والإجابة ستكون أن الصلب هو ما لا يشغل جزء منه حيزاً، إلا عندما يشغل الكل حيزاً»^(٩٠). لكن إذا تساءلنا «ما الصلبة؟»، فإننا نسأل سؤالاً عن اسم مجرد؛ أعني لماذا يبدو شيء ما صلباً. وبالتالي فإن «السبب لابد أن يبين لماذا لا يشغل جزء ما حيزاً، فى حين أن الكل يشغل حيزاً. وعندما نسأل هذا السؤال، فإن ذلك يعنى أننا نسأل ما الذى يكون فى جسم ما ويُحدث فينا تصوراً معيناً للجسم؟ ويرى هوبز، كما ذكرنا سابقاً، أن القول بأن عَرَضاً ما هو الطريقة التى نتصور بها جسماً هو القول نفسه إن عَرَضاً ما هو القدرة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

فى أعضاء الحس، وتنشأ بالتالى الصور الذهنية التى نطلق عليها: اللون، والصوت، والرائحة، والطعم، والصلابة، والنعومة، والضوء... إلخ، إن جسماً مجاوراً ومتحركاً يؤثر فى الجزء البعيد من عضو الإحساس، وينتقل الضغط أو الحركة إلى الجزء الداخلى من العضو. ويحدث فى نفس الوقت، بسبب الحركة الداخلية الطبيعية للعضو، رد فعل ضد هذا الضغط، «محاولة من الخارج» تثيرها «محاولة من الداخل». وتنشأ الصورة الذهنية أو «الفكرة» من رد الفعل النهائى «للمحاولة الداخلية». ويمكننا، بالتالى، أن نعرف «الحس» بأنه «صورة ذهنية كوئنها رد الفعل والمحاولة الخارجية فى عضو الحس، وتسببه محاولة داخلية من الموضوع، ويظل لبعض الوقت كبيراً أو قليلاً»^(٩٧). فاللون، مثلاً، هو طريقتنا لإدراك موضوع خارجى، أو هو بصورة موضوعية، ما يوجد فى جسم يسبب «تصورنا» للجسم. وهذه «القدرة» الموجودة فى الجسم ليست هى نفسها اللون. أما فى حالة الامتداد، فإن الامتداد هو نفسه هو الذى يسبب تصورنا له.

وبالتالى، فإن عالم اللون، والصوت، والطعم، والرائحة، والصفات الخاصة باللمس والضوء، هو عالم الظاهر. والفلسفة هى إلى حد كبير محاولة اكتشاف علل هذه المظاهر (الظواهر)، أى علل «صورنا الذهنية». ولا يوجد عند هوبز - وراء المظاهر على الأقل بقدر ما تهتم الفلسفة - سوى أجسام ممتدة وحركة.

٩ - وتعنى الحركة بالنسبة لهوبز الحركة الموضوعية. «الحركة هى الانعدام المستمر لموضع (حيز) place واكتساب موضع (حيز) آخر»^(٩٨)، ويكون شىء ما ساكناً عندما يكون فى موضع (حيز) واحد لأى مدة من الزمن. وينجم، بالتالى، من هذه التعريفات أن كل شىء يتحرك يُحرك. لأنه إذا لم يتحرك، يكون فى نفس الموضع (الحيز) الذى كان فيه من قبل. وينتج بالتالى من تعريف السكون، أن الشىء يكون فى حالة سكون. وبصورة مماثلة، ما يُحرك، سيُحرك فى وقت ما. لأن ما يتحرك هو باستمرار الموضع (الحيز) المتغير. وأخيراً ما يُحرك لا يكون فى موضع (حيز) واحد فى أى وقت، مهما يكن قصيراً. وإذا كان كذلك، فإنه سيكون بالتعريف ساكناً.

إن أى شىء ساكن سيظل باستمرار ساكناً، إذا لم يسمح له جسم آخر «عن طريق بذل جهد لكى يدخل حيزه (موضعه) عن طريق الحركة بأن يبقى ساكناً»^(٩٩).

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وهما من الناحية الموضوعية، نفس الشيء مثل الحب والكراهية على التوالي، لكن عندما نتحدث عن الرغبة والنفور، فإننا نتصور الموضوعات غائبة، بينما نتصور الموضوعات حاضرة عند حديثنا عن الحب والكراهية.

١١ - إن بعضاً من صنوف الاشتهااء فطرية أو تولد مع الإنسان، مثل شهوة الطعام. بينما ينشأ بعضها الآخر من التجربة، لكن، على أية حال، «أياً كان موضوع أى اشتهااء أو رغبة إنسان، فإنه يُسمى من جانبه «بالخير»، أما موضوع كراهيته ونفوره فيُسمى «بالشر»، وأياً كان موضوع ازدرائه، فإنه يكون رذيلاً ولا يعتد به»^(١٠٣).

وبالتالى، فإن الخير والشر فكرتان نسبيتان. فليس هناك خير مطلق ولا شر مطلق؛ وليس هناك معيار موضوعى مشترك، يؤخذ من الموضوعات نفسها، للتمييز بين الخير والشر. «فالكلمتان تُستخدمان بالنسبة للشخص الذى يستخدمهما»^(١٠٣). إن قاعدة تمييز الخير والشر تعتمد على الفرد، أى على «حركاته الإرادية»، إذا نظرنا إلى الإنسان على أنه جزء من الدولة. فالشخص فى الدولة، هو الذى يمثلها، أى أنه صاحب السيادة، الذى يحدد ما هو خير وما هو شر.

١٢ - إن الانفعالات المختلفة صور مختلفة من الاشتهااء والنفور، باستثناء اللذة الخاصة والألم، اللذين يكونان «ثمرة أكيدة للخير والشر»^(١٠٤). وبالتالى لأن الاشتهااء والنفور حركتان، فكذا تكون الانفعالات المختلفة. إن الموضوعات الخارجية تؤثر فى أعضاء الحس وتنشأ «حركة وتهيج المخ التى نسميها بالتصور»^(١٠٥). وتستمر حركة المخ إلى القلب «وتُسمى هناك بالانفعالات»^(١٠٦).

ويذكر هوبز عدداً من الانفعالات البسيطة؛ أعنى: الاشتهااء، والرغبة، والحب، والنفور، والكراهية، والفرح، والحزن.^(١٠٧) وتأخذ هذه الانفعالات صوراً مختلفة، أو تُعطى، على الأقل، أسماء مختلفة وفقاً لاعتبارات مختلفة. وبالتالى إذا نظرنا إلى الاعتقاد الذى يكون لدى الناس عن بلوغ ما يرغبونه، فإننا نستطيع أن نميز الأمل واليأس. فالأمل هو اشتهااء واعتقاد فى بلوغ الموضوع الذى يرغبه الناس، بينما اليأس هو اشتهااء دون اعتقاد. ومن جهة ثانية، يمكننا أن ننظر إلى المحبوب أو المكروه. ويمكننا، من ثم، أن نميز مثلاً، بين اشتهااء ما يملكه الغير، الذى يكون الرغبة فى الثروة، وبين الطموح، الذى يكون الرغبة فى المركز أو الصدارة. ومن جهة ثالثة، قد

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

فلا بد أن نقر - بالتأكيد - بالحرية لكليهما، وأن كليهما قد يمتلكها بصورة متساوية، متى ما سُمح بها^(١١٣).

١٤ - وعندما يعالج هوبز «الفضائل العقلية»، فإنه يميز بين قدرة طبيعية وقدرة ذهنية مكتسبة أو «الفطنة». وهناك بعض الناس متسرعون بطبيعتهم، وهناك آخرون مترثون، وسبب هذه الاختلافات هو «اختلاف انفعالات الناس»^(١١٤). فاولئك الذين تكون غايتهم اللذة الحسية، مثلاً، يكونون أقل تمتعاً «بالخيالات» التي لا تؤدي إلى هذه الغاية، ويلتفتون بصورة أقل من آخرين إلى وسائل تحصيل المعرفة. إنهم يعانون من كآبة الذهن «التي تنشأ من شهوة المتعة الحسية أو الجسمية. وقد يفترض جدلاً أن لهذا الانفعال بدايته من خشونة وصعوبة حركة الروح حول القلب»^(١١٥). وبالتالي، فإن الاختلافات في القدرة الذهنية الطبيعية سببها اختلافات في الحركة. وبالنسبة للاختلافات في «الفطنة» المكتسبة، التي هي الذهن، فهناك عوامل عليّة أخرى يجب أن توضع في الاعتبار مثل التربية.

الانفعالات التي يسبب معظمها اختلاف الفطنة هي بصفة خاصة الرغبة الكبيرة أو القليلة في القوة، والثروة، والمعرفة، والمجد. ويمكن أن ترتد كل هذه الانفعالات إلى الانفعال الأول، أعني الرغبة في القوة. لأن الثروة، والمعرفة، والمجد، ليست سوى أنواع متعددة من القوة^(١١٦). وبالتالي، فإن الرغبة في القوة هي العامل الأساسي في دفع الإنسان إلى تطوير قدراته الذهنية.

١٥ - إننا نلتقي بكثرة من الموجودات البشرية الفردية، والتي ينساق كل منها بواسطة انفعالاته، التي تكون هي ذاتها صورياً للحركة. وضروب الاشتهااء وضروب النفور عند الفرد هي التي تحدد له ما هو خير وما هو شر. وسوف ننظر، في الفصل القادم، في نتائج هذه المسائل والانتقال من النزعة الفردية الذرية إلى بناء ذلك الجسم الصناعي، أي الدولة.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- Concerning Body, 1,1,10, E. W., 1, P.12. (١٧)
- Leviathan, 1, 3, E.W., III p. 17. (١٨)
- Ibid, 1, 4, E.W., III p. 27. (١٩)
- Ibid, 1, 5, E.W., III p. 92. (٢٠)
- (٢١) المقصود بمصطلح الأقنوم Hypostasis شخصية المسيح التي تجمع بين الطبيعتين الإلهية والبشرية. (المراجع)
- (٢٢) المقصود تحول خبز القربان المقدس وخمره إلى جسد المسيح وبمه وهو ما يحدث في الاعتقاد المسيحي ، أثناء عملية تناول من القربان. (المراجع)
- Ibid, p. 32 - 3. (٢٣)
- Ibid, p. 32 - 3. (٢٤)
- Ibid, p. 93. (٢٥)
- Leviathan. 1, 3, E. W., III p. 17. (٢٦)
- Ibid, 1, 12, E.W., III p. 97. (٢٧)
- Leviathan, 1, 12, E.W., III p. 97. (٢٨)
- E.W., IV P. 306. (٢٩)
- Ibid, p. 309. (٣٠)
- Ibid. (٣١)
- Ibid, p. 313. (٣٢)
- Concerning Body, 1,1,9, E. W., 1, P.11. (٣٣)
- Ibid. (٣٤)
- Concerning Body, 1,6,6, E. W., 1, P.71. (٣٥)
- Ibid, p. 72. (٣٦)
- CF .Leviathan, 1, 9, E.W., III p. 72 - 73. (٣٧)
- (٣٨) تتضمن دراسة النتائج المستمدة من صفات الناس بصفة خاصة - إلى جانب الأخلاق - دراسة وظائف الكلام. فدراسة فن الإقناع - مثلاً - تعطينا البلاغة، بينما تعطينا دراسة فن الاستدلال المنطق . (المؤلف)
- Concerning Body, 1,1,2, E. W., 1, P. 3. (٣٩)
- Concerning Body, 1,6,1, E. W., 1, P.66. (٤٠)
- Ibid. (٤١)
- Concerning Body, 1,6,12, E. W., 1, P.81. (٤٢)
- Concerning Government and Society, dedicatory epistle, E.W. 11, P. iv. (٤٣)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- Ibid. (٦٩)
- Ibid. (٧٠)
- Concerning Body, 1,6, 10, E.W, I, P. 77. (٧١)
- Concerning Body, 2,8, 2, E.W, I, P. 104. (٧٢)
- Ibid p. 103. (٧٣)
- Concerning Body, 2,9, 3: 1, pp. 121 - 2. (٧٤)
- Concerning Body, 2,10, 7, E.W, I, P. 131 - 2. (٧٥)
- Concerning Body, 2,9, 5, E.W, I, P. 123. (٧٦)
- Concerning Body, 2,9, 5, E.W, I, P. 123. (٧٧)
- Leviathan, 1,5, E.W, III, P. 33. (٧٨)
- Concerning Body, 2,7, 2, E.W, I, P. 94. (٧٩)
- Ibid, p. 95. (٨٠)
- Concerning Body, 2,7, 3, E.W, I, P. 94. (٨١)
- Concerning Body, 2,7, 13, E.W, I, P. 100. (٨٢)
- Concerning Body, 2,8, 1, E.W, I, P. 102. (٨٣)
- Ibid . (٨٤)
- Concerning Body, 2,8, 2, E.W, I, P. 103. (٨٥)
- Concerning Body, 2,8, 3, E.W, I, P. 104. (٨٦)
- Concerning Body, 2,8, 5, E.W, I, P. 105. (٨٧)
- Ibid . (٨٨)
- Concerning Body, 4,25, 10, E.W, I, P. 405. (٨٩)
- Concerning Body, 4,25, 2, E.W, I, PP. 391 - 92. (٩٠)
- Concerning Body, 4, 25, 10, E.W, I, P. 405. (٩١)
- Concerning Body, 4, 25, 2, E.W, I, P. 391. (٩٢)
- Concerning Body, 2, 8, 10, E.W, I, P. 109. (٩٣)
- Concerning Body, 2, 8, 18, E.W, I, P. 115. (٩٤)
- Ibid . (٩٥)
- Concerning Body, 2, 9, 9, E.W, I, P. 126. (٩٦)
- Concerning Body, 4, 25, 12, E.W, I, P. 407. (٩٧)
- Leviathan, 1, 6, E.W, III, P. 31. (٩٨)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الفصل الثانى

هوبز (٢)

حالة الحرب الطبيعية - قوانين الطبيعة - نشأة الدولة ونظرية العقد - حقوق صاحب السيادة - حرية الرعايا - تأملات فى نظرية هوبز السياسية

١ - الناس متساوون بالطبيعة فى القدرات الجسدية والذهنية: لا بمعنى أنهم يمتلكون جميعاً نفس درجة القوة الجسدية، ودرجة الفهم السريع، ولكن بوجه عام، بمعنى أن ضرورياً من النقص عند فرد فى جانب يمكن أن تعوضه صفات أخرى. فالشخص الضعيف جسدياً يستطيع أن يسيطر على الشخص القوى جسدياً عن طريق الاحتيال والمكيدة، وتساعد التجربة كل الناس على اكتساب الحيطة والحذر فى الأشياء التى يطبقونها على أنفسهم. وتنتج هذه المساواة الطبيعية فى الناس أملاً متساوياً فى بلوغ غاياتهم وأهدافهم. فكل فرد يبحث عن المحافظة على ذاته، ويتعقب هذا الهدف، والبعض يبحث عن المتعة أو اللذة. ولا أحد يستكين لعدم بذل جهد فى تحقيق الغاية التى يكون مدفوعاً إليها بصورة طبيعية، على أساس أنه ليس كفوفاً لغايات أخرى.

وتؤدى هذه الحقيقة التى تذهب إلى أن كل فرد يبحث عن بقائه الخاص ولذته إلى المنافسة وفقدان الثقة فى الآخرين. وفضلاً عن ذلك يرغب كل إنسان فى أن يقدره الآخرون كما يقدر نفسه، ويكون سريعاً فى الاستياء من كل إهانة وكل علامات الازدراء. «حتى إننا نجد فى طبيعة الإنسان ثلاثة أسباب رئيسية للصراع: أولها المنافسة، وثانيها فقدان الثقة، وثالثها المجد والشهرة»^(١).

ويستنتج هوبز من ذلك نتيجة هى أن الناس يظلون فى حالة حرب مع بعضهم البعض إلى أن يخضعوا جميعاً لسلطة مشتركة. «لأن الحرب لا تكمن فى المعركة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ويقترض هذا الاقتباس أنه لا وجود في حالة الحرب الطبيعية لتمييزات أخلاقية موضوعية، وذلك هو رأى هوبز بصورة دقيقة، في هذه الحالة «لا مكان لفكرة الصواب والخطأ، والعدل، والظلم» فحيثما لا توجد سلطة عامة، لا يوجد قانون، وحيثما لا يوجد قانون، لا يوجد ظلم». بل تكون القوة والاحتياط هما الفضيلتان الأساسيتان في حالة الحرب^(٥). وفضلاً عن ذلك، «لا توجد ملكية، لا يوجد شيء يمكن أن نميزه بقولنا إنه ملكي أو ملكك، ولكن ما نستطيع أن نقوله هو أن كل شيء ملك لكل إنسان يستطيع أن يحصل عليه، ويستطيع أن يحافظ عليه»^(٦).

هل يعنى هوبز أن حالة الحرب حقيقة تاريخية، بمعنى أنها تسبق بصفة عامة تنظيم المجتمع؟ أو أنه يعنى أنها تسبق تنظيم المجتمع من الناحية المنطقية فقط، بمعنى أننا إذا صرفنا الانتباه عما يدين به الإنسان للدولة، فإننا نصل عن طريق التجريد إلى هذا الوضع، أعنى إلى النزعة الفردية الذرية إن صح التعبير، التى تكون مغروسة فى الانفعالات البشرية، ويمكن بلوغها، إذا لم تكن بالنسبة لعوامل أخرى تدفع الناس بصورة طبيعية من البداية إلى تنظيم المجتمعات والخضوع لسلطة مشتركة؟ إنه يعنى - بالطبع - الرأى الأخير على الأقل. وليست حالة الحرب، بناء على هذا الرأى - كلية وشاملة «فى جميع أنحاء العالم»، ولكن فكرة هذه الحالة تبين الوضع الذى يمكن بلوغه، ما لم يتم تأسيس الدول. وهناك عدد وفير من الأدلة التجريبية على ذلك، ناهيك عن الاستنباط القبلى من تحليل الانفعالات. ولنا أن ننظر فقط إلى سلوك الملوك وأصحاب السيادة، فهم يحرصون ممالكهم ضد الغزاة المتوقعين، وحتى فى وقت السلم، يتجسسون على ممالك جيرانهم. إنهم فى «تأهب مستمر للحرب». ولنا أن ننظر أيضاً إلى ما يحدث عندما تنهار الحكومة السلمية وتحدث الحرب الأهلية. وبيّن هذا بوضوح «كيف يكون حال الحياة، عندما لا توجد سلطة عامة يخشاها الناس»^(٧). إن حالة الحرب الطبيعية هى عند هوبز، فى نفس الوقت حقيقة تاريخية فى أماكن كثيرة، كما يمكن ملاحظة ذلك فى أمريكا، حيث يعيش الهمج حتى اليوم فى تلك الحالة الوحشية، إذا استثنينا الحكم الداخلى لأسر صغيرة، التى يعتمد انسجامها على «الشهوة الطبيعية».

٢ - من الواضح أن اهتمام الإنسان بمصالحه ينشأ من حالة الحرب الطبيعية هذه ، وتزوده الطبيعة ذاتها بالإمكانات التى تجعله يفعل ذلك. لأن الناس يمتلكون

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

تشبه قوانين الطبيعة الفيزيائية، وتشبه الطريقة التي يسلك بها الأنانيون المستنفزيون، الطريقة التي يحملهم فيها تكوينهم السيكلولوجى على السلوك . ويتحدث هوبز - بالتأكيد - بصورة مستمرة كما لو كانت هذه القواعد مبادئ لاهوتية، وكما لو كانت ما يطلق عليه كانط اسم الأوامر المشروطة - أعنى الأوامر المشروطة الجازمة - لأن كل فرد يبحث، بالضرورة، عن بقائه الخاص وأمنه. إن هوبز لم يستطع - بحق - أن يتجنب الحديث بتلك الطريقة. غير أنه يعالج تفاعل الحركات والقوى التي تؤدي إلى خلق ذلك الجسم الصناعى أى الدولة، وميل تفكيره هو أن يجعل فعل «قوانين الطبيعة» أشبه بعمل السببية الفاعلة، والدولة نفسها هى نتاج تفاعل قوى، والعقل البشرى، كما يظهر فى السلوك الذى تعبر عنه هذه القوانين، هو أحد تلك القوانين المحددة أو يمكن القول إذا أردنا أن ننظر إلى المسألة من وجهة نظر الاستنباط الفلسفى للمجتمع والحكومة، أن قوانين الطبيعة تمثل قواعد أو مسلمات تجعل هذا الاستنباط ممكناً. إنها تجيب عن السؤال: ما هى الشروط التى وفقاً لها يصبح الانتقال من حالة الحرب الطبيعية إلى حالة الناس الذين يعيشون فى مجتمعات منظمة معقولة؟ وهذه الشروط مفروسة فى ديناميكا الطبيعة البشرية نفسها. إنها ليست نسفاً من قوانين أعطاه الله (اللهم بمعنى أن الله خلق الإنسان وكل ما يوجد فيه)، وهى لا تقرر قيماً مطلقة، لأنه لا وجود - فى رأى هوبز - لقيم مطلقة.

وقد قدم هوبز قوانين الطبيعة بصورة مختلفة فى مواضع مختلفة. وسأحصر نفسى هنا فى كتابه «الليويثان»، حيث يخبرنا بأن قانون الطبيعة الأساسى هو القاعدة العامة للعقل التى تقول «ينبغى على كل إنسان أن يسعى جاهداً لتحقيق السلام بمقدار ما يأمل فى بلوغه، وعندما لا يستطيع بلوغه، فمن حقه أن يبحث، ويستخدم، كل مساعدات ومزايا الحرب»^(١٢). ويتضمن الجزء الأول الذى يؤكد قانون الطبيعة الأساسى - أعنى البحث عن السلام واتباعه - بينما يتضمن الجزء الثانى مجموع الحق الطبيعى، أى الدفاع عن أنفسنا بكل الوسائل التى تكون فى استطاعتنا.

أما قانون الطبيعة الثانى فيقول: «ينبغى أن تكون لدى الإنسان الرغبة فى السلام، عندما تكون لدى الآخرين نفس الرغبة، والرغبة فى الدفاع عن نفسه متى اعتقد أن ذلك ضرورى، وينبغى عليه أن يتنازل عن حقه فى كل الأشياء؛ وأن يقتنع بذلك

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

صحيحة، ولا وجود بالتالى للعدل والظلم، حتى تؤسس الدولة، أى حتى تؤسس قوة تجبر الناس على أن يوفوا بعهودهم.

ويذكر هوبز فى كتابه «الليويثان» تسعة عشر قانوناً من قوانين الطبيعة بوجه عام؛ غير أنى قد حذفت بقيتها. لكن من المفيد ملاحظة أنه بعد أن أكمل قائمته، أكد أن هذه القوانين - وأى قوانين أخرى قد تكون - مرتبطة فى الوعى. وإذا أخذنا هذا التقرير بمعنى أخلاقى، فإتينا لا نستطيع أن نستنتج سوى أن هوبز قبل بصورة مفاجئة وجهة نظر مختلفة أتم الاختلاف عن وجهة النظر التى عبّر عنها حتى الآن. ومع ذلك فإنه يبدو فى واقع الأمر أنه يعنى ببساطة أن العقل - إذا وضعنا فى الاعتبار رغبة الإنسان فى الأمان - يأمرنا بضرورة مراعاة القوانين (أعنى إذا سلك الإنسان بصورة عاقلة). إن القوانين لا تسمى بصورة غير مناسبة إلا «قوانين»، كما يخبرنا هوبز، «لأنها ليست سوى نتائج أو نظريات تخص ما يعين على بقاء الناس والدفاع عن أنفسهم، فى حين أن القانون هو، بصورة ملائمة - كلمته - التى تسيطر عليهم عن طريق الحق»^(٢١). إن العقل يرى أن المحافظة على هذه «النظريات» تعين على حفظ الإنسان لذاته والدفاع عن نفسه، ومن المنطقى من ثم بالنسبة للإنسان أن يرغب فى المحافظة عليها. وبهذا المعنى - وبهذا المعنى فقط - يكون لها طابع «ملزم». إن قوانين الطبيعة ملزمة من الداخل، أعنى أنها تلزم برغبة حدوثها؛ لكنها لا تكون كذلك باستمرار من الخارج، أعنى فى وضعها موضع التنفيذ؛ لأن من يكتن متواضعاً، ولين العريكة، ويؤدّ كل وعوده، فى زمان ومكان حيث لا يفعل إنسان آخر ذلك، لا يجعل نفسه سوى ضحية للآخرين، ويجلب الدمار لنفسه، مخالفاً لأساس كل قوانين الطبيعة، التى تميل إلى الحفاظ على الطبيعة وبقائها^(٢٢). واضح أنه ليس مسألة أمر مطلق بالمعنى الكانطى. لقد أعلن هوبز أن دراسة قوانين الطبيعة - فى حقيقة الأمر - هى «الفلسفة الأخلاقية الحقيقية»^(٢٣)، التى تكون علم الخير والشر. لكن - كما رأينا من قبل - «يكون الاشتهااء الخاص هو معيار الخير والشر»^(٢٤)، والسبب الوحيد فى أن قوانين الطبيعة يجب أن تسمى خيراً، أو كما يرى هوبز، «فضائل أخلاقية» هو أن شهوات الناس الخاصة قد تتفق فى رغبة الأمان. «إن جميع الناس يتفقون فى ذلك، أى أن السلام خير؛ ويتفقون أيضاً فى طريقة أو وسائل السلام»^(٢٥).

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

العظيم، أو بالأحرى إذا تكلمنا بمزيد من التبجيل والاحترام تلك هي نشأة «الإله الفاني»، الذى ندين له فى ظل «الإله الخالد» بسلامنا والدفاع عنا^(٢٠).

ويجب أن نلاحظ أن هوبز عندما يتحدث عن الحشد الذى يتحد فى شخص واحد، فإنه لا يعنى أن الحشد يؤلف هذا الشخص. ولكنه يعنى أن الحشد يتحد فى هذا الشخص، سواء أكان فرداً أم مجموعة، الذى ينقلون إليه حقوقهم. ومن ثم يُعرف ماهية الدولة بأنها «شخص واحد، يحقق عن طريق أفعاله حشد عظيم، بواسطة تعهدات متبادلة من كل واحد منهم تجاه الآخر - هدفاً يستخدم من أجل تحقيق قوتهم جميعاً ووسائلهم، وهذا الهدف هو تحقيق سلامهم والدفاع المشترك»^(٢١). ويُسمى هذا الشخص «صاحب السيادة»، ويكون كل فرد آخر من رعاياه.

وبالتالى، فإن السبب القريب لنشأة الدولة هو العهود التى يبرمها الأفراد بعضهم مع بعض، الذين يصبحون بعد قيام الدولة رعايا صاحب السيادة. وهذه مسألة مهمة، لأنه يترتب على ذلك أن صاحب السيادة نفسه لا يكون طرفاً فى العقد. ويقول هوبز الكثير بألفاظ واضحة. «فلاّته يعبر عن شخصيتهم، فإنه يجب عليهم أن يجعلوه صاحب سيادة، عن طريق عقد لا يكون إلا عن طريق تعهد كل فرد تجاه الآخر، وليس تعهداً من جانبه تجاه أى فرد، وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك خرق للتعهد من جانب صاحب السيادة»^(٢٢) إن الدولة تنشأ - بالتأكيد - من أجل غرض محدد، أعنى من أجل الأمن السلمى لأولئك الذين هم أطراف فى العقد الاجتماعى. ولهذه المسألة أهميتها أيضاً، كما سنرى فيما بعد. غير أن إصرار هوبز على أن التعهدات (العقود) تُبرم بين الرعايا، أو بصورة أكثر دقة بين رعايا المستقبل، ولا تُبرم بين الرعايا، وصاحب السيادة، نقول إن هذا الإصرار يساعده على أن يؤكد بصورة أكثر سهولة الطبيعة التى لا تنقسم لسلطة صاحب السيادة. ففى رأيه يمكن تجنب الشر الذى يخشاه بصفة خاصة أعنى الحرب الأهلية، عن طريق تركيز السلطة فى شخص صاحب السيادة.

وعلاوة على ذلك، تساعد هذه النظرة للمسألة السابقة هوبز على أن يتجنب - من ناحية على الأقل - صعوبة تنشأ لا محالة لو أنه جعل صاحب السيادة طرفاً فى العقد. لأنه قال من قبل إن العقود (العهود) لا تكون بدون السيف سوى كلمات. وإذا كان صاحب السيادة نفسه طرفاً فى العقد، وكانت لديه فى نفس الوقت كل السلطة والقوة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إبرام العقد، إن شئنا، عما كانوا قبل إبرامه. إذ أن المصلحة الذاتية كما يرى تكمن في أساس المجتمع المنظم وتسود المصلحة الذاتية بمعنى أناني في المجتمع المنظم كما تسود في حالة الحرب المفترضة. غير أن ميول الأفراد المتباعدة واستعدادهم للعدوان المتبادل المدمر للذات والحرب يضبطها الخوف من سلطة صاحب السيادة. إن نظرية العقد هي على الأقل حيلة لبيان الخاصية العقلية للخضوع لصاحب السيادة وممارسته للسلطة. إن هوبز نفى بمعنى أن أساس الدولة عنده هو المنفعة، ونظرية العقد هي اعتراف واضح بهذه المنفعة. ولا شك أن النظرية معرّضة لاعتراضات شديدة؛ لكن أي نقد أساسى لهوبز لا بد أن يوجه ضد تفسيره للطبيعة البشرية أفضل من أن يوجه ضد تفاصيل نظرية العقد.

ويميز هوبز بين دولة توجد عن طريق «التأسيس» ودولة توجد عن طريق «الاكتساب». «وتوجد الدولة عن طريق التأسيس عندما تؤسس بنفس الطريقة السابقة، أى عن طريق تعهد كل عضو من حشد مع كل عضو آخر. لكنها توجد عن طريق الاكتساب عندما يتم اكتساب قوة صاحب السيادة وسلطته عن طريق القوة، أعني عندما «يفرض الناس، نتيجة الخوف من الموت أو القيود إليه كل أفعال ذلك الفرد أو المجموعة الذي يمتلك حياتهم وحريتهم في قوته وسلطته»^(٣٤).

يخضع الناس أنفسهم في حالة الدولة التي توجد عن طريق التأسيس لصاحب سيادة يختارونه نتيجة خوف بعضهم من بعض. أما في حالة الدولة التي توجد عن طريق الاكتساب، فإنهم يخضعون أنفسهم لصاحب سيادة يخشونه ويخافونه. وهكذا فإنهم «في كلتا الحالتين يؤسسون الدولة نتيجة خوف»^(٣٥). وهوبز واضح تماماً في تقريره أن سلطة صاحب السيادة تقوم على الخوف. ولا مشاحة في استمداد الدولة ومشروعية سلطة صاحب السيادة إما من مبادئ لاهوتية أو مبادئ ميتافيزيقية. إن الخوف بالتأكيد سواء خوف الناس بعضهم من بعض أو خوف الرعايا من صاحب السيادة عقلى، بمعنى أنه مبرر تبريراً جيداً. ويمكن الدفاع عن الدولة التي توجد عن طريق الاكتساب لنفس الأسباب النفعية مثلما يمكن الدفاع عن الدولة التي توجد عن طريق التأسيس. ولذلك عندما يقول هوبز إن كل الدول تقوم على الخوف، فإنه لا يقصد أن يقول أى شيء يقلل من أهمية الدولة. وإذا افترضنا أن الطبيعة البشرية تكون كما

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

بالظلم»^(٣٨). ولا يمكن للرعايا أن تقتل صاحب السيادة، أو أن تعاقبه بأية طريقة. لأنه طالما أن كل واحد من الرعية هو صاحب الأفعال التي يقوم بها صاحب السيادة كلها، فإن معاقبة صاحب السيادة ستكون معاقبة آخر على أفعاله هو الخاصة.

ومن بين صلاحيات صاحب السيادة التي يحصنها هوبز الحكم على أي المذاهب التي تكون مناسبة لأن تُدرس. «ويكون من اختصاص صاحب السيادة - بالتالي - أن يكون حكماً، أو يحدد كل الأحكام على الآراء والمذاهب، من حيث إن ذلك شيء ضروري لتحقيق السلام، وبذلك يمنع الشقاق والحرب الأهلية»^(٣٩). ومن بين أمراض الدولة، يقوم هوبز بإعداد قائمة بالمذاهب التي يرى أن «كل مواطن يكون حكماً على الأفعال الخيرة والشريرة»^(٤٠)، «وأيّاً كان الشخص الذي يفعل ضد ضميره، فإنه يكون مخطئاً وأثماً»^(٤١).

ففي حالة الطبيعة يكون الفرد، في حقيقة الأمر، هو الحكم على ما هو خير وما هو شر، ويجب عليه أن يتبع عقله أو ضميره، إذ لا وجود لقاعدة أخرى يتبعها. لكن الأمر ليس كذلك في حالة الدولة. لأن القانون المدني يكون الضمير العام، أي مقياس الخير والشر.

ولا غرابة إذن إذا دافع هوبز، في الجزئين الثالث والرابع من كتابه «اللوياثان» عن مذهب أرسطوسي كامل^(٤٢). إنه لا ينكر - بالتأكيد - الوحي المسيحي أو صحة فكرة الدولة المسيحية، «التي تعتمد فيها كثيراً على ألوان من الوحي المتعالي على الطبيعة لإرادة الله»^(٤٣). غير أنه يجعل الكنيسة تابعة تماماً للدولة. ومن الواضح تماماً أنه يفسر الصراع بين الكنيسة والدولة عن طريق السلطة. فالكنيسة حاولت أن تخول نفسها سلطة تخص صاحب السيادة المدني ويشبه هوبز في فقرة شهيرة البابوية بشيخ الإمبراطورية الرومانية. «إذا نظر إنسان إلى أصل هذه السيطرة الكنسية العظيمة، فإنه سيدرك بسهولة أن البابوية لا تعدو أكثر من شيخ الإمبراطورية الرومانية المتوفاة، وهي تجلس متوجة على قبرها. وهكذا خرجت البابوية بصورة مفاجئة من حطام تلك السلطة الوثنية»^(٤٤). لكن على الرغم من أن هوبز ينظر إلى الكنيسة الكاثوليكية على أنها تمدنا بالنموذج الرئيسي في الميدان الديني لمحاولة سرقة السلطة المشروعة من صاحب السيادة، فإنه يوضح أن اهتمامه الأساسي ليس الهجوم على

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

أو السلاسل التي كوَّنها الناس لأنفسهم عن طريق عهود (عقود) متبادلة أبرمها بعضهم مع بعض في التخلي عن حقوقهم لصاحب السيادة.

ويصعب أن يكون من الضروري أن نقول إنه لم يكن لدى هوبز تعاطف مع أي طلب للحرية من القانون. لأن القانون، الذي تدعمه الجزاءات، هو الوسيلة الخالصة التي تحمي الإنسان من هوى الآخرين وعنفهم. وطلب الإعفاء من القانون، سيكون طلباً للعودة إلى حالة الطبيعة. ويقول هوبز إن الحرية التي تمّ تمجيدها والإعلاء من مقامها في تاريخ وفلسفة الرومان واليونانيين القدماء هي حرية الدولة، وليست حرية الناس فرادى. «لقد كان الآثينيون والرومان أحراراً، أعني بولاً حرة، فلم يكن لدى الناس فرادى الحرية في مقاومة معتليهم، لكن كان لدى معتليهم الحرية في مقاومة الآخرين والتداول عليهم»^(٤٩) لقد وجد أناس كثيرون، بحق، في كتابات القدماء تبريراً لاستحسان الصخب والضبط الخليع لأفعال أصحاب السيادة.. ومع إراقة دماء غزيرة، كما أعتقد أنني أقول بحق، لا يوجد أي شيء يُشترى بثمان غال، مثلما اشترت البقاع الغربية تعلم اللغتين اليونانية واللاتينية»^(٥٠). غير أن ذلك أتى من الإخفاق في التمييز بين حقوق الأفراد وحقوق أصحاب السيادة.

وواضح في الوقت نفسه أنه لا توجد دولة ينظم فيها القانون جميع الأفعال؛ إذ لا يمكن أن يحدث ذلك. وبالتالي تستمتع الرعايا بالحرية في هذه المسائل. «إن حرية الرعية لا تكمن بالتالي إلا في تلك الأشياء التي يسمح بها صاحب السيادة، في تنظيم أفعالهم: مثل حرية البيع والشراء، والتعاقد بعضهم مع بعضهم، واختيار مسكنهم الخاص، وطعامهم الخاص، وحرفهم الخاصة في الحياة، وتنشئة أطفالهم بالطريقة التي يعتقدون أنها مناسبة، وما شابه ذلك»^(٥١).

وحتى الآن لا يصدر هوبز ببساطة تصريحاً مكرراً يقول بأن الأفعال التي لا ينظمها قانون ويضبطها هي أفعال لا تنظم ولا تُضبط عن طريق قانون، ولكنه يلفت الانتباه هنا إلى الحالة الفعلية التي عليها الأمور، أعني أن الرعايا يستطيعون في كل ميدان واسع من النشاط البشري حيث يكون القانون موضع الاهتمام أن يفعلوا وفقاً لإرادتهم وميلهم. وتوجد هذه الحرية كما خبرنا هوبز في كل أشكال الدولة. وعلى أية

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

طريق نزاع داخلي ولم يعد صاحب السيادة يمتلك قوة فعالة، فإن الرعايا تعود إلى حالة الطبيعة، ويمكن أن يُنصَّب صاحب سيادة جديد.

٦ - لقد كُتِبَ قدر كبير عن أهمية نظرية هوبز السياسية وعن الأهمية النسبية للمسائل المتنوعة التي عرضها. وثمة تقديرات مختلفة ممكنة.

ومن المرجح أن تكون المسألة التي كان لها تأثيرها على القراء المحدثين لكتاب «اللياثان» هي - بصورة طبيعية جداً - القوة والسلطة التي تُعزى إلى صاحب السيادة. وهذا التأكيد على موقف صاحب السيادة يوازى - من ناحية - في نظرية هوبز نظريته في النزعة الفردية الذرية. فإذا كانت الدولة، كما يرى الماركسيون والدولة الرأسمالية على الأقل هي وسيلة ربط مصالح وطبقات اقتصادية متصارعة معاً، فإن الدولة، عند هوبز، هي وسيلة توحيد أفراد متصارعين متحاربين، ولا تستطيع الدولة أن تؤدي هذه الوظيفة إذا لم يستمتع صاحب السيادة بسلطة كاملة وغير محدودة. وإذا كان الناس - بالطبيعة - أثنائين ويظلون كذلك باستمرار، فإن العامل الوحيد الذي يمكن أن يربطهم معاً بصورة فعالة هو قوة متمركزة في صاحب السيادة.

ولا نقول إن إصرار هوبز على قوة صاحب السيادة وسلطته جاء فحسب - وببساطة - نتيجة لاستدلال من نظرية قبلية عن الطبيعة البشرية. فقد تأثر أيضاً بدون شك بالأحداث التي عاصرها، فقد رأى في الحرب الأهلية كشفًا عن طبيعة الإنسان وعن القوى المتباعدة التي لها تأثيرها في المجتمع البشرى. ورأى في قوة قوية ومتمركزة العلاج الوحيد لتلك الحالة الواقعية. «إذا لم يكن هناك في البداية رأى مأخوذ من الجزء الأعظم من إنجلترا، وإذا كانت تلك السلطات (السلطة التشريعية، والسلطة القضائية وفرض الضرائب، ونظريات الحكم، إلخ) مقسّمة بين الملك والوردات، ومجلس العموم، ما كان للشعب أن ينقسم على الإطلاق ويقع في هذه الحرب الأهلية، أولاً بين أولئك الذين يختلفون في أمور السياسة، وثانياً بين المنشقين فيما يتعلق بحرية الدين...»^(٥٦). لقد تدعمت نظرية هوبز الاستبدادية، ونزعت الأرستوقراطية نتيجة لتأملاته في المناقشات السياسية والدينية العينية.

ومن المستحسن في هذه المسألة أن نلاحظ أن «مذهب السلطة» ليس «المذهب الشمولي» بالمعنى الحديث، هو الذي يميز نظرية هوبز السياسية. فهناك - بالطبع -

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

أعلن دكتور «جون واليس» أن كتاب اللويثان «كُتب دفاعاً عن حق «أوليفر» أو مَنْ يستطيع - بأية وسيلة كانت - أن يكون في مكانة عالية ورفيعة ، أى لا يضع حق الحكومة كله إلا في القوة ويتبرأ جلالته تماماً من موالاة رعاياه، عندما لا يستطيع أن يجبرهم على الطاعة»^(٥٧). لقد أنكر هوبز تماماً أنه نشر كتابه «اللويثان» لكي يتعلق «أوليفر»، الذى لم يصبح حاكماً إلا بعد ذلك بثلاث أو أربع سنوات، من أجل أن يفسح المجال لعودته، مضيفاً^(٥٨) القول بأنه «صحيح أن مستر هوبز عاد إلى الوطن، لكن كان ذلك بسبب عدم الثقة فى أمنه مع رجال الدين الفرنسيين»^(٥٩). لكن على الرغم من أن هوبز كان محقاً فى القول بأنه لم يكتب كتابه لكي يتعلق «أوليفر كرومل»، ولم يقصد الدفاع عن العصيان ضد الملك، فإنه يبقى صحيحاً أن نظريته السياسية لم تفضل فكرة الحق الإلهي للملوك ولا مبدأ آل ستيوارت الخاص بالشرعية. والمعلقون محقون فى لفت الانتباه إلى الطابع «الثورى» لنظريته عن السيادة، وهى جانب من تفكيره جدير بالتجاهل بصورة دقيقة بسبب تصويره السلطوى للحكومة وتنبؤه الشخصى بالملكية.

وإذا اضطر المرء أن يجد ما يناظر نظرية هوبز عن الدولة فى فلسفة العصور الوسطى، فإننا ربما نفترض أن القديس أوغسطين قد أعد لهذه النظرية أكثر من القديس توما الاكوينى^(٦٠) لأن القديس أوغسطين نظر إلى الدولة، أو على الأقل مال إلى أن يفعل ذلك، على أنها نتيجة لخطيئة أصلية؛ أعنى على أنها وسيلة ضرورية لكبح دوافع الإنسان الشريرة التى تكون نتيجة خطيئة أصلية. ويحمل هذا الرأى - على أية حال - تشابهاً ما مع تصور هوبز للدولة بوصفها العلاج للشرور التى تكون من جراء حالة الإنسان الطبيعية، أى حرب الكل ضد الكل. أما القديس توما الاكوينى الذى تمسك بالتراث اليونانى، فينظر إلى الدولة على أنها مؤسسة طبيعية، وظيفتها الأساسية هى أن تحقق الخير العام الذى يكون ضرورياً حتى إذا لم يخطئ الإنسان ولا تكون لديه دوافع شريرة.

وليس هذا التشابه - بالطبع - سوى تشابه جزئى، ويجب عدم التركيز عليه. فالقديس أوغسطين لم يعتقد بالتأكيد على سبيل المثال، أن صاحب السيادة هو الذى يحدد التمييزات الأخلاقية. فعنده قانون أخلاقى موضوعى ذو أسس متعالية مستقل عن الدولة، ويكون كل من أصحاب السيادة والرعايا مجبرين من الناحية الأخلاقية على

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

العظيم الذى تلعبه السلطة فى ديناميكا الحياة السياسية والتاريخ. ويمكن أن نقول عنه من هذه الزاوية إنه فيلسوف «واقعى». ويمكن أن نربطه بفيلسوف عصر النهضة ماكيافيللى^(٦١). لكن فى حين أن ماكيافيللى اهتم أساساً باليات السياسية، أى بوسائل بلوغ السلطة والحفاظ عليها، فإن هوبز يقدم نظرية سياسية عامة يلعب فيها مفهوم السلطة ووظيفتها دوراً مهماً. وقد أهمل الكثير فى هذه النظرية، المشروطة تاريخياً، من حيث إنه لا مناص منها - بحق - فى أى نظرية سياسية تجاوز مبادئ يمكن النظر إليها على أنها «أزلية»، أى يمكن تطبيقها بصورة دائمة، لأنها عامة ومجردة حتى إنها لا ترتبط فى حقيقتها بحقبة معينة. بيد أن تصويره لدور السلطة فى الشؤون البشرية كان ذا أهمية دائمة وواقعية. وهذا القول لا يعنى موافقته ومتابعته فى نظريته عن الطبيعة البشرية (التي تربطه - فى جانبها الاسمى - بالمذهب الاسمى فى القرن الرابع عشر) أو يعنى الإقرار بأن تفسيره لوظيفة الدولة والسيادة كان مقنعاً. إننا نقول - ببساطة - إن هوبز عرف بوضوح عوامل ساعدته دون شك على أن يحدد مسار التاريخ البشرى كما نعرفه حتى الآن. إن فلسفة هوبز السياسية - من وجهة نظرى - فلسفة أحادية الجانب وغير مقنعة، ولكن لأنها أحادية الجانب وغير مقنعة، فإنها تقدم خصائص واضحة وبارزة لحياة اجتماعية وسياسية من المهم أن نقدم لها تفسيراً.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

Leviathan, 111, 15, E. W., III, p. 145. (٢٢)

Ibid, p. 146. (٢٣)

Ibid. (٢٤)

Ibid. (٢٥)

Leviathan, 2, 17, E. W., III, p. 154. (٢٦)

Leviathan, 2, 17, E. W., III, p. 157. (٢٧)

Leviathan, 1, 16, E. W., III, p. 147. (٢٨)

Ibid, p. 151. (٢٩)

Leviathan, 2, 17, E. W., III, p. 158.. (٣٠)

Ibid. (٣١)

Leviathan, 1, 18, E. W., III, p. 161. (٣٢)

Leviathan, 2, 19, E. W., III, p. 173. (٣٣)

Leviathan, 1, 20, E. W, p. 185. (٣٤)

Ibid. (٣٥)

Ibid, p. 186. (٣٦)

Leviathan, 2, 18, E. W., III, p. 161. (٣٧)

Ibid, p. 163. (٣٨)

Ibid, p. 165. (٣٩)

Ibid, p. 311. (٤٠)

Leviathan, 2, 29, E. W., III, p. 310. (٤١)

(٤٢) الأرستوسية Erastianism هي الاعتقاد بأن الكنيسة ينبغي أن تكون تابعة للدولة. واللفظ مشتق من اسم «توماس أرسطوس Thomas Erastus (١٥٣٤ - ١٥٨٣) وهو راهب سويسري كان معارضاً للمكافئية، ذهب في كتاباته إلى أن الكنيسة لا ينبغي أن تكون لها سلطة على الناس في معاقبتهم على خطاياهم. (المراجع)

Ibid, p. 186. (٤٣)

Leviathan, 4, 47, E. W., III, pp. 697 - 8. (٤٤)

Leviathan, 3, 39, E. W., III, pp. 45٩. (٤٥)

Ibid. (٤٦)

(٤٧) نسبة إلى مذهب الأرستوسية Erastianism الذي يجعل الكنيسة تابعة للدولة - وقد سبق شرحه. (المراجع)

Ibid. (٤٨)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الفصل الثالث

أفلاطونيو كمبردج

ملاحظات تمهيدية - لورد هيربرت أوف تشيريرى ونظريته فى الدين الطبيعى - أفلاطونيو كمبردج - ريتشارد كمبرلند

١ - سلم فرنسيس بيكون^(١) بلاهوت فلسفى وطبيعى، يعالج وجود الله وطبيعته، بمقدار ما يتجلى ذلك فى المخلوقات. مع أن هوبز استبعد من الفلسفة كل نظر فى الله، لأنه نظر إلى الفلسفة على أنها تهتم بأجسام متحركة. وإذا كنا نعنى، فى الواقع، بمصطلح «الله» موجوداً روحياً لا متناهياً أو لامادياً، فإن العقل لا يستطيع أن يخبرنا بأى شئ عنه على الإطلاق؛ لأن مصطلحات مثل: «روحى»، و«لا مادى» ليست معقولة، إذا لم تُستخدم لتعنى جسماً غير مرئى. غير أن هذا الاتجاه لم يكن عاماً بين الفلاسفة البريطانيين فى القرن السابع عشر. فقد كان الميل العام هو، بالأحرى، التمسك بأن العقل يمكن أن يبلغ معرفة ما بالله، والتمسك بأن العقل هو الحكم على الوحى وعلى الحقيقة الموحى بها. ونجد عند عدد من الكتاب، مرتبطاً بهذه الوجهة من النظر، الميل إلى أن يرفعوا من شأن الاختلافات الدجماطيقية ويقللوا من أهميتها بالمقارنة بالحقائق العامة التى يمكن أن يبلغها العقل وحده. ويميل هؤلاء الذين يفكرون بهذه الطريقة إلى وجهة نظر رحبة وإلى تحقيق التسامح فى ميدان الدين الدجماطيقى بصورة أفضل مما يفعل اللاهوتيون من المدارس المختلفة وأنصار التراث.

وقد يقال إن وجهة النظر هذه تميز جون لوك وأنصاره. غير أن هدفى فى هذا الفصل هو معالجة مجموعة الكتاب المعروفين بأفلاطونيو كمبردج. وهم يتفقون بدرجة كافية للغاية فى هذه المسألة، لأنه على الرغم من أن بعضهم يشير قليلاً أو لا يشير

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

أو الطبيعة قد غرسا تلك الحقائق، بل يعنى بعبارة أخرى أنها تُفهم بصورة واعية وتأملية منذ البداية. فعندما تُدرك، تكتسب قبولاً عاماً، ولذلك فإن القبول العام هو دليل على الاعتراف «بالفكرة العامة». لكن يمكن أن يكون هناك نمو في النظر في هذه الأفكار الفطرية بوجه عام، أو هذه الحقائق، ولا يظهر كثير منها إلا في عملية التفكير النظرية. ولذلك لا يستطيع المرء أن يقدم قائمة كاملة لها بصورة قبلية. أما إذا اتبع الناس درب العقل فقط، الذي لا يعوقه الهوى والانفعال، فإنهم سيصلون إلى فهم تأملي أكثر كمالاً لأفكار غرسها الله.

والسبب الآخر الذي جعل «لورد هيربرت» لم يحاول أن يضع «الأفكار العامة» في قائمة هو أنه اهتم أساساً بتلك الأفكار المتضمنة في المعرفة الأخلاقية والدينية. وهو يرى أن هناك خمس حقائق أساسية للدين الطبيعي هي: هناك إله أسمى، وينبغي علينا أن نعبد هذا الإله الأسمى، الحياة الأخلاقية هي باستمرار الجزء الرئيس في هذه العبادة المقدسة، ويجب التكفير عن الرذائل والجرائم عن طريق التوبة والتندم، ونحن نثاب أو نُعاقب على أفعالنا الدنيوية في الآخرة. وقد حاول «لورد هيربرت» في كتابه «ديانة الأمم» أن يبين كيف تُعرف هذه الحقائق الخمس في كل الأديان وأنها تشكل ماهيتها، على الرغم من أن كل صنوف التراكم والازدياد ترجع إلى الخرافة والخيال. إنه لا ينكر أن الوحي يستطيع تدعيم الدين الطبيعي، لكنه يصر على أنه يجب الحكم على الوحي المزعوم في محكمة العقل. وموقفه المتحفظ من العقيدة واضح. ومع ذلك، فإن اهتمامه يكمن في الدفاع عن عقلانية الدين وعقلانية النظرة الدينية، أكثر مما يكمن في النقد السلبي الخالص للأديان الوضعية المختلفة.

٣ - وترجع الكلمة الأولى في اسم «أفلاطونيوس كمبردج» إلى واقعة أنهم مجموعة من الناس ارتبطوا جميعاً بجامعة كمبردج. لقد كان «بنيامين ويتشكوت» (١٦٠٩ - ١٦٨٢)، و«جون سميث»، (١٦١٦ - ١٦٢٥)، و«رالف كدورث» (١٦١٧ - ١٦٨٨)، و«ثانيل كلفرول» (١٦١٨ - ١٦٥١) و«بطرس ستيري» (١٦١٢ - ١٦٧٢)، - أقول كان هؤلاء جميعاً من خريجي «كلية إيمانويل»، بينما كان «هنري مور» (١٦١٤ - ١٦٨٧) خريج «كلية المسيح». وكان معظمهم يعملون بمنح دراسية، وكانوا كلهم قساوسة إنجيليين.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

البشرية عند الكالفينيين، وإخضاعهم العقل للإيمان فهم لم يهتموا، فى الواقع، بتقديم أى مذهب دجماطيقى. وإنما كان هدفهم، بالأحرى، الكشف عن العناصر الأساسية للمسيحية، ونظروا إلى قدر كبير فى المذاهب البروتستانتية على أنه لا يعدو أن يكون أكثر من مسألة رأى. ومالوا، بالتالى، من جهة الاختلافات الدجماطيقية إلى قبول وجهة نظر متسامحة و«رحبة» وعُرفوا بأنهم «متسامحون». ولا يعنى ذلك أنهم رفضوا فكرة الحقيقة الموحى بها، أو أنهم رفضوا التسليم «بالأسرار الغامضة». إنهم لم يكونوا فلاسفة عقليين بالمعنى الحديث، لكنهم اعترضوا بشدة على الإصرار على المذاهب الغامضة، التى لا يكون تجليها للحياة الأخلاقية واضحاً. ووجدوا جوهر المسيحية، وجوهر كل دين، فى الحياة الأخلاقية. ونظروا إلى النزاعات المذهبية والنزاعات حول الحكومة الكنسية، والمؤسسة الكنسية على أنها ذات أهمية ثانوية إذا ما قورنت بحياة مسيحية وأخلاقية مخلصه. فالحقيقة الدينية ذات قيمة إذا كان لها تأثيرها فى الحياة وأنتجت ثمرة أخلاقية.

ولا أعنى بذلك الإشارة إلى أن أفلاطونى كمبردج كانوا برجماتيين. إذ أنهم آمنوا بقوة العقل البشرى فى أن يبلغ حقيقة موضوعية عن الله، وأن يقدم لنا معرفة بقوانين أخلاقية كلية ومطلقة. بيد أنهم أكدوا مسألتين: الأولى هى أن وجود محاولة مخلصه ترشد إلى الحياة الأخلاقية هى شرط ضرورى لبلوغ معرفة بحقيقة عن الله، والثانية هى أن الحقائق التى تكون ذات أهمية عظيمة هى تلك الحقائق التى تشكل الأساس الأكثر وضوحاً لحياة مسيحية. وهم يتشابهون فى كراهيتهم للتشاجر المتعصب والجدال الشديد حول المشكلات النظرية الغامضة مع مفكرى القرن الرابع عشر الذين استهجنا مشاحنات المدارس وانشغالها بالتدقيقات المنطقية وإهمالها مناقشة «شئ ضرورى واحد».

لقد أكد أفلاطونى كمبردج فى الوقت نفسه الموقف التأملى. وهذا يعنى أنهم على الرغم من تأكيدهم الرابطة الوثيقة بين النقاء الأخلاقى وبلوغ الحقيقة، فإنهم أكدوا فهم الواقع، وحيازة الحقيقة وتأملها، أكثر من تأكيدهم التخلص من الواقع وبمعنى آخر، كان موقفهم مختلفاً عن الموقف الذى أكدته «فرنسيس بيكون»، ولخصه فى قوله المأثور «المعرفة قوة». فلم يتعاطفوا إلا قليلاً مع إخضاع المعرفة للاستغلال العلمى والعملى.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

على يقين من وجود نفوسنا من وعى داخلي من معارفنا الخاصة ومن مبدأ العقل أن لا شيء يمكن أن يفعل ويتجلى وجود النفوس الأخرى من آثارها على أجسامها، وحركاتها، وأفعالها، وحديثها. ولأن الملاحظة لا يستطيعون أن ينكروا وجود النفس أو العقل في الناس، على الرغم من أن هذا الشيء لا يندرج تحت الحس الخارجي، فإن لديهم سبباً ضئيلاً لإنكار وجود عقل كامل، يشرف على الكون، ولا يمكن أن يتصور بدوره كيف استمددنا وجودنا الناقص. إن وجود ذلك الإله، الذي لم تره عين ولا يمكن أن تراه، يبرهن عليه العقل بوضوح من آثاره، في ظواهر الكون المرئية، ومما نعيه داخل نواتنا^(٣). ولا يمكن أن نبرهن بصورة صحيحة من الحقيقة التي تقول إنه حتى الملحد يُسلم بعدم إمكان الإحاطة بالله بناء على نتيجة تقول إنه لا يمكن تصور الله على الإطلاق وأن لفظ «الله» ليس له معنى. لأن الإقرار بأنه لا يمكن الإحاطة بالله يعني أن العقل المتناهي لا يمكن أن تكون لديه فكرة مقنعة عن الله، ولا يعني أنه لا يمكن أن تكون لديه فكرة عنه على الإطلاق. إننا لا نستطيع أن نفهم الكمال الإلهي، لكن يمكن أن تكون لدينا فكرة عن موجود كامل بصورة مطلقة. ويمكن بيان ذلك بطرق متنوعة. فالقول، مثلاً، بأن «لدينا فكرة أو تصوراً عن كمال أو موجود كامل، أمر واضح من فكرة مؤداها أن لدينا نقصاً مألوفاً لنا؛ لأن الكمال يكون القاعدة والمقياس للنقص، ولا يكون النقص قاعدة ومقياساً للكمال... : لأن الكمال يمكن تصويره في البداية، في نظام الطبيعة، بوصفه ضوءاً قبل الظلام، بوصفه إيجاباً قبل السلب أو النقص»^(٤). وينطبق هذا القول نفسه على فكرة اللامتناهي. وفضلاً عن ذلك، فمن العبث أن نؤكد أن فكرة الله من بناء الخيال، مثل فكرة القنطورس^(٥)، أو أنها مفروسة في العقل عن طريق مشرعين وسياسيين من أجل غاياتهم الخاصة. لأنه ليس في إمكان عقل متناهٍ وناقص أن يكون فكرة موجود كامل بصورة لامتناهية. «وإذا لم يكن هناك إله، فإنه لا يمكن للسياسيين، ولا للشعراء، ولا للفلاسفة، ولا لأي شخص آخر، أن يصنع أو يخلق فكرة موجود كامل بصورة مطلقة أو لامتناهية»^(٦). إن لدى أكثرية الجنس البشري في كل العصور توقعاً موجوداً في عقولهم يخص الوجود الحقيقي والفعل لهذا الوجود^(٧). ومن الممكن البرهنة على وجود الله عن طريق فكرة الله. فمثلاً «لأن لدينا فكرة الله، أو فكرة موجود كامل، لا تحمل أي ظل من التناقض، فلا بد

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

التي تقول إن الحيوانات آلات، ويفضل أن ينسب إليها نفوساً. «وإذا كان واضحاً من الظواهر أن الحيوانات ليست مجرد آلات لا تحس أو آلات تتحرك من نفسها، ولا تشبه سوى ساعات الحائط أو ساعات اليد، فإنه من الواجب ألا يقنعنا الرأي الشائع والهوى السوقي، فيعوق قبولنا لما يمليه بوضوح العقل السليم والفلسفة، ويجب أن يكون لدى الحيوانات بالتالي، شيء ما غير المادة»^(١٢).

ولذلك يرفض كدورث تماماً الفصل الذي صنعه ديكارت بين العالم الروحي والعالم المادي. ولا أعنى بذلك أنه سلّم باستمرار تطوري بين المادة اللاحية، والنباتات، والحياة الحسية والحياة العقلية. فقد أنكر، على العكس أن يكون من الممكن أن تنتقل الحياة من المادة اللاحية، وتدّد بتفسير هوبز للوعي والتفكير بألفاظ مادية. «فليس هناك شيء في الجسم أو المادة، سوى المقدار، والشكل، والمكان، والحركة أو السكون: مؤكداً بالتالي من الناحية الرياضية أن هذه الصفات، التي ترتبط معاً، لا يمكن أن تكون أو تؤلف حياة أو معرفة»^(١٣). وفضلاً عن ذلك، فإن نفس الإنسان العاقلة خالدة بصورة طبيعية، في حين أن نفوس الحيوانات الحساسة ليست كذلك. فهناك في الطبيعة، بالتالي، اختلافات جوهرية في الدرجة. «إن هناك معدلاً، أو سلماً من كيانات وصنوفاً من الكمال في الكون، كياناً فوق آخر، ولا يمكن أن يكون تولد الأشياء بطريقة الصعود من الأدنى إلى الأعلى، لكن يجب أن يكون بالضرورة بطريقة الهبوط من الأعلى إلى الأدنى»^(١٤). لكن نظراً لوجود درجات من الكمال في الطبيعة، فإننا لا نستطيع أن نقوم بتقسيم بسيط بين المجال الروحي، من ناحية، والمجال المادي من ناحية أخرى الذي تختفي منه العلوية الغائية، وتُفسر الظواهر الحية عن طريق مصطلحات آلية خالصة.

ولقد أظهر «هنري مور» عداً صريحاً للثنائية الديكارتية. وقد كان في شبابه معجباً متحمساً بديكارت. ولذلك فهو يلاحظ في خطاب إلى «كرسيلر»، كتبه عام ١٦٥٥، أن المذهب الديكارتى ليس مفيداً لتحقيق الغائية القصوى لكل فلسفة فقط، أعنى الدين، بل لاحظ أيضاً أن الاستدلال ومنهج البرهان فيما يتعلق بالله والإنسان منهج صحيح إذا ارتكز على مبادئ ديكارتية. وربما إذا استثنينا، بالفعل، المذهب الأفلاطوني، لن يكون هناك مذهب من المذاهب الفلسفية بجانب المذهب الديكارتى مفهوماً بصورة مناسبة يسد الطريق بشدة أمام مذهب الإلحاد^(١٥) بيد أن «مور»

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إن هذه الأفكار تم تجريدتها إلى حقيقة مؤداها أنها «تُشار أحياناً من اندفاع الموضوعات الخارجية التي تطرق باب حواسنا»^(٢٠)، وقد أخفق الناس في التمييز بين السبب الخارجى لهذه التصورات وسببها الفعال المنتج. إنها لا بد أن تنشأ - في واقع الأمر - «من حيوية ونشاط العقل ذاته»^(٢١)، الذي يكون صورة مخلوقة للعقل الإلهي. لقد طبع الله، في حقيقة الأمر، هذه الأفكار الفطرية في العقل البشري. ولا نعرف بواسطتها موضوعات لا مادية وحقائق أزلية فحسب، بل نعرف بواسطتها أشياء مادية أيضاً. ولا نعى بذلك إنكار أن الحس والخيال لهما دور في معرفتنا بأشياء مادية. لكن الإحساس لا يمكن أن يقدم لنا معرفة بما هي أي شيء أو أي حقيقة علمية. إنه لا يمكن أن تكون لدينا معرفة علمية بالعالم المادي إلا عن طريق نشاط العقل الذي ينتج «تصورات» من داخله عن طريق قوته التي يمنحها له الله.

إن معيار الحقيقة النظرية هو «وضوح الأفكار أو التصورات ذاتها»^(٢٢). ولا بد أن تكون التصورات العقلية بالضرورة حقائق، لأنها كيانات واقعية^(٢٣). ولذلك يقبل كدورث معيار الحقيقة، ووضوح الفكرة وتميزها، الموجود عند ديكارت، غير أنه يرفض استخدام افتراض «الشيطان الماكر»، وحيلة ديكارت للتخلص من إمكان الخطأ والخداع. حقاً، إن الناس يُخدعون أحياناً ويتخيلون أنهم يفهمون بوضوح ما لا يفهمونه بوضوح. لكن كدورث يقول إنه لا ينجم عن ذلك أنهم لا يستطيعون أن يتأكدوا من أنهم يفهمون شيئاً ما بوضوح. وقد نبرهن أيضاً على «أننا نرى أشياء موجودة بالفعل، لأننا نعتقد في الأحلام أن لدينا إحساسات واضحة لا نستطيع بالتالي أن نتأكد منها عندما نستيقظ»^(٢٤). لقد اعتقد كدورث بوضوح أنه من الخلف أن نفترض أن الحياة اليقظة قد تكون حلاًماً.

وبالتالي لا يستطيع العقل أن يدرك ماهيات دائمة وحقائق ثابتة لا تتغير. ويمكنه أن يفعل ذلك - كما ذكرنا توأ - لأنه يستمد من العقل الأزلي ويعتمد عليه، ذلك العقل الذي «يضم بداخله علل الأشياء جميعاً وحقائقها الثابتة التي لا تتغير»^(٢٥). ويستطيع، بالتالي، أن يميز مبادئ وقيماً أخلاقية دائمة، وليس الخير والشر، والعدل والظلم، مفاهيم نسبية - كما تخيل هوبز - وحتى لو كان في الإمكان امتلاك درجات متغيرة من النظر في المبادئ والقيم الأخلاقية، فإنها تكون على الرغم من ذلك مطلقة. وبالتالي

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

يتحدث عن «هذه القضايا وما شابهها»^(٣٩). ويربط هذا الوضع لعدد كبير من مبادئ «لا يمكن الشك فيها» «مور» بـ «لورد هيربرت أوف تشيربري» ويسبق منهج المدرسة الاسكتلندية التي جاءت فيما بعد.

إن أفلاطونى كمبردج لم يتعاطفوا كثيراً، كما رأينا، مع الحركات الدينية والفلسفية التي كانت سائدة فى زمنهم وبلادهم. وعلى الرغم من أنهم لم ينكروا، بالتأكيد، الدور الذى تلعبه التجربة فى المعرفة البشرية، فأنهم لم يتعاطفوا مع المفهوم الضيق والمحسود للتجربة الذى أصبح خاصية تميز ما نطلق عليه اسم «المذهب التجريبي». وعلى الرغم من أنهم كانوا يعيدون عن التشهير بالعلم، وأظهروا فهماً ضئيلاً لتطور الفيزياء الرياضية المعاصرة ومنهجها. لقد مالوا إلى العودة إلى الفلسفات «الأفلاطونية» عن الطبيعة، بدلاً من محاولة تأليف مرتقب أو توافق الفيزياء مع الميتافيزيقا. وفضلاً عن ذلك، أدى بهم اهتمامهم بالنزعة الإنسانية الأفلاطونية والمسيحية إلى أن يمحازوا عن الجدل الدينى فى عصرهم، ويقبلوا موقفاً نقدياً تجاهه. وبالتالي كان تأثيرهم قليلاً بصورة نسبية؛ خاصة إذا وضع المرء فى اعتباره العرض الأدبى غير الجذاب لأفكارهم. ولا يعنى ذلك بالطبع أنه لم يكن لهم أى تأثير على الإطلاق. فقد برهن «هنرى مور»، مثلاً، فى كتابه «موجز فى الميتافيزيقا» على أن التفسير الهندسى الديكارتى للطبيعة قد أدى به إلى فكرة مكان مطلق، لا يفنى، ولا نهائى ودائم. ومع ذلك لا يمكن أن تكون هذه الصفات لأشياء مادية. ولا بد أن يكون المكان المطلق، بالتالى، حقيقة معقولة تكون نوعاً من الظلال والرمز للوجود الإلهى والعظمة. لقد اهتم كثيراً بالبرهنة على أن التفسير الرياضى للطبيعة، الذى يفصل ما هو مادى عما هو روحى لابد أن يؤدى من الناحية المنطقية إلى ربط أحدهما بالآخر، وبمعنى آخر لقد اهتم بتطوير الحجة الإنسانية ضد ديكارت. غير أنه يبدو أن حجته أثرت فى تصور «نيوتن» للمكان. كما تأثر «شافتسبرى» الذى يجب النظر إليه من جهة الأخلاق، بأفلاطونى كمبردج مثل كدورث، ومور، وتيشكوت. وعلى الرغم من أن المذهب الأفلاطونى فى كمبردج مارس تأثيراً ما، فإنه انحاز بوضوح عما كان يُنظر إليه بوجه عام على أنه التطور الأساسى فى الفلسفة البريطانية فى تلك الفترة، أعنى المذهب التجريبي.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

والتعبير عن علاقتنا بالله. وعلاوة على ذلك، فإن قانون الأريحية ذاته هو نفسه تعبير عن الإرادة الإلهية ويزودنا بجزءات، حتى على الرغم من أن الحب المنزه لله والإنسان يزودنا بدافع أعلى لطاعة القانون أكثر من أن يزود به اعتباراً لجزاءات تحترم الذات.

وبالنظر إلى التأكيد الذي ينصب عادة، وبصورة صحيحة، على تطور المذهب التجريبي في الفلسفة البريطانية، يجب ألا ننسى تملأ وجود رجال مثل أفلاطوني كمبردج وريتشارد كمبرلند، لأنهم يمثلون ما سماه بروفيسور «ج. ه. ميورهد» J. H. Muirhead «التراث الأفلاطوني في الفلسفة الأنجلو-ساكسونية». وإذا أردنا أن نستخدم مصطلح «المثالية» بالمعنى الواسع جداً الذي اعتاد فيه الماركسيون أن يستخدموا الكلمة، فإننا نستطيع أن نتحدث عن أفلاطوني كمبردج وأشباههم من المفكرين بوصفهم ممثلين لمرحلة من مراحل التراث المثالي في الفلسفة البريطانية، التراث الذي وجد تعبيراً بارزاً (مرتبطاً بالمذهب التجريبي) في كتابات باركلي، وازدهر في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر في الحقيقتين الأولىين من القرن العشرين. ويُعتقد، غالباً، أن الفلسفة في القارة البريطانية تجريبية أصلاً وبصورة دائمة وطبيعية في طابعها. وبالتالي لا بد من التأكيد على وجود تراث آخر إذا كان علينا أن نكون وجهة نظر متوازنة عن تطور الفكر البريطاني.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- 4, 1, 7, 111, p.582. (١٩)
- Ibid, 4, 2, 2, 111, P. 587. (٢٠)
- Ibid, 4, 3, 1, 111, PP. 601 - 2. (٢١)
- The True Intellectual system of the Universe, 4, 5, 9, 111, p. 637. (٢٢)
- Ibid. (٢٣)
- Ibid, 4, 5, 12, III, PP. 638 - 9. (٢٤)
- Ibid, 4, 6, 2, III, P. 639. (٢٥)
- Ibid, 5, 1, II, P. 533. (٢٦)
- Selected sermons, 1773, PP. 6 - 7 . (٢٧)
- 1, 4, 2 (٢٨)
- Ibid. (٢٩)
- Ibid. (٣٠)
- Ibid, 1, 4, 4. (٣١)
- De Legibus naturae, 1. (٣٢)
- Ibid. (٣٣)
- Ibid, 5. (٣٤)

الفصل الرابع

لوك (١)

حياته وكتابات - اعتدال لوك والحس المشترك - هدف كتاب
«المقال» - الهجوم على الأفكار القطرية - المبدأ التجريبي

١ - ولد جون لوك في مدينة «رنجتون»، بالقرب من «برستول»، في عام ١٦٣٢ .
كان والده محامياً ريفياً، وتعلم في المنزل حتى ذهب إلى مدرسة «وستمنستر» عام
١٦٤٦، التي ظل فيها حتى عام ١٦٥٢ . والتحق في هذا العام بجامعة «أكسفورد»
كأصغر طالب في كلية «كنيسة المسيح». وبعد أن حصل على درجتي الليسانس
والماجستير في الوقت المناسب، تم اختياره عام ١٦٥٩ باحثاً بالدراسات العليا في كلية
«كنيسة المسيح». عمل محاضراً في نفس العام في اللغة اليونانية، وعُين بعد ذلك قارئاً
في علم البيان والنقد للفلسفة الأخلاقية.

عندما بدأ لوك دراسة الفلسفة في «أكسفورد»، وجد هناك صورة رديئة
بل وجامدة من الاسكولائية كان ينظر إليها بكراهية شديدة، ويعتبرها «مربكة ومحيرة»
بما لها من مصطلحات غامضة ومسائل لا طائل وراها. ولا شك أنه تأثر بها أكثر
مما يعي، شأنه في ذلك شأن بعض فلاسفة عصر النهضة الآخرين وبعض الفلاسفة
المحدثين الذين ثاروا ضد الاسكولائية الأرسطية، غير أن قراءته الخاصة لديكار
أثارت لديه الاهتمام بالفلسفة أكثر مما تعلمه حينذاك بالجامعة في أكسفورد. ولا يعنى
ذلك أن لوك كان ديكارياً باستمرار. لكنه تأثر بديكار في مسائل معينة، وعلى أية
حال لقد أظهرت له كتابات ديكار أن التفكير الواضح والمنظم ممكن داخل مجال
الفلسفة كما هو ممكن خارجها.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

غير أنه احتفظ بوظيفة أقل شأنًا في لندن حتى عاد إلى «أوتس» في مقاطعة «أكسس»، حيث عاش ضيقاً على أسرة «ما شام»، على الرغم من أن واجباته كمفوض للتجارة اضطرت به إلى أن يقضى جزءاً من العام في العاصمة. مات جون لوك في أكتوبر عام ١٧٠٤، عندما كانت السيدة ماشام تقرأ له المزامير. وبالمقاس كانت هذه السيدة ابنة «رالف كدورث»، أحد فلاسفة أفلاطوني كمبريدج، تعرف عليها لوك وتعاطف مع بعض آرائها.

وعمل لوك الأساسى هو كتاب «مقال عن الفهم البشرى»^(٢). وفى عام ١٦٧١ انشغل لوك بمناقشة فلسفية مع خمسة أو ستة أصدقاء عندما بدا له أنهم لا يستطيعون التقدم فى النقاش حتى يفحصوا قدرات الذهن ويرى «ما هى موضوعات فهمنا التى تكون، أو لا تكون، مناسبة للدراسة»^(٣). وأعد لوك بحثاً فى الموضوع، وكوّن ذلك نواة المسودتين الأوليين لكتابه «المقال...» واصل العمل فى البحث أثناء السنوات التالية، ونشرت الطبعة الأولى عام ١٦٩٠ (سبق هذه الطبعة عام ١٦٨٨ تلخيصاً بالفرنسية فى فهرس كلار العام). وتم نشر ثلاث طبعات أخرى أثناء حياة لوك.

وفى عام ١٦٩٠ ظهر أيضاً كتاب لوك «بحثان فى الحكومة المدنية». هاجم فى البحث الأول نظرية الحق الإلهى للملوك كما عرضها «سير روبرت فيلمر»، بينما طور فى البحث الثانى نظريته السياسية الخاصة. وكان دافع لوك فى الكتابة كما يرى فى مقدمته لكتابه «بحثان...» أن يبرر ثورة ١٦٨٨، وأن يثبت حق «وليم أوف أورانج» فى اعتلاء عرش إنجلترا. لكنه لا يقصد أنه وضع مبادئه السياسية باستعجال على أمل أن يحقق هذا الغرض العملى. وفضلاً عن ذلك، يبقى تعبيره عن نظريته السياسية واحداً من الوثائق الأكثر أهمية فى تاريخ الفكر الليبرالى، تماماً كما يبقى كتابه «مقال...» واحداً من الوثائق الأكثر أهمية فى تاريخ المذهب التجريبى.

ونشر لوك فى عام ١٦٩٣ كتاب «بعض الأفكار فى التربية»، ونشر فى عام ١٦٩٥ كتاب «معقولاتية المسيحية». ونشر فى عام ١٦٨٩ كتاب «خطاب فى التسامح» باللغة اللاتينية وقد نشره غفلاً، وأعقب هذا الكتاب، فى عامى ١٦٩٠ و ١٦٩٣، خطابان آخران فى نفس الموضوع. وظهر خطاب رابع لم يكتمل بعد وفاته عام ١٧٠٦، فى وقت واحد مع مقاله عن المعجزات، وفحصه لرأى مالبرانش عن رؤية كل الأشياء فى الله،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

باستمرار انطباعاً هو أنه مفكر أمين. فعندما يقرأه المرء، لا يكون مضطراً إلى أن يسأل نفسه باستمرار عما إذا كان يمكنه أن يصدق ما يقوله.

يستخدم لوك اللغة الإنجليزية العادية في كتاباته ، سوى مصطلحات فنية قليلة؛ ويسهل إلى هذا الحد متابعته. لكن فيما يتعلق بكتابه «مقال...»، لا تُستخدم المصطلحات باستمرار بنفس المعنى، وإلى هذا الحد يصعب متابعته. ففي «رسائله إلى القارئ» يعترف بصراحة بحقيقة مؤداها أنه «كتب كتابه «مقال...» في أجزاء غير متماسكة، واستأنف كتابته مرة أخرى بعد فترات طويلة من تركه، عندما سنحت له حالته النفسية أو الفرص». ويخدم ذلك في تفسير التناقض والعيوب الموجودة في الترتيب وبعض التكرار الممل؛ «لقد كانت الطريقة التي كُتِب بها، عن طريق خطافات، وفترات طويلة من الانقطاع، خليقة بأن تسبب بعض التكرار». ولقد قُدِّم لوك نفسه سبب ترك النتائج على ما هي عليه. «لكني - إقراراً للحق - كسول، أو مشغول جداً حتى إنني لم أستطع أن أختصره». ومع ذلك، وربما وُضِع بصورة مفيدة بعض صنوف عدم الاتساق الأساسية، وركز بصورة أكثر تحديداً على معنى مصطلحات معينة. فهو يتحدث في بعض الأحيان - مثلاً - كما لو كان ما نعرفه هو أفكارنا والعلاقات بين الأفكار. ويعرف الفكرة - بالفعل - بأنها موضوع الفهم عندما يفكر شخص ما. لكنه يعني، في أحيان أخرى أننا نعرف - على الأقل - بعض الأشياء بصورة مباشرة. وبمعنى آخر، يعني أحياناً وجهة نظر من المعرفة هي وجهة النظر التمثيلية representationist، بينما يعني العكس في بعض الأحيان الأخرى. وتوجد أيضاً خيوط أو ميول مختلفة من التفكير فيما كان مضطراً إلى أن يقوله عن أفكار كلية. فهو يتحدث أحياناً بطريقة اسمية، غير أنه في أحيان أخرى يلوح بما يسميه الاسكولائيون «المذهب الواقعي المعتدل». ونتيجة كل ذلك هي أن هناك قدراً معنياً من الغموض واللبس في بساطة كتابة لوك ووضوحها التي تبدو لأول وهلة. وليس معنى ذلك أن لوك لم يستطع أن يوضح ألوان التفكير الغامضة تلك: فقد قام بتقديم التفسير الصحيح بدون شك؛ أعنى أنه إما كان كسولاً للغاية أو مشغولاً حتى إنه لم يستطع أن يوضح ألوان التفكير الغامضة.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وفضلاً عن ذلك، يعرفُ لوك الفكرة بأنها «ما تعنيه من كلمة وهم، وتصور، ونوع، أو ما يعرض للذهن أثناء عملية التفكير»^(٤). ويخبرنا هنا أن موضوعات الذهن هي أفكار. ويبدو أن الذهن ملائم لمعالجة كل أفكاره. ولا نستطيع أن نقول ما عساها أن تكون الموضوعات التي لا يكون الذهن مناسباً لمعالجتها. لأننا إذا استطعنا أن نقول ذلك، ستكون لدينا أفكار عن هذه الموضوعات. ونستطيع، في هذه الحالة، أن نعالجها، لأن الفكرة تُعرّف بأنها ما يعرض للذهن أثناء عملية التفكير.

ويقول لوك في مقدمة كتابه «مقال...» إن هدفه هو «البحث في أصل المعرفة البشرية، وبقينها، ومداها؛ والبحث أيضاً في أسس الاعتقاد ودرجاته، والرأى، والإجماع»^(٥). ولذلك لا يميز بوضوح بين السؤال السيكلوجى الذى يخص أصل أفكارنا والأسئلة الأبيستمولوجية مثل طبيعة المعرفة اليقينية، والأسس الكافية «للرأى». غير أنه يصعب توقع ذلك باستمرار. وقبل أن يتحدث عن المنهج الذى يفترض استخدامه، يلاحظ أنه من الأهمية أنه عندما «تبحث عن الحدود بين الرأى والمعرفة، وتفحص بأى المعايير، التى لا يكون لدينا عنها، فى أشياء، معرفة يقينية، لابد أن ننظم إجماعنا، ونكون معتدلين فى عقائدنا»^(٦). إن لدينا هنا برنامجاً ابستمولوجياً كبيراً أو قليلاً. لكن المسألة الأولى من منهج البحث الذى يقدمه لوك هى ضرورة البحث «فى أصل تلك الأفكار، والتصورات، أو ما شئت أن تسميها، التى يلاحظها شخص ما، ويكون واعياً بأنه يمتلكها فى ذهنه، والطرق التى يتم بواسطتها تزويد الفهم»^(٧). وهنا يكون لدينا بحث سيكلوجى.

ويغطى هذا البحث فى أفكارنا الكتاب الأول والثانى من كتاب «مقال فى الفهم البشرى». فى الكتاب الأول يقدم لوك أدلة ضد نظرية الأفكار الفطرية، بينما يقدم فى الكتاب الثانى نظرياته الخاصة عن: أفكارنا، وأصلها، وطبيعتها. لكن - كما قد يتوقع المرء عندما يعرفُ لوك الفكرة بأنها أيما كان موضوع الفهم عندما يفكر شخص ما - مناقشة الأفكار هى أحياناً مناقشة أفكارنا عن الأشياء، وهى أحياناً مناقشة الأشياء التى يكون لدينا عنها أفكار.

ويعالج الكتاب الثالث الكلمات. وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكتاب السابق، لأن «الكلمات فى دلالتها الأساسية أو المباشرة ليست شيئاً سوى الأفكار فى ذهن الشخص الذى يستخدمها»^(٨). إن الأفكار تمثل أشياء، وتمثل الكلمات أفكاراً.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

يمكن تقديم تفسير آخر لهذا الاتفاق العام. وبمعنى آخر إذا كان اتفاق كل الجنس البشرى على صدق هذه المبادئ يمكن تفسيره دون إدخال افتراض أفكار فطرية، فإن الافتراض يكون زائداً على الحاجة ولا داعى له، ولابد من تطبيق مبدأ الاقتصاد. لقد كان لوك مقتنعاً - بالتأكيد - بأنه يمكن تفسير أصل كل أفكارنا بسهولة دون التسليم بأفكار فطرية. ولهذا السبب وحده كان على استعداد لأن يستبعد النظرية.

ويرى لوك - من ناحية ثانية - أن الحجة التى تقدم لصالح نظرية الأفكار الفطرية ليس لها قيمة. لأنه ليس هناك إجماع عام على صدق أى مبدأ. إذ أن للأطفال والبلهاء عقولاً، لكن ليست لديهم معرفة بالمبدأ الذى يقول: من المستحيل بالنسبة لنفس الشيء أن يكون ولا يكون. ومع ذلك إذا كان هذا المبدأ فطرياً بالفعل، فلا بد أن يكون معروفاً. «فلا يمكن أن نقول عن قضية إنها موجودة فى الذهن، لم نعرفها بعد على الإطلاق؛ أو لم نعلمها بعد على الإطلاق»^(١٣). وفضلاً عن ذلك «فإن عدداً كبيراً من الجهلة، والهمج، يقضون سنوات كثيرة، حتى سنوات من عمرهم العقلى، دون أن يفكروا فى هذه القضية والقضايا العامة التى تشبهها»^(١٤). ونادراً ما تذكر المبادئ العامة من النمط النظرى فى أكوخ الهنود، ولا توجد فى أذهان الأطفال، ولا يوجد أى انطباع منها فى أذهان السذج»^(١٥). أما بالنسبة للمبادئ العملية أو الأخلاقية، «فيصعب أن نقدم مثلاً لى قاعدة أخلاقية واحدة، يمكن أن تزعم أنها عامة وتجد إجماعاً مثل قولنا «ما هو هو»، أو تكون واضحة الصديق مثل قولنا «من المستحيل بالنسبة لنفس الشيء أن يكون ولا يكون»^(١٦). فأتين القاعدة الأخلاقية التى يجمع عليها كل الناس؛ إن مبادئ العدالة العامة ومبادئ العقود الظاهرة للعيان تبين المبادئ الأكثر قبولاً عند الجميع. لكن من الصعب أن نعتقد أن أولئك الذين يتعدون باستمرار على هذه القواعد قد تلقوها عند الميلاد بوصفها مبادئ فطرية. وقد يحتج البعض بالقول بأن هؤلاء الناس يقبلون فى أذهانهم قواعد يناقضونها عندما يمارسونها. لكنى «اعتقد باستمرار أن أفعال الناس هى أفضل مفسر لأفكارهم»^(١٧) «ومن الغريب جداً وغير المعقول أن نفترض مبادئ عملية فطرية، لا تنتهى إلا فى التأمل»^(١٨). إن لدينا - بالفعل - ميولاً طبيعية، بيد أنها ليست نفس الشيء مثل المبادئ الفطرية. وإذا كانت المبادئ الأخلاقية فطرية بالفعل، فإننا لا نجد تلك الاختلافات فى الرؤية الأخلاقية والممارسة فى مجتمعات مختلفة وفى حقب مختلفة نجدها بالفعل.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

فلماذا - إذن - لا نصفها بأنها فطرية؟ وبإضافة هذه الصفة، لا يمكن أن نفسر شيئاً ولا يمكن أن نقول شيئاً آخر.

وبالنظر إلى الوقائع التي تذهب إلى أن نظرية الأفكار الفطرية ليست نظرية ذات أهمية بالنسبة للفكر المعاصر، وأن نظرية كانط عن القبلية قد قوضت، على أية حال، النظرية القديمة عن الأفكار الفطرية، فإنه يبدو أنني أعطيت حيزاً كبيراً للغاية لمجمل معالجة لوك للموضوع. لكن مناقشته للنظرية تخدم على الأقل في توضيح موقفه من الحس المشترك، ولجونه المستمر إلى دليل تجريبي متاح. وفضلاً عن ذلك، فإن هدف تاريخ الفلسفة ليس هو، ببساطة، ذكر نظريات لها أهميتها اليوم أيضاً. فلقد كانت نظرية الأفكار الفطرية مؤثرة في عصر لوك. وربما يخلق لوك في الخيال إلى حد ما، لأنه من الصعب أن نتصور أى شخص يعتقد أن الأطفال الصغار يعون بوضوح أى قضايا فطرية. غير أن لوك يهاجم أيضاً، كما رأينا، نظرية الأفكار الفطرية والمبادئ الضمنية والإجمالية؛ وقد تمسك أناس لهم أهمية ديكرت وليبنس بالنظرية في هذه الصورة.

هـ - وإذا استبعدنا - بالتالى - فرض الأفكار الفطرية، فكيف يُزود الذهن بالأفكار؟ من أين تأتي كل مواد الذهن والمعرفة؟ وأجيب عن هذا السؤال بكلمة واحدة، فأقول: من التجربة، ففيها تؤسس كل معرفتنا، ومنها تستمد نفسها فى نهاية الأمر^(٢٢). لكن ما الذى يعنيه لوك بالتجربة؟ إن نظريته تذهب إلى أن كل أفكارنا تستمد أصلاً من الإحساس أو من التأمل؛ ويكون الإحساس والتأمل التجربة. «إن حواسنا، المطلعة على موضوعات حسية معينة، تنتقل إلى الذهن إدراكات الأشياء المتعددة والتميزة، وفقاً للطرق التي تؤثر فيها تلك الموضوعات.. وعندما أقول إن الحواس تنقل إلى الذهن، فإننى أعنى أنها تنقل من موضوعات خارجية ما ينتج تلك الإدراكات إلى الذهن^(٢٣). وذلك هو الإحساس. والمصدر الآخر للأفكار هو إدراك عمليات أذهاننا الخاصة، مثل: الإدراك، والتفكير، والشك، والاعتقاد، والإرادة. وهذا المصدر هو التأمل «فالأفكار التي يقدمها لا تكون كذلك إلا من حيث إن الذهن يحصل عليها عن طريق تأمل عملياته الخاصة داخل ذاته»^(٢٤). إن كل أفكارنا تأتي من أحد هذين المصدرين أو الآخر.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

توما الاكويني أثبت في القرن الثالث عشر أن كل أفكارنا الطبيعية ومعرفتنا مؤسسة في التجربة، ولا وجود لأفكار فطرية. وعلاوة على ذلك، فقد سلّم الاكويني بإدراك حسي واستبطان أو تأمل بوصفهما «منبعين» للأفكار - إذا استخدمنا طريقة لوك في الحديث - على الرغم من أنه أخضع التأمل للإدراك الحسي - بمعنى أن الانتباه يكون موجهاً في البداية إلى موضوعات مادية خارجية. ولا يطلق على الاكويني، بالطبع، اسم «فيلسوف تجريبي». ولم يكن لوك نفسه، من أجل هذا السبب، «فيلسوفاً تجريبياً» خالصاً، إذا كنا نعني بالمذهب التجريبي الخالص فلسفة تستبعد الميتافيزيقا كلها. لكنني لا أريد أن أعقد مقارنة بين الاكويني ولوك. فهدفى عندما ذكرت الاكويني هو - ببساطة - أن أبين أنه من الخطأ افتراض أن لوك ابتكر النظرية التي تقول : إن هناك أفكاراً تنشأ من التجربة، وأن نتحدث كما لو كان مذهب الأفكار الفطرية قد أحرز سيطرة لا تقبل الجدل في العصور الوسطى. وبغض النظر تماماً عن فلاسفة تيار الفكر الأوكامي في القرن الرابع عشر، لم يؤمن فيلسوف من ميتافيزيقيي القرن الثالث عشر - مثل الاكويني الذي تمسك بشدة أكثر مما فعل فلاسفة مثل القديس بونافنيتير بالطريقة الأرسطية في التفكير - بفرض الأفكار الفطرية. لقد كان تأكيد لوك المبدأ التجريبي ذا أهمية تاريخية، غير أنه لم يكن ابتكاراً جديداً بمعنى أن لا أحد قبله دافع عن شيء من هذا القبيل.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

E. , 2, 1,3: 1, PP. 122 -3. (۲۲)

E. , 2, 1,4: 1, P. 124. (۲۴)

E. , 2, 1,8: 1, P. 127. (۲۵)

E. , 2, 1,24: 1, P. 142. (۲۶)

الفصل الخامس

لوك (٢)

الأفكار البسيطة والمركبة - الأعراض البسيطة - المكان - الامتداد الزمني -
اللانهاية - الأعراض المركبة - الصفات الأولية والثانوية - الجوهر -
العلاقات - العلية - الهوية بالنسبة للأجسام اللاعضوية والعضوية
وبالنسبة للإنسان - اللغة - الأفكار الكلية - الماهيات الحقيقية والاسمية

١ - قد يوحي ما قلناه في القسم الأخير من الفصل السابق عن أصل أفكارنا أن
الذهن سلبي تماماً من وجهة نظر لوك؛ أعنى أن الأفكار «تنتقل إلى الذهن»، وتستقر
فيه، وأن الأذهان لا تلعب دوراً إيجابياً في تكوين الأفكار على الإطلاق. بيد أن ذلك
سيكون تفسيراً خاطئاً لنظرية لوك، إذا أخذناه على أنه تفسير مقنع. لأن لوك قام
بالتمييز بين أفكار بسيطة وأفكار مركبة. وعندما يستقبل الذهن الأفكار بصورة سلبية،
فإنه يمارس نشاطاً إيجابياً في إنتاج الأفكار.

ومن الأمثلة التي يقدمها لوك للأفكار البسيطة: برودة قطعة من الثلج وصلابتها،
ومنظر زهرة السوسن وبياضها، وطعم السكر. فكل من هذه «الأفكار» تأتي إلينا عن
طريق حاسة واحدة فقط. ففكرة البياض لا تأتي إلينا إلا عن طريق حاسة البصر،
بينما لا تأتي إلينا فكرة منظر وردة إلا عن طريق حاسة الشم. ولذلك يطلق عليها لوك
اسم «أفكار حاسة واحدة». غير أن هناك أفكاراً أخرى نستقبلها عن طريق أكثر من
حاسة واحدة، مثل: المكان أو الامتداد، والشكل، والسكون، والحركة؛ لأنها تكون
انطباعات على العين واللمس يمكن إدراكها، ويمكننا أن نستقبل فكرة الامتداد،
والشكل، وحركة الأجسام وسكونها، ونقلها إلى أذهاننا، عن طريق البصر والشعور^(١).

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ولا يمثل تصور لوك العام صعوبة كبيرة. فنحن نربط، مثلاً، الأفكار البسيطة عن البياض، والحلاوة، والصلابة، ولكن نكون فكرة بسيطة عن طعم السكر. ولا شك أن التساؤل الذي يقول بأى معنى يمكن للأفكار البسيطة عند لوك أن تُسمى، بصورة ملائمة، «أفكاراً بسيطة»، هو محل للنزاع والجدل، تماماً كما أن التساؤل الذي يقول بأى معنى يمكن أن توصف بأنها «أفكار» هو محل للجدل. ومع ذلك، فإن التصور العام واضح بدرجة كافية، طالما أننا لم ندقق النظر فيه بإمعان. غير أن لوك يُعقد المسائل عن طريق تقديم تصنيفين للأفكار المركبة. ففي المسودة الأصلية لكتابه «مقال...»، يقسم الأفكار المركبة إلى: أفكار عن الجواهر (فكرة الإنسان أو فكرة الورد أو الذهب مثلاً)، وأفكار عن الجواهر الجمعية (فكرة الجيش)، وأفكار عن الأعراض أو التغيرات (فكرة الشكل، مثلاً، أو فكرة التفكير أو الجرى)، وأفكار عن العلاقات «النظر إلى فكرة واحدة بالنسبة إلى فكرة أخرى»^(٨). ويظهر هذا التصنيف مرة أخرى فى كتابه «مقال...» المنشور، مختزلاً، من أجل الإيفاء بالفرض، إلى أجزاء ثلاثة وهى: أفكار عن الأعراض، وأفكار عن الجواهر، وأفكار عن العلاقات. وهو تصنيف من حيث الموضوعات. بيد أنه يدرج تصنيفاً ثانياً آخر فى كتابه المنشور «مقال...» ويضعه فى المقام الأول. وهو تصنيف حسب أنشطة الذهن. فالذهن قد يربط أفكاراً بسيطة فى مركب واحد «وهكذا تتكون كل الأفكار المركبة»^(٩)، وهى ملاحظة قد تبدو من الوهلة الأولى أنها تحصر الأفكار المركبة فى أفكار من هذا النوع. ويستطيع الذهن، من جهة ثانية، أن يجمع بين فكرتين، سواء كانتا بسيطتين أو مركبتين، ويقارن بينهما دون أن يوحدهما فى فكرة واحدة. ويبلغ بالتالى أفكاره عن العلاقات. ويستطيع الذهن، من جهة ثالثة، أن يفصل أفكاراً «من كل الأفكار الأخرى التى تلازمها فى وجودها الحقيقى؛ ويُطلق على ذلك اسم «التجريد»: وهكذا تتكون كل أفكاره العامة»^(١٠). وبعد أن قدم لوك هذا التصنيف فى الطبعة الرابعة من كتابه «مقال...»، ينتقل إلى تقديم تصنيفه الأصلى. ففي الفصول التالية يتبع الفصول التى قبلها، معالجاً الأعراض فى البداية، ثم الجواهر، ويعالج العلاقات بعد ذلك.

ولأن لوك قدم نظريته العامة فى الأفكار البسيطة والمركبة، فلا بد أن يقدم لها تبريراً. إن مهمته هى بيان كيف يمكن تفسير الأفكار المجردة التى تبدو أنها بعيدة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إن الفكرة البسيطة عن المكان تأتي إلينا عن طريق حاستين؛ هما البصر واللمس. «هذا المكان إذا نظرنا إليه على أنه مجرد بُعد بين أى شيئين، دون أن ننظر إلى أى شيء آخر بينهما، سُمي «بالمسافة» أما إذا نظرنا إليه وأدخلنا في حسابنا الطول، والعرض، والارتفاع، فأعتقد أنني اسميه «بالسعة». وينطبق لفظ «الامتداد»^(١٦) عليه، عادة بأى طريقة نظرنا إليه^(١٧). وبالتالي، فإن كل مسافة مختلفة هي تحويل مختلف للمكان، وكل فكرة عن أى مسافة مختلفة أو مكان هي عرض بسيط لهذه الفكرة^(١٨). ويمكننا أن نعيد أو نضيف أو نوسع فكرة بسيطة عن المكان حتى نصل إلى فكرة عن المكان العام، الذى يطلق عليه لوك اسم «الامتداد». وترجع الفكرة المركبة عن هذا المكان العام - الذى نتصور فيه الكون بوصفه ممتداً، إلى ربط أو إعادة أو توسيع أفكار بسيطة عن المكان.

وملاحظتنا لسلسلة الأفكار التى تعقب الواحدة منها الأخرى فى أذهاننا هي الأساس البعيد لفكرتنا عن الزمان «إن التأمل فى هذه المظاهر لأفكار عديدة، واحدة تلو الأخرى، فى أذهاننا، هو الذى يعدنا بفكرة التتابع، أما المسافة بين أى أجزاء لهذا التتابع، أو بين مظاهر أى فكرتين فى أذهاننا، فهى ما نطلق عليها اسم «الامتداد الزمنى»^(١٩). وهكذا نحصل على فكرتى التتابع والامتداد الزمنى. وعن طريق ملاحظة ظواهر معينة تحدث فى فترات منتظمة ومتساوية كما يبدو، نحصل على فكرة المدة أو مقاييس الامتداد الزمنى، مثل: الدقائق، والساعات، والأيام، والسنوات. إننا نستطيع - من ثم - أن نعيد أفكار أى مدة من الزمان، مضيفين مدة إلى أخرى دون أن نصل مطلقاً إلى نهاية هذه الإضافة؛ ونكوّن بالتالى فكرة الأبدية. ونحصل أخيراً «عن طريق النظر إلى أى جزء من امتداد زمنى لامتناه، كما يظهر عن طريق مقاييس دورية، على فكرة ما نسميه بالزمان بوجه عام»^(٢٠). أعنى أن الزمان بوجه عام هو فى أحد المعانى المحتملة للفظ، «قدر كبير من الامتداد الزمنى كما يقاس ويتواجد مع وجود أجسام الكون العظيمة وحركاتها، بقدر ما نعرف أى شيء عنها: وبهذا المعنى يبدأ الزمان وينتهى بتكوين هذا العالم المحسوس»^(٢١).

ويبدو أن المنتاهى واللامتناهى، كما يقول لوك، عرضان عن «الكم». صحيح أن الله لامتناه غير أنه ليس - فى الوقت نفسه - فى متناول قدراتنا الضيقة^(٢٢). ومن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

زمنى لعدد «كبير جداً»، لكن هناك أيضاً عنصراً لا محدوداً أو سلبياً، أعنى الأفكار اللامحدودة عما يوجد وراء المتصور على إنه بلا حدود.

لقد انتبه النقاد إلى وصف لوك الفج والناقص لأصل فكرتنا عن اللامتناهي، وانتبهوا إلى الواقعة التي تقول: إن تفسيره للعدد اللامتناهي لا يرضى - بالتاكيد - عالم الرياضة الحديث. لكن مهما تكن عيوب تحليل لوك، سواء من وجهة النظر السيكلوجية أم من وجهة النظر الرياضية، فإن محاولته - بالطبع - هي بيان أنه حتى تلك الأفكار، مثل: فكرة الكبر أو العظم Immensity أو المكان اللامحدود، والابدية، والعدد اللامتناهي، التي تبدو أنها بعيدة جداً عن المعطيات المباشرة للتجربة، يمكن مع ذلك تفسيرها بناء على مبادئ تجريبية دون لجوء إلى نظرية الأفكار الفطرية. وبناء على ذلك، يتفق مع لوك كثير من الذين ينتقون تحليله بناء على أسس أخرى.

٣ - يقول لوك: إن الأعراض المركبة تتكون من ربط أفكار بسيطة من أنواع مختلفة. هذه الأفكار لابد أن تكون متوافقة - بالطبع - لكن بغض النظر عن هذا الشرط، يمكن أن ترتبط أى أفكار بسيطة من أنواع مختلفة لكي تكون فكرة مركبة عن عرض مركب. ومن ثم تدين هذه الفكرة المركبة بوحدتها إلى نشاط الذهن في إحداث الربط. وقد يكون - بالفعل - شيئاً في الطبيعة يناظر الفكرة، لكن ليست هذه هي القضية بالضرورة على الإطلاق.

يقدم لوك أمثلة على الأعراض المركبة منها: الإلزام، والسكر، والنفاق، وانتهاك الحرمات، والقتل. وكل هذه الأعراض ليست جوهرية. وكل عرض منها (أو بصورة أكثر دقة فكرة كل عرض) هو ارتباط أفكار بسيطة من أنواع مختلفة. فهل يمكن القول بأنها موجودة، وإذا كان الأمر كذلك، فأيّن توجد؟ إن القتل، مثلاً، لا يوجد في الخارج إلا في فعل القتل. وبالتالي، فإن وجوده الخارجى مؤقت وعابر. ومع ذلك، يكون له وجود أكثر بقاء ودواماً في أذهان الناس، أعنى من حيث إنه فكرة. لكن «ليس (للأعراض المركبة) أى وجود إلا عندما نفكر فيها»^(٧٧).

يبدو أن للأعراض المركبة وجودها الأكثر دواماً وبقاءً في أسمائها؛ أعنى في الكلمات التي تُستخدم بوصفها علامات للأفكار التي لها صلة بها. إننا معرضون - بالفعل - في حالة الأعراض المركبة، كما يرى لوك، لأن نأخذ الاسم للفكرة نفسها.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الفكرة المركبة عن القتل إليه بسهولة، حتى على الرغم من أنه لم ير قتلاً على الإطلاق. إن أكثرية الناس لم يروا قتلاً على الإطلاق، لكن لديهم مع ذلك الفكرة المركبة عنه.

٤ - لابد أن نتذكر أن لوك يقسم الأفكار المركبة إلى: أفكار عن الأعراض، وأفكار عن الجواهر، وأفكار عن العلاقات. وبعد أن قمت بمعالجة تمييزه بين الأفكار البسيطة والأفكار المركبة، قمت بمعالجة الأفكار المركبة عن الأعراض البسيطة والمركبة، لكي أوضح بسهولة أكثر تطبيق نظريته التي تقول: إن كل أفكارنا تُستمد - أصلاً - من الإحساس والتأمل، أى من التجربة، دون أن يكون هناك داع للتسليم بافتراض الأفكار الفطرية. لكن قبل أن تنتقل إلى مناقشة الأفكار عن الجواهر والأفكار عن العلاقة، أريد أن أقول شيئاً عن نظرية لوك عن الصفات الأولية والثانوية: إنه يعالج هذه المسألة في فصل يحمل عنوان «اعتبارات أخرى أبعد عن أفكارنا البسيطة» قبل أن يتحدث عن الأفكار المركبة.

يميز لوك بين الأفكار والصفات «فما يستقبله الذهن في ذاته أو ما يكون الموضوع المباشر للإدراك، وللتفكير أو الفهم، هو ما أطلق عليه اسم «فكرة»؛ أما القوة على إحداث أى فكرة في ذهننا فهو ما أطلق عليه اسم «صفة» الموضوع الذى تكون فيه هذه القوة»^(٣١). فإذا أخذنا مثال كرة الثلج، فإنه يرى أن قوة كرة الثلج على أن تحدث فينا فكرة اللون الأبيض، والبرودة، والشكل الكروي يُطلق عليها اسم «صفات»، بينما تُسمى «الإحساسات أو الإدراكات» المناظرة «بالأفكار».

ولابد أن نقوم بتمييز أبعد الآن. فبعض الصفات لا يمكن أن تتفصل عن الجسم، على الرغم من التغيرات التى تطرأ عليه. فحبة من القمح لها صلابة، وامتداد، وشكل، وحركة. إذا قسمناها، نجد أن كل جزء يحتفظ بهذه الصفات. «وأنا أسمى هذه الصفات بالصفات الأصلية أو الأولية للجسم، التى اعتقد أنها تنتج أفكاراً بسيطة فينا، مثل الصلابة، والامتداد، والشكل، والحركة أو السكون، والعدد»^(٣٢). وإلى جانب هذه الصفات الأولية، هناك أيضاً صفات ثانوية. والصفات الثانوية ليست «شيئاً في الموضوعات ذاتها، بل هى قوى تحدث إحساسات متنوعة فينا عن طريق صفاتها الأولية»^(٣٣). ومن أمثلتها: الألوان، والأصوات، والطعوم، والروائح. ويذكر لوك أيضاً صفات من الدرجة الثالثة، أعنى القوى الموجودة فى أجسام ولا تحدث أفكاراً فينا،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

كنا نعنى «بذاتى» ما يوجد فى الذات المدركة. وعلى أية حال، فإن المسألة بالنسبة للوك هى أن أفكار الصفات الأولية تشبه ما هو موجود فى الموضوع، فى حين أن أفكار الصفات الثانوية ليست كذلك. «إن كبر أو عظم، وعدد، وشكل، وحركة أجزاء النار أو الثلج توجد فيهما، سواء أتركبتها حواس المرء أم لا، وتسمى بالتالى صفات حقيقية، لأنها توجد فى هذه الموضوعات بالفعل. لكن الضوء، والحرارة، والبياض، أو البرودة لا توجد فيها بالفعل مثلما لا يكون المرض أو الألم غير موجود فى المن»^(٢٦)،^(٢٧). لماذا يوجد البياض والبرودة فى الثلج، ولا يوجد فيه الألم، عندما يحدث الفكرة الأولى والثانية فينا، ولا يمكنه أن يفعل ذلك إلا عن طريق كبر، وشكل، وحركة أجزائه الصلبة؟^(٢٨). دعنا ننظر إلى اللون الأبيض والأحمر فى المرمر: امنع الضوء من التأثير عليه، تختفى ألوانه، فإنه لا يحدث أى من هاتين الفكرتين فينا، قم بإعادة الضوء إليه، فإنه يحدث هذين المظهرين فينا مرة أخرى^(٢٩). قم مرة أخرى «بندق لوزة، فإن اللون الأبيض اللامع يتغير إلى لون قذر، ويتحول الطعم الحلو إلى طعم زيتى. ما هو التغير الحقيقى الذى يمكن أن تحدثه كسارة البندق فى أى جسم سوى تغيير تركيبه؟»^(٤٠) وتبين هذه الاعتبارات أن أفكارنا عن الصفات الثانوية ليس لها نظير مماثل فى الأجسام.

ولست هذه النظرية الخاصة بالصفات الأولية، من حيث إنها تتميز عن الصفات الثانوية، من اختراع لوك. فقد تمسك بها «جاليليو»^(٤١)، وديكارت، وقد برهن «ديمقريطس»^(٤٢) على شىء من هذا القبيل منذ عدة قرون سابقة. وقد يبدو لأول وهلة على الأقل أنها نتيجة معقولة، ربما النتيجة الوحيدة المعقولة التى تستنتج من الوقائع العلمية المتاحة، فلا أحد يريد - مثلاً - أن يتساءل عن الواقعة التى تذهب إلى أن إحساساتنا عن اللون تتوقف على اختلافات معينة فى الأطوال الموجية لإشعاعات الضوء التى تؤثر على أعيننا. بيد أنه من الممكن إثبات عدم وجود رابطة ضرورية على الإطلاق بين التسليم بمعطيات علمية تمت البرهنة عليها بصورة أكبر أو أقل، والقول بأنه ليس من المناسب أن نتحدث - مثلاً - عن موضوع بوصفه قرمزياً أو أزرق. فإذا تناقش شخصان حول الأحداث الفيزيائية المتضمنة فى الإحساس، فإن المناقشة تكون مناقشة علمية وليست مناقشة فلسفية. وإذا اتفقا حول المعطيات العلمية، فإنه يمكن أن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وليس لدى لوك وسيلة، بناء على نظريته التمثيلية عن الإدراك، لإثبات صحة تمييزه بين الصفات الأولية والصفات الثانوية.

ولم يكن لوك واعياً بهذه الصعوبة، ورجع إلى فكرته عن العلية، كما سنرى فيما بعد، لكي يبين أن هناك أشياء تتناظر أفكارنا. فعندما نلاحظ التجمعات متكررة من أفكار بسيطة، تُنتقل إلينا بون اختيار منا، (ما عدا اختيار عدم إغلاق أعيننا، وسد أذناننا)، فمن المحتمل على الأقل بدرجة عالية وجود أشياء خارجية تسبب هذه الأفكار، على الأقل عندما تستقبل أذهاننا الأفكار بصورة سلبية. وهذا الاستدلال موثوق به من وجهة نظر الحس المشترك. بيد أنه، بغض النظر عن أى صعوبات جوهرية فى نظريته، قلما يكون كافياً تبرير تمييزه بين الصفات الأولية والصفات الثانوية. لأن ذلك يبدو أنه يتطلب معرفة أخرى غير المعرفة بأن هناك «شيئاً موجوداً فى الخارج».

لقد أثبت باركلي، كما سنرى فيما بعد فيما يتعلق بفلسفة لوك، أن الحجج التى قدمها لوك لبيان أن اللون، والطعم، والرائحة.. الخ، هى أفكار فى أذهاننا وليست صفات حقيقية للموضوعات، يمكن أن تُستخدم أيضاً لبيان أن الصفات الأولية المزعومة هى أفكار فى أذهاننا، وليست صفات حقيقية للموضوعات. وهناك الكثير الذى لابد أن يقال لصالح هذه الوجهة من النظر. إن الصفات الأولية لا تنفصل، كما يرى لوك، عن الأجسام. لكن ليس هذا صحيحاً إلا إذا كان يتحدث عن صفات أولية يمكن تحديدها وليس عن صفات أولية لا يمكن تحديدها. ولناخذ مثلاً من أمثلته الخاصة وهو: أن جزئى حبة القمح التى نقسمها لهما امتداد وشكل بالتأكيد، لكنهما لا يمتلكان الامتداد المحدد والشكل الذى يكون لحبة القمح كلها. ومع ذلك يستطيع المرء أن يقول أيضاً عن البندق المسحوق إنه حتى إذا لم يكن له نفس اللون، كما يؤكد لوك، مثل البندق غير المسحوق، فإنه لا يزال يمتلك لوناً. فهل لا يتنوع الحجم المدرك والشكل لموضوع ما بتنوع موضع الذات التى تقوم بالإدراك، والشروط الفيزيائية الأخرى مثلما تتنوع الصفات الثانوية؟

وليس المقصود من الاعتبارات السابقة - بالطبع - إضفاء الشك على المعطيات العلمية التى يمكن استخدامها لتدعيم موقف لوك، بل الهدف منها هو بيان بعض الصعوبات التى تواجه نظرية لوك عندما تُقدّم على أنها نظرية فلسفية - وبالقالى -

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

للصفات. إن الذهن، بصورة أكثر دقة، يزودنا بفكرة الحامل أو الدعامة التي تلازم الصفات الأولية، والتي يكون لديها القوة على أن تقوم بإحداث أفكار بسيطة فينا عن الصفات الثانوية، عن طريق الصفات الأولية. إن الفكرة العامة عن الجوهر ليست «شيئاً سوى دعامة مفترضة لكنها مجهولة لتلك الصفات التي نجدها موجودة، تلك الصفات التي نتصور أنها لا يمكن أن توجد بدون وجود شيء يحملها، أى بدون شيء يدعمها (و) نحن نطلق على هذا المدعم اسم الجوهر، الذي يكون، وفقاً للمعنى الحقيقي للكلمة، في اللغة الإنجليزية البسيطة «ما يوجد تحت» أو «الذي يمسك به»^(٤٧).

ومن المهم أن ندرك أن لوك يتحدث عن أصل فكرتنا عن الجوهر. ولقد أدرك «ستلنجفت» أسقف وورثستر في البداية أن لوك يعنى أن الجوهر لا يعدو شيئاً سوى وهم من أوهام الناس. وقد رد لوك على ذلك بأنه يناقش فكرة الجوهر وجوده، والقول بأن الفكرة قائمة في عادة افتراضنا أو تسليمنا بدعامة للصفات، لا يعنى أن هذا الافتراض أو التسليم ليس ملزماً، وليس هناك شيء كهذا بوصفه جوهرًا. إن الاستدلال على الجوهر، من وجهة نظر لوك له ما يبرره لكن ذلك لا يغير الحقيقة التي تقول إنه جوهر. إننا لا ندرك الجوهر، ولكننا نستدل عليه من حيث إنه دعامة «الأعراض» والصفات أو الأعراض، لأننا لا نستطيع أن نتصور الجواهر بوصفها قائمة بذاتها. والقول بأن الفكرة العامة عن الجوهر هي فكرة حامل غير معروف، يعنى أن العلامة المميزة الوحيدة للفكرة في أذهاننا هي أنها تدعم أعراضاً، أى أنها تكون الحامل الذي يلزم الصفات الأولية، والتي يكون لها القوة على أن تقوم بإحداث أفكار بسيطة فينا. ولا يعنى ذلك أن الجوهر هو اختراع محض من اختراعات الخيال.

ولابد من تمييز هذه الفكرة العامة عن الجوهر، التي لا تكون واضحة مميزة، عن أفكارنا المميزة عن جواهر خاصة. فتلك الجواهر الخاصة ليست «شيئاً سوى صنوف متعددة من الربط بين أفكار بسيطة... فعن طريق هذه الصنوف المتعددة من الربط لأفكار بسيطة - ولا شيء آخر - تتمثل أنواعاً معينة من الجواهر^(٤٨). إذ يكون لدينا - مثلاً - عدد من الأفكار البسيطة (عن اللون الأحمر، أو اللون الأبيض، أو عن طعم معين، أو عن شكل معين.. وهكذا) تتلازم في التجربة، ونطلق على ارتباطها عن طريق اسم واحد «وردة». وعلى نحو مماثل، ماذا عساه أن تكون فكرة الشمس، سوى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

التي تكون لدينا عن الله وأرواح منفصلة تتكون من الأفكار البسيطة التي نتلقاها من التأمل^(٥٢). وعندما نكون فكرة الله، فإننا نوسع إلى ما لا نهاية أفكار تلك الصفات «التي من الأفضل أن تكون في هذه الفكرة عما أن تكون بدونها»^(٥٣)، ونربطها لكي نكون فكرة واحدة مركبة. إن الله بسيط في ذاته، وليس «مركباً»؛ لكن فكرتنا عنه مركبة.

وتتكون أفكارنا المميزة عن الجواهر المادية من أفكار الصفات الأولية، ومن أفكار الصفات الثانوية (أي القوى الموجودة في الأشياء التي تقوم بإحداث أفكار بسيطة فينا عن طريق الحواس)، ومن أفكار قوى الأشياء على أن تحدث في أجسام أخرى أو أن تستقبل في ذاتها تغيرات الصفات الأولية عندما تحدث أفكاراً مختلفة فينا من الأفكار التي حدثت من قبل. إن «معظم الأفكار البسيطة التي تؤلف أفكارنا المركبة عن الجواهر، عندما ننظر إليها نظرة صحيحة، لا تكون، بالفعل، سوى قوى، على الرغم من أننا مستعدون لأن نعددها صفات إيجابية»^(٥٤). فالجزء الأعظم من فكرتنا عن الذهب يتكون من أفكار عن صفات (مثل الاصفرار، وقابلية الانصهار، وقابلية الذوبان في الماء الملكي) لا تكون من حيث إنها توجد في الذهب ذاته، سوى قوى إيجابية أو سلبية فقط.

وبالتالي، من حيث إن أفكارنا المركبة المميزة عن جواهر معينة هي - ببساطة - ارتباطات من أفكار بسيطة نستقبلها عن طريق الإحساس والتأمل، فإننا نستطيع أن نفسر تكوينها عن طريق مقدمات لوك التجريبية. لأنه يقر بوضوح بتكوين أفكار مركبة عن طريق ربط أفكار بسيطة. بيد أنه يبدو أنه من المشكوك فيه عما إذا كانت مقدماته تسمح بتفسير تكوين الفكرة العامة عن الجوهر من حيث إنه حامل غامض. ولقد اعتقد دكتور ستلنجف في البداية أن لوك يقصد أن الجوهر ليس شيئاً سوى ارتباط الصفات. ويميز لوك في رده بين أفكارنا المركبة عن جواهر جزئية والفكرة العامة عن الجوهر. نحصل على أفكارنا المركبة عن الجواهر الجزئية عن طريق ربط أفكار بسيطة، في حين أننا لا نحصل على الفكرة العامة عن الجوهر عن طريق ربط أفكار بسيطة. فكيف نحصل عليها إذن؟ يخبرنا لوك بأننا نحصل عليها عن طريق «التجريد». لكنه وصف عملية التجريد فيما سبق بأنها «فصل أفكار عن كل الأفكار الأخرى التي تلازمها في وجودها الحقيقي»^(٥٥). وفي حالة تكوين الفكرة العامة عن الجوهر لا تكون

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

آخر أيضاً، يضع فيه العلاقات فى قائمة بذاتها. ووضع منهجين للتصنيف جنباً إلى جنب ليس أمراً مرضياً بصورة واضحة. وعلى أية حال يخبرنا لوك بأن العلاقات تنشأ من فعل مقارنة شيء بشيء آخر. فإذا نظرت إلى «زيد» من حيث إنه كذلك، أعنى إذا نظرت إليه فى ذاته فقط، فإننى لا أقارنه بأى شخص آخر. ويصدق الشيء نفسه عندما أقول إن «زيداً» أبيض. لكن عندما أقول عن «زيد» إنه «زوج»، فإننى أشير إلى شخص آخر، وعندما أقول إنه «أكثرياًضاً»، فإننى أشير إلى شخص ثالث، وينقاد تفكيرى فى كلتا الحالتين إلى شخص يجاوز «زيداً»، وأضع فى اعتبارى شيئين^(٥٦). فالألفاظ مثل «زوج»، و«أب»، و«ابن»... إلخ، ألفاظ نسبية. لكن هناك ألفاظاً أخرى تظهر للوهلة الأولى أنها مطلقة، لكنها «تخص شيئاً مضمراً»، مع أنها علاقة يمكن ملاحظتها بصورة أقل^(٥٧). ومن أمثلتها، على سبيل المثال، لفظ «ناقص».

ويمكن أن نقارن أى فكرة سواء أكانت بسيطة أم مركبة بفكرة أخرى، وتسبب بالتالى فكرة عن العلاقة. لكن يمكن لجميع أفكارنا عن العلاقات أن ترتد على المدى البعيد إلى أفكار بسيطة. تلك مسألة من المسائل التى يهتم لوك بالقيام بها بصورة كبيرة. لأنه إذا أراد أن يبين أن هذا التفسير التجريبي لأصل أفكارنا تفسير له ما يبرره، فلا بد أن يبين أن كل الأفكار عن العلاقات تتكون - أصلاً - من أفكار نحصل عليها من الإحساس أو التأمل. وينتقل للبرهنة على أن ذلك صحيح بتطبيق نظريته على علامات معينة مختارة، مثل العلية.

لكن قبل أن ننظر فى تحليل لوك للعية، يجدر لفت الانتباه إلى الطريقة الغامضة التى يتحدث بها لوك عن العلاقات. فهو يهتم، بصفة خاصة، ببيان كيف يكتسب الذهن أفكاره عن العلاقات؛ أعنى أنه يهتم - أساساً - بسؤال سيكولوجى أكثر من اهتمامه بسؤال أنطولوجى، وهو ما عساها أن تكون طبيعة العلاقات. وعلى أية حال ينتج عن ذلك، كما وصف لوك الفكرة بأنها ما يعرض للذهن عندما يقوم بعملية التفكير، إن العلاقات هى أفكار. ومن الصعب أن نفهم أن بعضاً من تصريحاته تعنى أى شيء آخر سوى أن العلاقات ذهنية بصورة خالصة. فهو يخبرنا - مثلاً - أن «طبيعة العلاقة تكمن فى رد شيئين بعضهما إلى بعض، أو مقارنتهما بعضهما ببعض»^(٥٨). والعلاقة أيضاً هى «طريقة لمقارنة شيئين بعضهما ببعض أو النظر فيهما معاً، وإعطاء واحد

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إذا ما تعرضت النار، نطلق على النار علة الرماد، ونطلق على الرماد المعلول». ومن ثم، فإن فكرتي العلة والمعلول تنشآن من أفكار نستقبلها من الإحساس أو التأمل. «ويكفى وجود فكرة العلة والمعلول لدينا، لأن ننظر إلى أى فكرة بسيطة، أو جوهر، على أنهما موجودان عن طريق فعل فكرة أخرى أو جوهر آخر، دون معرفة طريقة تلك العملية»^(٦٤). إننا نستطيع أن نميز بين أنواع مختلفة من الإيجاد. فعندما ينتج جوهر جديد من مادة موجودة من قبل، فإننا نتحدث عن «التوليد» Generation. وعندما تنتج «فكرة بسيطة» (أو صفة) فى شيء موجود من قبل، فإننا نتحدث عن «التبدل». وعندما يوجد أى شيء دون أن تكون هناك أى مادة سابقة يتكون منها، فإننا نتحدث عن «الخلق» Creation. لكن أفكارنا عن كل هذه الأنواع المختلفة من الإيجاد تُستمد من أفكار نستقبلها عن طريق الإحساس والتأمل، مع أن لوك لم يقدم أى تفسير لكيفية شمول هذه القضية العامة حالة فكرتنا عن الخلق.

ومن حيث إن العلية علاقة بين أفكار، فإنها بناء عقلى. غير أن لها أساساً واقعياً، وهذا الأساس هو القوة، أى القوى التى تمتلكها الجواهر لإحداث جواهر أخرى، وإحداث أفكار فينا. ويصنف لوك فكرة القوة بوصفها فكرة بسيطة، على الرغم من إننى «أعترف بأن القوة تتضمن بداخلها نوعاً من علاقة، أى علاقة بفعل أو تغيير»^(٦٥). وتُقسم القوى - كما رأينا - إلى قوى إيجابية وقوى سلبية. ومن ثم يمكننا أن نسأل من أين نستمد فكرتنا عن القوة الإيجابية والفاعلية العلية. والإجابة - كما يرى لوك - هى أن فكرتنا الأكثر وضوحاً عن القوة الإيجابية مستمدة من التفكير والاستبطان. فإذا لاحظنا كرة متحركة تضرب كرة ساكنة وتحركها، فإننا لا نلاحظ أى قوة إيجابية فى الكرة الأولى، لأنها «توصل فقط الحركة التى تستقبلها من كرة أخرى وتفقد فى ذاتها كثيراً مثل الكرة الأخرى التى تستقبل الحركة: التى لا تقدم لنا سوى فكرة مبهمة عن قوة إيجابية تتحرك فى جسم، بينما نلاحظ أنها تتنقل فقط، ولا تحدث أى حركة. لأنها ليست سوى فكرة مبهمة جداً عن قوة لا تصل إلى إحداث الفعل، بل إلى استمرار تقبل الفعل»^(٦٦) ومع ذلك، إذا رجعنا إلى الاستبطان فإننا «نجد فى نواتنا قوة على أن نبدأ، أو نتحمل، ونواصل أو ننهى أفعالاً عديدة من أفعال أذهاننا وحركات أجسامنا، عن طريق تصور نظام الذهن أو تفضيله، أو ليس فعل هذا الفعل المعين أو ذاك»^(٦٧).

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- ببساطة - «مسألة كلمات: ولكنى أقصد أنه يقبل وجهة نظر الحس المشترك التى يعبر عنها الاستعمال اللغوى العادى. ولأن الله أزلّى، ولا يعترّيه التغير، وقادر، فليس ثمة شك - كما يخبرنا لوك - فى هويته الذاتية الثابتة. لكن الأشياء المتناهية توجد فى زمان ومكان، وتحدد علاقتها بالزمان التى تكون فيه والمكان الذى توجد فيه هوية كل شىء - طيلة فترة وجودها. ويمكننا، بالتالى، أن نحل مشكلة التفرد بالقول بأن مبدأ التفرد «هو الوجود ذاته، الذى يحدد وجود أى نوع بزمان معين ومكان معين، لا يقبل التبدل بوجودين من نفس النوع»^(٧٨). والجزء الأخير من هذا التعريف شامل؛ لأنه من الممكن أن يشغل جوهرا من نوعين مختلفين نفس المكان فى نفس الزمان. ومن المحتمل أن لوك كان يفكر - أساساً - فى أزلية الله وقدرته.

لكن على الرغم من أن لوك يعرف الهوية بوجه عام من جهة التساوى الزمانى والمكانى لوجود شىء ما، فإنه يرى أن المسألة أكثر تعقيداً مما تسمح به هذه الصياغة. فإذا ارتبطت ذرتان لتكوّنا «كتلة واحدة من المادة»، فإننا نتحدث عن الكتلة بوصفها هى، طالما أن نفس الذرتين ارتبطتا معاً. لكن إذا أبعدنا ذرة وأضفنا الأخرى، فإن النتيجة تكون كتلة مختلفة أو جسماً مختلفاً. وعلى أية حال، نحن معتادون، بالنسبة للأشياء الحية، أن نتحدث عن الكائن الحى بوصفه نفس الجسم الحى، حتى على الرغم من التغيرات الواضحة التى تحدث فى المادة. إن النبات يستمر فى أن يكون نفس النبات «طالما أنه يشارك فى الحياة نفسها، على الرغم من أن هذه الحياة تنتقل إلى جزيئات جديدة من المادة تتحد بالنبات الحى بصورة جوهرية، فى تنظيم مستمر مشابه يطابق ذلك النوع من النبات»^(٧٩). وحالة الحيوانات تشبه حالة النبات. فالهوية المستمرة لحيوان ما تشبه، على نحو ما، هوية آلة من الآلات. لأننا نتحدث عن الآلة من حيث إنها هى، حتى إذا تم إصلاح أجزاء منها أو تم تجديدها، بسبب التنظيم المستمر لكل الأجزاء منظوراً فى ذلك إلى بلوغ غاية أو غرض معين، ومع ذلك يختلف الحيوان عن الآلة، فى أن الحركة فى حالة الآلة تأتى من الخارج، فى حين أنها تأتى فى حالة الحيوان من الداخل.

ومن ثم فالهوية لشىء ما غير عضوى بسيط يمكن تعريفها، عن طريق الزمان والمكان (على الرغم من أن لوك لا يذكر اتصال التاريخ الزمانى والمكانى للشىء من

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لكن على الرغم من أننا معتادون على أن نتحدث - عادة - عن شخص ما بوصفه هو هو عندما يكون هناك اتصال جسمى، فإننا نستطيع مع ذلك أن نثير التساؤل: فيما تتمثل الهوية الشخصية، إذا كنا نعنى «بالشخص» موجوداً مفكراً وعاقلاً أعنى يمتلك عقلاً وتأملاً ويمكن أن ينظر إلى ذاته بوصفها ذاته، أى نفس الشيء المفكر فى أوقات مختلفة وأماكن مختلفة^(٧٤). والإجابة عن هذا السؤال هى الوعى، الذى يصرح لوك بأنه لا يمكن أن ينفصل عن التفكير وجوهري بالنسبة له، «فمن المستحيل بالنسبة لأى شخص أن يدرك دون أن يدركه^(٧٥) أنه يدرك^(٧٦)» وبقدر ما يستطيع الوعى أن يرجع إلى أى فعل ماضٍ أو تفكير ماضٍ، بقدر ما يصل إلى هوية هذا الشخص^(٧٧).

ويصل لوك إلى نتيجة منطقية وهى أنه إذا كان من الممكن بالنسبة لنفس الشخص (أى شخص هو هو بمعنى أن هناك اتصالاً جسدياً) أن يكون له وعى متميز لا يتبدل فى الوقت (أ)، ويكون له وعى آخر متميز لا يتبدل فى وقت آخر (ب)، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن الشخص من حيث إنه هو نفس «الشخص» فى الوقت (ب) كما كان فى الوقت (أ). وهذا هو «إحساس الجنس البشرى فى الإعلان الجدى عن أرائه، بأن القوانين البشرية لا تعاقب المجنون على أفعال الإنسان الحكيم، ولا تعاقب الإنسان الحكيم على ما يفعله المجنون، وتجعلهما بالتالى شخصين؛ وهذا ما تفسره، إلى حد ما، طريقة حديثنا باللغة الإنجليزية، عندما نقول إن شخصاً ما لا يكون هو نفسه، أو لا يكون بالقياس إلى نفسه؛ أى أنها تكون مندسة فى القولين كما لو كان هؤلاء الآن، أو على الأقل يعتقد الذين يستخدمونها فى البداية، أن النفس قد تغيرت، أى أن الشخص نفسه لم يعد فى ذلك الشخص»^(٧٨).

٩ - يخبرنا لوك فى نهاية الكتاب الثانى من كتابه «مقال...» أنه بعد أن قدم تفسيراً لمصدر أنواع أفكارنا، اقترح فى البداية أن ينتقل فى الحال إلى النظر فى الاستخدام الذى يصنعه العقل من هذه الأفكار والمعرفة التى نحصل عليها عن طريقها. بيد أن التأمل أقنعه بأنه يجب أن يدرس اللغة قبل الاستمرار فى مناقشة المعرفة؛ لأن الأفكار والكلمات مرتبطة ارتباطاً لا تنفصم عراه بصورة واضحة، وتكمن معرفتنا - كما يرى - فى قضايا ونتيجة لذلك يخصص الكتاب الثالث لموضوع الكلمات أو اللغة.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ومع ذلك، هناك تحفظ لابد من إضافته إلى القول بأن الكلمات هي دلالات للأفكار، «فجانب الكلمات التي هي أسماء للأفكار الموجودة في الذهن، توجد كلمات كثيرة للغاية تُستخدم لكي تدل على الرابطة التي يعطيها الذهن للأفكار أو للقضايا بعضها ببعض»^(٨١). إن الذهن لا يحتاج إلى دلالات الأفكار فحسب «الموجودة أمامه»، ولكنه يشير إلى بيان فعل ما من أفعاله الخاصة بالنسبة لتلك الأفكار أو الإشارة إليه. فكلما «يكون» أو «لا يكون»، على سبيل المثال، تبين أو تشير أو تعبر عن أفعال الذهن الخاصة بالإثبات أو النفي. ويسمى لوك الكلمات من هذا النوع «جزئيات»، ولا يدرج تحت هذا العنوان الرابطة في القضايا فحسب، ولكنه يدرج أيضاً حروف الجر وحروف العطف. فهذه كلها تشير إلى أو تعبر عن، فعل ما من أفعال الذهن بالنسبة لأفكاره.

وعلى الرغم من أن لوك لم يقدم أى تفسير دقيق لنظريته عن الدلالة، فإنه يرى بوضوح كاف أن القول بأن الكلمات هي دلالات لأفكار، وأن اللغة التي تتكون من دلالات اتفاقية - هي وسيلة توصيل الأفكار - يؤلف تبسيطاً مفرطاً. «لكي نجعل الكلمات تفي بغرض التوصيل، فمن الضروري أن تثير في المستمع نفس الفكرة التي تمثلها في ذهن المتحدث»^(٨٢).

بيد أن هذه الغاية لا تتحقق باستمرار. فالكلمة، مثلاً، قد تمثل فكرة مركبة جداً؛ ومن الصعب في هذه الحالة أن نتأكد أن الكلمة تمثل باستمرار، وبصورة دقيقة، نفس الفكرة في الاستخدام العام. «ونادراً ما يحدث أن يكون لأسماء الأشخاص ذات الأفكار المركبة جداً، التي تكون في الغالب كلمات أخلاقية - نفس الدلالة الدقيقة - عند شخصين مختلفين؛ لأنه نادراً ما تتفق فكرة شخص ما المركبة مع فكرة شخص آخر، وغالباً ما تختلف عن فكرته الخاصة، التي كانت لديه بالأمس أو ستكون لديه غداً»^(٨٣). ولأن الأعراض المركبة بناءات ذهنية، أي تجمعات من أفكار قام الذهن بوضعها معاً، فمن الصعب أن نجد أى معيار ثابت للمعنى. فمعنى كلمة مثل «القتل» يتوقف ببساطة على الاختيار. وعلى الرغم من أن «الاستخدام العام ينظم معنى الكلمات بطريقة جيدة نوعاً ما من أجل المحادثة المشتركة»^(٨٤)، فإنه لا توجد سلطة معروفة يمكنها أن تحدد المعنى الدقيق لهذه الكلمات. وهكذا فإن الأمر مختلف عندما نقول إن الأسماء تمثل أفكاراً، عنه عندما نقول ما هي الأفكار بالضبط التي تمثلها هذه الأسماء.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لأن اللغة التي لا تتكون إلا من أسماء الأعلام فحسب، لا يمكن حفظها وتذكرها، وحتى لو كان في الإمكان ذلك، فإنها تكون عديمة الفائدة بالنسبة للتواصل. فلو أن شخصاً ما، على سبيل المثال، لم يتمكن من الإشارة إلى البقر بوجه عام، ولكن كان لديه اسم علم لكل بقرة جزئية معينة رآها، فإن الأسماء لن يكون لها معنى بالنسبة لشخص آخر لم يعرف هذه الحيوانات الجزئية. لكن على الرغم من أنه لا بد أن تكون هناك أسماء عامة، فإن السؤال يثار عن كيفية امتلاكنا إياها. «لأنه إذا كانت كل الأشياء التي توجد لا تكون سوى جزئيات فقط، فكيف نستطيع أن نتمثل الطبائع العامة، عن طريق ألفاظ عامة أو أين نجد تلك الطبائع العامة التي تمثلها هذه الألفاظ؟»^(٨٨).

ويرد لك على ذلك قائلاً بأن الكلمات تصبح عامة بأن تكون دلالات لأفكار عامة، وإن الأفكار العامة تتكون عن طريق التجريد. «إن الأفكار تصبح عامة بأن نفصل منها ظروف الزمان والمكان وأي أفكار أخرى قد تحددها وتجعلها دالة على هذا الوجود الجزئي أو ذاك. ويمكنها أن تمثل أفراداً كثيرين عن طريق هذا التجريد؛ وكل فكرة تطابق تلك الفكرة المجردة (كما نسميها) تكون من هذا النوع»^(٨٩). فالطفل، دعنا نفترض، يتعرف في البداية على شخص واحد. ثم يتعرف بعد ذلك على أشخاص آخرين. ويكوّن فكرة عن الخصائص العامة، ويستبعد الخصائص التي تخص هذا الفرد أو ذاك. ومن ثم تكون لديه فكرة عامة، تدل على لفظ «إنسان». ومع نمو التجربة، يستطيع أن يستمر في تكوين أفكار أخرى أكثر اتساعاً وتجريداً، كل فكرة منها تدل على لفظ عام.

وينجم عن هذا أن الكلية والعمومية ليستا صفتين للأشياء، تكوينان فرديتين أو خاصيتين، بل هما صفتان للأفكار والكلمات: «أي أنهما من اختراع الفهم وخلقهما، يصنعها من أجل استخدامه الخاص، ولا تعني سوى دلالات، سواء كانت كلمات أم أفكاراً»^(٩٠). إن أي فكرة أو أي كلمة هي - بالتأكيد - خاصة أيضاً؛ أعني أنها هذه الفكرة الجزئية أو تلك الكلمة المعينة. لكن ما نسميه بالكلمات العامة أو الكلية وما نسميه بالأفكار العامة أو الكلية تكون كلية في مغزاها ودلالاتها. وهذا يعني أن الفكرة العامة أو الكلية تدل على نوع من الأشياء، مثل بقرة أو خروف أو شخص ما في حين أن اللفظ العام يمثل الفكرة من حيث إنها تدل على نوع من الأشياء. «ومن ثم،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الأول منهما هو المعنى الموجود عند أولئك الذين يفترضون - إذا استخدمنا كلمة ماهية بالنسبة لمن لا يعرفون ماذا عساه أن تكون - عدداً معيناً من تلك الماهيات التي وفقاً لها تُصنع كل الأشياء الطبيعية، ويشارك فيها كل شيء منها، ويصبح بالتالي ماهية هذا النوع أو ذاك^(٩٤). وهذه النظرية، كما يقول لوك، هي افتراض لا يمكن الدفاع عنه، كما يبينها تكاثر الحيوانات. لأن النظرية تفترض مقدماً ماهيات ثابتة ومحددة، ولا يمكنها أن تفسر واقعة الحالات التي يصعب الفصل فيها، وواقعة ألوان التنوع الموجود في النوع Type. وبمعنى آخر، إنها لا تطابق المعطيات التجريبية المتاحة. وفضلاً عن ذلك، فإن افتراض ماهيات ثابتة لكنها غير معروفة هو افتراض لا قيمة له ولا فائدة منه، حتى إنه يمكن استبعاده حتى إذا لم يتناقض مع المعطيات التجريبية. أما الرأي الآخر والأكثر عقلانية (عن الماهيات الحقيقية) فهو رأى أولئك الذين ينظرون إلى كل الأشياء الطبيعية على أن لها تركيباً حقيقياً لكنه غير معروف من أجزائها عديدة الإحساس، التي تتدفق منها تلك الصفات الحساسة التي نخدمنا في أن نقوم بتمييزها بعضها عن بعض، وبناء على ذلك نضطر إلى أن نضعها في أنواع تحت تسميات عامة^(٩٥) لكن على الرغم من أن هذا الرأى «أكثر عقلانية»، فإنه لا تكون هناك بصورة واضحة مسألة تجريد ماهيات غير معروفة. فكل تجمع من أفكار بسيطة يتوقف على «البناء الحقيقي» لشيء ما، لكننا لا نعرف هذا البناء الحقيقي. ولذلك لا يمكن تجريده.

ويميز لوك الماهيات الاسمية عن الماهيات الحقيقية. فنحن معتادون على أن نقرر إذا ما كان شيء معين ذهباً أم لا بملاحظة إذا ما كان يمتلك تلك الخصائص المشتركة؛ إذ يُنظر إلى امتلاكها على أنه أمر ضرورى وكاف لكى نصنف شيئاً ما على أنه ذهب. والفكرة المركبة عن تلك الخصائص هي الماهية الاسمية للذهب. وذلك هو سبب قول لوك إن «الفكرة المجردة التي يعتملها الاسم (العام) وماهية النوع واحدة وهي هي»^(٩٦)، وإن «كل فكرة مجردة متميزة هي ماهية متميزة»^(٩٧). وبالتالي، فإن الماهية الاسمية هي التي تُجرد، عن طريق استبعاد خصائص تميز أشياء فردية والإبقاء على خصائص مشتركة.

ويضيف لوك القول بأنه في حالة الأفكار البسيطة والأعراض البسيطة تكون الماهيات الحقيقية والاسمية هي هي. «وهكذا فإن شكلاً يتضمن مكاناً بين ثلاثة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الهوامش

(١) E. , 2, 5:1, P. 158.

(٢) E. , 2, 6: 1, P. 159.

(٣) E. , 2, 7,1: 1, P. 160.

(٤) E. , 2, 7,7: 1, P. 163.

(٥) E. , 2, 1,25: 1, P. 142.

(٦) E. , 2, 2: 1, P. 145.

(٧) E. , 2, 12, 1,: 1, P. 214.

(٨) Edit. Tand, P. 120.

(٩) E. , 2, 12, 1: 1, P. 213.

(١٠) Ibid, P. 214.

(١١) E. , 2, 12, 8: 1, P. 217.

(١٢) E. , 2, 12, 4: 1, P. 215.

(١٣) E. , 2, 12, 5: 1, PP. 215 - 16.

(١٤) يصير لوك، عكس ديكارت وأتباعه، على أن الامتداد والجسم ليسا الشيء نفسه. ففكرة الجسم تتضمن - مثلاً - فكرة الصلادة، في حين أن فكرة الامتداد لا تتضمن هذه الفكرة (الصلادة).

(١٥) E. , 2, 12, 5: 1, P. 216.

(١٦) E. , 2, 18, 2: 1, P. 294.

(١٧) E. , 2, 13, 3: 1, P. 220.

(١٨) E. , 2, 13, 4: 1, P. 220.

(١٩) E. , 2, 14, 3: 1, P. 239.

(٢٠) E. , 2, 14, 31: 1, P. 256.

(٢١) E. , 2, 15, 6: 1, P. 262.

(٢٢) E. , 2, 17, 1: 1, P. 277.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- E. , 2, 23, 37: 1, P. 422 . (٥٠)
 E. , 4, 3, 6: 11, P. 192 . (٥١)
 E. , 2, 23, 33: 1, P. 418 . (٥٢)
 Ibid. (٥٣)
 E. , 2, 23, 37: 1, P. 422 . (٥٤)
 E. , 2, 25, 1: 1, P. 427. (٥٥)
 E. , 2, 25, 3: 1, P. 428. (٥٦)
 E. , 2, 25, 5: 1, p. 428. (٥٧)
 E. , 2, 25, 7: 1, PP. 429 - 30. (٥٨)
 E. , 2, 25, 8: 1, P. 430. (٥٩)
 E. , 3, 10, 33: 11, P. 145. (٦٠)
 E. , 2, 26, 1: 1, P. 433. (٦١)
 Ibid, P. 434. (٦٢)
 E. , 2, 26, 2: 1, P. 435. (٦٣)
 E. , 2, 21, 3: 1, P. 310. (٦٤)
 E. , 2, 21, 4: 1, P. 312. (٦٥)
 E. , 2, 21, 5: 1, P. 313. (٦٦)
 E. , 2, 27, 4: 1, PP. 441 - 2. (٦٧)
 E. , 2, 27, 5: 1, P. 443. (٦٨)
 E. , 2, 27, 4: 1, P. 442. (٦٩)
 E. , 2, 27, 7: 1, P. 444. (٧٠)

(٧١) إله الجبل Heliogabalus الاسم الذي اتخذهُ الإمبراطور الروماني فاروريوس أفيتوس باسيانوس (٢١٨ - ٢٢٢) Varius Avitus Bassianus وكان إله الجبل Elagabalus هو إله الشمس عند السوريين والفينيقيين (وكانوا في حمص يعبدون الشمس تحت اسم إله الجبل) - ولأمر غير معروف تماماً تصور الإمبراطور أن ارتقاء العرش يعود الفضل فيه إلى هذا الإله، فأصبح الشغل الشاغل له في حكمه هو إظهار امتنانه وعرفانه له. فتسمى بهذا الاسم المقدس بوصفه جُداً أعظم، وكان أعز لديه من لقب «جلالة الإمبراطور»؛ وبصفة عامة كان هذا الإمبراطور يوصف بالحمق والتعصب، فضلاً عن التهلك والخلاعة - قارن إدوارد جيبيون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» ترجمة محمد على أبو درة ومراجعة أحمد نجيب هاشم - وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، المجلد الأول ص ١٩٢ وما بعدها، وانظر أيضاً كتابنا «معجم ديانات وأساطير العالم»، مكتبة مدبولي، المجلد الأول ص ٢٢٠. (المراجع)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلي من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلي» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الفصل السادس

لوك (٣)

المعرفة بوجه عام - درجات المعرفة - مدى معرفتنا وحقيقتها - المعرفة بوجود الله - المعرفة بالأشياء الأخرى - الحكم والاحتمال - العقل والإيمان

١ - يقول لوك في مسودة كتابه «مقال...» إنه يبقى علينا الآن أن نبحث أى نوع من المعرفة الحقيقية يكون لدينا عن هذه الأفكار أو بواسطتها عن الموضوع الملائم للمعرفة، التى تكمن تماماً فى الإثبات أو النفي، وما هو نوع القضايا سواء كانت ذهنية أم لفظية، التى لا تعدو أكثر من إدراك الأشياء على ما هى عليه بالفعل أو على نحو ما هى موجودة عليه فعلاً، أو القضايا التى تعبر عن ألوان الإدراك عن طريق كلمات يفهمها الآخرون كما نفهمها نحن^(١). بيد أنه يبدأ الكتاب الرابع من كتابه «مقال...» بعد نشره بالقول التمثيلي الصريح «لما كان الذهن فى كل أفكاره واستدلالاته ليس له موضوع مباشر سوى أفكاره الخاصة، التى يتأملها أو يستطيع أن يتأملها، فإنه يتضح أن معرفتنا لا تلم إلا بهذه الأفكار فحسب»^(٢). ويستمر فى القول بأن المعرفة تكمن، حصراً، فى إدراك الارتباط والاتفاق أو الاختلاف والتناقض فى أى فكرة من أفكارنا. فعندما نعرف أن زوايا المثلث الثلاث تساوى زاويتين قائمتين، فإننا ندرك وجود رابطة ضرورية بين أفكار. ويمكننا بالتالى أن نقول بصورة مشروعة إننا نعرف أن زوايا المثلث الثلاث تساوى زاويتين قائمتين.

لكن ما الذى نعنيه «باتفاق» و«اختلاف» الأفكار؟ يسمى لوك الصورة الأولى من صور الاتفاق والاختلاف «الهوية أو التباين». فالذهن يعرف - مثلاً - بصورة مباشرة وبصورة لا تحتتمل الخطأ أن فكرتى الأبيض والدائرى (عندما يستقبلهما عن طريق

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ليسا مقتصرين عليها، على حساب ما يطلق عليه اسم «المعرفة الحسية». إنه لم يرد - بالطبع - عن نظريته التجريبية العامة التي تقول إن كل أفكارنا تأتي من التجربة من الإحساس أو التأمل. لكن لأنه يفترض مسبقاً هذه النظرية، فإنه يأخذ المعرفة الرياضية بوضوح على أنها مثال يحتذى به للمعرفة. ويظهر في هذه المسألة - على الأقل - تشابهاً مع ديكارت.

«إذا تأملنا في طرقنا الخاصة للتفكير، فإننا سنجد أحياناً أن الذهن يدرك اتفاق أو اختلاف فكرتين بصورة مباشرة، دون توسط أى فكرة أخرى: وقد نطلق على ذلك، فيما - أعتقد - اسم المعرفة الحدسية»⁽⁴⁾. ومن ثم فإن الذهن يدرك بصورة مباشرة عن طريق الحدس أن اللون الأبيض ليس هو اللون الأسود، وأن ثلاثة أكبر من اثنين⁽⁵⁾. وهذه المعرفة هي أكثر أنواع المعرفة وضوحاً و يقيناً التي يمكن أن يبلغها الذهن البشرى. ولا مجال للشك فيها، «وعليها يعتمد كل يقين وبرهان كل معرفتنا»⁽⁶⁾.

والدرجة الثانية من درجات المعرفة هي المعرفة البرهانية، حيث لا يدرك الذهن اتفاق الأفكار أو اختلافها بصورة مباشرة، لكنه يحتاج إلى توسط أفكار لكي يستطيع أن يفعل ذلك. ويخطر ببال لوك البرهان الرياضى أولاً، حيث تتم البرهنة على قضية ما أو يتم تقديم الدليل عليها. وليس لدينا - كما يقول - معرفة حدسية مباشرة تقول إن زوايا المثلث الثلاث تساوى زاويتين قائمتين: فنحن نحتاج إلى «أفكار تتوسط» يمكن - كما نعرف - سهولة الحدس ووضوحه. كما يكون - فى الوقت نفسه - لكل خطوة فى البرهان يقين حدسى. لكن لو انتبه لوك بصورة أكثر إلى البرهان القياسى أكثر مما فعل فى حقيقة الأمر، فربما شك إلى حد ما فى صدق هذا القول الأخير. لأنه يمكن أن تكون هناك حجة قياسية تحتوى على قضية ممكنة. ولا يُعرف صدق قضية ممكنة عن طريق ما يسميه لوك باليقين الحدسى. فليس هناك ارتباط ضرورى بين الألفاظ؛ ومن ثم لا نستطيع أن ندركه بصورة مباشرة. وبمعنى آخر، فإن فكرة لوك عن البرهان، كما يشير الشراح تنحصر فى مجال المعرفة البرهانية بنطاق ضيق للغاية.

إن ما يحتاج إليه الحدس والبرهان ليس المعرفة، بل «الاعتقاد أو الظن» فى كل الحقائق العامة على الأقل⁽⁷⁾. ومع ذلك، فهناك معرفة حسية بالوجود الجزئى. فبعض الناس، كما يرى لوك، لديهم شك فيما إذا كانت هناك أشياء موجودة تناظر أفكارنا؛

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

بالضرورة مع بناء الجوهر غير المحسوس. ومن ثم لا يمكننا أن نعرف ما هي الصفات الثانوية التي يجب أن تلازم باستمرار الفكرة المركبة. «إن معرفتنا في كل هذه المباحث تمتد قليلاً أبعد من تجربتنا»^(١٤). ولا يمكننا، أيضاً، أن نميز أى ارتباط ضرورى بين قوى جوهر على أن يحدث تغيرات محسوسة في أجسام أخرى، وأى من هذه الأفكار التي تكون معاً فكرتنا عن الجوهر الذي نتحدث عنه. «إن التجربة هي التي لا بد أن نعتمد عليها في هذا الجزء. وهي ترغب في أن تكون أكثر تطوراً»^(١٥). وإذا انتقلنا من الأجسام إلى الأرواح، فإننا نجد أنفسنا في ظلام أعظم.

والسبب الذي يقدمه لوك للقول بأن معرفتنا «بالتلازم» لا تمتد بعيداً جداً ذو أهمية كبيرة. وواضح أنه كان يفكر في معيار مثالي للمعرفة. «فامتلاك «معرفة حقيقية» بتواجد الأفكار التي تكون معاً الماهية الاسمية لشئ ما، يعنى رؤية ارتباطاتها الضرورية بعضها ببعض، على نحو مماثل لما ندرك فيه ارتباطات ضرورية بين الأفكار في القضايا الرياضية. بيد أننا لا ندرك هذه الارتباطات الضرورية. إننا نرى الفكرة المركبة للذهب تضم فكرة الاصفرار بوصفها مسألة واقعية حقيقية، لكننا لا ندرك ارتباطاً ضرورياً بين الاصفرار والصفات الأخرى التي تكون معاً فكرة مركبة عن الذهب. ومن ثم نحكم عليها معرفتنا بأنها ناقصة؛ فهي ببساطة معرفة تقوم على التجربة؛ تقوم على ارتباطات واقعية. ولا نستطيع أن نبرهن على قضايا في العلم الطبيعي أو «الفلسفة التجريبية»: «إذ أن اليقين والبرهان شيئان يجب علينا ألا نزعهما في هذه القضايا»^(١٦). إننا لا نستطيع أن نبلغ «حقائق عامة، ولا يمكن الشك فيها»^(١٧) عن الأجسام، ويبدو أن موقف لوك، في كل ذلك، هو موقف «عقلى»، أعنى موقف من يأخذ المعرفة الرياضية على أنها المعيار المثالي، وليس موقفاً «تجريبياً».

ولا أعتقد في الوقت نفسه أن وجهة النظر هذه ينبغي التشديد عليها. إذ أن لوك يعنى، بالفعل، أن العلم الطبيعي ناقص بالضبط لأنه تجريبي، غير أنه ينسب، أيضاً، ألوان قصوره إلى جهل معاصر. «فعلى الرغم من أننا لسنا بلا أفكار عن هذه الصفات الأولية للأجسام بوجه عام، فإننا لا نعرف ما عساه أن يكون حجم الجانب الأعظم من أجسام الكون، ولا شكله، أو حركته الخاصة، فنحن نجهل القوى المتعددة، وألوان الفاعلية، وطرق العملية التي تنتج بها المعلولات يومياً»^(١٨). إنها هنا ببساطة مسألة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وأخيراً، هناك معرفة بالوجود الفعلى للأشياء. ويمكن أن نلخص موقف لوك هنا بسهولة. «إن لدينا معرفة حدسية بوجودنا الخاص، ومعرفة برهانية بوجود الله، وبوجود أى شيء آخر سوى ما لا يكون لدينا عنه معرفة حسية، التى لا تتجاوز الموضوعات المائة لحواسنا»^(٢٣). أما بالنسبة للمعرفة بوجودنا الخاص، فإننا ندرکها بوضوح وبيقين حتى إنها لا تحتاج إلى برهان وليست لديها استعداد للبرهان. «إننى إذا شككت فى كل الأشياء الأخرى، فإن ذلك الشك الخالص يجعلنى أدرك وجودى الخاص ولا يؤدى بى إلى الشك فى ذلك»^(٢٤). ولا يقصد لوك، كما رأينا فى الفصل الأخير، أن لدى يقيناً حدسياً عن وجود نفس غير مادية داخل ذاتى. لكنى أدرك بوضوح أننى ذات مفكرة، على الرغم من أن لوك لم يوضح ما نقوم به بحدسه بصورة دقيقة. وسنتناول معرفتنا بوجود الله وبمعرفة الأشياء غير الله وذواتنا فى الأقسام القادمة من هذا الفصل. والآن ساقوم بإثارة تساؤل يعالجه لوك تحت عنوان «حقيقة معرفتنا».

لقد رأينا الآن تواتراً أننا نستطيع، وفقاً لما يراه لوك، أن نعرف أن الأشياء موجودة. ويمكننا أن نعرف شيئاً ما عنها. لكن كيف يمكننا أن نفعل ذلك إذا كان الموضوع المباشر للمعرفة هو فكرة؟ «واضح أن الذهن لا يعرف الأشياء بصورة مباشرة، ولكن عن طريق توسط الأفكار التى تكون لديه عنها. وبالتالي لا تكون معرفتنا حقيقية إلا بوجود تطابق بين أفكارنا وحقيقة الأشياء. لكن ما عساه أن يكون المعيار هنا؟ كيف يعرف الذهن - عندما لا يدرك شيئاً سوى أفكاره الخاصة - أنها تتفق مع الأشياء ذاتها؟»^(٢٥). إن السؤال واضح بدرجة كافية. فما هى إجابة لوك؟

إننا نستطيع أن نضع المعرفة الرياضية والمعرفة الأخلاقية فى جانب واحد. فالرياضيات البحتة تقدم لنا معرفة يقينية وحقيقية، لكنها معرفة «بأفكارنا الخاصة فقط»^(٢٦). أعنى أن الرياضيات صورية: فهى تتحدث عن خصائص «الأفكار» مثل: فكرة المثلث، أو الدائرة، وعن العلاقات بين الأفكار وليس عن عالم الأشياء. ولا يتأثر صدق القضايا الرياضية بوجود أو عدم وجود الأشياء التى تناظر الأفكار التى يستخدمها الرياضى فى استدلاله. فإذا أصدر حكماً عن المثلث أو الدائرة، فإن وجود أو عدم وجود مثلث أو مربع فى العالم لا يكون له علاقة تماماً بصدق حكمه. وإذا كان الحكم صادقاً، فإنه يظل صادقاً حتى على الرغم من عدم وجود مثلث أو دائرة يناظران

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- إلى ماهيات اسمية، لأننا لا نعرف - فيما يرى لوك - الماهيات الحقيقية للأشياء. وإجابته هي أن أفكارنا المركبة عن الجواهر تتكون من أفكار بسيطة، وأنه «عندما نجد أفكاراً بسيطة تلازم أى جواهر، فإننا قد نربطها معاً مرة ثانية بثقة، ونصنع بالتالى أفكاراً مجردة عن الجواهر. لأن ما يمتلك ذات مرة وحدة الطبيعة، قد يتحد مرة أخرى»^(٣٢).

والواقع أنه إذا كانت الصفات أفكاراً بسيطة، وإذا لم نعرف مباشرة إلا الأفكار، فإننا لا نستطيع أن نقارن على الإطلاق تجمعات صفات موجودة فى أذهاننا، بتجمعات صفات موجودة خارج أذهاننا. ولا توضح إجابة لوك - بالتأكيد - هذه الصعوبة. لكن على الرغم من أنه يتحدث عن «أفكار بسيطة»، فإنه يتحدث أيضاً عن أفكارنا عن الصفات والجواهر. وبمعنى آخر، إنه يتأرجح بين وجهة نظر تذهب إلى أن الأفكار تكون - ببساطة - تحويرات سيكولوجية نعرف عن طريقها الأشياء بصورة مباشرة. أو أنه، بصورة أكثر دقة، لا يتأرجح بين هاتين الوجهتين من النظر (لأن وجهة نظره الصريحة هي أن موضوع المعرفة هو الأفكار)، ولكنه يتأرجح بين طريقتين للحديث: فهو يتحدث أحياناً كما لو كانت الفكرة هي الوسط الذى توجد فيه المعرفة (وهذه هي وجهة نظره المعلنة)، ويتحدث أحياناً كما لو كانت الوسط الذى تعمل بواسطته المعرفة. وقد يكون هذا الغموض مسئولاً إلى حد ما عن إخفاقه فى أن يعالج الصعوبة التى تنشأ من مذهب التمثيلى بجدية.

ومع ذلك، دعنا نفترض أننا نستطيع أن نعرف التناظر بين أفكارنا المركبة عن الجواهر، ومجموعات موجودة من صفات تتواجد معها. ولا يقر لوك - كما رأينا - بأنه يتم إدراك أى ارتباطات ضرورية بين هذه الصفات. وبالتالي - فإن معرفتنا - مع إنها حقيقية، لا تمتد وراء التجربة الفعلية التى تكون لدينا، وإذا عبرنا عن هذه المعرفة فى صورة قضايا عامة أو كلية، فإننا لا نستطيع بصورة مشروعة أن ندعى أن هذه القضايا ربما تكون أكثر صدقاً.

٤ - لقد ذكرنا فى القسم السابق أن وجهة نظر لوك هي أن لدينا، أو بالأحرى يمكن أن يكون لدينا، معرفة برهانية بوجود الله. وهو يعنى بذلك أننا نستطيع أن نستنبط وجود الله «من جزء ما من معرفتنا الحدسية»^(٣٣). والحقيقة المعروفة حدسياً

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

بالإدراك والمعرفة، فإن الموجود الأزلي الذي يعتمد عليه لابد أن يكون قوياً وعاقلاً أيضاً. لأن الشيء الذي يخلو من المعرفة، لا يمكن أن ينتج موجوداً يعرف. ويستنتج لوك من ذلك أن «هناك موجوداً أزلياً أكثر قوة، وأكثر معرفة، لا يهم إذا أراد أى شخص أن يطلق عليه اسم الله. والمسألة واضحة، ويمكن استنباط كل تلك الصفات الأخرى بسهولة التى يجب أن ننسبها إلى هذا الموجود الأزلي من هذه الفكرة التى درسناها فى حينها.

ه - إن الإنسان يعرف وجوده الخاص عن طريق الحدس، ويعرف وجود الله عن طريق البرهان. «ولا يمكن أن تكون لدينا معرفة بأى شيء آخر إلا عن طريق الإحساس»^(٢٦). لأنه ليس هناك ارتباط ضرورى بين الفكرة التى تكون لدى شخص ما عن أى شيء غير الله ووجود الشيء. إن الحقيقة التى تقول إن لدينا فكرة عن شيء ما لا تبرهن على أنه موجود. لأننا لا نعرف أنه موجود إلا عندما يؤثر فينا. «إن الاستقبال الفعلى للأفكار من الخارج هو الذى يجعلنا نلاحظ وجود الأشياء الأخرى، ويجعلنا نعرف أن شيئاً ما يوجد فى ذلك الوقت بدوننا»^(٢٧). إن استقبال الأفكار من الخارج هو الإحساس، ونحن لا نعرف وجود الأشياء التى تؤثر على أعضائنا الحسية إلا عندما تفعل ذلك. فعندما أفتح عيني، فإن ذلك لا يعتمد على اختياري لما أراه؛ إذ أن شيئاً ما قد أثر على. وفضلاً عن ذلك، فإننى إذا وضعت يدي قريبة جداً من النار، فإننى أحس بالآلم، فى حين أنه عندما تكون لدى الفكرة المحضة عن وضع يدي قريبة جداً من النار، فإننى لا أعانى من الآلم. وتبين لنا هذه الاعتبارات أن ثقتنا فى وجود الأشياء الأخرى ليست لها أساس صحيح. حقاً، إن معرفتنا بوجود الأشياء الخارجية لا تمتد إلا لحد الشهادة الحالية لحواسنا، لكن من المحتمل أن المنصدة التى أراها منذ لحظة مضت لا تزال موجودة، ومن الحمق أن نبحث عن معرفة برهانية قبل أن نستعد لأن نقبل قضية وجودية. «إن من لا يسلم بشيء فى شئون الحياة العادية سوى البرهان الواضح المباشر لن يكون على يقين بشيء فى هذا العالم سوى الفناء السريع. إن صحة غذائه أو شرابه ستقدم له سبباً لأن يغامر بتناوله؛ وسأعرف عن طيب خاطر ما يستطيع أن يفعله بناء على هذه الأسس التى لا تقبل شكاً، ولا اعتراضاً»^(٢٨).

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

موضوعاً للشهادة البشرية. ومثال على ذلك القول بأن الماء تجمد في إنجلترا الشتاء الماضي. أما الفئة الثانية فتتكون من قضايا تخص أموراً لا يمكن أن تكون موضوعاً للشهادة البشرية لأنها لا تكون مبحثاً تجريبيّاً. ومن الأمثلة على ذلك قولنا: وجود ملائكة، وإن الحرارة تكمن في «تهيج عنيف للأجزاء الضئيلة غير المدركة من المادة المحترقة»^(٤١). في مثل هذه الحالات نستمد أسس الترجيح من المماثلة. فعندما نلاحظ المراحل المختلفة في الترتيب الهرمي لمستويات الوجود التي تكون أسفل الإنسان (أي الحيوانات، والنباتات، والأشياء غير الحية)، يمكننا أن نحكم على أنه من المحتمل أنه توجد أرواح غير مادية متناهية بين الإنسان والله. وعندما نلاحظ أيضاً أن حك جسمين معاً يولد حرارة، فإننا نستطيع أن نبرهن عن طريق المماثلة على أن الحرارة ربما تتمثل في الحركة العنيفة لجزيئات المادة غير المدركة.

واضح، إذن، أن قضايا العلوم الطبيعية - عند لوك - يمكن أن تتمتع في أحسن الأحوال بدرجة عالية من الترجيح. وترتبط وجهة النظر هذه ارتباطاً وثيقاً - بالطبع - باقتناعه بأننا لا نعرف سوى الماهيات الاسمية للأشياء، ولا نعرف «ماهياتها الحقيقية» بالمعنى الذي شرحناه في الفصل الأخير.

ولا يمكن أن تتمتع القضايا التاريخية - أيضاً - التي تقوم على الشهادة البشرية إلا بدرجات متنوعة من الترجيح. ويذكر لوك قراءه بأن الترجيح الذي يتمتع به الخبر التاريخي يعتمد على قيمة الشهادة المتصلة به، ولا يعتمد على عدد الناس الذين يعيدون رواية الخبر.

٧ - وربما توقع المرء أن يدرج لوك كل القضايا التي نقبلها عن طريق الإيمان في طائفة القضايا المحتملة. غير أنه لم يفعل ذلك؛ لأنه سلّم بوحى إلهي يقدم لنا يقيناً عن صدق المعتقدات الموحى بها، لأن شهادة الله ليس فيها شك. «إننا يمكن أيضاً أن نشك في وجودنا الخاص، كما يمكن أن نشك فيما إذا كان هناك وحى صادق من الله. حتى إن الإيمان يكون مبدأ راسخاً وأكيداً للإجماع والتيقن، ولا يترك مجالاً للشك أو التردد»^(٤٢). ولا يعني ذلك - بالتأكيد - أنه يتم قبول كل الحقائق الخاصة بالله بناء على الإيمان. لأن لوك، كما رأينا، يؤكد الطابع البرهاني لمعرفتنا بوجود الله. إن الحقائق الموحى بها هي الحقائق التي تفوق العقل، مع إنها لا تناقضه، ونعرف صدقها

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الطريقة فإنه يفكر إلى حد كبير في المعتقدات الكاثوليكية مثل الاعتقاد بأن الخبز والنبذ اللذين يقدمهما الكاهن في الكنيسة يتحولان في جسم الأكل والشارب إلى جسد المسيح ودمه، ذلك الاعتقاد الذي يشير إليه بوضوح في الفصل الذي كتبه عن الإجماع الخاطئ أو الخطأ^(٥٠). والرد قد يكون واضحاً بأنه إذا كان هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن الله يوحى بقضية ما، فإن هذه القضية لا يمكن أن تناقض العقل حتى على الرغم من أنها تجاوز العقل^(٥١). بيد أن لوك بعد أن قرر أن معتقدات كثيرة تناقض العقل، استنتج أنه لا يمكن أن يُوحى بها ولا وجود لسبب كاف للاعتقاد بأنه موحى بها. وليس هنا مجال مناقشة مسائل خلافية لكن يجدر توجيه الانتباه إلى واقعة مؤداها أن لوك تابع وجهة نظر أفلاطوني كمبرج أو «التسامحين». فبينما رفض – من جهة – ما اعتبره هوساً دينياً مضللاً للرسل والمبشرين الذين ينصبون أنفسهم بأنفسهم، فإنه يرفض أيضاً ما يبدو أنه النتائج المنطقية للإيمان بإمكان وحى إلهي، أعنى أنه إذا كانت هناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن الله أوحى بحقيقة عن طريق رسل معينة، فلا يمكن لقضية تقوم السلطة المخولة بتعليمها للناس أن تناقض العقل. ويرد لوك، بلا شك، بأن المعيار الوحيد لتقرير إذا ما كان مذهب ما يناقض العقل أو «يجاوز، ببساطة العقل» – هو العقل ذاته. لكنه يجعل موقفه أسهل بتدعيمه عن طريق الإقرار، بإخلاص كاف، بإمكان وحى إلهي بدون أن يسأل عما إذا كان هذا الوحي موجوداً وما هو العضو أو الأعضاء الخاصة التي تشكل بواسطتها.

إن موقف لوك العام من الاعتدال وكراهيته لألوان التطرف، مع اقتناعه بأن الوصول إلى اليقين محدود جداً، بينما مجال الترجيح – في درجاته المتنوعة – قد أدى به إلى أن يعتنق قضية الاعتدال. وأقول «داخل حدود» لأنه يقول في «رسالة عن التسامح»، إن التسامح يجب ألا يمتد إلى الملحد، أي أولئك الذين يتضمن دينهم الولاء لقوة أجنبية، وأولئك الذين لا يسمح لهم إيمانهم الديني بأن يمنوا التسامح إلى الآخرين الذي يزعمونه لأنفسهم. إن الإلحاد يتضمن بالضرورة، في رأيه، افتقاراً إلى المبادئ الأخلاقية وإغفالاً للطبيعة الملزمة للوعود، والمواثيق، والعهود. أما بالنسبة للطائفتين الآخرين، فإنه يضع في ذهنه أساساً – وبصورة واضحة – الكاثوليك، حتى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الهوامش

- Rand, p. 85. (١)
E.,4,1,1: 11,p. 167. (٢)
E.,4,1,7: 11,p. 171. (٣)
E.,4,3,1: 11,p. 190. (٤)
E.,4,3,6: 11,p. 191. (٥)
E.,4,3,9: 11,p. 199. (٦)
E.,4,2,14: 11,p. 185. (٧)
Ibid,p. 186. (٨)
E.,4,3,1: 11,p. 190. (٩)
E.,4,3,6: 11,p. 191. (١٠)
E.,4,3,9: 11,p. 199. (١١)
Ibid. (١٢)
E.,4,3,11: 11,p. 200. (١٣)
E.,4,3,14: 11,p. 203. (١٤)
E.,4,3,16: 11,p. 206. (١٥)
E.,4,3,26: 11,p. 218. (١٦)
Ibid. (١٧)
E.,4,3,24: 11,p. 215. (١٨)
E.,4,3,25: 11,p. 217. (١٩)
E.,4,3,26: 11,p. 217 -18. (٢٠)
Ibid. (٢١)
E.,4,3,18: 11,p. 204. (٢٢)
E.,4,3,21: 11,p. 212. (٢٣)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- (٥٢) سير وليم سكروجر (١٦٢٣ - ١٦٨٣) قاض إنجليزى قاتل إلى جانب النظام الملكى فى الحرب الأهلية فى انجلترا. أصبح قاضى القضاة فى انجلترا عام ١٦٧٨، حاول تبرئة جورج ويتمان طبيب الملكة فى التهمة الموجهة إليه فيما يسمى «المؤامرة الكاثوليكية». (المراجع)
- (٥٣) «المؤامرة الكاثوليكية» المزعومة هى التى اتهم فيها تيتوس أوتسى Titus Oates (١٦٤٩ - ١٧٠٥) الملكة كاترين اشارلو الثانى ملكة انجلترا وطبيبها الخاص «جورج ويتمان» بدس السم للملك عام ١٦٧٨ . (المراجع)

الفصل السابع

لوك (٤)

- نظرية لوك الأخلاقية - حالة الطبيعة والقانون الطبيعي الأخلاقي -
- حق الملكية الخاصة - أصول المجتمع السياسي ؛ العقد الاجتماعي -
- الحكومة المدنية - حل الحكومة - ملاحظات عامة - أثر لوك

١ - رأينا في الفصل الأول عن فلسفة لوك، أنه عندما رفض نظرية الأفكار الفطرية، أنكر أن هناك مبادئ نظرية فطرية أو أن هناك مبادئ عملية أو أخلاقية فطرية. وبذلك، لابد أن تستمد أفكارنا الأخلاقية من التجربة، بمعنى أنها لابد أن تنتهي، كما يرى لوك، عند «أفكار بسيطة»، أعنى أن العناصر التي تتكون منها على الأقل لابد أن تستمد من الإحساس أو التفكير. بيد أن لوك لا يعتقد أن هذا التفسير التجريبي لأصل أفكارنا الأخلاقية يمنع معرفتنا بمبادئ أخلاقية تُعرف عن يقين. لأنه حالما نحصل على أفكارنا، فإننا نستطيع أن نفحصها ونقارنها ونميز علاقة الاتفاق والاختلاف. ويمكننا ذلك من أن نعلن قواعد أخلاقية، وإذا عبرت عن علاقة الاتفاق أو الاختلاف الضرورية بين أفكار فإنها تكون يقينية ويمكن معرفتها بوصفها يقينية. ولابد من التمييز بين الأفكار أو الالفاظ التي تقع في قضية أخلاقية والعلاقة المؤكدة في القضية. إن الأفكار في قاعدة أخلاقية ما، لابد أن تستمد، أساساً على الأقل، من التجربة؛ لكن صدق أو صحة قاعدة أخلاقية ما أمر مستقل عن ملاحظتها. فإذا قلت، مثلاً، بأن قول الصدق خير من الناحية الأخلاقية، فإن فكرتي قول الصدق والخير الأخلاقي لابد أن تستمداً أساساً من التجربة؛ لكن العلاقة المؤكدة بين هاتين الفكرتين تصدق حتى إذا كذب معظم الناس.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لقد ذكرنا أن لوك يعرفُ الخير والشر بالرجوع إلى اللذة والألم. فالخير هو ما يسبب أو يزيد اللذة في الذهن أو الجسم، أو ما يقلل الألم - في حين أن الشر هو ما يسبب أو يزيد أى ألم أو يقلل اللذة^(٤). وعلى أية حال الخير الأخلاقى هو مطابقة أفعالنا الإرادية لقانون ما، أى أننا نحصل بواسطته على خير (أعنى لذة) وفقاً لإرادة مشرع القانون؛ أما الشر الأخلاقى فيتمثل فى عدم اتفاق أفعالنا الإرادية مع قانون، عن طريقه يفرض علينا الشر (أى الألم) من إرادة واضع القانون وسلطته^(٥). ولم يقل لوك أن الخير الأخلاقى والشر هما اللذة والألم. ولم يتهم بأنه قال ذلك. لأنه لا يعرف الخير والشر بأنهما اللذة والألم (مع إنه أحياناً يتحدث دون اكتراث بهذه الطريقة). بل يعرفهما بأنهما ما يجلب اللذة أو ما يجلب الألم. إن الخير الأخلاقى هو مطابقة أفعالنا الإرادية لقانون يشد من أزره جزاءات؛ إنه لم يقل إنه نفس الشيء مثل الجزاء على المطابقة.

لكن ما نوع القانون الذى يفكر فيه لوك؟ يميز لوك بين ثلاثة أنواع من القوانين هى: القانون الإلهى، والقانون المدنى، و«قانون الرأى أو الشهرة»^(٦). ويعنى بالنوع الثالث من القانون الاستحسان أو الاستهجان، المدح أو الذم «الذى يبرهن على نفسه فى المجتمعات المتعددة، والقبائل، ومجموعات الناس فى العالم عن طريق إجماع سرى أو مضمّر، بواسطته تجد الأفعال المتعددة مفخرة أو خزياً بينهم، وفقاً لأحكام ذلك المكان أو قواعده أو عرفه»^(٧). وبالنسبة للقانون الإلهى، يتم الحكم على الأفعال بأنها واجبات أو خطايا؛ أما بالنسبة للقانون المدنى فيتم الحكم على الأفعال بأنها بريئة أو إجرامية، وبالنسبة لقانون الرأى أو الشهرة، فيتم الحكم على الأفعال بأنها فضائل أو رذائل. ويتضح بالتالى أن هذه القوانين قد يختلف بعضها عن بعض. وكما يلاحظ لوك، قد يستحسن الناس فى مجتمع ما أفعالاً تناقض القانون الإلهى. ولم يعتقد، بالتأكيد، أن القانون المدنى هو المعيار النهائى للصواب والخطأ. وينجم عن ذلك، بالتالى، أن القانون الإلهى هو القانون النهائى، توصف الأفعال بالنسبة له بأنها خيرة أخلاقياً أو شريرة أخلاقياً. «إننى أعتقد أن القول بأن الله أعطى قانوناً يحكم به الناس أنفسهم، هو قول لا ينكره أى شخص حتى لو كان فقراً غليظاً. إذ أن لديه الحق فى أن يعطينا قانوناً، فتحن مخلوقاته: إنه يمتلك الخيرية والحكمة لتوجيه أفعالنا إلى ما هو أفضل،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إن الأمثلة التي يقدمها للقضايا الواضحة بذاتها ليست واضحة بدرجة كافية : «فحيثما لا توجد ملكية، لا توجد عدالة» و«لا تسمح حكومة بحرية مطلقة»^(١١). (يقدم لوك القضية الثانية بوصفها حقيقة فعلية، غير أن تفسيره يبين أنه لم يقصد أنه يفهمها على هذا النحو).

وإننى لا أميل، بالتالى، إلى متابعة حكم أولئك المؤرخين الذين يقولون إن لوك يقدم لنا نظريتين أخلاقيتين لم يحاول أن يوفق بينهما. لأنه يبدو لى أنه قام بمحاولة لى يبين كيف تتضافر خطوط التفكير التى قدمها فى الكتابين الثانى والرابع من مؤلفه «مقال...». ومن الصعب أن ننكر فى الوقت نفسه أن ما قاله هو مجمل ومشوش ويمثل خليطاً من عناصر مختلفة. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع ببساطة، كما رأينا، أن نطلق عليه «فيلسوفاً لذياً»، حتى فى الكتاب الثانى، فإن هناك عنصراً من المذهب النفعى الذى، ربما يكون مستلهماً من جاسندى. وهناك، أيضاً، عنصر من عناصر «مذهب السلطة»، يقوم على فكرة حقوق الخالق. ويستدعى، أخيراً، تمييز لوك بين نور الطبيعة والوحى تمييز «الأكويني» بين القانون الطبيعى، الذى نعرفه عن طريق العقل، والقانون الوضعى الإلهى؛ ولا شك أن هذا التمييز قد أوعز به «هوكر» Hooker^(١٢)، الذى أخذ قدراً كبيراً من فلسفة العصور الوسطى^(١٣). ويمكن أن نرى تأثير «هوكر»، وتأثير نظرية العصور الوسطى عن طريق «هوكر»، على تفكير لوك فى الفكرة الأخيرة عن الحقوق الطبيعية، التى سننظر فيها حالياً مع فلسفته السياسية.

٢ - يعبر لوك فى مقدمته لكتابه «بحثنان فى الحكومة المدنية»^(١٤) عن أمله فى أن ما كتبه يكفى «لترسيخ عرش ملكنا العظيم الذى أعاد الأمور إلى حالتها الأولى، أعنى ملكنا الحالى وليم، ولا ثبات حقه فى الملك برضا الشعب». لقد اعتقد هيوم، كما سنرى فيما بعد، أن نظرية لوك السياسية لم تستطع أن تؤدى وظيفتها. لكن، على أية حال، سيكون من الخطأ أن نعتقد أن لوك طور نظريته السياسية ببساطة من جهة إثبات حق وليم فى العرش؛ لأنه كان يمتلك مبادئ النظرية جيداً قبل عام ١٦٨٨. وفضلاً عن ذلك، فإن نظريته ذات أهمية تاريخية باقية من حيث إنها تعبیر نسقى عن الفكر الليبرالى فى عصره، وأبحاثه تفوق كثيراً نشرات حزب الهويج Whig^(١٥).

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إن لوك يستطيع أن يتحدث عما ينبغي أن تكون عليه حالة الطبيعة؛ لأنه يسلم بقانون طبيعي أخلاقي يمكن للعقل أن يكتشفه. إن حالة الطبيعة هي حالة الحرية، لكنها ليست حالة إعفاء من الالتزام. «إن حالة الطبيعة بها قانون يحكمها، ويلزم كل شخص، ويعلم العقل، الذي يكون ذلك القانون، كل الناس الذين يرجعون إليه أنه، طالما أن الجميع متساوون ومستقلون، فينبغي ألا يضر أحد الآخر في حياته، وصحته، وحرية، وممتلكاته»^(٢١). لأن الجميع مخلوقات الله. وعلى الرغم من أن شخصاً ما قد يدافع عن نفسه ضد هجوم ما ويعاقب المعتدين على مباغطة الخاصة، لأنه لا يوجد، كما هو مفترض، سيد أو قاض عام مؤقت، فإن القانون الطبيعي يعنى شيئاً ما مختلفاً تماماً عند لوك، عما يعنيه عند هوبز. فهو يعنى عند هوبز قانون السلطة والقوة والاحتلال، بينما يعنى عند لوك قانوناً ملزماً بصورة كلية يسنه العقل البشرى عندما يتأمل الله وحقوقه، ويتأمل علاقة الإنسان بالله، ويتأمل مساواة كل الناس الأساسية من حيث هم مخلوقات عاقلة. ولقد ذكرنا «هوكس» من قبل، بوصفه مصدرراً من مصادر نظرية لوك عن القانون الطبيعي الأخلاقي. ويمكن أن نذكر أيضاً أفلاطوني كمبريدج في انجلترا، وكتاباً، في القارة الأوروبية، مثل «جروتويس»^(٢٢) Grotius^(٢٣) و«بوفندروف»^(٢٤).

ولما كان لوك يؤمن بقانون طبيعي أخلاقي يلزم الضمير بصورة مستقلة عن الدولة وتشريعاتها، فإنه يؤمن أيضاً بحقوق طبيعية. فكل شخص له الحق مثلاً في أن يحافظ على نفسه، ويدافع عن حياته، وله الحق في الحرية. وهناك، أيضاً، واجبات ملازمة لهذه الحقوق. فلأن الإنسان ملزم بأن يحافظ على حياته ويدافع عنها، فله الحق أن يفعل ذلك. ولأنه ملزم أخلاقياً أن يأخذ الوسائل الموجودة تحت تصرفه للمحافظة على حياته، فلا يكون لديه الحق أن يأخذها هو نفسه، أو أن يعطى شخصاً آخر السلطة لأن يأخذها، عن طريق إخضاع نفسه للعبودية بالمعنى الكامل لهذه الكلمة.

٢ - وعلى أية حال، إن الحق الطبيعي الذي أعطى له لوك اهتماماً كبيراً هو حق الملكية. فلأن الإنسان لديه الحق، ومن واجبه، أن يحافظ على نفسه، فإن لديه الحق في تلك الأشياء اللازمة لهذا الغرض. لقد منح الله الأرض للناس، ومنح كل ما فيها من

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

فى جانب منه، إلى تأثير وجهة نظر قطاع المجتمع الذى تحرك فيه، ولابد أن نتذكر، فى الوقت نفسه، أن المذهب الذى يقول بأن هناك حقاً فى الملكية الخاصة بصورة مستقلة عن قوانين المجتمعات المدنية لم يكن اختراعاً جديداً من جانب لوك. ولابد أن نلاحظ أيضاً أنه لم يقل إن أى شخص من حقه أن يجمع الملكية ويكرسها دون حد الإضرار بالآخرين. فهو نفسه يثير اعتراضاً مؤداه أنه إذا أضفى جمع ثمار الأرض حقاً عليها، فقد يجمع أى شخص ويكسب بقدر ما يريد، ويرد قائلاً : «كلاً». إذ أن نفس قانون الطبيعة الذى يعطينا الملكية عن طريق هذه الوسيلة، يجعل لهذه الملكية حداً أيضاً^(٢٦). إن ثمار الأرض تُعطى للاستخدام والمتعة، وبقدر ما يستطيع أى شخص أن يستغل أى منفعة من منافع الحياة قبل أن تفسد، بقدر ما يثبت الملكية عن طريق العمل : وما زاد عن ذلك يكون أكثر من نصيبه ويخص الآخرين^(٢٧). وبالنسبة للأرض، فإن المذهب الذى يقول إن العمل هو سند الملكية يضع حداً للملكية. لأنه «بقدر ما يحرق شخص ما أرضاً، ويزرعها، ويحسنها، ويستصلحها، ويستغل إنتاجها، بقدر ما تصبح ملكيته»^(٢٨). وواضح أن لوك يفترض مسبقاً حالة توجد فيها وفرة من الأرض لكل شخص، كما كانت الحال فى أمريكا فى عصره. «فى البداية كان العالم كله أمريكا، وكانت أكبر مما كانت عليه لأن شيئاً مثل النقود لم يكن معروفاً فى أى مكان»^(٢٩).

واضح أن لوك يفترض أن هناك حقاً طبيعياً فى توريث الملكية. فهو يقول بوضوح، بالفعل، إن «كل إنسان يولد مزوداً بحقين: أولهما حق الحرية فى شخصه... وثانيهما الحق، أمام أى إنسان آخر، فى أن يرث مع أخوته ثروات والده»^(٣٠). إن الأسرة هى مجتمع طبيعى، ويجب على الآباء أن يعولوا نسلهم. ومع ذلك أعطى لوك أهمية لتفسير كيف تُكتسب الملكية أكثر من تبرير حق الميراث، وهى مسألة تركها غامضة.

٤ - وعلى الرغم من أن حالة الطبيعة هى حالة مصالح، لا توجد لدى الناس فيها سلطة عامة تحكمهم، فإن الله وضع الإنسان تحت إلهامات قوية من الضرورة، والملاءمة، والميل إلى دفعه إلى مجتمع^(٣١). ولا يمكننا أن نقول، بالتالى، إن المجتمع ليس طبيعياً للإنسان. فالأسرة، الصورة الأولى للمجتمع البشرى، طبيعية له،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وهكذا يهتم لوك ببيان أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى، والطريقة الوحيدة التى يمكن أن يراها لبيان ذلك هى إثبات أنهما يرتكزان على الإجماع. ولا يكفى أن نفسر عيوب حالة الطبيعة ومزايا المجتمع السياسى، حتى على الرغم من أن هذا التفسير يبين أن هذا المجتمع عقلى بمعنى أنه يفى بفرض مفيد ونافع. لأن الحرية الكاملة لحالة الطبيعة يضييقها بالضرورة إلى حد ما دستور المجتمع السياسى والحكومة، ولا يمكن تبرير هذا التضيق إلا إذا نشأ من إجماع أولئك الذين يتوحدون، أو بالأحرى، أولئك الذين يوحّدون أنفسهم، فى مجتمع سياسى ويخضعون أنفسهم لحكومة. إن المجتمع السياسى ينشأ «حيثما يدخل أى عدد من الناس كانوا يعيشون فى حالة الطبيعة إلى مجتمع لكى يكونوا شعباً واحداً، أو جسمًا سياسيًا واحدًا، يخضع لحكومة أعلى: أو عندما يربط أى شخص نفسه، ويتحد مع أى حكومة تكونت من قبل...»^(٣٦). «ولأن الناس، كما قلنا من قبل، كلهم أحرار بالطبيعة، ومتساوون، ومستقلون، فإنه لا يمكن إخراج أى شخص من هذه العمورة، ولا يمكن إخضاعه للقوة السياسية لشخص آخر دون رضاه وموافقته. إن الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها أى شخص أن يجرد نفسه ويحررها من حريته الطبيعية، ويتصنع بروابط المجتمع المدنى هى الاتفاق مع الآخرين على أن يرتبطوا ويتحدوا فى مجتمع من أجل حياتهم المريحة، والأمن، والمسالمة، ويتمتعوا بأمان بممتلكاتهم، وبأمان عظيم ضد ما يهددها»^(٣٧).

ما الذى يتنازل عنه الناس، إذن، عندما يرتبطون معاً لكى يكونوا مجتمعاً سياسياً؟ ولن يعطون رضاهم؟ أولاً، الناس لا يتنازلون عن حريتهم لكى يدخلوا حالة العبودية. فكل واحد منهم يتنازل، بالفعل، عن سلطته التشريعية والتنفيذية فى الشكل الذى تنتميان إليه فى حالة الطبيعة. لأنه فوض المجتمع، أو بالأحرى السلطة التشريعية، لأن تسن القوانين اللازمة للخير العام، وتخلّى للمجتمع عن السلطة من أجل تدعيم هذه القوانين والعقاب الدقيق لمن يخالفها ويتعدى عليها. وإلى هذا الحد تُقيد حرية حالة الطبيعة. لكن الناس يتخلون عن هذه السلطات لكى يتمتعوا بحرياتهم بصورة أكثر أماناً. «لأنه لا يمكن لمخلوق عاقل أن يغير حالته إلى ما هو أسوأ»^(٣٨). ثانياً، «كل من يخرج من حالة الطبيعة ويتحد فى مجتمع، لابد أن يعلم أنه يتنازل عن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وينشأ اعتراض ثان، وهو أنه حتى إذا كان في الإمكان بيان أن المجتمعات السياسية تبدأ بمقد اجتماعي، تبدأ برضا الناس الذين يوجدون هذه المجتمعات بصورة إرادية، فكيف يمكن أن يبرر ذلك المجتمع السياسي كما نعرفه؟ لأنه واضح أن مواطني بريطانيا العظمى، على سبيل المثال، لا يقدمون رضا واضحاً على كونهم أعضاء لمجتمعهم السياسي ورعايا حكومته، مع أن أجدادهم الموغلون في القدم ربما فعلوا ذلك. ولقد نوه لوك نفسه، الذي كان على وعي تام بالصعوبة، إلى ذلك عن طريق اثباته أن الأب «لا يستطيع، عن طريق أى عقد مهما يكن، أن يلزم أطفاله أو ذريته»^(٤٢). إن الإنسان قد يضع شروطاً بإرادته لكي لا يتمكن ابنه من أن يرث ممتلكاته ولا يتمتع بها إلا إذا كان، وظل، عضواً من أعضاء نفس المجتمع السياسي مثل والده. لكن لا يستطيع الوالد أن يلزم ابنه بقبول الملكية موضع الاهتمام. وإذا لم يحب ابنه الشروط، فإنه يستطيع أن يتنازل عن ميراثه.

وكان لوك مضطراً إلى اللجوء إلى تمييز بين رضا صريح ورضا ضمني لكي يواجه الاعتراض. فإذا نشأ شخص ما في مجتمع سياسي معين، يرث الملكية وفق قوانين الدولة ويتمتع بمزايا المواطن، فلا بد أن يقدم، على الأقل، رضا ضمناً لعضوية ذلك المجتمع. لأنه لا يعقل تماماً أن يتمتع بمزايا المواطن ويقر أنه لا يزال يعيش في حالة الطبيعة. وبمعنى آخر، يجب على الشخص الذي يستفيد من حقوق مواطن دولة معينة ومزاياه أن يلتزم، بصورة ضمنية على الأقل، بواجبات مواطن تلك الدولة. ويرد لوك على الاعتراض الذي يقول إن الشخص الذي يولد إنجليزياً أو فرنسياً ليس لديه اختيار، بل يجب عليه أن يخضع نفسه لالتزامات المواطن، بأنه يستطيع، في حقيقة الأمر، أن ينسحب من الدولة؛ إما عن طريق الذهاب إلى دولة أخرى، أو عن طريق الذهاب إلى جزء بعيد من العالم حيث يستطيع أن يعيش في حالة الطبيعة.

ولابد من فهم هذا الرد، بالتأكيد، في ضوء الظروف التي كانت تهيمن في عصر لوك، عندما لم تكن تنظيمات المرور، وقوانين الهجرة، والتجنيد العام العسكري أموراً معروفة، وعندما كان من الممكن بالنسبة للإنسان من الناحية الطبيعية على الأقل أن يذهب ويعيش في براري أمريكا أو أفريقيا إذا أراد. بيد أن الأمر سواء، فملاحظات لوك تساعد في بيان الطابع المصطنع وغير الحقيقي لنظرية العقد الاجتماعي.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ويتحدث لوك عن السلطة التشريعية بوصفها «السلطة العليا» فى الدولة^(٤٦). وكل «السلطات الأخرى، فى أى أعضاء أو قطاع من المجتمع، لابد أن تستمد منها وتكون تابعة لها^(٤٧)». وعندما يكون هناك ملك فى يده زمام السلطة التنفيذية العليا، يمكن أن يُسمى، فى اللغة العادية، القوة العليا، خاصة إذا احتاجت الأفعال موافقته لأن تصبح قانوناً ولم تستقر السلطة التشريعية؛ غير أن ذلك لا يعنى أنه يمتلك كل السلطة لسن القانون، وتكون السلطة التشريعية كلها هى السلطة العليا بالمعنى الفنى. ويؤكد لوك استحسان تقسيم السلطات فى الدولة. فلا يحبذ بصورة كبيرة أن يكون الأشخاص الذين يسنون القوانين هم أنفسهم الذين ينفذونها. لأنهم «قد يستثنون أنفسهم من طاعة القوانين التى يشرعونها، ويجعلون القانون، فى تشريعه وتنفيذه، مناسباً لمصلحتهم الخاصة، وبذلك تكون لهم مصلحة مميزة عن بقية أفراد المجتمع»^(٤٨). ولذلك، لابد أن تكون السلطة التنفيذية متميزة عن السلطة التشريعية. ولأن لوك يؤكد، بالتالى، استحسان فصل السلطة فى الدولة، فإنه لا وجود لشيء عنده يناظر صاحب السيادة عند هوبز. وهذا صحيح، بالتأكيد، إذا أعطينا كلمة «صاحب السيادة» المعنى التام الذى يعطيه هوبز لها؛ لكن لوك، كما رأينا، يعرف سلطة عليا؛ وهى السلطة التشريعية. ومن حيث إنها السلطة العليا فى الدولة، إلى هذا الحد، فإنها ربما تناظر صاحب السيادة عند هوبز.

وعلى الرغم «من أنه يمكن ألا تكون هناك سوى سلطة عليا واحدة، وهى السلطة التشريعية، التى تتبعها ولا بد أن تتبعها كل السلطات الأخرى، فإن السلطة التشريعية التى لا تكون سوى سلطة مؤتمنة لأن تفعل من أجل غايات معينة، فإن سلطة عليا تظل موجودة فى يد الشعب لأن تنزع السلطة التشريعية أو تغييرها عندما يجد التصرف التشريعى يناقض الثقة التى وضعها فيها»^(٤٩). ومن ثم، ليست سلطة السلطة التشريعية مطلقة؛ إذ يجب أن توفى بعهدا. وهى تخضع، بالتأكيد، للقانون الأخلاقى. ولذلك يضع لوك «الحدود التى تعينها الثقة التى يضعها المجتمع وقانون الله والطبيعة فيهم (أى أعضاء السلطة التشريعية) للسلطة التشريعية لكل مجتمع فى كل صور الحكومة»^(٥٠). أولها : لابد أن تحكم السلطة التشريعية عن طريق قوانين معلنة رسميا تكون واحدة بالنسبة للجميع، ولا تختلف فى حالات معينة. ثانيها : لابد أن توضع هذه القوانين

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

العليا، وله الحق أيضاً في أن يدعو إلى اجتماع المجموعتين وأن يحلها، إذا أحل الأمير إرادته التعسفية محل القوانين، أو إذا منع السلطة التشريعية (أى المجلسين، خاصة المجلس النيابي) من أن يحضرا معاً في الوقت المناسب، أو من أن يفعلوا بحرية، أو إذا غير طريقة الانتخاب بصورة تعسفية دون رضا الشعب وضد مصلحة الشعب؛ فإن السلطة التشريعية تتغير في جميع هذه الحالات. كما أنه إذا أغفل أو أهمل من بيده السلطة التنفيذية العليا مسؤوليته حتى إنه لا يمكن تنفيذ القوانين، فإن الحكومة تنحل لا محالة. وفضلاً عن ذلك، تنحل الحكومات عندما يتصرف الأمير أو السلطة التشريعية بطريقة تخالف أمانتهما، كما هي الحال عندما يتعدى أحدهما على ملكية المواطنين، أو يحاول أن يسيطر بطريقة مستبدة على حياتهم، وحرّياتهم أو ممتلكاتهم.

وعندما «تنحل» الحكومة بأى طريقة من هذه الطرق، يكون التمرد مبرراً، والقول بأن هذا المذهب يشجع التمرد المستمر، ليس حجة صحيحة. لأن الرعايا إذا خضعوا للثروة المستبدة للسلطة الطاغية، فإنهم سيكونون على استعداد لأن يتحينوا الفرصة للتمرد مهما قد يكون هناك من تعظيم الطابع المقدس للحكام. وفضلاً عن ذلك، لا يحدث التمرد، في واقع الأمر، «نتيجة لسوء الإدارة الطفيف جداً في الشؤون العامة»^(٥٤). وعلى الرغم من أننا نتحدث عن «التمرد» و«يتمرد» عند الحديث عن الرعايا وأفعالهم، فإننا قد نتحدث بصورة أكثر ملاءمة عن الحكام بوصفهم متمردين عندما ينقلبون إلى طغاة ويتصرفون بطريقة تناقض إرادة الشعب ومصلحته. ويمكن أن يكون هناك، بحق، ألوان من العصيان والتمرد، وتلك جرائم، غير أن إمكان سوء الاستخدام لا يبطل حق التمرد. وإذا أثير التساؤل من الذى يحكم عندما تجعل الظروف التمرد أمراً مشروعاً، فإننى «أرد قائلاً بأن الشعب هو الذى يحكم»^(٥٥). لأن الشعب هو وحده، تحت الله، الذى يستطيع أن يقرر إذا كان المؤتمن قد أساء استخدام الأمانة أم لا.

٧ - ونظرية لوك السياسية معرّضة، بوضوح، للنقد بناء على أسس متعددة. فهى تشترك مع نظريات سياسية أخرى التى هى أكثر من أن تكون تلفظاً بمبادئ عامة جداً، بل هى تبلغ من العمومية حدّاً يمكن معه أن توصف بأنها «دائمة» - أقول إنها تشترك معها فى عيب، وهو أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بظروف تاريخية معاصرة. وذلك أمر لا مناص منه، بالتأكيد، فى حالة نظرية تدخل فى تفصيلات بصورة كبيرة أو قليلة.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

بسبب عموميتها، ليس هو نفس القول بأن المبادئ عديمة القيمة. فالمبدأ لا يكون عديم القيمة لأنه يجب أن يُطبق بطرق مختلفة وفي أزمنة مختلفة. ومبدأ لوك الذى يقول إن الحكومة، بالمعنى الواسع لحالة التنظيم، وليس بالمعنى الضيق الذى يُستخدم به مصطلح الحكومة اليوم بوجه عام، تحمل على عاتقها عهداً يجب عليها أن تقي به، وأنها توجد لكى تحقق الصالح العام، هو قول صحيح الآن كما كان من قبل عندما أعلنه وصرح به. وهذا القول ليس جديداً بالتأكيد. إذ أن «الأكوينى» أعلنه من قبل. لكن المسألة هى أن المبدأ يحتاج إلى تكرار مستمر. ولكى يكون فعالاً، لا بد أن يُطبق بطرق مختلفة وفي عصور مختلفة، وقد حاول لوك أن يبين كيف يُطبق، من وجهة نظره، فى ظروف عصره التى لم تكن ظروف العصور الوسطى.

لا بد من التسليم بوجه عام بمسئولية الحكومة تجاه الشعب، ووظيفتها الخاصة بتحقيق الصالح العام. لكنى أريد أن أضيف وظيفة، بوصفها وظيفة ذات صحة دائمة ومستمرة، قبلها لوك نفسه باستمرار، لكنه شك فى صحتها. إننى أشير إلى النظرية التى تقول بأن هناك حقوقاً طبيعية، وأن هناك قانوناً طبيعياً أخلاقياً يلزم ضمير كل من الحكام والمحكومين. هذه النظرية لا ترتبط بنظرية حالة الطبيعة والعقد الاجتماعى بصورة لا يمكن الفكك منها، وهى مأمّن دائم وبقا ضد الطغيان عندما يُقبل عن إخلاص.

ومع ذلك، بغض النظر تماماً عن مزايا نظرية لوك السياسية وعيوبها، فإنها نظرية ذات أهمية تاريخية عظيمة. وعلى الرغم من بعض الانتقادات، فإنها نالت قبولاً عاماً فى بلده فى القرن الثامن عشر. وحتى عندما هاجم كُتاب مثل هيوم نظرية العقد الاجتماعى، فإنه تم قبول أفكار لوك عن الحكومة. وقد بينت، فيما بعد، خطوط مختلفة من التفكير هذه الأفكار بالتأكيد، مع مذهب بنتام من جهة، ونظريات «بيرك» من جهة أخرى. لكن ظل كثير مما قاله لوك ملكاً مشاعراً. وأصبحت نظريته السياسية فى الوقت نفسه معروفة فى القارة الأوروبية، فى هولندا، بالتأكيد، حيث عاش هناك فى المنفى، وأيضاً فى فرنسا، حيث أثر على كُتاب من عصر التنوير مثل «مونتسكيو». وفضلاً عن ذلك، لا يمكن الشك فى تأثيره العظيم فى أمريكا، حتى لو كان من الصعب تقرير

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

موقفًا ماديًا. ولم يكن لوك نفسه، بالطبع، فيلسوفًا ماديًا، ولم ينظر إلى الأفكار على أنها، ببساطة، إحساسات تتحول من صورة إلى أخرى. وقد صاغ، في الوقت نفسه، تصريحات يمكن أن تستخدم كأساس لمذهب الإحساس. فهو يقول، مثلاً، لأننا جميعاً نعرف الله، فإننا قد نعطي قوة التفكير لشيء مادي. وقد أثرت عناصر مذهب الإحساس هذه، مثلاً، على «بطرس برون» P. Browne (توفي عام ١٧٣٥)، و«اسقف مدينة كورك Bishop of cork» ، والفيلسوف الفرنسي «كوندياك» (١٧١٥ - ١٧٨٠). لقد كان لعناصر مذهب الإحساس في فلسفة لوك، تأثير كبير، مباشر أو غير مباشر، على مفكرى عصر التنوير الفرنسيين، مثل الموسوعيين.

وباختصار، لقد كان لوك واحداً من الأعلام البارزين في فترة عصر التنوير بوجه عام، يمثل في نفسه وفي كتاباته روح البحث الحر، وروح «المذهب العقلي»، وروح كراهية مذهب السلطة بأسره الذي كان يميز عصره. ومع ذلك، يجب أن نضيف أنه كان يمتلك صفة الاعتدال، والشفقة، والإحساس الجاد بالمسؤولية التي كانت تنقص مفكرى القارة الأوروبية الذين وقعوا تحت تأثيره.

لكن إذا كان لوك واحداً من المفكرين البارعين في عصره، فإن «نيوتن» كان مفكراً آخر بارعاً. ولقد كان «دى ألبير» محقاً في ذكرهما معاً. ولذلك، على الرغم من أن هذا العمل لم يكن القصد منه، بالتأكيد، أن يكون تاريخاً لعلم طبيعي، فإنه يجب علينا أن نقول شيئاً عن الرياضى العظيم والفيزيائى الذى كان له هذا التأثير العميق فى تفكير الناس.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- (٢٢) هوجو جروتئوس (١٥٨٣ - ١٦٤٥) فقيه وسياسى هولندى يعتبر أبا للقانون النولى الحديث، أعظم كتبه «فى قانون الحرب والسلام» عام ١٦٢٥ وقد نشر وهو فى المنفى فى باريس . (المراجع)
- (٢٣) For Grotius, Vol., 111 of this History may be consulted, pp. 328 - 34.
- (٢٤) صمويل بوفندروف (١٦٣٢ - ١٦٩٤) فقيه ألمانى ومؤرخ، كان أستاذًا للقانون الطبيعى فى جامعة هايدلبرج . (المراجع)

T, 5, 29. (٢٥)

T, 5, 31. (٢٦)

Ibid. (٢٧)

T, 5, 32. (٢٨)

T, 5, 49. (٢٩)

T, 16, 190. (٣٠)

T, 7, 77. (٣١)

T, 9, 124. (٣٢)

T., p. 127. (٣٣)

T., p. 124. (٣٤)

T., p. 123. (٣٥)

T., 7, 89. (٣٦)

T., 8, 95. (٣٧)

T., 9, 131. (٣٨)

T., 8, 99. (٣٩)

T., 8, 96. (٤٠)

T., 7, 90. (٤١)

T., 8, 101. (٤٢)

T., 8, 116. (٤٣)

T., 11, 134. (٤٤)

T., 11, 136. (٤٥)

T., 11, 134. (٤٦)

T., 13, 150. (٤٧)

T., 13, 149. (٤٨)

T., 13, 149. (٤٩)

T., 11, 142. (٥٠)

T., 12, 146. (٥١)

T., 19, 211. (٥٢)

Ibid. (٥٣)

T., 19, 225. (٥٤)

T., 19, 240. (٥٥)

الفصل الثامن

نيوتن

روبرت بويل - سير إسحاق نيوتن

١ - شملت حلقة أصدقاء لوك «روبرت بويل» R. Boyle (١٦٢٧ - ١٦٩١). وقد اهتم بويل، بوصفه كيميائياً وفيزيائياً، بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام بدلاً من صياغة فروض واسعة فضفاضة بعيدة النال عن الطبيعة بوجه عام؛ وأكد البحث التجريبي في تصوره للمنهج العلمي. ولذلك واصل عمل رجال مثل: «جلبرت» و«هارفي». وقد أظهر بالطبع، في تشديده على التجربة تشابهاً مع «فرنسيس بيكون»؛ غير أنه تجنب عن عمد في السنوات الأولى الدراسة الجادة لأعمال هؤلاء الذين اعترف تبعاً بأنهم أسلافه الرئيسيون، أعني «بيكون» و«ديكارت» و«جاسندي»، لكي يتجنب الاتباع المبتسر للنظريات والفروض. ولقد اعتبر، بحق، واحداً من المروجين الرواد للعلم التجريبي، ورجلاً ساهم في توضيح نقص التنظير الذي لا يلزمه تحقيق أو تثبيت تجريبي منضبط ومنظم. ولذلك مال في تجاربه التي أجراها على الهواء والفضاء عن طريق مضخة هوائية، وهو تفسير قدمه في كتابه «تجارب جديدة آلية - فيزيائية» (١٦٦٠)، نقول مال إلى تنظير هوبز القلبي، ووجه ضربة قاضية إلى خصوم المنهج التجريبي. كما أنه لم ينقد بفاعلية في كتابه «الكيميائي الشاك» (١٦٦١) مذهب العناصر الأربعة فحسب، بل نقد أيضاً النظرية الشائعة عن الملح، والفسفور، والزئبق، بوصفها المبادئ الثلاثة التي تتكون منها الأشياء المادية. (والعنصر الكيميائي هو، بناء على تعريفه، جوهر لا يمكن أن يتحلل إلى مكونات أبسط، على الرغم من أنه لم يستطع أن يقدم قائمة هذه العناصر). وحقق في عام ١٦٦٢ التعميم الذي يُعرف باسم قانون بويل، أعني التأكيد أن ضغط

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وعلاوة على ذلك، فإن القول بأن «بويل» أصر على المنهج التجريبي في العلم، لا يعنى أنه أغفل دور الرياضيات في الفيزياء. فعلى الرغم من أنه لم يكن رياضياً عظيماً، فقد تعاطف تماماً مع «جاليليو» و«ديكارت» في آرائهما عن البناء الرياضى للطبيعة، منظوراً إليها على أنها نسق من أجسام تتحرك، ونظر إلى المبادئ الرياضية على أنها حقائق متعالية تكون أساساً وأداة لكل معرفتنا. وقبل - مع تعديل سنذكره باختصار التفسير الآلى للطبيعة. فقد سلّم بنظرية عن ذرات مزودة بصفات أولية مثل الحجم والشكل، وأثبت أنه يمكن تفسير الظواهر الطبيعية التى يتكون منها العالم المادى تفسيراً آلياً إذا سلمنا بالحركة أيضاً. وليست الحركة خاصية ملازمة للمادة، ولا تخص ماهيتها؛ ولذلك، لابد من التسليم بالمادة أيضاً. إنها، إن شئنا أن نقول، شيئاً أضافه الله، ويحدد الله قوانين الحركة. ولا يقبل «بويل» دليل ديكارت الميتافيزيقى على بقاء نفس المجموع الكلى للحركة أو الطاقة؛ أعنى الدليل المستمد من الثبات الإلهى. ولا يؤلف هذا الدليل الميتافيزيقى برهاناً، ولا نعرف أن المجموع الكلى للحركة لابد أن يظل ثابتاً. ومع ذلك، إذا سلمنا بالمادة والحركة، فإن نظام الطبيعة يكون مذهباً آلياً كونياً، مع إنه يتحتم علينا أن نرفض وجهة نظر «هوبز» التى تقول إن الحركة لابد أن تنتقل بالضرورة إلى جسم عن طريق جسم آخر مستمر. لأننا إذا قبلنا وجهة النظر هذه، فإننا نتورط فى ارتداد لامتناه، ونعلن بطلان الفاعلية العلية لإله روحى.

ولكن على الرغم من أن «بويل» شارك إلى حد كبير فى التفسير الديكارتى لنظام الطبيعة الآلى، فإنه نظر إلى هذا التفسير على أنه تفسير مغال فيه، ويحتاج إلى تعديل. لقد رأى - بالفعل - وقرر بوضوح أن تفسيراً للأحداث عن طريق علّة غائية ليس إجابة عن السؤال كيف تحدث هذه الأحداث، وأى استبدال خلاف لتفسير غائى من أجل الإجابة عن سؤال عن علّة فاعلة، هو أمر غريب عليه، كما هى الحال بالنسبة لديكارت. كما أنه أصر فى الوقت نفسه على صحة فكرة علّة غائية، وعلى إمكان تفسير غائى، حتى إن تكن مهمة الفيزيائى أو الكيميائى الاهتمام بهذه المسائل. لم ينكر ديكارت - فى حقيقة الأمر - أن هناك عللاً غائية عندما استبعد التفسيرات الغائية من الفيزياء، أو الفلسفة التجريبية. ويجب ألا يوصف إصرار «بويل» على صلة العلّة الغائية بالميتافيزيقا بأنه رد شديد على ديكارت. غير أن ما كان ينبغى أن يقوله عن الموضوع

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ومن النتائج التي استمدها «بويل» من البحث المقيد في أذهانتنا أنه ينبغي علينا أن نعطي قيمة كبرى للدين المسيحي، الذي وسع معرفتنا. لقد كان - بحق - رجلاً متديناً بصورة عميقة. إذ أنه نظر إلى عمله التجريبي في العلم على أنه خدمة لله، وأسس سلسلة محاضرات بويل بقصد إيجاد إجابات تُقدم لصعوبات تثار حول المسيحية قد تنشأ من تطورات العصر العلمية والفلسفية. لقد أصر في كتاباته على أن النظر في نظام الكون بوجه عام والنظر في ملكات الروح البشرية وعملياتها بوجه خاص يقدمان دليلاً أكيداً على وجود خالق قوى بصورة قصوى، وحكيم، وخير، كما كشف عن نفسه في الكتب المقدسة. ولا يعني ذلك أن «بويل» يُسلم بالله بوصفه - ببساطة - مُنشئ الكون والحركة. إنه يتحدث باستمرار عن الحفظ الإلهي للعالم، وعن مطابقة الله لكل عملياته. وربما لم يسع إلى أي توافق منظم لهذا المذهب مع نظريته إلى الطبيعة بوصفها نسقاً ألياً؛ لكن ربما يتحتم عليه أن يفعل ذلك إذا أقر - كما فعل - بأن قوانين الطبيعة لا تمتلك ضرورة ذاتية. وعلاوة على ذلك، أصر على أن الله ليس ملزماً على الإطلاق بمطابقته العادية والعامّة، أعني ليس ملزماً على أن يحافظ على نظام الطبيعة بدقة كما نعرفه في التجربة العادية. والمعجزات ممكنة وقد حدثت.

ونحن نرى - بالتالي - عند «بويل» ربطاً متمتعاً بين الإصرار على المنهج التجريبي في العلم، والإصرار على الطابع الافتراضي للنظريات العلمية بوجهة نظر ديكارتية عن علاقة النفس بالبدن، وبمعتقدات لاهوتية جاءت - مباشرة - من المذهب الاسكولائي في العصر الوسيط وعصر النهضة. وتوضح نظريته عن المطابقة الإلهية ونظريته التي تقول إن الله يرى كل ما يعرفه بصورة حدسية في نفسه العنصر الذي ذكرناه أخيراً في تفكيره.

٢ - ومن أصدقاء لوك أيضاً «سير إسحاق نيوتن» S. I. Newton (١٦٤٢ - ١٧٢٧) الذي ذكرناه من قبل في المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»^(٢). ولا داعي لأن نضيف أن لدينا هنا اسماً أعظم من اسم بويل. لأن عبقرية نيوتن أتت بنجاح تكلمة وجهة النظر عن العالم التي أعدها رجال مثل : كوبرنيكوس، وجاليليو، وكبلر^(٣)، وهيمن اسمه على العلم حتى العصور الحالية. إننا لا نزال معتادين على أن نتحدث عن الفيزياء الحديثة حتى مجيء ميكانيكا الكوانتم بوصفها الفيزياء النيوتنية.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لقد افترض نيوتن - بوجه عام - أن كل ظواهر الحركة في الطبيعة قد تُستمد أيضاً بصورة رياضية من مبادئ آلية. ففي كتابه «البصريات» (١٧٠٤)، مثلاً، يثبت أنه يمكن تفسير ظاهرة الألوان عن طريق مصطلحات رياضية آلية، إذا كانت لدينا نظريات ترتبط بانكسار الضوء وتكوينه. وبمعنى آخر، عبّر عن الأمل في أنه على الأمد البعيد ربما نبرهن على أنه يمكن تفسير كل الظواهر الطبيعية عن طريق الميكانيكا الرياضية. وأدى نجاحه البارز في حل مشكلات خاصة بصورة واضحة إلى أن تكون وجهة نظره العامة حجة يستند إليها. وهكذا أعطى إنجازاه دافعاً قوياً للتفسير الآلى للعالم. ولابد أن نلاحظ في الوقت نفسه أنه تم النظر بوجه عام إلى نظريته على أنها أضعفت المذهب الآلى المتطرف عند ديكارت، لأن «قوة الجاذبية» لم تُرد إلى الحركة المحضة لجسيمات مادية. ولقد استخدم بعض المتكلمين وجود الجاذبية، بوصفها شيئاً لا يمكن تفسيره استناداً إلى نظرية آلية خالصة، حجة على وجود الله.

ولابد أن نلاحظ أن الفلسفة الطبيعية عند نيوتن تدرس ظاهرة الحركة. فموضوعها «بحث قوى الطبيعة من ظاهرة الحركة، ثم البرهنة بعد ذلك على ظواهر أخرى من هذه القوى»^(٤). فما عساها أن تكون إذن «قوى الطبيعة»؟ تُعرف قوى الطبيعة بأنها علل التغيرات التي تطرأ على الحركة. غير أنه ينبغي علينا أن ننتبه حتى لا نسيء فهم معنى كلمة «علّة» في هذا السياق. لا داعي للقول إن نيوتن لا يستدل على علّة الظواهر الفاعلة والميتافيزيقية أعنى الله. ولا يستدل على العلل الافتراضية الفيزيائية التي نسلّم بها لكي نفسر تلك الظواهر التي لا تُرد بنجاح إلى عمل القوانين الآلية، أو لكي نفسر المطابقة الفعلية لحركات فعلية لهذه القوانين. إنه يستدل على القوانين الآلية نفسها. وليست هذه القوانين الوصفية - بالطبع - موجودات فاعلة فيزيائية؛ أي أنها لا تمارس علّة فاعلة. إنها «مبادئ آلية».

وتبين الفقرة المقتبسة من كتاب «المبادئ الرياضية» تصور نيوتن للمنهج العلمي. فهو يضم عنصرين أساسيين هما: الكشف الاستقرائي لقوانين آلية من دراسة لظاهرة الحركات، والتفسير الاستنباطي للظواهر على ضوء هذه القوانين. وبمعنى آخر، يتكون المنهج من تحليل وتركيب أو تأليف. ويتمثل التحليل في إجراء تجارب وملاحظات، وفي استمداد نتائج عامة منها عن طريق الاستقراء. أما التركيب فيتمثل في افتراض

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

والقاعدة الثانية تقرر أنه يجب علينا - بقدر الإمكان - أن ننسب نفس العلل لنفس المعلومات الطبيعية. وتقرر القاعدة الثالثة أن صفات الأجسام التي لا تقبل شدة الدرجات أو انقطاعها، والتي تخص كل الأجسام داخل مجال التجربة، لابد أن تفسر الصفات الكلية لجميع الأجسام مهما تكن. ومن ثم ينشأ التساؤل عما إذا كان نيوتن قد نظر إلى القاعدتين الأوليين، اللتين تقرران البساطة والطبيعة، على أنهما حقيقتان قسبيتان أو بوصفهما فرضين منهجيين يفترضهما التجربة. لم يقدم لنا نيوتن أى إجابة واضحة على هذا السؤال. إنه لم يتحدث، بالفعل عن مماثلة الطبيعة، التي تميل إلى البساطة والاطراد. لكن يبدو أنه اعتقد أن الطبيعة تلاحظ البساطة والاطراد لأنها مخلوقة عن طريق الله، وقد يفترض ذلك أن للقاعدتين الأوليين، عنده أساساً ميتافيزيقياً. ومع ذلك يفترض القاعدة الرابعة أنه يجب النظر إلى القاعدتين الأوليين على أنهما مسلمتان منهجيتان أو افتراضان. إنها تقرر أنه ينبغي علينا فى الفلسفة التجريبية أن ننظر إلى القضايا التي تكون نتيجة استقراء من ظواهر على أنها صادقة بصورة دقيقة أو صادقة إلى حد كبير، على الرغم من أى فروض مناقضة قد نتصورها، حتى الوقت الذي تظهر فيه ظواهر أخرى قد تجعل القضايا إما أكثر دقة أو معرضة لاستثناءات. ويبدو أن ذلك يتضمن أن التحقق التجريبي هو المعيار النهائي فى الفلسفة الطبيعية، وأن القاعدتين الأوليين هما مسلمتان منهجيتان، حتى إذا لم يقل نيوتن ذلك.

ومن ثم يقول نيوتن عن هذه القاعدة الرابعة التي ينبغي علينا أن نتبعها إن «حجة الاستقراء قد لا تتجنبها الفروض». ويقرر تماماً فى كتابه «البصريات» أنه «يجب ألا ننظر إلى الفروض فى الفلسفة التجريبية»^(٩). ويقرر، أيضاً، فى كتابه «المبادئ الرياضية» أنه لم يستطع أن يكتشف علّة خصائص الجاذبية من الظواهر، ويضيف القول بأنه «لم يضع فروضاً»^(١٠). وتحتاج هذه التقارير بوضوح إلى تعليق ما.

عندما رفض نيوتن الفروض فى الفلسفة الطبيعية، كان يفكر - أساساً - بالتأكيد - فى تأملات لا يمكن التحقق منها. ولذلك عندما يقول إنه ينبغي اتباع القاعدة الرابعة حتى لا تتجنب الفروض الحجج من الاستقراء، فإنه كان يفكر فى نظريات لم يقدم لها دليل تجريبي. لابد من قبول القضايا التي نصل إليها عن طريق الاستقراء، حتى تبين

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

نستمد مبدأين عامين أو ثلاثة للحركة من الظواهر، ونخبر كيف تنتج صفات كل الأجسام المادية وأفعالها من تلك المبادئ الواضحة الجلية، هو خطوة عظيمة للغاية فى الفلسفة، على الرغم من أنه لم يتم اكتشاف علل تلك المبادئ بعد»^(٨)، وربما يكون نيوتن قد تحدث أحياناً بطريقة مغالى فيها، وربما لم ينصف الدور الذى تلعبه الفروض النظرية فى تطوير العلم. بيد أن قصده الأساسى واضح بدرجة كافية، فى إعلان بطلان فروض ليس لها فائدة ولا يمكن التحقق منها، وفى تحذير الناس من الشك فى نتائج مبادئ أو قوانين تم التأكد منها استقرائياً بأسم «الفروض» بمعنى فروض نظرية لم يتم التحقق منها. إنه ينبغى علينا ألا نسلم باعتراضات ضد «نتائج» تم التأكد منها استقرائياً عدا تلك الاعتراضات التى تقوم على تجارب أو على حقائق يقينية. وهذا ما يعنيه بقوله إنه يجب ألا ننظر إلى الفروض فى الفلسفة التجريبية.

وبالتالى، فإن ميل تفكير نيوتن هو مواصلة تخليص علم الفيزياء من الميتافيزيقا، واستبعاد البحث عن «العلل» من العلم، سواء كانت عللاً فاعلة قصوى أو ما يسميه الاسكولائيون «بالعلل» «الصورية»، أعنى انطبائع أو الماهيات. إن العلم يتمثل عنده فى قوانين، تتم صياغتها رياضياً عندما يكون ذلك ممكناً، ويُستدل عليها من ظواهر، وتقرر كيف تفعل الأشياء، ويتم التحقق منها تجريبياً عن طريق نتائج تُستمد منها. لكن قول ذلك لا يعنى أنه تجنب كل تأمل فى ممارسة فعلية، وقد ذكرنا من قبل نظريته عن الأثير، التى سلم بها لكى يفسر زيادة الضوء. وقد اعتقد أيضاً أنها تخدم فى تقديم حفظ وزيادة، عندما نحتاج إليهما، الحركة التى يتطرق إليها الانحلال فى العالم. لقد اعتقد - بوضوح - أنه لا يمكن تفسير حفظ الطاقة دون أن ندخل هذا العنصر الإضافى الذى يحتوى على مبادئ شيطنة. إن الأثير ليس - كما تصوره ديكارت - نوعاً من السائل الكثيف سريع الانتشار؛ أى أنه يشبه إلى حد ما الهواء، مع أنه أكثر ندرة، ويتحدث «نيوتن» عنه أحياناً بوصفه «روحاً». غير أنه لم يحاول بالفعل أن يصف طبيعته بأى طريقة دقيقة. ولا يبدو أنه شك فى وجود وسط أثيرى؛ لكنه أدرك أن تأملاته فى طابعه ليست إلا فرضاً على سبيل الاختبار، وأن سياسته العامة للامتناع عن أوصاف لكيانات لا يمكن ملاحظتها قد منعت من أن يتحدث بطريقة دجماطيقية عن طبيعته الدقيقة.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ومع ذلك تنقل هذه الصورة فكرة غير كافية تماماً عن نظرة نيوتن المجملة للعالم. لأنه كان إنساناً متديناً، ومؤمناً صارماً بالله. فقد كتب عددًا من الأبحاث اللاهوتية، ومع أن هذه الأبحاث ليست معتدلة إلى حد ما، لا سيما في موضوع التثليث، فإنه نظر - بالتاكيد - إلى نفسه على أنه مسيحي جيد. وفضلاً عن ذلك، حتى على الرغم من أن تمييزاً يمكن أن يكون بين معتقداته العلمية والدينية، فإنه لم يعتقد أن العلم ليس له صلة بالدين على الإطلاق. لقد كان مقتنعاً بأن نظام الكون يقدم دليلاً على وجود الله، ويظهر «من الظواهر أن هناك موجوداً غير جسمى، حياً، عاقلاً، عالماً بكل شيء». إنه يبدو - بالفعل - أنه اعتقد أن حركة الكواكب حول الشمس هي حجة على وجود الله. وفضلاً عن ذلك، يمارس الله وظيفة حفظ النجوم في مسافاتها المناسبة من بعضها البعض، حتى لا تتصادم، و«إصلاح» الشواذ في الكون. وبالتالي، لا يحفظ الله - من وجهة نظر نيوتن - خلقه بمعنى عام للعالم، ولكنه يتدخل بفاعلية لكي يجعل الآلة تستمر في سيرها.

وعلاوة على ذلك، قدم نيوتن تفسيراً لاهوتياً لنظريته عن المكان المطلق والزمان المطلق. ففي «تعليقه العام» على الطبعة الثانية لكتابه «المبادئ الرياضية» يتحدث عن الله بوصفه يكون الديمومة والمكان عن طريق الوجود باستمرار وفي كل مكان. إن المكان المطلق يوصف - بالفعل - بأنه مركز إحساس إلهي أو «مختص بالإحساس» يدرك فيه الله ويحيط بكل الأشياء. والأشياء تتحرك، وتعرف «داخل مركز إحساسه المطرد بدون حد أو قيد»^(١٢). وقد يبدو ذلك للوهلة الأولى أنه يؤدي إلى مذهب وحدة الوجود، بيد أن نيوتن لم يثبت أن الله يتوحد بمكان مطلق أو زمان مطلق. ولكنه - بالأحرى - يكون المكان المطلق والزمان المطلق عن طريق علمه بكل شيء وعن طريق أزليته؛ وهو يعرف الأشياء في مكان لامتناه كما لو كانت في مركز إحساسه؛ لأن كل شيء يكون موجوداً بالنسبة له بصورة مباشرة عن طريق علمه بكل شيء.

واضح أن نيوتن كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً. غير أنه ليس واضحاً كيف تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه عن الطبيعة، ووظيفة علم الفيزياء. إنه لم يقل - بالفعل - في كتابه «البصريات» إن «المهمة الأساسية للفلسفة الطبيعية أن تبرهن من الظواهر دون اختلاق فروض، وأن تستنبط عللاً من معلولات، حتى نصل إلى العلة الأولى، التي لا تكون آلية بالتاكيد»^(١٣). ويستمر لكي يبرهن على أن التأمل في الظواهر

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الهوامش

(١) لتفسير الجاذبية تفسيراً آلياً ، سَلَّم ديكارت بأن الوسيط الاثيرى يشكل دوامات. (المؤلف)

P. 284. (٢)

For these Renaissance scientists chapter XVIII of Vol. III of this History may (٣)
be consulted.

Principia mathematica, Preface to the First edition. (٤)

Third edition, 1421, p. 380. (٥)

11, p. 314, Translation by A. Motte. (٦)

Opticks, 3rd. edition, 1721, p. 377. (٧)

Principia Mathematica, 1,p.2. (٨)

Principia Mathematica, 1,p.6. (٩)

Opticks, pp. 108F. (١٠)

Opticks, p. 344. (١١)

Ibid, p. 379. (١٢)

p. 344. (١٣)

الفصل التاسع

مشكلات دينية

صموئيل كلارك - المؤلهة - الأسقف بطلر

١ - كان «صموئيل كلارك» S. Clark (١٦٧٥ - ١٧٢٩) من بين المعجبين المتحمسين لنيوتن. نشر في عام ١٦٩٧ ترجمة لاتينية لـ «بحث في الفيزياء» ومؤلفه «جاك روهو» J. Rohault، وقام بعمل ملاحظات على الترجمة كان يهدف من ورائها أن تعين على ترجمة مذهب نيوتن. بعد أن أصبح قسيساً إنجيلياً، قام بنشر عدد من الأعمال اللاهوتية والتأويلية، وألقى سلسلتين من محاضرات «بويل»؛ كانت الأولى عام ١٧٠٤ عن وجود الله وصفاته، أما الثانية فكانت عن الأدلة على الدين الطبيعي والدين الموحى به. وكتب عام ١٧٠٦ ضد وجهة نظر «هنري بودول» H. Dodwell التي تقول إن النفس فانية بالطبع، لكن الله يُضفي عليها الخلود بنعمة منه، نظراً لوجود ثواب وعقاب في الحياة الأخرى. كما أنه نشر أيضاً ترجمة لكتاب نيوتن «البصريات». وفي عامي ١٧١٥ و ١٧١٦ دخل في جدال مع «ليبنتس» حول مبادئ الدين والفلسفة الطبيعية. وفي أواخر حياته، كان رئيساً لكنيسة سانت وليم، في «وستمنستر»، وهو منصب منحته إياه الملكة «آن» عام ١٧٠٩.

وطور كلارك في محاضرات بويل^(١)، التي وجهها ضد مستر هوبز، وإسبينوزا، ومؤلف «رسائل العقل»، ومنكرين آخرين للدين الطبيعي والدين الموحى به، نقول طور كلارك إلى حد كبير دليلاً بعددياً على وجود الله. إذ يجاهر بقصده وهو البرهنة على «هذه القضايا فقط، من حيث إنه لا يمكن إنكارها دون الإقلاع عن ذلك السبب الذي يزعم كل الملحد أن يكون الأساس لعدم إيمانهم»^(٢). ثم انتقل إلى التصريح بعدد من

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الثانية عشرة أن العلة القصوى لابد أن تكون موجوداً «ذا خيرية لامتناهية، وعدالة، وصدق، وكل الكمالات الأخلاقية مثل أن يصبح الحاكم الأسمى للعالم»^(١٤).

ويتطرق كلارك أثناء تأملاته وحججه إلى انتقادات متعارف عليها بصورة كبيرة أو قليلة ضد الأسكولائيين؛ فهم - مثلاً - قد استخدموا مصطلحات ليس لها معنى. ومع ذلك، بغض النظر عن الحقيقة التي تقول إنه عُرِضَ نفسه لنفس النوع من الانتقادات باستخدام مصطلحات فنية، فمن الواضح لأي قارئ يعرف أى شيء عن التراث الأسكولائي أن كلارك يستخدمه بكثرة. ولا يعنى ذلك، أنه لا وجود لشيء عند كلارك سوى ما جاء من الأسكولائيين، فعندما يحاول، مثلاً، أن يدافع عن القضية السادسة (التي تقول إن الكائن الموجود بذاته لامتناه بصورة ضرورية وعالم بكل شيء) ضد الاعتراض الذى يقول إن الوجود فى كل مكان أو العلم بكل شيء لا يخص بالضرورة فكرة كائن موجود بذاته، فإنه يثبت أن المكان والديمومة (أى المكان المطلق واللامتناهى والديمومة) خاصيتان لله^(١٥). إن «المكان خاصية لجوهر موجود بذاته، وليس خاصية لأى جوهر آخر. فجميع الجواهر تكون فى مكان وتنقذ منه، لكن الجوهر الموجود بذاته لا يكون فى مكان، ولا ينفذ منه، ولكن يكون هو نفسه (إن جاز التعبير) حامل المكان، أى يكون أساس وجود المكان والديمومة ذاتهما. وإذا ما كان المكان والديمومة ضروريين بصورة واضحة، وليسا جوهرين بل خاصيتين، يبين بوضوح أن الجوهر الذى لا يمكن أن يبقى بدون هاتين الخاصيتين يكون ضرورياً بصورة أكبر^(١٦) (إذا كان ذلك ممكناً). ويسلم كلارك فى رده على اعتراضات أخرى بأن القول بأن «الجوهر الذى يوجد بذاته - حامل المكان، أو أن المكان هو خاصية للجوهر الذى يوجد بذاته - ربما لا يكونان - تعبيرين ملائمين جداً»^(١٧). بيد أنه يستمر لكى يشير إلى أنه ينظر إلى المكان اللامتناهى والديمومة على أنهما، بمعنى ما - حقيقتان فعليتان مستقلتان عن الأشياء المتناهية. ومع ذلك فهما ليسا جوهرين، ولم يبرهن كلارك على وجود الله من المكان والديمومة فى المحل الأول. ويبرهن - كما رأينا - على وجود جوهر موجود بذاته قبل أن يصل إلى القضية السادسة. لكن بعد أن يبرهن على وجود الله، يبرهن على أن المكان اللامتناهى والديمومة لابد أن يكونا خاصيتين لله. ومع ذلك يبدو أن ثمة غموضاً مهماً فى تفسيره للمسألة التى لم يوضحها. لأن القول بأن المكان والديمومة خاصيتان لله

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلي من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلي» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

«إن هناك اختلافات أكيدة وضرورية ودائمة بين الأشياء، وهناك ملاءمة وعدم ملاءمة مؤكدة ولازمة لانطباق أشياء مختلفة أو علاقات مختلفة بعضها على بعض؛ لا تعتمد على أى بناءات إيجابية، بل تقوم بصورة ثابتة فى طبيعة الأشياء وسببها، وتنشأ لا محالة من اختلافات الأشياء ذاتها^(٢٢). فعلاقة الإنسان بالله، مثلاً، تجعلها مناسبة بصورة ثابتة حتى إنه يمجّد خالقه، ويعبده، ويطيعه. وعلى نحو مماثل تكون العلاقة، فى معاملة الناس وحديث بعضهم مع بعض، أكثر ملائمة بلا شك، وفى طبيعة الشيء نفسه، حتى إن كل الناس يحاولون أن يحققوا الخير العام والرخاء للجميع بدلاً من أن يدير كل الناس باستمرار دمار وفناء الكل^(٢٣)».

ويصر كلارك ضد هوبز على أن علاقة الملاءمة وعدم الملاءمة مستقلتان عن أى عقد اجتماعى أو عهد، وأنهما تسببان التزامات بغض النظر عن أى قانون مشروع وعن تطبيق جزاءات، راهنة أو مستقبلية. إن المبادئ الأخلاقية، فى حقيقة الأمر، «جلية وواضحة بذاتها حتى إنه لا شئ سوى الغباء المفرط للعقل، وفساد الطبايع، أو عناد الروح يمكن أن يجعل أى إنسان يفكر على الأقل فى الشك فيها»^(٢٤). إن «هذه الالتزامات الأخلاقية الدائمة هى، بالفعل، مفروضة بذاتها على كل الموجودات العاقلة، وتأمّل وجودها سابق على الإرادة الإيجابية لله وأمره»^(٢٥). بيد أن تحقيقها وتأديتها هو أمر يريدّه الله حقاً، وهو يثيب الناس ويعاقبهم تبعاً لتأديتهم القانون الأخلاقى أو مخالفتهم إياه. ومن ثم، يمكننا أن نتحدث عن «إلزام ثانوى وإضافى»، لكن الإلزام الأسمى للجميع... هو السبب الدائم للأشياء»^(٢٦). وبمعنى آخر، هناك قانون أخلاقى طبيعى، والمبادئ الأساسية فيه تميزها على الأقل عقول كل أولئك الذين لا يكونون مخبولين، ولا فاسدين تماماً. وتلك «الحالة التى يسميها لوك بحالة الطبيعة، ليست، على أية حال، حالة طبيعية، وإنما حالة الفساد العظيم، المخالف للطبيعة، والفظيع، الذى يمكن تصوّره»^(٢٧).

ومع ذلك، على الرغم من أن المبادئ الأساسية للقانون الأخلاقى واضحة بذاتها للعقل الذى انقشعت عنه الغشاوة، وغير المنحرف، وعلى الرغم من أنه يمكن استنباط قواعد أكثر خصوصية منها، فإن الحالة الفعلية للإنسان هى الحالة التى تقول إن تعلم الحقيقة الأخلاقية أمر ضرورى له. وهذا يعنى فى النهاية أن الوحي ضرورى من

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إن ملاحظات كلارك عن المؤلهة خلافية بصورة كبيرة، بيد أن تصنيفه، حتى لو كان موضوعاً في قالب بسيط إلى حد كبير، مفيد في أنه يلفت الانتباه إلى أساس مشترك وإلى اختلافات. لقد أستخدمت كلمة «مؤلهة» لأول مرة في القرن السادس عشر، واستخدمت لتطلق على مجموعة من الكتاب ينتمون، في الغالب، إلى الجزء الأخير من القرن السابع عشر والجزء الأول من القرن الثامن عشر، الذين رفضوا فكرة الوحي المفارق للطبيعة والأسرار الموحى بها، ولوك نفسه لم يرفض فكرة الوحي، لكنه يصر، كما رأينا، على أن العقل هو الحكم على الوحي، وقام كتابه «معقولة المسيحية» (١٦٩٥) بدور قوى في توجيه عقلنة الدين المسيحي. فقد قام المؤلهة بتطبيق أفكاره بطريقة أكثر راديكالية، ومالوا إلى رد المسيحية إلى دين طبيعي خالص، مستبعدين فكرة وحي فريد، وحاولوا إيجاد الماهية العقلية في قلب الديانات التاريخية المختلفة. لقد كان لديهم بوجه عام إيمان بالله، يميزهم عن الملاحدة، وكانوا لا يؤمنون جميعاً بوحى فريد وخطة للخلاص متعالية على الطبيعة، وذلك يميزهم عن المسيحيين الأرثوذكس. وبمعنى آخر، لقد كانوا عقليين آمنوا بالله. وهم يختلفون في الوقت نفسه كثيراً فيما بينهم، وليست هناك مدرسة لمذهب التاكليه. لقد كان بعضهم أعداء للمسيحية، في حين أن بعضهم لم يكونوا كذلك، على الرغم من أنهم مالوا إلى رد الدين المسيحي إلى ديانة طبيعية. وقد آمن بعضهم بخلود النفس، في حين أن آخرين لم يؤمنوا. وتكلم بعضهم كما لو كان الله خلق العالم، ثم تركه ليسير في طريقه وفق قوانين طبيعية. وقد تأثر هؤلاء بوضوح وبقوة بالمفهوم الآلى الجديد عن نظام الكون. ولقد كان لدى البعض منهم إيمان، على الأقل، بالعناية الإلهية. وأخيراً، لقد مال بعضهم إلى توحيد الله بالطبيعة، بينما آمن آخرون بالله شخصي. لكن على مر الزمن أستخدمت كلمة «مؤله» لتعني المعنى الأخير بوصفه مميزاً عن أصحاب وحدة الوجود الطبيعيين، وعن أولئك الذين ينكرون كل حكم إلهي يعتنى بالعالم. وبصورة دقيقة، لقد كان هدف مؤلهة القرن الثامن عشر هو ألا يكون الدين متعالياً على الطبيعة، ورفضوا قبول أى قضايا دينية بناء على السلطة. إن العقل عند المؤلهة، والعقل وحده، هو الحكم على الحقيقة في الدين كما هي الحال في أى مجال آخر. ولذلك فإنهم يُسمون أيضاً «بالمفكرين الأحرار»، وتتضمن هذه الكلمة أن نشاط العقل عندهم يجب ألا يقيدده عرف أو سلطة، سواء أكانت سلطة الكتاب المقدس أم سلطة الكنيسة.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وكان كتاب «توماس شيرلوك» «اختبار شهادة قيامة يسوع» (١٧٢٩) رداً على «مقالات» ولاستون من حيث إنها اهتمت بالقيامة.

وكان «هنرى سانت جون» الفيكونت بولنجبروك (١٦٧٨ - ١٧٥١) مرموقاً بين المؤلهة بسبب بروزه فى الحياة السياسية. اعترف «بولنجبروك» بأن «لوك» أستاذة، بيد أن طريقته فى تفسير المذهب التجريبي عند لوك لم تلائم روحه. لأنه مال إلى تطويره فى اتجاه وضعى. وكان يكره أفلاطون و«الأفلاطونيين» بما فيهم القديس أوغسطين، ومالبرانش، وباركلى، وأفلاطونى كمبردج وصموئيل كلارك. والميتافيزيقا فى نظره من خلق الخيال. ولم يمنعه ذلك، فى حقيقة الأمر، من إثبات أنه يمكن البرهنة على وجود خالق قادر وحكيم كل الحكمة عن طريق التأمل فى النظام الكونى. بيد أنه أكد العلو الإلهى، ورفض فكرة «المشاركة» «الأفلاطونية». فمن اللغو أن نتحدث عن الإله الذى يحب الإنسان: فمثل هذا الحديث لا يخدم إلا رغبة الإنسان فى أن يبالغ فى أهميته. وهذا يعنى، بالتأكيد، أنه كان ينبغى على «بولنجبروك» أن يخرج المسيحية من عناصرها المميزة ويردها إلى ما اعتبره ديناً طبيعياً. إنه لم ينكر بوضوح أن المسيح هو المسيح المنتظر أو أنه قام بمعجزات : فهو يؤكد بالفعل هاتين القضيتين، لكن عمل القديس بولس وأتباعه كان موضوع الهجوم الشديد. إن هدف مجيء المسيح ونشاطه هو ببساطة أن يؤكد حقيقة الدين الطبيعى. أما لاهوت الفداء والخلاص فهو تراكم لا قيمة له. وعلى الرغم من كل تقديره للوك، فإنه كان يفتقر تماماً إلى تقوى المسيحية الحقيقية الذى كان موجوداً عنده (لوك)، ولوثلت نظريته الاستخفاف بكل شيء، ذلك الاستخفاف الذى غاب بصورة بارزة عن عقل أبى المذهب التجريبي. ويجب فى رأى بولنجبروك أن تقتصر الجماهير على التمسك بالدين السائد والمهيمن، ولا يزعجهم المفكرون الأحرار. فالتفكير الحر يجب أن يكون حقاً مقصوراً على الارستقراطيين والمتعلمين.

إن المؤلهة الإنجليز لم يكونوا على الإطلاق فلاسفة متعمقين؛ لكن كان للحركة تأثير ملحوظ. ففي فرنسا، مثلاً، كان «فولتير» معجباً بـ «بولنجبروك»، وكان «ديدرو»، لفترة ما على الأقل، مؤلفاً. كما أن السياسى الأمريكى، «بنيامين فرانكلين»، الذى كتب

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

معقولة معتقداتنا عن الطبيعة ومشروعيتها، وذلك لأنها ببساطة غامضة بالنسبة لنا. ولذلك، فإننا نستطيع أن نثبت عن طريق المماثلة أنه إذا واجهنا صعوبات في ميدان الحقيقة الدينية تشبه الصعوبات التي نواجهها في ميدان معرفتنا بالطبيعة، التي هي خلق الله بدون شك، فإن هذه الصعوبات لا تكون سبباً لرفض نظريات دينية ليست في متناولنا. وبمعنى آخر، يقدم المؤلفة صعوبات ضد حقائق الدين الموحى به، غير أن وجود مثل هذه الصعوبات لا يؤلف خلود النفس، وضد حقائق الدين الموحى به، غير أن وجود مثل هذه الصعوبات لا يؤلف دعماً للقضايا المشار إليها، إذا كانت تماثل، أو لها نظير، في معرفتنا بتركيب ومجرى الطبيعة، التي يسلم المؤلفة بأن خالقها هو الله. ويستشهد بطار في مقدمته بـ «أورجين» بقصد أن يبين أن الشخص الذي يؤمن بأن الكتب المقدسة هي من عند خالق الطبيعة، قد يتوقع جيداً أن يجد فيها نفس الصعوبات التي يجدها في الطبيعة. وعلى نحو مماثل تماماً من التأمل يمكن إضافة أن من ينكر أن الكتب المقدسة هي من الله بناء على هذه الصعوبات، لنفس السبب تماماً، فإنه ينكر أن العالم قد خلقه الله^(٢٢).

ولم يحصر بطار نفسه، بالتأكيد، في البرهنة على أن تلك الصعوبات في ميدان الحقيقة الدينية لا تؤلف دعماً لقضايا دينية عندما تماثل صعوبات نواجهها في معرفتنا بالطبيعة. فهو يبرهن على ما هو أبعد وهو أن الوقائع الطبيعية تمدنا بأساس للاستدلال على الحقيقة المحتملة للدين الطبيعي والدين الموحى به. وطالما أن المسألة هي مسألة قضايا تكون ذات أهمية حيوية بالنسبة لنا في النظام العملي، وليست مسألة قضايا، يكون صدقها أو كذبها أمراً غير مهم بالنسبة لنا، فإنه ينبغي علينا أن نفعل وفقاً لتوازن الاحتمال. فلا توجد هناك، مثلاً، واقعة طبيعية تجبرنا على أن نقول إن الخلود مستحيل، وفضلاً عن ذلك، فإن المماثلات المستمدة من حياتنا الراهنة تجعل من المحتمل، بصورة إيجابية، أن هناك حياة أخروية. فنحن نرى دوداً يتحول باستمرار إلى فراشات، وطيوراً تكسر قشرتها وتدخل حياة أكمل، وموجودات بشرية تتطور من جنين إلى حالة ناضجة كاملة «وبالتالي فإن القول بأننا لا بد أن نوجد فيما بعد في حالة مختلفة (فرضاً) عن حالتنا الراهنة، كما تكون هذه الحالة مختلفة عن الحالة الأولى، هو قول لا يكون إلا بناء على مماثلة الطبيعة»^(٢٣). صحيح أننا نرى انحلال الجسم، لكن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إن موضوع البحث ليس إزالة كل الصعوبات، وتبرير العناية الإلهية، بل بيان ما ينبغي علينا أن نفعله. وقد يقال إنه ينبغي علينا ألا نفعل بدون بيعة. ولكن لدينا بيعة تاريخية على صدق المسيحية، بصفة خاصة المعجزات والنبؤات.

إن كتاب «المقالة بين الدين...» ناقص تماماً بصورة واضحة إذا نظرنا إليه على أنه فلسفة للدين. لكن لم يكن القصد منه ذلك، ويجب ألا نحكم عليه بأنه كذلك. كما أنه ناقص أيضاً إذا نظرنا إليه على أنه كتاب من كتب علم اللاهوت النسقية، مع أنه من الممتع أن نلاحظ أن بطريرك يجمع فكرة حجة متراكمة على المسيحية ليس لها شأن ببرهان. «لكن حقيقة ديننا، مثل حقائق المسائل العامة، ينبغي الحكم عليها عن طريق كل ألوان البيعة مأخوذة معاً. وإذا لم يمكن افتراض أن السلسلة الكلية للأشياء التي قد تكون مزعومة في هذه الحجة، وكل شيء خاص فيها، قد وقعت عن طريق المصادفة (لأنه هنا تكمن قوة الدليل على المسيحية)، فإنه تتم البرهنة على صدقها»^(٢٨). وهذا خط من التفكير له قيمته في علم اللاهوت. ومع ذلك، لم يكن القصد من الكتاب أن يكون عملاً من أعمال علم اللاهوت النسقي بالمعنى الحديث. لقد كان القصد منه أن يكون رداً على خط المؤلفة من الاعتراض ضد الدين الموحى به، يكون رداً يقوم على مماثلة الطبيعة بالمعنى الذي وصفناه سابقاً. ولا بد أن نسلم - كما اعتقد - بأن بعضاً من مماثلات بطريرك ليست مقنعة. فهناك، مثلاً، اعتراضات واضحة ضد البرهنة على أن احتمال أن السعادة والشقاء في الحياة الآخرة يعتمدان على سلوكنا في هذه الحياة، من الحقيقة التي تقول إن السعادة والشقاء يعتمدان على سلوكنا في هذه الحياة. كما أن القوة العظيمة للعمل تكمن في الوقت نفسه في وعي بطريرك بدور الاحتمال في تفسيرنا للطبيعة وفي سلوكنا في المسائل الدنيوية، وفي حجته التي تقول إنه ينبغي علينا أن نفعل في هذه الحالة وفقاً لتوازن الاحتمال أيضاً في مسائل دينية، دون أن نريد أن تزول كل الصعوبات وألوان الغموض أولاً. وربما يكون هذا الخط من الحجة حجة إنسانية، أعني حجة ضد المؤلفة، غير أنها خط فعال من الحجج من هذه الجهة. لأن المؤلفة المعاصرين لم يكونوا، مثل لورد هيربرت أوف تشمبرس، من أنصار نظرية الأفكار الفطرية، لكنهم، بالأحرى، يبقون في التراث التجريبي.

وسوف نعالج نظرية بطريرك الأخلاقية في الفصل القادم. لكن من غير المناسب أن لا نقول شيئاً هنا عن آرائه الخاصة بالهوية الشخصية، التي قدمها في الرسالة الأولى الملحق بكتابه «المقالة بين الدين...».

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الهوامش

(١) نُشرت سلسلتا محاضرات بويل اللتان ذُكرتا من قبل فيما بعد معاً في مجلد واحد تحت عنوان «مقال عن وجود الله وصفاته، والتزامات الدين الطبيعي، وحقيقة الوحي المسيحي وبقينه». الإشارات إلى طبعة عام ١٧١٩ لهذا العمل . (المؤلف)

A Discourse, 1, P. 9. (٢)

Ibid. (٣)

A Discourse, 1, P. 12. (٤)

Ibid, p. 15.. (٥)

Ibid, p. 38. (٦)

Ibid, pp. 41 - 2. (٧)

Ibid, p. 44.(٨)

Ibid, p. 48. (٩)

Ibid, p. 51. (١٠)

Ibid, p. 64. (١١)

Ibid, p. 70. (١٢)

Ibid, p. 113. (١٣)

Ibid, p. 119. (١٤)

CF. The letters printed at the end of A Discourse, p. 16. (١٥)

Ibid, pp. 21 - 2. (١٦)

Ibid, p. 27. (١٧)

A collection of papers which passed between the late learned Mr. Leibniz (١٨) and Dr. Clark, 1717, p. 77.

Ibid, p. 125. (١٩)

Ibid, p. 149. (٢٠)

Ibid, p. 113. (٢١)

A Discourse, 2, p. 47. (٢٢)

Ibid, 2, p. 38. (٢٣)

A Discourse, 2, p. 39. (٢٤)

Ibid, p. 5. (٢٥)

Ibid, p. 54. (٢٦)

Ibid, p.107. (٢٧)

Ibid, p. 284. (٢٨)

A Discourse, 2, p. 119. (٢٩)

Page references are given to Gladstone's edition of Bulter's works in two (٣٠)
Volumes (Oxford, 1896).

1, pp. 1 - 2. (٣١)

Introduction, 8: 1, pp. 9 - 10. (٣٢)

1, 1, 6: p. 22. (٣٣)

2, 1, 24:1, p. 201. (٣٤)

2, 8, 17:1, pp. 362 - 3. (٣٥)

2,8,2:1, p. 354. (٣٦)

2,1,9:1, p. 359. (٣٧)

2,7,62:1, p. 352. (٣٨)

2:1, p. 388. (٣٩)

3 :1, p. 388. (٤٠)

5:1, p. 392. (٤١)

الفصل العاشر

مشكلات الأخلاق

شافتسبرى - ماندفيل - هاتشيسون - بطزر - هارتلى - تيكز - بالى -
ملاحظات عامة

١ - دافع هوبز فى القرن السابع عشر عن تفسير للإنسان بوصفه أنانيا فى جوهره وسلطوياً فى تصوره للأخلاق؛ بمعنى أن الطابع الملزم للقوانين الأخلاقية، كما نتصورها عادة، تعتمد، فى رأيه، على إرادة الله أو صاحب السيادة السياسى. ومن حيث إن هوبز هو آخر فيلسوف يفسر قانون الله، فإننا نستطيع أن نقول إن مصدر الإلزام فى الأخلاق الاجتماعية هو، فى رأى هوبز، سلطة صاحب السيادة.

وقد عارض لوك - كما رأينا - هوبز بشدة فى نواح مهمة. فهو لم يشاركه فى آرائه التشاؤمية عن الطبيعة الإنسانية عندما ننظر إليها بمعزل عن تأثير المجتمع والحكومة الملزم، ولم يعتقد أن الطابع الملزم للقوانين الأخلاقية يعتمد على سلطة صاحب السيادة، وإرادته. لكنه ذهب بالتأكيد فى بعض تصريحاته فى الأخلاق إلى أن الإلزام الخلقى يعتمد على الإرادة الإلهية. لقد ملح - بالفعل - فى بعض الأحيان أن التمييزات الأخلاقية تعتمد على هذه الإرادة. ولذلك لم يتردد فى القول بأن الخير والشر الأخلاقيين اتفاق أو اختلاف أفعالنا الإرادية مع قانون «تفرضه علينا» إرادة مشرع قانون الخير أو الشر وقوته، ومشرع هذا القانون هو الله. كما أنه يؤكد أنه لو سئل مسيحى لماذا ينبغي على الإنسان أن يفى بعهده، فإنه يجيب بقوله لأن الله، الذى بيده قوة الحياة الأزلية والموت، يأمرنا بذلك. إن هذا العنصر السلطوى لا يمثل،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

هى غاية اجتماعية، ويمتلك الإنسان شعوراً طبيعياً للقيام بهذه التمييزات بفضل طبيعته. وقول ذلك لا يتطابق مع رفض لوك للأفكار الفطرية. إذ أن السؤال البارز ليس عن الوقت الذى تدخل فيه الأفكار الأخلاقية الذهن، بل هو بالأحرى إذا ما كانت طبيعة الإنسان هى كذلك حتى إن أفكاراً أخلاقية أو أفكاراً تنشأ فيه بصورة حتمية فى الوقت المناسب. إنها لا تنشأ لأنها فطرية بالمعنى الذى فهم به لوك الأفكار الفطرية ورفضها، ولكن لأن الإنسان هو ما هو، أعنى كائناً اجتماعياً ذا غاية أخلاقية تكون اجتماعية فى طابعها. إن الأفكار الأخلاقية «مطبوعة» وليست فطرية.

لم يكن لدى شافيتسبرى النية لإنكار أن الفرد يبحث بصورة طبيعية عن خيره الخاص. «فنحن نعرف أن لكل إنسان خيراً خاصاً واهتماماً بخيره الخاص، أجبرته الطبيعة على أن يبحث عنه»^(١). بيد أن الإنسان جزء من نسق، ولكى يستحق مطلق اسم الخير أو الفضيلة، لابد أن يجعل كل ميوله ووجداناته، وميول ذهنه ومزاجه، ملائمة ويتفق مع خير نوعه أو خير ذلك النسق الذى يكون متضمناً فيه ويكون جزءاً منه^(٢). إن خير الفرد الخاص أو العام يتمثل فى انسجام أو توازن شهواته، وأهوائه، ووجداناته تحت سيطرة العقل. ولكن لأن الإنسان جزء من نسق، أى لأنه كائن اجتماعى بطبيعته، فإن وجداناته لا يمكن أن تتسجم تماماً وتتوازن إذا لم تتسجم مع المجتمع. إننا لسنا مجبرين على أن نختر بين حب الذات والغيرية، بين اهتمام المرء بخيره والاهتمام بالخير العام على الرغم من أنها ليست بالضرورة غير مشتركة بصورة متبادلة. «صحيح، أنه إذا وجد فى مخلوق اهتمام بالذات أكثر مما هو معتاد، أو اهتمام بخير خاص، لا يتسق مع مصلحة النوع أو الجمهور، فإنه يمكن الحكم على ذلك من كل ناحية على أنه وجدان سيئ ونميم. وهذا ما نطلق عليه بوجه عام اسم «الأنانية»^(٣). لكن إذا نظر شخص إلى خيره الخاص على أنه ليس متسقاً فقط مع الخير العام، ولكن يشارك فيه، فإنه لا يستحق اللوم. فعلى الرغم من أنه يجب الحكم على بقاء المرء - مثلاً - بأنه رذيل إذا جعله غير قادر على أى فعل كريم أو أريحي *benevolent*، فإن الاهتمام المنظم جيداً ببقاء الأفراد من جانبهم يشارك فى الخير العام. وهكذا لم يرد شافيتسبرى على هوبز عن طريق إدانة كل «أنانية»: إذ أنه يثبت أن الدوافع التى تهتم بالذات والدوافع الغيرية أو الأريحية تتسجم فى الإنسان الأخلاقى. إن الأريحية جزء أساسى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

أناي خالص أو عن طريق نوافع تستحق اللوم. إن الإنسان يشارك، في الواقع الفعلي، في مصلحته الخاصة أو خيره الخاص، أو سعادته، ويشارك في المصلحة العامة أو المشتركة أو الخير أو السعادة بمقدار ما يكون فاضلاً. وهكذا تسير الفضيلة والمصلحة معاً، وبيان ذلك هو أحد اهتمامات شافيتسبري الأساسية. ومن ثم يستطيع أن يقول إن «الفضيلة هي الخير، والريضة هي الشر لكل شخص»^(١١).

ويرى شافيتسبري أن كل شخص لديه القدرة - إلى حد ما على الأقل - على أن يدرك القيم الأخلاقية، وأن يميز بين الفضيلة والريضة. لأن جميع الناس يمتلكون ضميراً أو حاسة خلقية، وهي ملكة تشبه تلك الملكة التي يدرك الناس عن طريقها الاختلافات بين ألوان الانسجام وألوان التنافر، والتناسب ونقص التناسب. «هل هناك جمال طبيعي للأشكال؟» وألا يوجد فعل من الأفعال طبيعي؟ إننا لم نكد ننظر إلى أفعال، ولم نكد نميز الوجدانات والانفعالات البشرية، (وكثير منها يُميز بمجرد الشعور به) حتى تميز العين الداخلية السديدة وترى اللطيف، والجميل، والمحبيب، والرائع، بمعزل عن المشوه، وما تشعّن من النفس، والمقزز، أو الحقير. فكيف يمكن - بالتالي - عدم امتلاك حاسة خلقية طالما أن هذه التمييزات لها أساس في الطبيعة، والتمييز نفسه طبيعي ومن الطبيعة وحدها؟^(١٢) ربما يوجد أشخاص أشرار وقاسدون أخلاقياً، وينقصهم أي نفور مما هو خطأ، وينقصهم أي حب حقيقي لما هو صحيح في ذاته؛ لكن حتى الإنسان الشرير يمتلك حاسة خلقية، إلى حد أنه يستطيع - على الأقل - أن يميز بدرجة ما بين السلوك الذي يستحق التقدير والسلوك الذي يستحق العقاب. إن الإحساس بالصواب والخطأ طبيعي بالنسبة للإنسان، على الرغم من أن العادة والتعليم قد يؤديان بالناس إلى أن تكون لديهم أفكار زائفة عما هو صحيح وعما هو خاطئ. وبمعنى آخر، توجد في جميع الناس حاسة أو ضمير أخلاقي أساسي، على الرغم من أن العادات السيئة، والأفكار الدينية الخاطئة، وغيرها، قد تفسدها (الحاسة) أو تجعلها قاتمة.

وبالتالي، نجد أن الحاسة الخلقية عند شافيتسبري تشبه «الحاسة» أو الملكة الجمالية. فالأذن «يشعر» بالناعم، والخشن، والملائم وغير الملائم، في الوجدانات، ويجد ما هو كريه ولطيف، ومنسجم ومتنافر، هنا بصورة فعلية وحقيقية، كما يجده في أي أعداد موسيقية أو في الصور الخارجية، أو تمثيلات الأشياء المحسوسة. ولا يمكن أن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ولكن عندما يكون فاضلاً تماماً سيكون سعيداً بصورة قصوى. وهذه الإجابة على مشكلة الإلزام متأثرة بالطريقة التي يقرر فيها السؤال. «إنه يبقى أن نبحث سبب الالتزام بالفضيلة، أو السبب الذي يجعلنا نحتضنها»^(١٧). والسبب الذي يقدمه شافيتسبرى هو أن الفضيلة ضرورية للسعادة، وأن الرذيلة تؤدي إلى الشقاء والبؤس. وربما يستطيع المرء أن يرى هنا أثر الفكر الأخلاقى اليونانى.

لقد كان لكتابات شافيتسبرى الأخلاقية أثر جليل الشأن فى فكر فلاسفة آخرين، فى بريطانيا العظمى وخارجها. فقد كان «هاتشيسون»، الذى سننظر فى فلسفته الأخلاقية حالاً، يدين له بقدر كبير، وأثر شافيتسبرى من خلال هاتشيسون فى مفكرين جاءوا فيما بعد مثل «هيوم» و«آدم سميث». كما أن «فولتير» و«ديرو» فى فرنسا، وأعلاما من الأدباء الألمان مثل «هيردر»، قد نظروا إليه نظرة تقدير واحترام. لكننا سنخصص القسم القادم لواحد من نقاد شافيتسبرى.

٢ - أخضع «برنارد دى ماندفيل» B. de Mandeville (١٦٧٠ - ١٧٣٣) نظرية شافيتسبرى الأخلاقية للنقد فى عمله «حكاية النحل أو الرذائل الخاصة، والفضائل العامة» (عام ١٧١٤، والطبعة الثانية عام ١٧٢٣)، الذى كان تطويراً لكتاب «النحل الساخط أو الأراذل يتحولون إلى أمماء» (١٧٠٥). يقول «ماندفيل» إن شافيتسبرى أطلق على كل فعل يؤدي من منظور الخير العام اسم الفعل الفاضل، وألصق بالرذيلة كل أنانية تستبعد الاهتمام بالخير العام. وتفترض وجهة النظر هذه أنه يوجد فى الإنسان الخير صفات تجعله كائنًا اجتماعياً وأنه مزود بطبيعته بميول غيرية. بيد أن التجربة اليومية تعلمنا العكس. إذ لا يوجد لدينا دليل تجريبي على أن الإنسان كائن غيرى بصورة طبيعية. وليس لدينا دليل مقنع على أن المجتمع لا يستفيد إلا بما يطلق عليه شافيتسبرى اسم الأفعال الفاضلة. فالرذيلة - على العكس - هى التى تفيد المجتمع (أي الوجدانات والأفعال الموجهة نحو الذات). إن المجتمع الذى يكون مزوداً «بالفضائل»، هو مجتمع استاتيكى راكد. وعندما يخترع الأفراد، الذين يبحثون عن متعتهم وراحتهم، أو يحققون اختراعات جديدة، وعندما يصبحون - عن طريق معيشة مترفة - منتجين، يتقدم المجتمع ويزدهر. وبهذا المعنى تكون الرذائل منافع عامة. وفضلاً عن ذلك، لا تتسق فكرة شافيتسبرى التى تقول إن هناك معايير موضوعية للأخلاق وقيماً أخلاقية

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

حد ما، وكان هاتشيسون أستاذاً لفلسفة الأخلاق في جامعة «جلاسجو» فترة من الزمن. وأقول إلى «حد ما» لأن شافيتسبرى لم يكن - على الإطلاق - المؤثر الوحيد على تفكير هاتشيسون وعلى صياغة أفكاره. يشرع هاتشيسون في الطبعة الأولى من كتابه الأول «بحث في أصل أفكارنا عن الجمال والفضيلة» (١٧٢٥) في شرح مبادئ شافيتسبرى وتعريفها من حيث إنها مناقضة لمبادئ ماندفيل. بيد أن كتابه «مقال عن طبيعة وتطور الانفعالات والوجدانات، مع توضيحات عن الحاسة الخلقية» (١٧٢٨) يبين تأثير بطر. ويمكن أن نلاحظ تعديلات إضافية في كتابه «نسق الفلسفة الخلقية» الذي أعده «وليم ليشمان» للنشر وظهر بعد وفاته عام ١٧٥٥، على الرغم من أن هاتشيسون أكمله عام ١٧٣٧. وأخيراً، يبين كتابه «مدخل مختصر لفلسفة الأخلاق، جنود الأخلاق والمبادئ الطبيعية الأساسية للتشريع» (١٧٤٢) تأثير «ماركوس أوريلوس» إلى حد كبير، وقد قام هاتشيسون بترجمة الجزء الأكبر من كتابه «تأملات» تقريباً في الوقت الذي كان يكتب فيه عمله اللاتيني. وعلى أية حال، ليس من الممكن أن نلاحظ كل التعديلات المتتالية، والتغيرات، والتطورات في فلسفته الأخلاقية في العرض المختصر الذي يمكن أن نقدمه في هذا القسم.

يتبنى «هاتشيسون» أيضاً موضوع الحاسة الخلقية. وقد كان على وعى، بالطبع، أن كلمة «حاسة» تستخدم عادة للإشارة إلى البصر، واللمس، وغيرهما. لكن الاستخدام الموسع للكلمة له ما يبرره في رأيه. لأن الذهن لا يمكن أن يتأثر بصورة سلبية بموضوعات الحس بالمعنى العادى للمصطلح فقط، بل يتأثر أيضاً بموضوعات في الأنماط الجمالية والأخلاقية. ولذلك، يقوم بتمييز بين الحاسة الخارجية والحاسة الداخلية. عن طريق الحاسة الخارجية، يدرك الذهن، بمصطلح لوك، أفكاراً بسيطة عن صفات مفردة للموضوعات. تلك الأفكار التي تثار في الذهن عند وجود موضوعات خارجية ويسمى تأثيرها على أجسامنا بالإحساسات^(١٨). أما عن طريق الحاسة الداخلية، فنذكر علاقات تسبب شعوراً أو مشاعر تختلف عن رؤية، أو سمع، أو لمس موضوعات منفصلة مترابطة. وتُقسم الحاسة الداخلية بوجه عام إلى الإحساس بالجمال، والحاسة الخلقية. وموضوع الإحساس بالجمال هو «الانتظام وسط التنوع»^(١٩)، وهو مصطلح أحله هاتشيسون محل مصطلح «الانسجام» عند شافيتسبرى. عن طريق

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

هناك صعوبة واضحة في الزعم بأن الموضوع الأولي للحاسة الخلقية يتمثل في الوجدانات، عندما يكون الاهتمام منصباً على أناس آخرين على الأقل. لأنه ربما يثار السؤال كيف يمكن أن ندرك وجدانات غير وجداناتنا الخاصة. يرى هاتشيسون أن «موضوع الحاسة الخلقية ليس أى فكرة أو موضوعاً خارجياً، وإنما هو الوجدانات الداخلية والميول التي نستدلها عن طريق البرهان من أفعال نلاحظها»^(٢٤). وربما نستطيع أن نستنتج أن الموضوع الأولي للحاسة الخلقية هو الأريحية من حيث إنها تتجلى في فعل. وتميل الحاسة الخلقية لأن تصبح قدرة خاصة لإدراك نوع معين من استحسان نوع معين من الفعل (أو بالأحرى، لوجدان أو لميل في الفاعل) بدلاً من أن تكون إدراكاً «للذة». إن العنصر اللذّي في نظرية هاتشيسون^(٢٥) يميل إلى التقهقر إلى وراء، عندما يكون الاهتمام منصباً على النشاط الفعلي للحاسة الخلقية، على الرغم من أنه لا يختفى ولا يتوارى على الإطلاق.

وإذا سلمنا بتأكيد «هاتشيسون» على الأريحية، فما هي مكانة حب الذات؟ إننا نخبر عدداً كبيراً من رغبات خاصة تهتم بالذات، ولا يمكن أن نشبعها كلها؛ لأن إشباع رغبة ما يتعارض مع، أو يمنع، إشباع رغبة أخرى. غير أنه في استطاعتنا أن نجعلها منسجمة وفقاً لمبدأ حب الذات الهادئ. ومبدأ حب الذات الهادئ هو مبدأ ليس له أهمية من وجهة نظر هاتشيسون. أعنى أن الأفعال التي تصدر عن حب الذات ليست شريرة، إذا لم تضر الآخرين ولم تتعارض مع الأريحية؛ غير أنها ليست خيرة أخلاقياً في الوقت نفسه. إن الأفعال التي تحقق السعادة للآخرين هي الأفعال الوحيدة الخيرة أخلاقياً. أو بصورة أكثر دقة، الوجدانات اللطيفة، أو التي تحقق السعادة للآخرين (التي تكون الموضوع الأول للحاسة الخلقية والتي نستدل عليها، في حالة أشخاص ليسوا موضوعاً للحاسة الخلقية، من أفعالهم) هي التي تكون خيرة أخلاقياً. وهكذا يميل هاتشيسون إلى أن يجعل الفضيلة مرادفة للأريحية. ففي كتابه «مقال عن الانفعالات» تصبح الأريحية الهادئة والكلية، من حيث إنها الرغبة في سعادة كلية، المبدأ المهيمن في الأخلاق.

لقد أعطى هاتشيسون للأخلاق صبغة جمالية قوية، عن طريق التركيز على فكرة جمال الفضيلة وقبح أو تشويه الرذيلة. وواصل هاتشيسون هذا الميل في الحديث عن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

التمييز بين الحواس والملكات بصورة واضحة، بناء على موضوعات يمكن تمييزها وجوانب الموضوعات، نكاد لا نجد حداً لعدد الحواس والملكات التي يمكن أن نسلم بها.

ونكاد لا نتوقع أن نجد في نظرية هاتشيسون الأخلاقية، التي تكون فيها الفضيلة ذات الطابع شبه الجمالي الممتاز الموضوع الرئيسي، نقول نكاد لا نتوقع أن نجد انتباهاً كبيراً مكرساً لموضوع الإلزام، بصفة خاصة عندما يرد الحرية إلى العفوية أو التلقائية. غير أنه يقدم معياراً للفصل بين مسارات ممكنة ومختلفة من الفعل. «عندما نقارن الصفة الأخلاقية للأفعال لكي ننظم اختياراتنا بين أفعال متنوعة مفترضة، أو لكي نجد أيّاً منها يكون له الامتياز الأخلاقي العظيم، فإن إحساسنا الأخلاقي بالفضيلة يؤدي بنا إلى أن نحكم هكذا: تتناسب الفضيلة في الدرجات المتساوية للسعادة، التي نتوقع أن تأتي من الفعل، مع عدد الأشخاص الذين تمتد إليهم السعادة... حتى إن الفعل الذي يكون جيداً هو الذي يحقق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد، والفعل الذي يكون سيئاً هو ذلك الفعل الذي يسبب أكبر قدر من البؤس لأكبر عدد»^(٢٧). إن لدينا هنا تطبيقاً واضحاً لمذهب المنفعة. إن هاتشيسون، بالفعل، أحد مصادر فلسفة الأخلاق النفعية.

وبالتالي، تفترض فكرة الحاسة الخلقية، منظوراً إليها على أنها إدراك اللذة في تأمل الفعل الخير، شعوراً أكثر من افتراضها عملية عقلية للحكم. بيد أن الجملة المقتبسة في الفقرة الأخيرة، التي أخذناها من نفس العمل المبكر الذي يتحدث فيه هاتشيسون عن الحاسة الخلقية بالفاظ لثية، تصف هذه الحاسة بأنها تنقل حكماً على نتائج الأفعال. ويحاول في كتابات متأخرة أن يوفق بين هاتين الوجهتين من النظر بطريقة منظمة. ولذلك يميز في كتابه «نسق الفلسفة الأخلاقية» بين خيرية الأفعال المادية والصورية، فالفعل يكون خيراً من الناحية المادية عندما يعمل نحو مصلحة المجموعة، أي نحو المصلحة العامة أو السعادة العامة، أيّاً كانت وجدانات أو دوافع الفاعل. في حين أن الفعل يكون خيراً من الناحية الصورية عندما يصدر من وجدانات خيرة في تناسب تام. وكل من الخير المادي والصوري موضوعان للحاسة الخلقية. ويستعير «هاتشيسون» كلمة «الضمير» من بطلر، ويميز بين ضمير سابق وضمير لاحق. الضمير السابق هو ملكة التقرير الأخلاقي، أو الحكم، ويفضل ما يبدو أكثر

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الخير العام، والتأمل في الخير الأعظم، أو سعادة أكبر عدد ممكن. ولذلك، هناك انتقال سهل إلى التفسير النفعي للأخلاق. غير أن المذهب النفعي يتضمن - بنظرته إلى نتائج الأفعال - حكماً واستدلالاً، حتى إن الحاسة الخلقية يجب ألا تكون «حاسة»، بل تكون شيئاً آخر. وإذا أراد المرء أن يربط الأخلاق بالميتافيزيقا واللاهوت، كما فعل هاتشيسون، فإن قرارات الملكة الأخلاقية أو الوعي تصبح انعكاساً لصوت الله، ليس بمعنى أن الأخلاق تعتمد على الاختيار الإلهي، ولكن بمعنى أن ملكة الاستحسان الأخلاقية للامتياز الأخلاقي تعكس أو تكون مرآة لاستحسان الله لهذا الامتياز. ومع ذلك، فإن هذا الخط من التفكير، الذي تأثر إلى حد ما بقراءة هاتشيسون لبطلر، ليس خط التفكير الذي نربطه مباشرة باسم هاتشيسون. إذ أن هاتشيسون يُذكر في تاريخ النظرية الأخلاقية بوصفه بطلاً من أبطال الحاسة الخلقية، وبوصفه مبشراً بالمذهب النفعي.

٤ - لقد حاول كل من شافيتسبري وهاتشيسون أن يُعدّلا التوازن الذي أفسده تفسير هوبز الأناني للطبيعة البشرية. لأن كليهما - كما رأينا - أصر على الطابع الاجتماعي للإنسان وعلى طبيعته الغيرية. لكن بينما جعل شافيتسبري، حب الذات متضمناً داخل مجال الفضيلة الكاملة، عن طريق إيجاد ماهية الفضيلة في انسجام الاهتمام بالذات مع الوجدانات الغيرية، فإن هاتشيسون مال إلى التوحيد بين الفضيلة والأريحية. وعلى الرغم من أنه لم يزد «حب الذات الهادئ»، فإنه نظر إليه على أنه غير مهم من الناحية الأخلاقية. وفي هذه المسألة يتخذ بطلر موقفاً حاسماً مع شافيتسبري ولم يتخذ موقفاً حاسماً مع هاتشيسون^(٢٠).

يلاحظ بطلر في كتابه «رسالة عن طبيعة الفضيلة»، التي نُشرت عام ١٧٣٦^(٢١) كملحق لكتابه «المسألة بين الدين» أنه «ربما يكون من الملائم أن نلاحظ أن الأريحية والرغبة فيها، منظوراً إليها بمفردها، ليست كل الفضيلة والرذيلة»^(٢٢). وعلى الرغم من أنه لم يذكر «هاتشيسون» بالاسم، فإنه ربما فكر فيه عندما يقول: «أعتقد أن بعضاً من الفضائل العظيمة والمميزة تعبر عن نفسها بطريقة قد تسبب خطراً ما لقراء لا يبالون بتصور أن الفضيلة كلها تتمثل في تحقيق سعادة البشرية في الحالة الراهنة فقط، وفقاً لأفضل حكمهم، وربما تنتج الرذيلة كلها التي تتمثل في فعل ما يتوقعونه، أو قد يتوقعونه،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وهكذا لا يمكن أن تتفق الأريحية مع حب الذات، الذي يكون الرغبة في السعادة. ومع ذلك، ثمة صدام بين إشباع شهوة معينة أو انفعال أو وجدان، مثل الرغبة في الثروات، والأريحية؛ ونحن نعرف جميعاً ماذا تعنى كلمة «أناني». فعندما يقول الناس إن حب الذات والأريحية أو الغيرية لا تتطابق، فإن ذلك يرجع في الغالب إلى الخلط بين الأناانية وحب الذات. بيد أن هذه طريقة للحديث يؤسف لها، لأنها تستبعد الحقيقة التي تذهب إلى أن ما نسميه بالأناانية قد لا يتطابق تماماً مع حب ذات حقيقي. «فلا شيء أكثر شيوعاً من أن نرى أناساً يهبون حياتهم لانفعال أو لحيل إلى نزواتهم المعروفة ودمارهم، وفي تناقض مباشر لمصلحة واضحة وحقيقية ولداعات حب الذات العالية»^(٢٩).

ويجعل بطلر، أحياناً، «حب الذات المعقول» أو «حب الذات الهادئ» مناقضاً «لحب الذات غير المعتدل»^(٣٠). كما أنه يجعل حب الذات المعقول مناقضاً «لحب ذات مفترض»، أو «مصلحة مفترضة»؛ وربما تكون طريقة الحديث هذه مفضلة، لأنه يجعل الرغبة في تلك الغايات التي يمنح بلوغها، في حقيقة الأمر، السعادة مناقضة للرغبة في تلك الغايات التي يُعتقد خطأ أنها تمنح السعادة. ففي بعض الأحيان يُعتقد أن المتع الجزئية التي تؤلف «المجموع الكلي لسعادتنا» أنها تنشأ من الثروة، والشرف، وإشباع الشهوات الحسية^(٣١). بيد أنه من الخطأ أن نعتقد أن هذه المتع هي المكونات الوحيدة للسعادة البشرية. والناس الذين يفكرون بهذه الطريقة لديهم فكرة خاطئة عما يحتاجه حب الذات الحقيقي.

وقد يُعترض، بالطبع، على أن السعادة شيء ذاتي، وأن كل فرد هو أفضل حكم على ما يؤلف السعادة. غير أن بطلر استطاع أن يواجه هذا الاعتراض، شريطة أنه تمكن من بيان أن «السعادة معنى محدداً وموضوعياً مستقلاً عن أشخاص مختلفين»، أي عن الأفكار المتنوعة عن السعادة. وقد حاول أن يفعل ذلك عن طريق تقديم مضمون موضوعي محدد لمفهوم الطبيعة، أعني الطبيعة البشرية. فهو يذكر - في المقام الأول - معنيين ممكنين لكلمة «طبيعة» لكي يستبعدهما. «لا يُقصد بالطبيعة أحياناً سوى مبدأ في الإنسان، دون نظر إلى نوعه أو درجته»^(٣٢). لكن عندما نقول إن الطبيعة هي قاعدة الأخلاق، فمن الواضح أننا لا نستخدم كلمة «طبيعة» بهذا المعنى؛ أعني أي شهوة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الطبيعة البشرية أسمى من الانفعال. ومن الممكن مناقضة الانفعال دون مخالفة تلك الطبيعة، لكن لا يمكن مناقضة مبدأ الحب دون مخالفة تلك الطبيعة. ولذلك إذا فعلنا بصورة مريخة لا عناء فيها ، وتلائم اقتصاد الطبيعة البشرية، فإن حب الذات لابد أن يحكم^(٤٧). بيد أنه لم يثبت أن حب الذات والضمير هما نفس الشيء. إنهما يتفقان بوجه عام، من وجهة نظر بطلر؛ لكن هذا القول يتضمن أنهما ليسا - بدقة - نفس الشيء. «واضح أنه قلما يوجد، في مجرى الحياة العام، أى مفارقة بين واجبنا وما يُسمى بالمصلحة: يندر بصورة كبيرة أن تكون هناك مفارقة بين الواجب وما عساه أن تكون مصلحتنا الحالية بالفعل؛ وأعنى بالمصلحة السعادة والرضا^(٤٨). وبالتالي يتفق حب الذات مع الفضيلة تماماً، ويقود إلى نفس مجرى الحياة^(٤٩)، على الرغم من أنه محصور في الاهتمام بالعالم الراهن. كما أن الضمير وحب الذات، إذا فهمنا سعادتنا الحقيقية، يقودانا باستمرار في نفس الطريق. إن الواجب والمصلحة يتفقان تماماً، على الأقل في هذا العالم، غير أنهما يتفقان تماماً وفي كل حالة إذا أحطنا بالمستقبل ويكل شيء؛ أى أن ذلك يكون متضمناً في فكرة تصريف جيد وكامل للأمور^(٥٠). إن الضمير قد يملئ مساراً للفعل لا يتفق، أو لا يبدو أنه يتفق، مع مصلحتنا المؤقتة، لكن إذا أخذنا - على المدى البعيد - في الاعتبار الحياة المستقبلية، فإن الضمير يملئ علينا باستمرار ما يكون مصلحتنا الحقيقية، أعنى ما يسهم في سعادتنا التامة. ولكن لا ينجم عن ذلك أن الضمير هو نفسه حب الذات؛ لأن الضمير هو الذى يخبرنا أنه ينبغي علينا أن نفعل ما يسهم في سعادتنا التامة بوصفنا موجودات بشرية. ولا ينجم عن ذلك بالضرورة أنه ينبغي علينا أن نفعل ما يملئ الضمير من الدافع الواعى لخدمة مصلحتنا الحقيقية. لأن القول بأن الضمير يملئ علينا ما يكون من مصلحتنا، أو أن الواجب والمصلحة يتفقان، والقول بأنه ينبغي علينا أن نفعل واجبنا بدافع تأمين مصلحتنا، ليس هما قول واحد، وليس هما نفس القول.

يقول بطلر في كتابه «رسالة عن طبيعة الفضيلة» إن موضوع ملكة الضمير هو «أفعال، ويندرج تحت هذا الاسم مبادئ فعالة أو عملية : أى تلك المبادئ التى يفعل منها الناس، إذا أعطت لهم الفرص والظروف القوة، وتسميها، عندما تكون ثابتة وعادية فى أى شخص بسلوكه»^(٥١). إن الفعل، والتصرف، والسلوك، مجردة من كل اعتبار

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وماذا - إذن - عن الإلزام؟ لم يفصح بطر عن نفسه بوضوح كاف في هذه المسألة. غير أن وجهة نظره الغالبة هي أن الضمير يعلن بصورة موثوق بها، عندما يدرك الفعل بوصفه صواباً، وذاك الفعل بوصفه خطأ، أنه ينبغي تأدية الفعل الأول، ولا ينبغي تأدية الفعل الثاني. يقول في مقدمة كتابه «المواعظ» إن «السلطة الطبيعية لمبدأ التأمل هي الإلزام الأكثر قرباً و يقيناً، والأكثر تأكيداً ومعرفة»^(٥٦). وعلى نحو مماثل، «ضم، بالتالي، هذه السلطة وهذا الإلزام، الذي يكون جزءاً مكوناً من هذا الاستحسان المنعكس، وسينتج بدون شك، على الرغم من أن شخصاً ما يشك في كل شيء آخر، أنه لا يزال يبقى تحت الإلزام الأكثر قرباً والأكثر يقيناً على ممارسة الفضيلة، أعني إلزاماً متضمناً في الفكرة الخالصة عن الفضيلة؛ في الفكرة الخالصة عن الاستحسان المنعكس»^(٥٧). ويبدو أنه يشير إلى أن الفضيلة تحمل معها حقاً خاصاً تطالبنا به، وأن الاستحسان من الناحية الأخلاقية هو الإعلان بصورة ملزمة؛ بمعنى أنه إذا عرفت، عندما يواجهني اختيار فعلى خطأ واحداً من الفعل بأنه خير، وأعرف الخط الآخر بأنه شر، فإنني أقرر لا محالة أنه ينبغي عليّ أن أتبع الخط الأول من الفعل، وأتجنب الثاني. ويتسأل بطر: إذا افترضنا أن هناك قانوناً طبيعياً، فما هو الإلزام الذي نكون مجبرين على أن نتبعه! ويجيب بأن «السؤال يحمل معه إجابته الخاصة. فالترامك بأن تطيع هذا القانون هو كونه قانون طبيعتك. إن القول بأن ضميرك يستحسن هذا المسلك من الفعل ويشهد بصحته هو نفسه فقط إلزام. فالضمير لا يقدم نفسه فحسب لكي يبين لنا الطريق الذي ينبغي أن نسلكه، بل إنه يحمل سلطته الخاصة أيضاً»^(٥٨). ولم يقل بطر إن الحقيقة التي تذهب إلى أن فعلاً ما يكون لمصلحتنا يؤلف بذاته إلزاماً، ولكنه يقول بالأحرى، كما رأينا، إن الواجب والمصلحة يتفقان، بمعنى - على الأقل - أن الله يرى أن فعل ما نعرف أنه واجبنا، يؤدي بنا في المدى البعيد إلى سعادتنا الكاملة ورضانا.

ليس شمة شك في أن بطر لم ينتبه بصورة كافية إلى صنوف التنوع والاختلاف في النظرة الأخلاقية والمعتقدات الأخلاقية. فهو يعترف - بالفعل - أنه ربما يكون هناك شك في مسائل خاصة؛ غير أنه يصر على «أن هناك، بوجه عام، معياراً للفضيلة في الواقع مُسلم به بصورة كلية. إنه ذلك الذي تعترف به كل الأزمنة وكل البلاد بصورة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

يقوم موقفه العام على موقف لوك الذى يقول إن الإحساس هو العنصر السابق فى المعرفة، والذهن فارغ قبل الإحساس. ولذلك تكون الحاجة إلى بيان كيف تتكون أفكار الإنسان فى تنوعها وتركيبها من معطيات الحواس. وهنا يستخدم «هارتلى» فكرة «هيوم» عن تداعى الأفكار، مع إنه يعترف فى مقدمته لكتابه «ملاحظات عن الإنسان» بأنه مدين لكتاب «رسالة عن المبادئ الأساسية للفضيلة والأخلاق»، الذى كتبه «جون جاي» J. Gay (١٦٩٩ - ١٧٤٥)، وهو قسيس، والذى صدره الأسقف «لاو» Law فى ترجمته للعمل اللاتينى لكتاب «أصل الشر» (١٧٣١) ومؤلفه «كنج» King رئيس الأساقفة. لكن بينما طورت رسالة «جاي» نظريات «هارتلى» السيكلوجية، فإن نظريته الفيزيائية عن العلاقة بين الجسم والذهن تأثرت بتأملات «نيوتن» فى الفعل المضطرب فى كتابه «مبادئ...» ويمكننا أن نقول، بالتالى، إن تأملات هارتلى تأثرت بـ «لوك»، و«نيوتن»، و«جاي». وقد أعطى هارتلى نفسه، بدوره، دافعاً لدراسة العلاقات بين الجسم والذهن، ولسيكلوجيا التداعى.

وبينما اتفق «هارتلى» مع لوك فى أن الذهن يخلو فى الأصل من المضمون، فإنه لا يتفق معه فى وضع التأمل؛ فالتأمل ليس مصدرًا مميزًا للأفكار؛ إذ أن المصدر الوحيد هو الإحساس. والإحساس نتيجةذبذبات فى جزيئات الأعصاب ينقلها الأثير. وقد اقترح فرض نيوتن عن الأثير فكرته لكى يفسر فعل قوى موجودة على بعد. وبعض الذبذبات معتدلة، وتنتج لذة، فى حين أن بعضها الآخر عنيف، وتنتج ألمًا. وتُفسر الذاكرة عن طريق التسليم بذبذبات ضعيفة باهتة أو «اهتزازات»، أو ميول تطبعها ذبذبات على المادة النخاعية للمخ. إن هناك باستمرار - بالفعل - ذبذبات فى المخ، على الرغم من أنه ماذا تكون هذه الذبذبات هو أمر يعتمد على تجربة الإنسان الماضية، وبالطبع على المؤثرات الخارجية الحالية. وهكذا يمكننا أن نفسر سبب الذكريات والأفكار حتى عندما لا يكون هناك سبب واضح فى الإحساس الحالى. ولابد من تفسير بنية حياة الإنسان الذهنية المركبة عن طريق التداعى، الذى رده «هارتلى» إلى تأثير عناصر «متجاورة»، حيث تتضمن كلمة «مجاورة» استمرارًا متتاليًا. وعندما تتداعى إحساسات مختلفة باستمرار بعضها مع بعض، فإن كلاً منها يصبح متداعياً مع الأفكار التى تنتجها الأفكار الأخرى، وتدخل الأفكار التى تناظر الإحساسات المتداعية فى تداع متبادل.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

يخبر «تيكر» في مقدمة كتابه «تعقب نور الطبيعة» قراءه بأنه فحص الطبيعة البشرية، ووجد أن الرضا، أى رضا كل شخص الخاص، هو المنبع البعيد لكل أفعاله. غير أنه يخبرهم أيضاً بأنه يهدف إلى تأسيس قاعدة الإحسان الكلى أو الأريحية، التى تتجه نحو كل الناس دون استثناء، وأن القاعدة الأساسية للسلوك هى العمل من أجل تحقيق الخير العام أو السعادة؛ أعنى زيادة الحصيلة العامة للرضا. ولذلك كان مضطراً إلى بيان كيف يكون هذا السلوك الغيرى ممكناً إذا كان كل إنسان مجبراً بطبيعته على أن يبحث عن رضاه الخاص. وقد فعل هذا عن طريق البرهنة على ذلك عن طريق «النقل» الذى يجب النظر إليه على أنه غاية بعد أن كان فى البداية وسيلة. «فلذة المنفعة» تحثنا على أن نخدم الآخرين لأننا نحب أن نفعل ذلك. ويمرور الوقت تصبح الأريحية أو خدمة الآخرين غاية فى ذاتها؛ بمعنى أنه لا يُعطى تفكير التأمين رضا المرء الخاص. وعن طريق عمليات مماثلة تُرغب الفضيلة لذاتها وتتكون قواعد السلوك العامة.

بيد أن «تيكر» وجد صعوبة ما فى تفسير الأفعال الأكثر كملاً للتضحية بالذات. فالمرء قد يكون ووداً وعطوفاً على الآخرين لأنه يحب أن يسلك بطريقة وودة، ولا يجد رضا فى القسوة. وربما يقدم جيداً على أن يسلك بطريقة وودة دون أن يلتفت إلى رضاه الخاص. ولكن، كما يلاحظ تيكور، لابد أن نمارس الأريحية ونتخذ التدابير من أجل زيادة السعادة العامة عندما لا يعي المرء ميل هذا السلوك لزيادة سعادته الخاصة، ولابد أن نميز بوضوح - من جهة أخرى - أن التدابير التى يتخذها المرء من أجل الخير العام تميز قدرة المرء الخاصة على الرضا. فالإنسان الذى يضحي بحياته من أجل وطنه قد يعي أن فعله يناقض سعادته الخاصة؛ بمعنى أنه يميز القدرة على استمتاع أبعد. لكن كيف تُفسر هذه الأفعال وتُبرر؟

إن المشكلة تُحل - فيما يرى تيكور على الأقل - عن طريق مجاوزة الطبيعة البشرية منظوراً إليها فى ذاتها بوصفها شيئاً معطى تجريبياً، وعن طريق إدخال مفهوم الله والعالم الآخر. إنه يفترض أن هناك «مُصرفاً للكون»؛ أى أن هناك مخزوناً عاماً من السعادة يشرف عليه الله. فالتناس لا يمتلكون، فى حقيقة الأمر، مزايا واستحقاقاً، ويقسم الله المخزون العام من السعادة أو اللذة بأنصبة متساوية. وعندما أعمل على

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الفرض التطوري ينتزع من دليل «بالي» الذي يستمد كل قوة من التدبير. وإذا كان هذا يعني أن الفرض التطوري لا يتفق مع أى دليل غائى على وجود الله، فإنه رأى يمكن أن يكون محل خلاف ونزاع. لكن إذا كان يعنى أن دليل «بالي» كما يصوغه غير كاف، وأنه لا بد من النظر، بصفة خاصة، إلى الفرض التطوري ومعطياته التى تدعمه فى أى صياغة جديدة للدليل، فإن معظم الناس - كما افترض - سيوافقون. لم يكن «بالي» كاتباً أصيلاً بصفة خاصة. فالممثلة الشهيرة الخاصة بالساعة التى يذكرها فى بدايات عمله ليست من اختراعه هو. ومن المحتمل أنه سَلَّم بالكثير. بيد أنه أظهر مهارة جديدة بالاعتبار، ومقدرة فى ترتيب موضوعه، وفى تطوير دليله. وإنها لمغالاة، فى رأىي أن نفترض كما افترض فى بعض الأحيان أن خط تفكيره ليس له قيمة.

وعلى أية حال، إننا نهتم هنا - بالأحرى - بعمل «بالي» عن «مبادئ الفلسفة الأخلاقية والسياسية» (١٧٨٥)، وهو عبارة عن مراجعة وتوسيع لمحاضرات ألقاها فى جامعة كمبردج. وهو هنا - بصفة خاصة - ليس أصيلاً؛ بيد أنه لم يزعم أن يكون كذلك. ويسلّم فى مقدمة الكتاب بصراحة بأنه مدين لـ «إبراهيم تيكور».

يعرف «بالي» فلسفة الأخلاق بأنها «ذلك العلم الذى يعلم الناس واجبهم وأسبابه»^(٦٣). ولم يعتقد أننا نستطيع أن نقيم فلسفة أخلاقية على افتراض حاسة خلقية، منظوراً إليها على أنها نوع من الفريضة. «بيدولى بوجه عام أنه لا وجود لهذه الغرائز من حيث إنها تكون ما يسمى بالحاسة الخلقية، أو أنه لا يجب تمييزها بالتالى عن الأهواء والعادات التى لا يمكن الاعتماد عليها فى البرهان الأخلاقى لأى سبب من الأسباب»^(٦٤). فنحن لا نستطيع أن نستمد نتائج عن صواب الأفعال أو خطئها دون أن ننظر إلى هدفها. وهذا الهدف هو السعادة. لكن ماذا نعنى بالسعادة؟ ربما توصف - بدقة - أى حالة بالسعادة تفوق فيها كمية اللذة كمية الألم؛ وتتوقف درجة السعادة على كمية هذه الزيادة. وعندما نبحث فيما تكمن السعادة البشرية، فإن أكبر كمية منها يمكن بلوغها، عادة، فى الحياة البشرية هى ما نقصده بها^(٦٥).

وعندما يحدد «بالي» ماذا تكون السعادة بالإجماع، فإنه يقبل وجهة نظر تيكور التى تذهب إلى أن «الذات لا تختلف فى شىء إلا فى الاستمرار والشدة»^(٦٦). يقول : من المستحيل أن نرسي مثلاً كلياً للسعادة يصلح للجميع، لأن الناس يختلفون كثيراً

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

والعقاب الأزلية بالسلوك الإنساني، إلزاماً أخلاقياً عن طريق تقديم باعث أو دافع قوى يجاوز دافع الفطنة، من حيث إن الفطنة تهتم ببساطة بهذا العالم.

ويلاحظ «بالي» أن هيوم اعترض في الملحق الرابع لكتابه «بحث في مبادئ الأخلاق» على محاولات ربط الأخلاق باللاهوت بصورة وثيقة. لكن إذا كانت هناك جزاءات أزلية، فإن «بالي» يصر على أنه يجب على الأخلاقى المسيحى أن يضعها فى اعتباره. فما يميز الأخلاق المسيحية ليس هو مضمون الأخلاق، إن شئت فقل بوصفه الدافع الإضافى الذى تزود به معرفة بجزاءات أزلية، تعمل كباعث للقيام بفعل ما أو عدم القيام به.

«ولذلك لابد أن تُقدّر الأفعال - بالتالى - عن طريق ميلها. فما يكون نافعاً ومفيداً، يكون صحيحاً. إن منفعة أى قاعدة أخلاقية هى وحدها التى تكون إلزاماً»^(٣). وعندما نقيم نتائج الأفعال لابد أن نسأل ماذا ستكون النتائج إذا كان نفس نوع الفعل مسموحاً به بصورة كلية. ولابد أن نفهم القول بأن ما يكون مفيداً ونافعاً يكون صحيحاً، بالمصطلح البعيد للفائدة أو المنفعة، واضعين فى الاعتبار الآثار البعيدة والمتناظرة، بالإضافة إلى الآثار المباشرة. وهكذا عندما تكون النتيجة الخاصة بالتزوير هى خسارة مبلغ معين بالنسبة لشخص معين، فإن النتيجة العامة ستكون تدمير قيمة كل عملة. ويمكن تأسيس قواعد أخلاقية عن طريق تقدير نتائج الأفعال بهذا المعنى العام.

إن «بالي» هو - بحق - فيلسوف نفعى بصورة متسقة. لكن تجدر الملاحظة إلى أنه يميل إلى إغفال إصراره الأصلى على دافع السعادة الخاصة، ويأخذ المنفعة العامة كمعيار، عندما يعالج قواعد أخلاقية معينة وواجبات أخلاقية، وصحة أنواع معينة من أفعال أو خطئها. وفضلاً عن ذلك، فإنه تجنب إلى حد ما الصعوبات العظيمة التى تنشأ من فكرة إحصاء النتائج بوصفها معياراً للخير والشر، والصواب والخطأ، وذلك بإصراره على الحاجة إلى تطوير عادات حسنة والمحافظة عليها. بيد أن «بالي» مرّ مرور الكرام أو تخلص من صعوبات خطيرة ضد موقفه. وسلّم بالكثير. فليس واضحاً، مثلاً، أنه عندما يقول شخص ما إنه مجبر أخلاقياً، فإنه يعنى أن ثمة دافعاً قوياً يدفعه ويحثه وينتج هذا الدافع من أمر شخص آخر. وربما يُضاف أن كل المذاهب الأخلاقية

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لقد كان لهويز نقاد وخصوم آخرون بالطبع. وقد خصصنا فصلاً سابقاً لأفلاطوني كمبردج، وقلنا شيئاً عن «صمويل كلارك» في الفصل الأخير. كان أفلاطونيو كمبردج، وكلارك عقليين، بمعنى أنهم اعتقدوا أن العقل البشرى يعنى مبادئ أخلاقية أزلية وثابتة. وعارضوا هويز فى تمسكهم بوجهة النظر هذه. غير أن «شافتسبرى» و«هاتشيسون»، اللذين عارضا هويز أيضاً، لم يتبعوهما فى نزعتهم العقلية. إذ أنهما لجأ، بدلاً من ذلك، إلى نظرية الحاسة الخلقية. ولا أعنى الإشارة إلى أنه لم يكن هناك أساس مشترك على الإطلاق بين الفلاسفة العقليين، والمدافعين عن نظرية الحاسة الخلقية. لأن هناك عنصراً من المذهب الحدسى - مثلاً - موجوداً فى كلا النوعين من النظرية الأخلاقية. غير أن هناك أيضاً اختلافات مهمة. فالعقل عند الفيلسوف العقلى يعنى مبادئ أخلاقية أزلية وثابتة، يستطيع أن يستخدمها بوصفها مرشداً للسلوك. أما بالنسبة للمتمسك بنظرية الحاسة الخلقية، فإن الشخص يستطيع أن يعنى صفات أخلاقية بصورة مباشرة فى أمثلة عينية وليس فى مبادئ مجردة.

ويعنى ذلك أن المدافع عن نظرية الحاسة الخلقية ربما يوجه الانتباه بصورة أكثر احتمالاً من الفيلسوف العقلى إلى الطريقة التى يعمل بها ذهن الإنسان العادى عندما يصنع قرارات وأحكاماً أخلاقية. وبمعنى آخر، ربما نتوقع أن نجده موجهاً الانتباه بصورة أكبر إلى ما قد نسميه بسيكولوجيا الأخلاق. ونجد، فى حقيقة الأمر، عند بطلر بصفة خاصة فطنة سيكولوجية جديرة بالاعتبار. وفضلاً عن ذلك، فإن نظرية الحاسة الخلقية تعكس بوجه عام وعياً بالنور الذى يلعبه «الشعور»، والمباشرة، فى الحياة الأخلاقية. وتساعد المماثلة التى تجرى بين التمييز الأخلاقى والتقدير الجمالى على بيان هذه الحقيقة.

لكن إذا فحصنا الوعى الأخلاقى العادى، فإننا نرى أن «الشعور»، أو المباشرة، هو العنصر الوحيد. وهناك أيضاً حكم أخلاقى - مثلاً - أو قرار وأمر مصدره السلطة، يجب أن توضع فى الاعتبار. وقد حاول الأسقف بطلر أن ينصف هذا الجانب من المسألة فى تحليله للضمير. واستطاع بذلك أن يغير إلى حد كبير نظرية الحاسة الخلقية الأصلية، وساعد على أن يبين الاختلافات بين التمييز الأخلاقى والتقدير الجمالى.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إدخال التأمّلات والأنوات الميتافيزيقية، من حيث هي كذلك، لتطوير أخلاق مثالية. بيد أن العنصر النفعي الموجود عند مفكرين قمنا بمعالجتهم في هذا الفصل^(٧٧) هو العنصر الفعال والمؤثر. ويأتى الدافع إلى تطوير أخلاق مثالية في القرن التاسع عشر من مصدر آخر.

وهكذا نجد عدداً معقولاً من العناصر المختلفة والإمكانات في النظريات الأخلاقية للفلاسفة الذين ذكرناهم في هذا الفصل. غير أن الصورة الكلية هي صورة تطور الفلسفة الأخلاقية بوصفها موضوعاً مستقلاً للدراسة، أعنى أنها منفصلة إلى حد ما عن اللاهوت وتقف على أقدامها الخاصة، حتى على الرغم من أن رجالاً مثل - هاتشيسون - ويطالر - حاولوا، بصورة طبيعية وملائمة جداً، أن يربطوا أخلاقهم بمعتقداتهم اللاهوتية. وبقي هذا الاهتمام بالفلسفة الأخلاقية واحداً من الخصائص المميزة للفكر البريطاني.

الهوامش

Characteristic, 11, p. 15. References to Shaftesbury's writings will be given (١) according to Volume and page of the 1773 edition of the Characteristics of Men, Manner, Opinion, Times which contains a number of Treatises and pieces on ethical matters.

Characteristics, 11,p. 77. (٢)

Ibid, p. 23. (٣)

Ibid, p. 436. (٤)

Ibid, p. 442. (٥)

Characteristic, 11, p. 227. (٦)

Ibid, p. 16. (٧)

Ibid, p. 22. (٨)

Ibid, p. 77. (٩)

Ibid, p. 176. (١٠)

Characteristics, 11, pp. 414 - 15. (١١)

Ibid, pp. 42 - 3. (١٢)

Ibid, p. 29. (١٣)

Ibid, p. 28. (١٤)

Characteristics, 11, p. 66. (١٥)

Ibid, p. 267. (١٦)

Ibid, p. 77. (١٧)

Inquiry, 1,1. (١٨)

Ibid, p. 2. (١٩)

Ibid, p. 11, Introduction. (٢٠)

System, 1,1,4. (٢١)

Ibid. (٢٢)

Inquiry, 11, 7. (٢٣)

System, 1,1,5. (٢٤)

(٢٥) تجدر ملاحظة أن عدداً من أفكار «هاتشيسون» عن التقدير الجمالي «عن طابعه الذي يخلو من الفرض، مثلاً» يظهر من جديد في تفسير كانط لحكم النوق. (المؤلف)

Inquiry, 11, 3. (٢٦)

Inquiry, 11, 7. (٢٧)

Ibid. (٢٨)

References to Butler's writings are given according to volume and page of (٢٩)
Gladstone's edition of his works (1890).

(٣٠) نُشرت هذه الرسالة - بالتالي - بعد ظهور كتابي هاتشيسون: «بحث...»، ومقال عن الأهواء..

12, 1, p. 407. (٣١)

Dissertation of the Nature of virtue, 15: 1, pp. 409 - 410 . (٣٢)

Ibid, 16: 1, p. 510. (٣٣)

Sermons, 11,6: 11,p. 187. (٣٤)

Ibid. (٣٥)

Sermons, 11,6: 11,p. 190. (٣٦)

Sermons, 11,6: 11,p. 187. (٣٧)

Sermons, 11,18: 11,p. 203. (٣٨)

(٣٩) تأثر هاتشيسون بهذا التمييز عن طريق معرفته بكتاب بطر «مواعظ». لكنه استمر - كما نرى - في التوحيد بين الأخلاق والأريحية تقريباً. وكان ذلك هو الوضع الذي انتقده بطر في رسالته عن الفضيلة (المؤلف).

Sermons, 11,13: 11,p. 199. (٤٠)

Sermons, 11,7: 11,p. 57. (٤١)

Sermons, 11, 8: 11,p. 57. (٤٢)

Sermons, 11,10: 11,p. 59. (٤٣)

1:1,p. 398. (٤٤)

Ibid, 1, p. 399. (٤٥)

Sermons, 2,16: 11,p. 62. (٤٦)

Sermons, 3,11: 11,p. 74. (٤٧)

Sermons, 3,12: 11,p. 75. (٤٨)

Sermons, 3,13: 11,p. 76. (٤٩)

Sermons, 3,13: 11,p. 76. (٥٠)

4: 1,p. 400. (٥١)

Dissertation of the Nature of Virtue, 4: 1, pp. 400 - 1. (٥٢)

Ibid, 5: 1,p. 401. (٥٣)

Per Face to Sermons, 44: 11, p. 25. (٥٤)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الفصل الحادى عشر

باركلى (١)

حياته - أعماله - روح تفكير باركلى - نظرية الإبصار

١ - ولد «جورج باركلى» فى «كيلين» بالقرب من «كلكنى» فى إيرلندا فى الثانى عشر من مارس عام ١٦٨٥، تنحدر عائلته من أصل إنجليزى، ذهب فى سن الحادية عشرة إلى «كلية كلكنى»، ودخل «كلية ترنتى» بدبلن، فى مارس عام ١٧٠٠، وبقي هناك حتى سن الخامسة عشرة من عمره، وبعد أن درس الرياضيات، واللغات، والمنطق، والفلسفة، حصل على درجة الليسانس عام ١٧٠٤. ونشر كتابه «الحساب والرياضيات المتنوعة» عام ١٧٠٧، وأصبح زميلاً فى «كلية ترنتى» فى يونيو عام ١٧٠٤. وبدأ يشك فى وجود المادة، وقد حثته دراسة «لوك» و «مالبرانش» على الاهتمام بهذا الموضوع. وعندما أنهى المتطلبات القانونية رُسِمَ شماساً فى عام ١٧٠٩، وقسيساً فى عام ١٧١٠ فى الكنيسة البروتستانتية، ونقل، ابتداء من عام ١٧١٧، وظائف أكاديمية متعددة أولاها زميلاً من درجة دنيا، ثم زميلاً رفيع المستوى. لكنه حصل على وظيفة رئيس أكليروس دبرى، واضطر بالتالى إلى أن يستقيل عن زمالته. ولم تتقطع إقامته فى الكلية بالطبع. زار باركلى لننن، حيث تعرّف على «ايدسون» و«استيل»، و«بوب» وآخرين مشهورين وزار القارة مرتين.

وبعد أن نُصِبَ رئيس أكليروس، غادر لننن لكى تهتم النواثر الملكية والحكومية بمشروعه؛ وهو تأسيس كلية فى جزيرة «برمودة» لتعليم أبناء المزارعين الإنجليز والهنود الأصليين. إذ يبدو أنه تصور الشباب الإنجليز والهنود وهم يأتون من مسافات بعيدة جداً من بلادهم أمريكا من أجل التعليم العام؛ وبصفة خاصة التعليم الدينى،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ونشره الأستاذ «أ. أ. لوس» عام ١٩٤٤ تحت عنوان «تعليقات فلسفية» ونشر باركلي كتيباً عن «الطاعة السلبية»، دعم فيه نظرية الطاعة السلبية، مع إنه عدلها بالسماح بحق الثورة في حالات الطفيان الشديد.

ظهرت رسالة باركلي اللاتينية «في الحركة» De Motu عام ١٧٢١، ونشر في العام نفسه كتاب «رسالة في المحافظة على بريطانيا العظمى» الذي احتوى على دعوة إلى الدين، والاجتهاد، والاقتصاد في النفقات، والروح العامة، أخذين بعين الاعتبار المصائب التي سببها فيضان البحر الجنوبي، وكتب عندما كان في أمريكا كتابه «السفرون» أو «الفيلسوف الصغير»، ونشره في لندن عام ١٧٢٢. وهو أطول كتبه؛ لأنه يضم سبع محاورات، وهو في أساسه، عمل من أعمال لاهوتى مسيحي، موجه ضد المفكرين الأحرار. وفي عام ١٧٢٢ ظهر كتابه «نظرية الإبصار أو لغة الإبصار التي تبين وجود الله المباشر وعنايته الواضحة والمبررة»، رداً على نقد جريدة ما لكتابه «مقال...»؛ وفي عام ١٧٢٤ نشر باركلي كتابه «المحلل أو مقال موجه إلى رياضي كافر» يهاجم فيه نظرية «نيوتن» عن الانصهارات، ويبرهن على أنه لو كانت هناك أسرار غامضة في الرياضيات، فليس من المعقول أن تتوقع وجودها في الدين، ونشر دكتور «جون» رداً، ورد «باركلي» بعمله «دفاع عن التفكير الحر في الرياضيات» الذي نشره عام ١٧٣٥.

وفي عام ١٧٤٥ نشر «باركلي» خطابين، أحدهما موجه إلى رعيته الخاصة، والآخر موجه إلى الكاثوليك في أسقفية كولن، ويبرهن فيه على عدم المشاركة في نشأة اليقوبية. وظهرت أفكاره عن مسألة البنك الإيرلندي غُفلاً في «دبلن» في ثلاثة أجزاء في عامي ١٧٣٥ و ١٧٣٦ تحت عنوان «المُستخبر» Querist. واهتم باركلي بشئون إيرلندا بصورة جديرة بالاعتبار، ووجه عام ١٧٤٩ كتاب «عالم إلى الحكيم» إلى رجال الدين الكاثوليك في بلاده، يحثهم على أن ينضموا في حركة من أجل تحقيق ظروف اقتصادية واجتماعية أفضل. وفيما يتعلق بدعايته عن فوائد ماء القطران، نشر كتاباً عنوانه «الحلقات» عام ١٧٤٤؛ وهو عمل احتري أيضاً على قدر معين من الفلسفة. وكانت آخر كتاباته المعروفة كتاب «أفكار إضافية عن ماء القطران»، الذي تضمنه كتابه «منوعات» بوصفه جزءاً افتتاحياً، ونُشر عام ١٧٥٢.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

النشاط. ولم ينظر إلى نظريته التي تقول إن الأجسام أو الموضوعات المحسوسة تعتمد على أذهان تدركها على أنها لا تطابق وجهات نظر الإنسان العادى، صحيح أن الإنسان العادى يقول إن المنضدة توجد وتكون موجودة فى الحجرة حتى عندما لا يدركها أحد. غير أن باركلى يجب بأنه لا يريد إنكار أن المنضدة يمكن أن توجد بمعنى ما عندما لا يوجد أحد فى الحجرة لكى يدركها. والمسألة ليست عما إذا كانت القضية صادقة أو كاذبة، ولكن بأى معنى تكون صادقة. فماذا نعنى بقولنا إن المنضدة تكون فى الحجرة عندما لا يوجد شخص ويدركها؟ ماذا يمكن أن يعنى قولنا سوى أنه إذا اضطّر شخص ما إلى أن يدخل الحجرة، ستكون لديه تجربة تطلق عليها اسم رؤية المنضدة؟ ألا يحتج الإنسان العادى بأن هذا هو ما يعنيه عندما يقول إن المنضدة فى الحجرة حتى عندما لا يدركها أحد؟ إننى لا أقترض أن المسألة بسيطة كما يبدو مما تلوح به هذه الأسئلة. ولا أريد أن ألزم نفسى بوجهة نظر باركلى. بيد أننى أريد أن أشير مقدماً باختصار شديد إلى كيف تستطيع وجهة نظر باركلى أن تثبت أن الآراء التى مال معاصروه إلى النظر إليها على أنها خيالية تتفق تماماً، فى حقيقة الأمر، مع الحس المشترك.

لقد ورد التنويه بذكر السؤال: ماذا نعنى بقولنا إن جسماء، أو شيئاً محسوساً، يكون موجوداً عندما لا ندركه بالفعل؟ لم يكن باركلى الفيلسوف الوحيد فقط من أولئك الفلاسفة الذين استطاعوا أن يكتبوا لغتهم جيداً: لأنه اهتم أيضاً بمعانى الكلمات واستخدامها أعظم اهتمام. وذلك، بالطبع، أحد الأسباب الرئيسية للاهتمام الذى أولاه فلاسفة بريطانيون لكتابات اليوم. لأنهم رأوا فيه مبشراً بحركة التحليل اللغوية. فقد أصر باركلى، مثلاً، على الحاجة إلى تحليل دقيق للفظ «وجود». ولذلك يلاحظ فى يومياته أن فلاسفة قداماء كثيرين وقعوا فى أمور هى خُلف وغير معقولة: لأنهم لم يعرفوا ماذا عساه أن يكون الوجود. غير «أننى أصر على اكتشاف طبيعة الوجود، ومعناه، وأهميته»^(٧). والنتيجة التى تقول: «الوجود كونه مدرَكًا» هى، فى رأى باركلى، نتيجة تحليل دقيق للفظ «وجود» عندما نقول إن الأشياء المحسوسة موجودة. كما أن باركلى يولى اهتماماً خاصاً لمعنى الألفاظ المجردة واستخدامها، مثل تلك الألفاظ التى توجد فى نظريات نيوتن العلمية. وقد مكَّنه تحليله لاستخدامها من أن يستبقي وجهات

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وطبيعتها، فإن ذلك سيؤدى بنا إلى تأكيد وجود الله. وعلى العكس يؤدى الإيمان بالجواهر المادى إلى الإلحاد.

وتلك مسألة ذات أهمية؛ إذا نظرنا إلى روح تقيسف باركلى، لأنه أوضح تماماً أنه اعتبر نقده للجواهر المادى يخدم فى تمهيد الطريق لقبول مذهب التآليه بوجه عام، والمسيحية بوجه خاص. لقد نظر معاصرون كثيرون إلى فلسفته، كما قلنا، على أنها شطحات خيالية. ولقد نظر البعض إلى رغبته فى التضحية بعمله فى الكتيبة البروتستانتية فى إيرلندا^(٣) لى ينفذ مشروعه فى «برمودة» على أنها دليل على الجنون. غير أن فلسفته اللامادية ومشروعه فى «برمودة» يكشفان عن نفس السلوك وميل ذهنه اللذين ينكشفان بطريقة أخرى فى اهتمامه بمناعب الفقراء الإيرلنديين، واهتمامه بالدعاية عن فوائد ماء القطران. وأيا كانت القيمة التى تُعطى لفلسفته، وأياً كانت العناصر التى أكتبتها أجيال لاحقة من الفلاسفة، فإن تقديره الخاص لها يُلخص بصورة مذهشة فى الكلمات الختامية من كتابه «مبادئ...»، تلك الكلمات التى تقول «ومع ذلك، فإن ما يستحق المكانة الأولى فى دراساتنا هو أعمال الفكر فى الله، وواجبنا، الذى يجب علينا أن نحققه، من حيث إنه مقصد أعمالنا وتبويرها، ولذلك فإننى سأقدرها كلها بأنها عديمة الفائدة وغير فعالة، إذا لم أستطع أن أبعث فى قرائى عن طريق ما قلته إحساساً ورعاً بوجود الله: ولقد بينت كذب أو بطلان هذه التأملات العقيمة، التى تجعل الوظيفة الأساسية للناس المتعلمين، أى أفضل ما يصرفهم إلى تبجيل حقائق الكتاب المقدس واحتضان حقائقه المفيدة، التى يجب معرفتها وممارستها هى الكمال الأقصى للطبيعة البشرية^(٤)».

وهكذا كان باركلى واضحاً تماماً فى بيان الوظيفة العملية لفلسفته. فالعنوان الكامل لكتابه «مبادئ» هو «رسالة عن مبادئ المعرفة البشرية، التى يُبحث فيها عن الأسباب الرئيسية للخطأ والصعوبة فى العلم، مع حجج المذهب الشكى، ومذهب الإلحاد، والكفر». ويمكن أن نقول على نحو مماثل إن هدف «المحاورات الثلاث» «هو البرهنة بصورة واضحة على حقيقة المعرفة البشرية وكمالها، وعلى الطبيعة اللاجسمية للنفس، وعلى البرهان المباشر على الله، فى مقابل الشكاك، والملاحظة^(٥)». غير أن النتيجة لن تُستمد من هذه التصريحات والتصريحات التى تشبهها التى تذهب إلى أن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

بيد أن باركلي يرفض التفسير الهندسى الشائع عن طريق الخطوط والزوايا. لأن التجربة لا تدعم الفكرة القائلة بأننا نقدر أو نحكم على المسافة عن طريق حساب هندسى. ومن جهة أخرى، تكون الخطوط والزوايا التي تشير إليها فروضاً يكونها الرياضيون لكي يعالجوا علم البصريات معالجة هندسية. ويقدم باركلي افتراضات بناء على هذه الخطوط بدلاً من التفسير الهندسى. فعندما أنظر إلى موضوع قريب بالعينين، فإن المسافة بين تلاميذى تكون ضيقة أو واسعة وفقاً للموضوع الذى يكون قريباً أو بعيداً. وتتلازم الإحساسات هذا التغير فى العينين. والنتيجة هى أن تداعياً ينشأ بين الإحساسات المختلفة والمسافات المختلفة. وهكذا فإن الإحساسات تفعل «كافكار» متوسطة فى إدراك المسافة. كما أنه إذا وضعنا موضوعاً على مسافة معينة من العين، ثم جعلناه يقترب، فإننا نراه بصورة أكثر غموضاً. وهكذا «ينشأ فى الذهن ارتباط عادى بين درجات الغموض المتعددة والمسافات؛ أى أن الغموض الأكبر لا يزال يتضمن المسافة الأقل، ويتضمن الغموض الأقل المسافة الأكبر»^(٨). لكن عندما نضع موضوعاً على مسافة معينة من العين، أى يكون قريباً، فإننا نستطيع، لمدة ما على الأقل، أن نمنع ظهوره من أن يصبح غامضاً عن طريق إرهاق العين. ويساعدنا الإحساس الذى يلازم مجهود الإرهاق من أن نحكم على مسافة الموضوع. فكلما كان مجهود إرهاق العين كبيراً، كان الموضوع أقرب.

وبالنسبة لإدراكنا لعظم أو حجم الموضوعات المحسوسة، لابد أن نميز فى البداية بين نوعين من الموضوعات التى ندركها عن طريق البصر. فبعضها مرئى بصورة ملائمة ومباشرة، فى حين أن بعضها الآخر لا يقع مباشرة تحت حاسة البصر، ولكنها بالأحرى موضوعات ملموسة ومحسوسة، ولا تُرى هذه الموضوعات إلا بصورة مباشرة، عن طريق ما هو مرئى مباشرة. إن كل نوع من الموضوعات له عظمه الخاص المميز، أو امتداده الخاص. فعندما أنظر، مثلاً، إلى القمر، فإننى أرى مباشرة قرصاً ملوناً. إن القمر، من حيث إنه موضوع مرئى، يكون أكبر عندما يكون فى الأفق مما لو كان فى أعلى نقطة فى كبد السماء. بيد أننا لا نتصور عظم القمر، عندما ننظر إليه على أنه موضوع محسوس ولمسوس، على أنه يتغير بهذه الطريقة. «إن عظم الموضوع، الذى يوجد خارج الذهن، ويكون على مسافة، يستمر دائماً هو نفسه بصورة ثابتة.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وليس من الضروري أن ندخل هنا في تفاصيل أخرى عن تفسير باركلي للإدراك. والمسألة التي يجب أن نلتفت إليها هي التمييز الذي يقوم به بين الرؤية واللمس، وبين موضوعاتهما. ولقد رأينا سابقاً أنه يميز بين موضوعات هي، إن شئنا نتحدث بصورة مناسبة، موضوعات الرؤية أو البصر، وموضوعات لا تكون سوى موضوعات مباشرة للإدراك المرئي. إن العظم المرئي أو الامتداد يتميز عن الامتداد الملموس. بيد أننا نستطيع أن نمضي إلى أبعد ونقول، بوجه عام، أنه «لا توجد فكرة مشتركة لكلتا الحاستين»^(١٢). ويمكن بيان ذلك بسهولة. إن الموضوعات المباشرة للبصر هي الضوء والألوان، ولا وجود لموضوع مباشر آخر^(١٣). بيد أن اللمس لا يدرك الضوء والألوان، ولذلك لا توجد موضوعات مباشرة مشتركة بالنسبة لكلتا الحاستين. وربما يبدو أن باركلي يناقض نفسه عندما يقول أن الموضوعات المباشرة الوحيدة للبصر هي الضوء والألوان، على الرغم من أنه يتحدث في الوقت نفسه عن امتداد مرئي. لكن ما نراه هو بقاء الألوان، بوصفها ألواناً ممتدة، ويتميز الامتداد المرئي تماماً، وهو مرئي بوصفه بقاءً من اللون، كما يصير باركلي، عن الامتداد الملموس.

وربما يقال إننا لكي نؤكد اختلاف موضوعات البصر واللمس، يجب أن نؤكد حقيقة لا نزاع فيها. فكل واحد يعرف، مثلاً، أننا ندرك الألوان عن طريق البصر وليس عن طريق اللمس. فنحن نقول، مثلاً، أن شيئاً يبدو أخضر، ولا نقول إنه يشعر بأنه أخضر. إن كلاً منا يعي تماماً وبصورة دقيقة أن الضوء والألوان هي الموضوعات المناسبة للبصر، كما يعي أننا نسمع الأصوات ولا نشمها. غير أنه لم يكن في إصرار باركلي على اختلاف موضوعات البصر واللمس، أي هدف آخر. لأنه يريد أن يثبت أن الموضوعات المرئية، أي «أفكار البصر»، رموز أو علامات لما يفترض أنه أفكار محسوسة ولموسة بالنسبة لنا. وليس هناك ارتباط ضروري بين الاثنين؛ لكن «هذه العلامات ثابتة وكلية، وقد عرفنا ارتباطهما بأفكار ملموسة منذ أن دخلنا العالم أول مرة»^(١٤). وبوجه عام، أعتقد أننا قد نستنتج بصورة منصفة أن الموضوعات الملائمة للرؤية تكون لغة كلية بالنسبة لخالق الطبيعة، نعرف بواسطتها كيف ننظم أفكارنا لكي نبلغ تلك الأشياء الضرورية لحفظ أجسامنا وصحتها، وتجنب ما قد يكون ضاراً وهداماً بالنسبة لها... وتكون الطريقة التي بواسطتها تدل على، وتشير إلى الموضوعات التي

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرلر. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الهوامش

Philosophical Commentaries, 751: 1, p. 91. References to Berkely's writings by (١) volume and page are to the critical edition of his works by Professors A. A. lue and T.E. Jessop. The Philosophical Commentaries will be referred to as P. C., The Essay Towards a New theory of Vision as E., the Principles of Human Knowledge as P., The three Dialouges as D., De motu as D. M., Alciphron as A.

P. C., 491, 3: 1, pp. 61 - 2. (٢)

(٣) لم يهتم باركلي - بالفعل - بترقية كنسية، وكانت لديه أسرة يعولها. غير أن خطته للإبحار إلى أمريكا، مع أنها قد برهنت على أنها فاشلة، كشفت عن أنه فيلسوف مثالي، ليس بالتاكيد بوصفه طالب وظيفة بمساع دينية. (المؤلف)

P, 1, 156: 11, p. 113. (٤)

D. Sub - Title: p. 147. (٥)

E., 1: 11, p. 171. (٦)

E., 11: 11, p. 173. (٧)

E., 21: 11, p. 175. (٨)

E., 25: 11, p. 191. (٩)

E., 61: p. 194. (١٠)

E., 65: 11, p. 195. (١١)

E., 129: 11, p. 223. (١٢)

ibid. (١٣)

E., 141: 11, p. 229. (١٤)

E., 147: 11, p. 231. (١٥)

E., 55: 11, p. 191. (١٦)

الفصل الثانى عشر

باركلى (٢)

الكلمات ومعانيها - الأفكار المجردة والعامة - وجود الأشياء المحسوسة
كونها مدركة - الأشياء المحسوسة أفكار - الجوهر المادى لفظ ليس له معنى -
حقيقة الأشياء المحسوسة - باركلى ونظرية الإدراك التمثيلية

١ - لفتنا الانتباه فى الفصل الماضى إلى اهتمام باركلى باللغة وبمعانى الكلمات.
ويلاحظ باركلى فى كتابه «تعليقات فلسفية»، أى فى مذكراته، أن للرياضيات هذه الميزة
التي تتفوق بها على الميتافيزيقا والأخلاق، وهى أن التعريفات الرياضية تعريفات
لكلمات لم يعرفها المتعلم بعد، بحيث لا يكون هناك نزاع وجدال حول معانيها، فى حين
أن الألفاظ التي تُعرف فى الميتافيزيقا والأخلاق تكون، فى الغالب، معروفة، فتكون
النتيجة أن أى محاولة لتعريفها قد تواجهها أفكار متصورة من قبل وأحكام مبتسرة عن
معانيها^(١). وعلاوة على ذلك، فإننا قد نفهم، فى حالات كثيرة، ما يعنيه لفظ يُستخدم فى
الفلسفة ولا يمكننا بعد أن نقدم تفسيراً واضحاً لمعناه، أو أن نعرفه. «فقد أفهم بوضوح
وبصورة تامة نفسى الخاصة، والامتداد... إلخ.. ولا أستطيع أن أعرفها»^(٢).
ويعزو «باركلى» الصعوبة فى تعريف الأشياء والتحدث عنها بوضوح إلى «خطأ اللغة
وقلة ألفاظها»، وإلى غموض التفكير^(٣).

ولذلك، يكون التحليل اللغوى ذا أهمية فى الفلسفة. «فنحن باستمرار فى حيرة،
وارتباك من أجل الحصول على معان واضحة ومحددة للكلمات التي نستخدمها عموماً»^(٤).
وليست كلمات مثل «شىء» أو «جوهر» هى التي تُسبب أخطاء، بقدر ما يسبب ذلك

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

بجوهر مادي قد ضللتهم الكلمات في رأى باركلي. لأننا عندما ننسب صفات لوردة، مثلاً، فإن فلاسفة مثل لوك يميلون إلى الاعتقاد أنه يجب أن يكون هناك جوهر غير مرئي يحمل الصفات المدركة. بيد أن باركلي يثبت، كما سنرى فيما بعد، أنه لا يمكن أن نعطي أى معنى واضح لكلمة «يحمل» في هذا السياق. إنه لم يرد إنكار أن هناك جواهر بأى معنى من معانى الكلمة، ولكن بالمعنى الفلسفى فقط. «إننى لا أستبعد الجواهر. وينبغى ألا أتهم باستبعاد الجوهر عن العالم المعقول. فأنا لا أرفض سوى المعنى الفلسفى لكلمة جوهر (التي تخلو بالفعل من المعنى).

كما يصير باركلي، كما رأينا في الفصل الماضى، على الحاجة إلى تحليل كلمة «وجود». فعندما يقول عن الأشياء المحسوسة أن وجودها هو كونها مدركة «الوجود كونه مدرَكًا»، فإنه لا يقصد أن يقول إنه ليس صحيحاً أنها موجودة؛ لأنه يهتم بتقديم معنى للعبارة التى تذهب إلى أن الأشياء المحسوسة موجودة. «دعنا لا نقول إننى أستبعد الوجود، إننى أعلن فحسب معنى الكلمة بقدر ما أستطيع أن أفهمها»^(٩).

ولهذه الملاحظات عن اللغة فى كتاب «تعليقات فلسفية» صداها، بالطبع، فى كتاب «مبادئ المعرفة البشرية»؛ لأن الكتاب الأول يتضمن مادة تهيدية للكتاب الثانى، وأيضاً لكتاب «مقال نحو نظرية جديدة فى الإبصار». ويلاحظ باركلي فى مقدمة كتابه «مبادئ...» أنه لى نعدّ ذهن القارئ لفهم مذهبه عن المبادئ الأولى للمعرفة، فمن المناسب أن نقول فى البداية شيئاً عن طبيعة اللغة وسوء استخدامها»^(١٠). ولديه بعض الملاحظات الممتعة التى يقدمها عن وظيفة اللغة. فهو يقول: يفترض، عادة، أن الوظيفة الأساسية والفعلية للغة هى توصيل أفكار تشير إليها الكلمات. بيد أن ذلك ليس هو، بالتأكيد، القضية. «فهناك أهداف أخرى، مثل إثارة انفعال ما، وإثارة فعل ما، أو الصد عن فعل ما، ووضع الذهن فى حالة استعداد معينة؛ يخضع لها توصيل الأفكار صراحة فى حالات كثيرة، وتُحذف تماماً فى بعض الأحيان، عندما يكون فى الإمكان الحصول على هذه الأفكار بدونها، كما اعتقد أن ذلك كثيراً ما يحدث فى الاستخدام المألوف للغة»^(١١). وهنا يلتفت باركلي الانتباه إلى الاستخدام الانفعالى أو الاستخدامات الانفعالية للغة. ويعتقد أنه من الضرورى أن نعيّز بين الوظائف المتعددة للغة أو أغراض اللغة،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ولا يكون متساوى الساقين، ولا متساوى الأضلاع، لكنه يكون هذه كلها، ولا واحدة منها في وقت واحد»^(١٦). غير أن تفسيرات لوك للتجريد وما ينتج عنه ليست متسقة باستمرار. فهو يقول في مكان آخر إن «الأفكار تصبح عامة بأن تفصل عنها ظروف المكان، والزمان، وأى أفكار أخرى يمكن أن نحددها بهذا الوجود الجزئى أو ذاك، ويمكنها بذلك الطريقة من التجريد أن تمثل أفراداً أكثر من واحد»^(١٧). ويخبرنا بأن خصائص الناس الأفراد بوصفهم أفراداً تستبعد وتُحذف فى الفكرة العامة عن الإنسان، ولا تبقى إلا على تلك الخصائص التى يمتلكها الناس بصورة مشتركة. وعلاوة على ذلك، على الرغم من أن لوك يلوح فى بعض الأحيان بأن الأفكار العامة المجردة هى صور، فإنه لا يفعل ذلك على الإطلاق باستمرار. ومع ذلك، فإن باركلى، الذى يتحدث باستمرار عن أفكار موضوعات حاضرة فى الإدراك الحسى، يصر على تفسير لوك كما لو كان يتحدث عن صور مجردة عامة. ومن السهل بالنسبة له أن يبين أنه لا وجود لمثل هذه الصور. صحيح، أنه يبدو كما لو كان يفترض أن صوراً مركبة لأبد أن تكون أكثر وضوحاً مما هى عليه، غير أن ذلك لا يغير من واقعة أنه لا يمكن أن تكون هناك، مثلاً، صورة عامة عن مثلث تفى بكل الشروط التى ذكرناها من قبل. ولا يمكن، وسوف أسوق مثلاً آخر يقدمه باركلى، أن تكون لدينا فكرة (صورة) عن حركة بغير جسم متحرك، وبغير أى اتجاه محدد أو سرعة محددة^(١٨). بيد أننا لو نظرنا إلى هذا الجزء من نظرية باركلى الذى يعتمد على تفسير لوك، فإنه يجب علينا أن نقول، كما اعتقد، أنه لم يكن، بلا شك، منصفاً للوك، على الرغم من أن بعض المعجبين بالأسقف العظيم حاولوا أن يتخلصوا من هذه التهمة.

يستعين باركلى، كما رأينا بالاستبطان، وثمة تعليق طبيعى نقوم به وهو أنه عندما يفحص الأفكار العامة المجردة، فإنه لا يرى سوى صور، وينتقل إلى توحيد الصورة بالفكرة. وحتى عندما لا تزال الفكرة المركبة صورة جزئية، مع إنها يمكن أن تكون رمزاً لعدد من أشياء جزئية، فإنه ينكر وجود الأفكار العامة المجردة. وقد يكون ذلك، بالفعل، صحيحاً إلى حد كبير؛ غير أن باركلى لا يسلم بأن لدينا أفكاراً كلية، إذا قصدنا بذلك أنه يمكن أن تكون لدينا أفكار، ذات مضمون كلى إيجابى، عن صفات حسية لا يمكن أن تعطى وحدها فى الإدراك (مثل الحركة بدون جسم متحرك)، أو عن صفات حسية

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لدينا لجعل فكرة جزئية فكرة كلية، وليس عن طريق مضمونه الإيجابي، بل بفضل وظيفته التمثيلية.

لم ينكر باركلي، بالطبع، وجود كلمات عامة. غير أنه يرفض نظرية لوك التي تذهب إلى أن الكلمات العامة تدل، كما يقول، على أفكار عامة، إذا قصدنا بذلك الأفكار التي يكون لها مضمون كلي إيجابي. فاسم العلم، مثل «زيد»، يدل على شيء معين، في حين أن الكلمة العامة، تدل بلا تمييز، على كثرة من الأشياء من نوع معين. وكلاهما مسألة استخدام أو وظيفة. وإذا فهمنا ذلك، فإننا سنتجنب البحث عن كيانات سرية غامضة تناظر الكلمات العامة. إننا نستطيع أن ننطق لفظ «جوهر مادي»، غير أنه لا يدل على أى فكرة عامة مجردة؛ وإذا افترضنا أن اللفظ لا بد أن يدل على كيان بمعزل عن موضوعات الإدراك، لأن في إمكاننا صياغته فقد ضللتنا الكلمات ولذلك، فإن اسمية باركلي ذات أهمية في هجومه على نظرية لوك عن الجوهر المادي. «المادة» ليست اسماً بالطريقة التي يكون بها «زيد» اسماً، مع إنه يبدو أن بعض الفلاسفة قد اعتقدوا بصورة خاطئة أنها كذلك.

٣ - يتحدث باركلي في مقدمة كتابه «مبادئ...» عن موضوعات المعرفة الحسية بوصفها «أفكاراً». بيد أنه من الأفضل أن ننحى الآن هذا الموضوع المعقد جانباً، ونبدأ بمدخل للنظرية التي تقول إن الموضوعات الحسية ليس لها وجود مطلق بذاتها بمعزل عن كونها مدركة، وهو لا يتضمن الحديث عن هذه الموضوعات بالضرورة بوصفها «أفكاراً».

يرى باركلي أنه يمكن لأي شخص أن تكون لديه معرفة بالحقيقة التي تقول إن الأشياء المحسوسة لا توجد، ولا يمكن أن توجد، باستقلال عن كونها مدركة، إذا التفت إلى معنى اللفظ «توجد»، عندما يُطبق على هذه الأشياء. «المنضدة التي أكتب عليها، مثلاً، توجد، بمعنى أنني أراها وأشعر بها؛ وإذا كنتُ خارج الحجرة، فإنني أقول إنها موجودة، قاصداً بذلك أنني لو كنتُ في الحجرة، فإنني أقول إنها موجودة، قاصداً بذلك أنني لو كنتُ في الحجرة، لكنتُ أدركتها، أو أن روحاً أخرى تدركها بالفعل»^(٢٢). ولذلك يتحدث باركلي القارئ لكي يجد أى معنى آخر للقضية «المنضدة موجودة»،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

يقول إن القول الثانى نتيجة للقول الأول. إذا كان الحصان فى الإسطبل، فإن أى شخص ذى بصر عادى يمكنه أن يدرك الحصان، إذا ما توافرت الشروط الأخرى المطلوبة للإدراك. لكن لا يتجم عن ذلك أن وجود الحصان يكمن فى كونه مدرّكاً. ومع ذلك، يبدو أن موقف باركلى يقترب كثيراً من موقف بعض الوضعيين المحدثين، الذين يؤكدون أن معنى الجملة التجريبية يتحد مع طريقة التحقق من صدقها. فدخل الإسطبل وإدراك الحصان هو طريقة للتحقق من صدق القضية القائلة بأن هناك حصاناً فى الإسطبل. وعندما يقول باركلى إن الجملة لا يمكن أن تعنى سوى أنه إذا دخلت ذات مدرّكة الإسطبل، فإنه سيكون لديها، أو يمكن أن يكون لديها خبرات حسية معينة، ويبدو أن تلك طريقة أخرى للقول بأن معنى القضية القائلة بأن هناك حصاناً فى الإسطبل، يتوحد مع طريق التحقق من صدقها. وليس هذا، بالطبع، تفسيراً كافياً لوجهة نظره. لأنه يستبعد كل ذكر ليس للنظرية القائلة بأن الموضوعات المحسوسة هى أفكار، بل يستبعد أيضاً إدخاله اللاحق لله بوصفه مدرّكاً كلياً وعالمياً بكل شىء. لكن بقدر ما يمضى الجانب اللغوى التحليلى من مذهبه، فإنه يبدو أن هناك تشابهاً بين موقفه وموقف عدد من الوضعيين الجدد المحدثين. ويخضع موقف باركلى لنفس النوع من النقد الذى يمكن أن يوجه إلى وجهة نظر الوضعيين الجدد المشار إليها^(٣٦).

وقبل أن نمضى قدماً، ربما يكون من الأفضل أن نلفت الانتباه إلى هاتين المسألتين. الأولى: عندما يقول باركلى «الوجود كونه مدرّكاً» فإنه لا يتحدث إلا عن أشياء محسوسة، أو موضوعات حسية والثانية: الصياغة الكاملة هى: الوجود لابد أن يكون مدرّكاً، أو لابد من إدراكه. وإلى جانب الأشياء «اللامفكرة» المحسوسة، التى يتمثل وجودها فى كونها مدرّكة، توجد أذهان أو نوات مدرّكة، تكون نشطة وفعالة، ووجودها هو أن تُدرك لا أن تُدرك.

٤ - ويمكن أن نجد فى كتاب «تعليقات فلسفية» نظرية باركلى التى تقول إن الأشياء هى أفكار أو تجمعات من أفكار، وكذلك النتيجة التى استخلصها وهى أنها لا يمكن أن توجد مستقلة عن الأذهان. «إن كل الكلمات ترمز إلى أفكار. وكل معرفة (هى) عن أفكارنا. وتأتى كل الأفكار من الخارج ومن الداخل»^(٣٧). تسمى الأفكار فى الحالة الأولى إحساسات، وتسمى فى الحالة الثانية أفكاراً. والإدراك هو امتلاك فكرة.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إن سير الحجة الذي اتبعه باركلي هو كالآتي: يميز بعض الناس بين الصفات الثانوية مثل اللون، والصوت، والطعم وبين الصفات الأولية مثل الامتداد والشكل، فيسَلِّمون بأن الصفات الأولية، بوصفها مدركة، لا تشبه أى شىء موجود خارج الذهن، ويعنى آخر، إنهم يسَلِّمون بطابعها الذاتى، أى أنها أفكار، «بيد أنهم يسَلِّمون بأن أفكارنا عن الصفات الأولية هى نماذج أو صور لأشياء توجد خارج الذهن، فى جوهر غير مفكر يطلقون عليه اسم المادة». ونحن مضطرون، بالتالى، إلى أن نفهم المادة على أنها جوهر خامل، لا يحس، يقوم فيه الامتداد، والحركة والشكل بالفعل»^(٢٦). غير أن هذا التمييز لا يتم. فمن المستحيل أن نتصور الصفات الأولية بمعزل تام عن الصفات الثانوية؛ إذ لا يمكن أن نتصور صفة الامتداد، والحركة، والشكل، مجردة عن كل الصفات الأخرى»^(٢٧). وفضلاً عن ذلك، إذا زودتنا نسبية الصفات الثانوية، كما يعتقد لوك، بحجة صحيحة عن ذاتيتها، فإنه يمكن استخدام نفس النوع من الحجة بالنسبة للصفات الأولية. فالشكل أو الهيئة، مثلاً، يعتمد على موقع الشخص المدرك، فى حين أن الحركة لا تكون سريعة أو بطيئة، ويكون هذان المصطلحان نسبيين. إن الامتداد بوجه عام والحركة بوجه عام هما لفظان ليس لهما معنى، وهما يعتمدان على نظرية غريبة وهى نظرية الأفكار المجردة.^(٢٨) وبصورة دقيقة، ليست الصفات الأولية إدراكاً مستقلاً، ولكنها صفات ثانوية. إن الصفات الأولية لا تنقل عن الصفات الثانوية فى أنها أفكار. وإذا كانت كل من الصفات الأولية والصفات الثانوية أفكاراً، فإنها لا يمكن أن توجد فى جوهر غير مفكر أو حامل، أو لا يمكن أن تلازمه. ويمكننا أن نتخلص، بالتالى، من جوهر لوك المادى، وتصبح الأشياء المحسوسة لقائفاً أو تجمعات من أفكار.

لم يقل لوك بالفعل، كما رأينا من قبل، إن الصفات الثانوية ذاتية؛ لأن الصفات الثانوية هى، بمصطلحه الفنى، قوى موجودة فى الأشياء تنتج فينا أفكاراً معينة، وهذه القوى موضوعية، أعنى أن وجودها يعتمد على أذهاننا. ومع ذلك، لو قصدنا بالصفات الثانوية الصفات كما تُدرك، كاللون مثلاً، فإننا نستطيع أن نقول إنها ذاتية عند لوك، أى أنها أفكار موجودة فى الذهن. ويبدأ باركلي من هذه النقطة فى الحجة السابقة الذكر. بيد أن صحة الحجة أمر مشكوك فيه بالتأكيد. إذ يبدو أن باركلي يعتقد أن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إحساسات، ولا يمكن أن نتصور أن الإحساسات توجد في جوهر لا ندركه. «لكن، من جهة أخرى، عندما ننظر إلى أشياء محسوسة من وجهة نظر مختلفة، ناظرين إليها على أنها أعراض كثيرة وكيفيات، فإنني أجد أنه لابد أن نفترض حاملاً مادياً، لا نستطيع أن نتصور أنها توجد بكونه»^(٤٢). ثم يتحدث «فيلونوس» «هلياس» بأن يفسر ما يعنيه بجوهر مادي، فإذا كان يعنى أنه يسرى وينتشر تحت كيفيات حسية أو أعراض، فلا بد أن يسرى وينتشر تحت الامتداد. وفي هذه الحالة لابد أن يكون ممتداً. وحينئذ نقع في ارتداد لا نهاية له. وفضلاً عن ذلك، تنتج نفس النتيجة إذا استبدلنا بفكرة «يوجد تحت» أو يحمل فكرة كونه حاملاً أو كونه ينتشر ويسرى تحت.

يعترض «هلياس» على أن وجهة نظره أخذت بصورة حرفية. غير أن «فيلونوس» يرد قائلاً: «إنني لا أفرض أى معنى على كلماتك: فأنت حر في أن تفسرها كيفما تشاء. إنني أتوسل إليك فقط، أن تجعلني أعنى شيئاً بها.. أتوسل إليك أن تعرف أى معنى، حرفي أو غير حرفي، تعنيه بها»^(٤٣). ويجد هلياس نفسه في النهاية مجبراً على أن يسلم بأنه لا يستطيع أن ينسب أى معنى محدد لعبارات مثل «أعراض تحمل» و«حامل مادي»^(٤٤). وخلاصة المناقشة هي، بالتالي، أن التأكيد بأن الأشياء المادية توجد بصورة مطلقة، دون اعتماد على الذهن، لا معنى له. «إن الوجود المطلق لأشياء غير مفكرة هو كلمات ليس لها معنى، أو يتضمن تناقضاً. وهذا ما أكرره، وأقرره، وأوصي به، بجدي، لفكر القارئ المنتبه»^(٤٥).

٦ - لقد بذل باركلي ما في وسعه لكي يبين أن القول بأن الأشياء المحسوسة هي أفكار، لا يساوي القول بأن الأشياء المحسوسة ليس لها حقيقة واقعية. «افرض، إذا كان الأمر كذلك أن كل شيء غير الفكرة هو مجرد وهم، فإنني أرد بأن كل شيء حقيقي دائماً. إنني أمل أن يكون وصف شيء ما بأنه «فكرة» لا يجعله أقل حقيقة وواقعية. وربما أتمسك، بالفعل، بكلمة «شيء» ولا أنكر كلمة «فكرة»، إن لم يكن هناك داع - وأعتقد أن هذا سبب جيد أيضاً - التي سأقدمها في الكتاب الثاني»^(٤٦). كما أن «هناك واقعاً! أى أن هناك أشياء، أو أشياء حقيقية، بناء على المبادئ التي أتمسك بها»^(٤٧). ويشير باركلي في كتابه «مبادئ..» اعتراضاً وهو أنه بناء على نظريته «يُستبعد كل ما هو واقعي وجوهري في الطبيعة من العالم: ويحل محله نظام وهمي من أفكار...

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

منه هو جوهر لوك المادى، الذى لا يكون موضوعاً من موضوعات الحس، والذى لا يصل إليه، بالتالى، أى إنسان عادى. «وانتنى لا أجادل فى وجود أى شىء نستطيع أن نعيه عن طريق الحس أو عن طريق التأمل. فليس لدى أدنى شك فى القول بأن الأشياء التى أراها بعينى، وألمسها بيدي موجودة، أى أنها موجودة بالفعل. فوجود الشىء الوحيد الذى أنكره، هو ما يسميه الفلاسفة بالمادة أو بالجوهر المادى. وعندما أفعل ذلك، فليس ثمة ضرر يلحق بسائر البشر، الذين لا يصلون إليه. إن الملحد يريد، بالفعل، لون أى اسم فارغ لى يدعم فسقه ومعصيته، وربما يجد الفلاسفة أنهم يفقدون فرصة عظيمة للهزل والجدال»^(٥٢).

إن هناك خلافاً فى وجود بعض الغموض وعدم الاتساق فى استخدام باركلى للفظ «فكرة». فهو، من ناحية، يحتج بأنه يستخدم اللفظ ببساطة لى يدل على ما ندركه، أى الموضوعات المحسوسة. وعلى الرغم من أن هذا الاستخدام للفظ قد لا يكون مشتركاً وعمماً، فإن استخدامه لا يؤثر فى حقيقة موضوعات الإدراك الحسى. ويفترض ذلك بالنسبة للقارئ أن اللفظ هو لفظ فنى خالص بالنسبة لباركلى. إن تسمية الأشياء المحسوسة بالأفكار بهذا المعنى الفنى الخالص لا يرد الأشياء إلى أفكار بالمعنى المألوف. ويتحدث باركلى فى الوقت نفسه، كما رأينا، عن إحساسات أو أفكار، كما لو كان المصطلحان مترادفين. ويفترض ذلك، بغض النظر تماماً عن عدم ملاءمة ترادف الأفكار والإحساسات، نقول يفترض ذلك لا محالة أن الأشياء المحسوسة هى تحويلات ذاتية خالصة لأذهاننا. لأن كلمة «إحساس» تشير إلى شىء ذاتى، وإلى شىء خاص بالفعل. فهى تفترض عدم وجود عالم محسوس حقيقى عام، ولكنها تفترض بالأحرى وجود عوالم محسوسة خاصة كثيرة بقدر ما توجد ذوات مدركة. وهكذا يصبح العالم المحسوس شيئاً أشبه بعالم موجود فى الأحلام.

ومن المناسب هنا تقديم تمييز باركلى بين الأفكار عن الأشياء وصورها، حتى على الرغم من أنه يعنى أن نلمس جوانب من فلسفته سوف نتاولها فى الفصل القادم. إن الأفكار، أى الأشياء المحسوسة، «يطبعها خالق الطبيعة على الحواس»: فهى تُسمى «أشياء حقيقية»^(٥٣). فعندما أفتح عيني، مثلاً، وأرى قطعة من الورق الأبيض، فإن ذلك لا يعتمد على اختياري فى رؤية قطعة من الورق الأبيض، إلا بمعنى أننى أستطيع أن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

المحسوسة لا تُرد إلى مستوى الخيالات، حتى لو كان هناك تباين بين جانب الحس المشترك من هذه النظرية (أى أن الأشياء المحسوسة هي ببساطة ما ندركه، أو ما يمكن أن ندركه)، وجوانبها المثالية (أى أن الأشياء المحسوسة هي أفكار، مساوية للإحساسات). ويمكن أن نعبر عن هذا التباين بهذه الطريقة. يشرع باركلى فى وصف عالم الإنسان العادى، مستبعداً إضافات الميتافيزيقيين غير الضرورية، والتي لا معنى لها، ولكن نتيجة تحليله هي قضية لا يميل الإنسان العادى إلى قبولها، كما كان باركلى نفسه وأعياناً بذلك.

٧ - وفى ختام هذا الفصل، يمكننا أن نثير التساؤل: هل يتضمن استخدام باركلى للفظ «فكرة» النظرية التمثيلية عن الإدراك؟ يتحدث لوك غالباً، وليس دائماً، عن الأفكار المدركة وليس عن الأشياء. ومن حيث إن الأفكار تمثل عنده فى الغالب أشياء، فإن طريقة الكلام هذه تتضمن النظرية التمثيلية عن الإدراك. وذلك هو أحد الأسباب، بالطبع، التى جعلت لوك يقلل من شأن المعرفة الحسية والفيزياء مقارنة بالرياضيات. ولذلك، فإن السؤال هو: هل باركلى تورط فى نفس النظرية ونفس الصعوبات؟

يبدو أن الإجابة المناسبة عن هذا السؤال واضحة بدرجة كافية، شريطة أن نلتفت إلى فلسفة باركلى الخاصة بدلاً من الحقيقة التى تقول إن لوك قد أمده بنقطة الانطلاق. وإذا نظرنا إلى هذه الحقيقة وحدها، فربما نميل بسهولة إلى أن ننسب إلى باركلى النظرية التمثيلية فى الإدراك. بيد أننا إذا التفتنا بعناية إلى فلسفته الخاصة، فإننا ندرك أنه لم يتورط فى هذه النظرية.

إن ما يسميه باركلى بالأفكار ليس أفكاراً عن الأشياء: فهي أشياء. إنها لا تمثل كيانات موجودة وراها: فهي نفسها كيانات. إننا عندما ندرك الأفكار لا ندرك صور الأشياء المحسوسة، ولكن ندرك الأشياء المحسوسة نفسها. يقول باركلى فى كتابه «تعليقات فلسفية» بوضوح: «إن الافتراض الذى يقول إن الأشياء تتميز عن الأفكار يبطل كل حقيقة واقعية ويؤدى، بالتالى، إلى نزعة شكية كلية، لأن كل معرفتنا وتأملنا محصوران بأفكارنا الخاصة»^(٥٥). كما أن «إشارة الأفكار إلى الأشياء لا تكون أفكاراً»، إذا استخدمنا لفظ «فكرة عن»، هي سبب أساسى من أسباب الوقوع فى الخطأ^(٥٦).

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الهوامش

- P. C., 162: 1, p. 22. (١)
P. C., 178: 1, p. 24. (٢)
Ibid. (٣)
P. C., 291: 1, p. 43. (٤)
P. C., 553: 1, p. 69. (٥)
P. C., 642: 1, p. 78. (٦)
P. C., 492: 1, p. 62. (٧)
P. C., 581: 1, p. 72. (٨)
P. C., 593: 1, p. 74. (٩)
P. Introduction, 6: 11, p. 27. (١٠)
Ibid, 20: 11, p. 37. (١١)
Ibid, 12: 11, p. 31. (١٢)
P. Introduction, 10: 11, p. 29. (١٣)
Ibid, 13: 11, p. 33. (١٤)
Eassy Concerning Human understanding, 4, 7,9. (١٥)
Ibid, 3: 3, p. 6. (١٦)
Ibid, 3: 3, p. 6. (١٧)
P. Introduction, 11: 11, p. 31. (١٨)
Ibid, 12: 11, p. 32. (١٩)
Ibid, 15: 11, pp. 33 - 4. (٢٠)
P. Introduction, 16: 11, p. 35. (٢١)
P. 1, 3: 11, p. 42. (٢٢)
Ibid. (٢٣)
P. C., 429: 1, p. 53. (٢٤)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

(٥١) P., 1, 39:11, p. 57.

(٥٢) P., 1, 35:11, p. 55.

(٥٣) P., 1, 33:11, p. 54.

(٥٤) Solipsism أو مذهب الذات الوحيدة، وهو مؤلف من مقطعين من اللاتينية Solus بمعنى وحيد، و ipse ومعناه أنا نفسي، وهو مذهب يرى أنه لا يوجد في العالم سوى موجود واحد هو «الأنا» ولا شيء سواها ويسمى أيضاً بمذهب «الإنانة» بمصطلحات ابن عربي. (المراجع)

(٥٥) P. C., 606: 1, p. 75.

(٥٦) P. C., 650: 1, p. 80.

الفصل الثالث عشر

باركلى (٣)

الأرواح المتناهية ؛ وجودها ، وطبيعتها ، وطابعها الخالد - نظام الطبيعة- تفسير باركلى التجريبي للفيزياء ، بصفة خاصة كما نراه فى رسالته ، عن الحركة ، - وجود الله وطبيعته - علاقة الأشياء المحسوسة بذواتنا وبالله - العلوية - باركلى وفلاسفة آخرون - بعض الملاحظات على أفكار باركلى الأخلاقية - ملاحظة على تأثير باركلى .

١ - إذا كانت الأشياء المحسوسة أفكاراً ، فإنها لا يمكن أن توجد إلا فى الأذهان أو فى الأرواح . وهكذا تصبح الأرواح هى الجواهر الوحيدة . إن الأفكار سلبية وخاملة: أما الأرواح ، التى تدرج الأفكار ، فإنها نشطة وإيجابية ، « إن الشئ أو الوجود هو الاسم الأكثر عمومية للجميع ، إذ يندرج تحته نوعان متميزان تماماً ، وغير متجانسين ، ولا يمتلكان شيئاً مشتركاً سوى الاسم ، وأعنى بذلك الأرواح والصور . الأرواح جواهر نشطة ، ولا تنقسم ، أما الصور فهى موجودات خاملة ، سريعة الزوال ، وغير مستقلة ، لا تقوم بذاتها ، غير أن الأذهان أو الجواهر الروحية تحملها (١) ، أو توجد فيها (٢) .

ولذلك ، لا يمكن أن تكون الأرواح صوراً أو تشبيه الصور . « يتحتم علينا - بالتالى - أن نميز بين الروح والصورة (٣) ، لكن نمنع الطبايع المبهمة والغامضة تماماً ، المختلفة وغير المتشابهة . والقول بأن هذا الجوهر الذى يحمل ، أو يدرك الصور هو نفسه صورة أو أشبه بصورة ، هو خلف محال بصورة واضحة . « فمن المستحيل - بالفعل - وبصورة واضحة أن تكون هناك أى صورة كهذه » (٤) . إن الروح موجود

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الأخرى، إلا عن طريق عملياتها ، أو عن طريق الصور التي تثيرها فينا . فإنا أدرك حركات عديدة ، وتغيرات ، وارتباطات من صور ، تخبرنى بأن هناك كائنات فاعلة معينة مثل ذاتي ، تلازمها ، وتتصافر في إنتاجها، وهكذا لا تكون المعرفة التي لدى عن أرواح أخرى مباشرة مثل معرفة صوري، ولكنها تعتمد على توسط صور، تشير عن طريقى إلى كائنات فاعلة أو أرواح تتميز عن ذاتي بوصفها أثراً أو علامة ملازمة^(١١). ويعود باركلي إلى هذه المسألة في كتابه « الأسيفرون » (أو الفيلسوف الصغير) . « أننى لا أرى الأسيفرون » بصورة دقيقة ، أى الشئ الفردى المفكر ، ولكنى أرى فقط علامات مرئية ودلائل من حيث إنها تفترض وجود ذلك المبدأ أو النفس المفكرة العاقلة ، وتستدل عليها^(١٢) . وقيم تماثلاً بين معرفتنا المباشرة بالأرواح المتناهية الأخرى ومعرفتنا المباشرة بالله . ونصل في كلتا الحالتين إلى وجود فاعل نشط عن طريق علامات محسوسة .

ويغض النظر عن أى نقد ممكن آخر ، فإن هذا التفسير لمعرفتنا بوجود أرواح أو نوات متناهية أخرى يبدو أنه يعانى من الصعوبة الآتية : يرى باركلي أنه " عندما نرى لون شخص ما ، وحجمه ، وشكله ، فإننا لا ندرك إلا إحساسات معينة أو صوراً تُثار في أذهاننا: وتخدمنا هذه الإحساسات أو الصور ، التي تظهر لأنظارنا تجمعات مختلفة ومتميزة ، فى تحديد وجود أرواح متناهية ومخلوقة مثل نواتنا^(١٣) . إننا لا نرى إنساناً ما ، إذا كنا نقصد بإنسان ذلك الذى يعيش ، ويتحرك ، ويدرك ، ويفكر كما نفعل نحن، ولكننا نرى فقط تجمعاً من صور ترشدنا لكى نعتقد أن هناك مبدأً للتفكير والحركة متميزاً مثل نواتنا، يلزمه ويمثله^(١٤) . لكن حتى إذا فكرت بهذه الطريقة ، فهل أستطيع أن أتيقن من الصور التي تتولد في والتي أعزوها إلى أرواح متناهية أخرى لا تكون بالفعل معلولات (أثراً) لله ؟ فإذا أنتج الله في ، دون أن يكون هناك أى جوهر مادي ، الصور التي يُنظر إليها بناء على نظرية الجوهر - العرض على أنها أعراض لجوهر مادي أو جسمي ، فكيف يمكننى أن أتأكد من أنه لم ينتج في ، دون أن يكون هناك أى نوات متناهية أخرى ، الصور التي أخذها لأن تكون علامات على وجود تلك النوات ، أعنى وجود جواهر روحية غير ذاتي ؟ .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

هى ، أساساً ، فعل الإدراك، ومع ذلك ، يخبرنا أيضاً أن كلمة «روح» تعنى «ذلك الذى يفكر ، ويريد ، ويدرك؛ ويؤلف ذلك ، وذلك فقط ، دلالة اللفظ»^(١٨) . ولذلك نستطيع أن نقول بوجه عام إن باركلى رفض فكرة تطبيق نمط التحليل الظاهرى على الذهن ، ذلك النمط الذى طبقه على الأجسام وقبل نظرية لوك عن الجوهر اللامادى أو الروحى^(١٩) ، وأثبت - بالطبع - بناء على هذا الأساس ، خلود النفس أو الروح البشرية .

إذا كانت نفس الإنسان ، كما يذهب البعض ، لهباً حيوياً رقيقاً ، أو نظاماً من أرواح حيوية ، فإنها تكون قابلة للفساد مثل الجسم ، إنها لا تبقى بعد « دمار المعبد الذى يحوطها »^(٢٠) ، غير أننا بينا أن النفس لا تنقسم ، وليست مادية وغير ممتدة ، ولا يمكن ، بالتالى ، أن تفسد^(٢١) ، وليس معنى ذلك أن النفس البشرية لا يمكن أن تفنى وت تلاشى حتى عن طريق قدرة الله اللامتناهية ، « لكنها ليست عرضة لأن تفسد أو تتحل عن طريق قوانين الطبيعة العادية أو الحركة »^(٢٢) . وهذا ما نعنيه بقولنا إن نفس الإنسان خالدة بصورة طبيعية، أعنى أنها لا يمكن أن تتأثر بالحركات ، أو التغيرات ، والفساد « ذلك الذى نراه يصيب الأجسام الطبيعية باستمرار »^(٢٣) . لقد اعتنق أسوأ جانب فى الجنس البشرى بشدة الفكرة التى تقول إن النفس البشرية جسمية وقابلة للفساد ، بوصفها الترياق الأكثر فاعلية ضد كل انطباعات الفضيلة والدين^(٢٤) . بيد أن النفس ، من حيث إنها جوهر روحى ، خالدة بصورة طبيعية ؛ وهذه الحقيقة ذات أهمية عظيمة للدين والأخلاق .

٢ - وإذا عدنا من الأرواح إلى الأجسام ، فإننا نرى أن تحليل باركلى للأجسام لا يمس الطبيعة الحقيقية . « هناك طبيعة حقيقية ، ويحتفظ التمييز بين الحقائق الواقعية والخيالات بقوته الكاملة »^(٢٥) . ولذلك ، كان من المناسب تماماً أن نتحدث عن قوانين الطبيعة : « هناك قوانين معينة عامة تسرى فى سلسلة المعلومات الطبيعية بأسرها : ونعرف هذه السلسلة عن طريق الملاحظة ودراسة الطبيعة .. »^(٢٦) ولذلك ، فإن باركلى على إستعداد تام لأن يتحدث عن «النسق كله ، الهائل ، والجميل ، والعظيم ، الذى يفوق كل تعبير ، وكل تفكير»^(٢٧) . ولا بد أن نتذكر أن الأشياء المحسوسة أو الأجسام ،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

أو يأكوان من التتابع المعين المنتظم . ويساعدنا ذلك على صياغة «قوانين الطبيعة» . بيد أن الله ليس ملزماً على الإطلاق بأن يطبع فينا صوراً ذهنية بنفس النظام باستمرار. ولذلك ، فإن المعجزات ممكنة ، فهي لا تتضمن أى إعاقة لارتباطات ضرورية بين صور متميزة لأنه لا وجود لمثل هذه الارتباطات الضرورية . إن هناك - فى حقيقة الأمر طبيعة حقيقية ، وهناك نظام للطبيعة ، لكنه ليس نظاماً ضرورياً .

٣ - لقد افترضتُ فى القسم السابق وجود الله ، وجهة نظر باركلى عن الطريقة التى يفعل بها الله ، لأننى أردت أن أبين الحقيقة التى تقول إن نظام الطبيعة عنده ليس نظاماً ضرورياً ، وأود فى هذا القسم أن أوضح تفسير باركلى التجريبي ، وحتى الوضعى ، للفيزياء كما نراه بصفة خاصة فى رسالته « عن الحركة» .

لقد كان لهجوم باركلى على الأفكار العامة المجردة صده فى تفسيره للفيزياء. فهو لم يقل إن استخدام ألفاظ مجردة غير مشروع وليس له غرض مفيد ، وإنما افترض أن استخدام هذه الألفاظ قد يؤدى بالناس إلى أن يتخيلوا أن لديهم معرفة أكثر مما لديهم بالفعل ، لأنهم يستطيعون استخدام كلمة ما لكى تغطى جهلهم . « إن المبدأ الآلى العظيم الشائع الآن هو الجاذبية . فالقول بأن حجراً يسقط على الأرض ، أو أن البحر يرتفع عن طريق القمر، قد يبدو للبعض أن الجاذبية تفسره بصورة كافية . لكن كيف عرفنا أن ذلك يتم عن طريق الجاذبية ؟ ^(٢٩) . قد يعتقد عالم الفيزياء (وباركلى كثيراً ما يتحدث عن «الرياضيين») أو الفيلسوف الطبيعى أن لفظاً مثل «الجاذبية» يدل على خاصية جوهرية تلازم الأجسام التى تفعل من حيث إنها علّة حقيقية . بيد أنها ليست كذلك. فمن حقائق الواقع التجريبي الخالص أن العلاقات التى نلاحظها بين بعض الأجسام هى من هذا النوع حتى إننا نصفها بأنها حالات ذات جذب متبادل غير أن لفظ «جاذبية» لا يدل على كيان ومن العبث أن نفترض أن استخدام لفظ كهذا يفسر سلوك الأجسام ، إن الفيزيائى يهتم بوصف ، وبجمع مماثلات تحت «قوانين» عامة ، بقصد التنبؤ والمنفعة العملية ؛ لكنه لا يهتم بتفسير على ، إذا قصدنا «بالعلّة» علّة نشطة فاعلة . وإن لخطأ جسيم أن نفترض أن ظواهر،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

موجودة فى حقيقة الأشياء ، وفى أجسام موجودة بالفعل ، فإننا نبحث عنها بدون فائدة. تماماً مثل الأشياء التى تكون أوهاماً يضعها علماء الهندسة عن طريق تجريد رياضى " (٣٤) .

ومن الأسباب الرئيسية التى تجعل الناس يميلون إلى أن تظلهم ألفاظ مجردة كتلك التى تُستخدم فى الفيزياء أنهم يعتقدون أن عالم الفيزياء يهتم بالعثور على العلل الحقيقية الفاعلة للظواهر . إنهم يميلون - من ثم - إلى الاعتقاد بأن كلمة مثل "الجاذبية" تدل على كيان موجود أو على خاصية تكون العلة الحقيقية الفاعلة لحركات معينة ، وتفسر هذه الحركات ، بيد « أنه ليس من اختصاص الفيزياء أو الميكانيكا أن تقدم عللاً فاعلة ... (٣٥) ، وأحد الأسباب التى جعلت باركلى يقول ذلك هو - بالطبع - أن العلل الحقيقية الوحيدة - من وجهة نظره - هى كائنات غير جسمية فاعلة ، ويظهر ذلك فى الإقتباس الآتى : "لا بد أن نبحث فى الفلسفة الفيزيائية عن علل الظواهر وحلولها من مبادئ آلية . ولذلك لا يُفسر شئ ما تفسيراً فيزيائياً عن طريق تعيين علته النشطة اللاجسمية ، ولكن عن طريق البرهنة على ارتباطه بمبادئ آلية ، مثل : الفعل ورد الفعل تقيضان ومتساويان باستمرار ... (٣٦) لكن ما الذى نعنيه بالمبادئ الآلية؟ إن القوانين الأولية للحركة « التى نبرهن عليها عن طريق تجارب ، ويطورها الاستدلال ويجعلها كلية ... تُسمى بصورة مناسبة مبادئ ، لأننا نستمع منها نظريات آلية عامة وتفسيرات جزئية للظواهر (٣٧) . وبالتالي فإن تقديم تفسير فيزيائى لحدث ما ، هو بيان كيف يمكن أن يُستتبع من فرض ذى مستوى عال . وتهتم تفسيرات من هذا النوع بالسلوك أكثر من الاهتمام بالوجود. إذ أن وجود الظواهر يتم تفسيره بفلسفة ميتافيزيقية عن طريق اشتقاقه من علته الفاعلة الحقيقية ، التى تكون جسمية . إن عالم الفيزياء يهتم إلى هذا الحد «بالعلل» أى أنه عندما يجد (ب) تتبع باستمرار (أ) ، ولا تحدث على الإطلاق عندما لا تسبقها (أ) ، حيث تكون (أ) و(ب) ظاهرتين ، فإنه يتحدث عن (أ) بوصفها علة ويتحدث عن (ب) بوصفها معلولاً . غير أن الظواهر صور، ولا يمكن أن تكون الصور عللاً فاعلة نشطة ، إذا كان ذلك ما تعنيه العلل، فإن عالم الفيزياء لا يهتم بها .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

باركلى إلى القيام بهذا التمييز هو أنه أراد أن يميز بين الوقائع الملاحظة التى نكونها لكى نفهم أو نفسر هذه الوقائع . لأنه إذا لم نقم بهذا التمييز الأخير، فإننا نميل إلى التسليم بكيانات خفية تناظر المصطلحات المجردة " للرياضيين " . إن كلمات مثل : " الجاذبية " أو " القوة " لا تدل على وقائع يمكن ملاحظتها . ولذلك ربما نميل إلى الاعتقاد بأنه يجب أن تكون هناك كيانات خفية أو صفات تناظر هذه " الألفاظ " . « لكن ماذا عساها أن تكون خاصية خفية . أو كيف يمكن أن تفعل أى خاصية ، أو تفعل شيئاً ، فذلك أمر ناسراً ما نستطيع أن نتصوره - ونحن لا نستطيع بالفعل أن نتصوره... فما يكون خفياً فى ذاته لا يفسر شيئاً » ^(٤٠) . لكن إذا ميزنا بدقة بين وقائع ملاحظة والفروض التى نكونها لكى نفسرها ، فإننا سنكون فى وضع أفضل لفهم وظيفة الألفاظ المجردة التى تستخدم فى هذه الفروض . " إن الألفاظ تُخترع ، من جهة ، عن طريق عادة مشتركة لاختصار الكلام ، وتستتبط - من جهة - من أجل التعليم " ^(٤١) . إننا نتأمل فى الأجسام الجزئية عندما نتأمل فى الأشياء المحسوسة . غير أننا نحتاج إلى ألفاظ مجردة من أجل قضاياها الكلية عن الأجسام الجزئية .

٤ - إذا هناك بالتالى نظاماً للطبيعة عند باركلى أى نسقاً من الظواهر أو الصور الذهنية يجعل بناء العلوم الطبيعية ممكناً بيد أنه من العبث كما رأينا تَوَّأ أن ننظر إلى العالم على أن مهمته هى معرفة علة أو علل وجود الظواهر ، ويفترض ذلك فى الحال أن دليل باركلى على وجود الله دليل بعدى يختلف عن الدليل العلى . فعندما يقول فى كتابه "تعليقات فلسفية" محال أن يبرهن على وجود الله من فكرته . إذ لا توجد لدينا صورة عنه . إن ذلك مستحيل " ^(٤٢) ، إنه يفكر أساساً وبلا شك فى إستخدامه الفنى لكلمة "صورة" لأنه واضح أنه لا يمكن أن تكون هناك صورة عن الله ، إذا كان "الله" يعنى موجوداً روحياً ، وتستخدم "الصورة" لموضوع الإدراك الحسى . وعندما قال "أسفرون" إن الحجج الميتافيزيقية يجب ألا تحثه ولا تدفعه " مثلما تدفعنا صورة موجودة كاملة تماماً " ^(٤٣) ، ويجب أن نتذكر أن "أسفرون" هو "الفيلسوف الصغير" ، والمدافع عن مذهب الإلحاد . ومع ذلك يمكن أن نقول إن باركلى لم يقبل الدليل الأنطولوجى ، كما استخدمه "أنسلم" و"ديكارت" بطرق مختلفة . إن دليله حجة عليه ،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ويصور باركلي في كتابه "السيفرون" المتحدث بهذا الاسم بأنه يقول إنه بينما قد نزع بصورة معقولة أن شراً قليلاً في الخلق يضع الخير في ضوء أقوى ، فإن هذا المبدأ لا يمكن أن يفسر "التشويهاً بصورة كبيرة وقائمة .. إن القول بأن رزيلة كثيرة وفضيلة على الأرض ، وأن قوانين مملكة الله لا يعمل بها رعاياه وهو ما لا يمكن أن يتفق مع حكمة الملك الأعظم الفاتحة وخبريته ^(٤٨) . ويرد باركلي على ذلك بأن الأخطاء الأخلاقية هي نتيجة الاختيار البشري ، كما أنه ينبغي ألا نغالي في مكانة الموجودات البشرية في الكون . يبدو أن الوحي ليس هو الذي يقودنا فقط ، ولكن الحس المشترك أيضاً ، أى الملاحظة والاستدلال من معاملة الأشياء المحسوسة ، إلى أن نستنتج أن هناك أولاً من نظام الكائنات العاقلة التي لا تحصى والتي تكون أكثر سعادة وأكثر كمالاً من الإنسان ^(٤٩) .

ومن الخطأ أن نستنتج من عرض باركلي المختصر إلى حد ما للبرهان على وجود الله أن الفيلسوف الذي لديه استعداد لأنه يطبق تحليلاً نقدياً على ألفاظ مثل "الجوهر المادى" يغفل الصعوبات التي يمكن أن تواجهه في تحليل معنى الألفاظ التي يتصف بها الله ، ولذلك يجعل لسكليس Lysicles يتحدث كالاتى : "لا بد أن تعرف بالتالى أن وجود الله ، أساساً ، مسألة في ذاتها ذات نتيجة صغيرة ، وقد يسلم المرء بذلك دون أن يأتى بالكثير . إن المسألة العظيمة هي : ما هو المعنى الذي تؤخذ به كلمة الله ؟ " ^(٥٠) . يقول "لسيكليس" إن هناك أناساً أثبتوا أن ألفاظاً مثل الحكمة والخيرية ، عندما نصف بها الله "لا بد أن تفهم بمعنى مختلف أتم الاختلاف عما يعنونه بالمعنى الدارج ، وعن أى شئ يمكن أن نكون عنه فكرة أو يمكن أن نتصوره " ^(٥١) . وذلك يستطيعون أن يواجهوا اعتراضات تثار ضد نسبة هذه الصفات إلى الله بإنكار أنها تعزى بنى معنى معروف . غير أن هذا الإنكار يساوى إنكار أن الصفات تنتمى إلى الله على الإطلاق . " وهكذا عندما ينكرون صفات الله ، فإنهم ينكرون - بالفعل - وجوده على الرغم من أنهم ربما لا يكونون على وعى بذلك " ^(٥٢) . وبمعنى آخر . إن التأكيد على أنه ينبغي أن تفهم الألفاظ التي تنسب إلى الله بمعنى مبهم خالص ، هو تأكيد للمذهب اللاأدرى . إن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

عليها عن طريق تأمل الذات . وتبقى الفكرة هي نفسها ، على الرغم من أننى عندما أتصور الله أستبعد التحديدات والنقائص التى أحققها بفكرة روح متناهية بوصفها كذلك .

لا يمكن أن يقال إن باركلى سار بتحليل معنى الألفاظ التى تنسب إلى الله أبعد مما فعل الأسكولائيون . ولم يعط إعتباراً أكبر ، إن لم يعط أى اعتبار ، للاعتراض الممكن وهو أننا عندما نستبعد النقائص ، فإنن نستبعد أيضاً المضمون الإيجابى الذى يمكن وصفه للفظ موضع الاهتمام . ومع ذلك فإنه فهم أن هناك مشكلة ترتبط بمعنى الألفاظ التى يوصف بها الله . ومن بين الفلاسفة المحدثين البارزين الذين بقوا خارج التراث الاسكولائى ، كان باركلى واحداً من القلة الذين انتبهوا بجدية إلى المشكلة : فقلما نظر الفلاسفة غير الاسكولائيين إلى المماثلة الموجودة فى هذا السياق . وهذا هو أحد الأسباب فى أن مناقشة المشكلة عن طريق الفلاسفة التحليليين لم تبد للمؤمنين على أنها هدامة فى طابعها . إنها فى بعض الأحيان - هدامة بالطبع . بيد أنه يجب على المرء أن يفهم أن هذه المناقشة تمثل إحياء لمشكلة أهتم بها الاسكولائيون وباركلى ، لكن نادرًا ما مسها أكثرية الفلاسفة المحدثين المشهورين .

هـ - وبالتالي يتحدث باركلى - باستمرار - عن الأشياء المحسوسة كما لو كانت موجودة فى أذهاننا ، وهكذا نقرأ أن الله " يثير تلك الصور فى أذهاننا " (٦٠) و"تطبع تلك الصور على الحواس " (٦١) . ويفترض ذلك أن العالم يتجدد باستمرار أو بالأحرى يخلق من جديد . " إن هناك ذهنًا يؤثر على كل لحظة بكل الانطباعات المحسوسة التى أدركها " (٦٢) .. كما أنه على الرغم من ضرورة رفض الفرض الميتافيزيقى الخاص برؤية كل الأشياء فى الله ، " فإن هذه اللغة البصرية تساوى خلقًا مستمرًا ، تدل على فعل مباشر لقوة وعناية إلهية " (٦٣) . ويتحدث باركلى عن "الإنتاج العاجل والتوالد لعلامات كثيرة جداً ، ترتبط وتنحل ، وتتبدل ، وتتنوع ، وتلائم تنوعًا ، لا نهاية له من الغايات .. " (٦٤) .. يفترض أيضاً ، كما لاحظنا من قبل ، أن هناك عوالم خاصة كثيرًا جداً بقدر ما تكون هناك نوات مدركة . ويسلم باركلى ، بالفعل ، بأنه بينما نستطيع أن ندرك نفس الموضوعات بالمعنى الدارج لكلمة "نفس" فإننا لا نفعل شيئًا ، إن شئنا أن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

عبارة "أن تدرك" تشير إلى الله أما عبارة "أن تدرك" فهي أن الله هو الذى يدركك .
غير أن باركلى يحاول أن يوفق بين الموقفين عن طريق التمييز بين وجود أزلى دائم
وجود نسبي . " إن كل الموضوعات يعرفها الله منذ الأزل ، أو - المعنى واحد - لها
وجود أزلى فى ذهنه : لكن قبل أن يكون من المستحيل على المخلوقات إدراك الأشياء ، فإنها
تكون مدركة لها بأمر من الله ، إنها تبدأ وجوداً نسبياً بالنسبة للأذهان " المخلوقة " (٧٩) .

وبالتالى ، يكون للأشياء المحسوسة وجود "نموذجى وأصلى وأزلى" فى العقل
الإلهى ، ووجود نموذجى أو طبيعى " فى الأذهان المخلوقة " (٨٠) . إن الخلق يحدث عندما
تستقبل الصور وجوداً " نموذجياً " .

ويبرز هذا التمييز لباركلى أن يقول إنه لا يشارك نظرية "مالبرانش" فى رؤية
الافكار فى الله . لأن ما ندركه هو صور من حيث إنها تمتلك وجوداً نسبياً
أو "نموذجياً" وتوجد هذه الصور عندما يطبعها الله فى أذهاننا . ولذلك فإنها تتميز عن
الصور من حيث إنها توجد منذ الأزل فى العقل الإلهى . لكن يبدو أنه ينجم عن ذلك
الآن أننا لا نستطيع أن نتحدث عن الصور التى ندركها من حيث إنها توجد فى العقل
الإلهى عندما لا ندركها . لأنها ليست هى نفسها الصور التى توجد فى العقل الإلهى .
ولو كانت هى نفسها ، سيكون من الصعب جداً أن يهرب باركلى من اعتناق نظرية
رؤية الأشياء فى الله ، وهى نظرية رفضها بشدة .

وربما يقال إن هذا التمييز لا ينبغى أن يضغط عليه إلى حد أن نفترض أن
باركلى يسلم بمجموعات متعددة من الصور الذهنية ، مجموعة لكل مدرك بشرى
ومجموعة أخرى فى العقل الإلهى لها وجود "نموذجى أو أصلى" . وقد يقال إن
ما يعنيه باركلى هو ببساطة أن نفس الأشياء المحسوسة ، من حيث إن ذات متناهية
تدركها ، لها وجود نموذجى أو طبيعى ، ويكون لها وجود أصلى ، من حيث إن الله
يدركها . ومع ذلك يتحدث باركلى بوضوح عن موضوعات يعرفها الله منذ الأزل ، ولها
وجود أزلى فى عقلى من حيث إنها ممكنة الإدراك للمخلوقات ، وتبدأ بالتالى وجوداً
نسبياً (٨١) .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

المحسوسة من حيث إنها صورنا عن الصور التى يكون لها وجود أصلى فى العقل الإلهى . وليس من المناسب ، عندئذ ، أن نقول أن الحصان يوجد فى الأسطبل ، عندما لا تدركه روح متناهية ، لأن الله يدركه ، لأن الله لا يمتلك أفكارى عندما لا أمتلكها . وينبغى على ألا أهتم بأن أقول - يجماطيقيا - إنه لا يمكن التوفيق بين هذه الطرق من الحديث . بيد أنه يبدو لى أنه يصعب جداً التوفيق بينها .

يقال أحياناً إنه يصعب دخص موقف باركلى بسبب الصعوبة فى بيان أن الله لا يمكن أن يفعل بالطريقة التى يصفها ، أعنى أن يطبع الصور فى أذهاننا ، أو يوجدها لنا . لكن أولئك الذين يقولون ذلك ينسون أنهم يفترضون مسبقاً وجود الله ، بينما يبرهن باركلى على وجود الله من "الوجود كونه مدركاً" . إنه لا يفترض مقدماً مذهب التآليه ، ويستخدمه للبرهنة على مذهب الظواهر . ولكنه ينتقل إلى الطريقة الأخرى تماماً ، مثبتاً أن مذهب الظواهر يستلزم مذهب التآليه ، وتلك وجهة من النظر قلما يمكن القول بأن أولئك الفلاسفة الذين اتبعوه فى نزعتهم التجريبية وطوروها قد شاركوه فيها . لكن بغض النظر تماماً عن هذه المسألة ، فإنه يبدو أن مذهب الظواهر عنده يتضمن عنصرين :

أولهما : وجهة النظر التى تقول إن الأشياء المحسوسة هى ببساطة ما ندركه ، أو ما يمكن أن ندركه . وهذا ما قد نسميه عنصر الحس المشترك من حيث إن الإنسان العادى لا يفكر فى حامل لوك الخامل ، الثابت ، المادى ، الذى لا يمكن معرفته . (لا يستلزم استبعاد حامل لوك المعادى بالضرورة استبعاد الجوهر بآى معنى بالتاكيد) .

وثانيهما : وجهة النظر التى تقول إن الأشياء المحسوسة هى صور ذهنية . ومن حيث إنه لا يمكن رد هذه الوجه من النظر إلى تقرير خالص لاستخدام كلمة ما بطريقة غير عادية ، فمن التادر أن يقال إنها تمثل وجهة نظر الإنسان العادى ، مهما يقل باركلى . إنه من المشكوك فيه إذا ما كان هذان العنصران ، كما اعتقد باركلى ، لا يمكن أن ينفصلا .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لكنه واضح فى كتابات باركلى المبكرة . أنه يصر - كما رأينا - على التمييز بين ملاحظة الظواهر والبرهنة عليها . كما أن باركلى يقرر أيضاً بالفاظ واضحة فى كتابه "محاورات: .. "أن" الله ، الذى لا يستطيع موجود خارجى أن يؤثر فيه ، لا يدرك شيئاً عن طريق الحس كما نفعل نحن .. (لا يمكن أن يتأثر بأى إحساس على الإطلاق) إن الله يعرف أن يفهم كل الأشياء . لكن ليس عن طريق الحس . ولذلك لا أعتقد أنه يصح القول إن كتاب "الحلقات" .. يمثل أى تغير أساسى فى فلسفة باركلى . إن ما نستطيع أن نقوله هو أنه إذا اتبعنا خطوطاً معينة من التفكير وطورناها ، أعنى خطوطاً من التفكير كانت واضحة فى الكتابات المبكرة ، فإن صياغة مختلفة لفلسفته قد تنتج فيها صعوبات تنشأ - مثلاً - من الحديث عن الله الذى يدرك الأشياء ، وعن "الأفكار" التى توجد فى العقل الإلهى عندما لا ندركها نحن ، نقول إن صياغة مختلفة قد تكون واضحة جلية .

٦ - لقد رأينا أن باركلى يقدم تحليلاً تجريبياً أو ظاهرياً للعلاقة العلية بقدر ما تتعلق بنشاط الأشياء المحسوسة . إننا لا نستطيع بصورة مناسبة - فى حقيقة الأمر- أن نتحدث عنه من حيث إنه علل نشيطة على الإطلاق . فإذا تبعت (ب) (أ) بصورة منتظمة بطريقة ما حتى إنه إذا حدثت (أ) ، فإن (ب) تتبعها ، إذا غابت (أ) فإن (ب) لا تظهر ، فإننا نتحدث عن (أ) بوصفها علة لـ (ب) بوصفها معلولاً . بيد أن ذلك لا يعنى أن (أ) تعمل بصورة فعالة على إيجاد (ب) . إن (ب) تتبع (أ) وفقاً لميل الله . إن الصور لأنها صور سلبية ولا يمكن ، إن شئنا أن نتحدث بصورة مناسبة ، أن تمارس علية فاعلة . فحدث (أ) علامة على حدوث (ب) . إن ارتباط الصور لا يتضمن علاقة العلة والمعلول ، ولكن يتضمن فقط علامة أو إشارة على الشئ الذى تشير إليه أو تدل عليه . فالنار التى أراها ليست هى علة الآلم الذى أشعر به عندما أقترّب منها . ولكنها علامة تحذرنى منها (٧٥).

إن هناك - بالتالى - كما يتوقع المرء عنصرين فى تحليل باركلى للعلاقة العلية بقدر ما تتعلق بالموضوعات المحسوسة . فهناك أولاً العنصر التجريبى فكل ما نلاحظه

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

درس "مالبرانش" وتعلم منه، ويجب أن يفترض المرء ذلك فإنه اهتم بالقيام بتمييز حاد بين فلسفته الخاصة وفلسفة الخطيب الفرنسي المفوه ، ويعبر مرات عدة في مذكراته عن إختلاف معه ، فهو (أى مالبرانش) مثلاً يشك في وجود الأجسام . وأنا لا أشك في ذلك على الأقل^(٧٩) . كما أنه يلاحظ فيما يتعلق بمذهب المناسبات عند "مالبرانش" أننا نحرك أرجلنا بأنفسنا . "فنحن الذين نريد حركتها . وأنا هنا أختلف عن "مالبرانش"^(٨٠) . ويتحدث في "المحاورات" بالتفصيل عن بعد فلسفته عن "حماس" الرجل الفرنسي ، "فهو يبنى على الأفكار العامة الأكثر تجريداً ، التي أتخلى أنا عنها تماماً . إنه يؤكد عالمياً أنلياً مطلقاً ، أنكره أنا ، وهو يثبت أن الحواس تخدعنا ، ولا نعرف الطبائع الحقيقية أو الصور الحقيقية وأشكال الوجود الخارجى ؛ وأنا أخالفه في كل ذلك ، ولذلك لا وجود - بوجه عام - لمبادئ أكثر مخالفة من مبادئه عن مبادئ أنا^(٨١) . لقد كان باركلى - بالطبع - على وعى بالمقارنات التي عقدت أحياناً وبمعقولية بين كتاباته وكتابات "مالبرانش" بصفة خاصة بالنسبة لنظرية "مالبرانش" عن رؤية كل الأشياء في الله ، قد أثارته تلك المقارنات . وقد يكون من الصعب قليلاً - بالفعل - أن نفهم هذه الإثارة في هذه الحقبة البعيدة ، حتى إذا وافقنا على واقعة أن باركلى قد انفصل في تفكيره عن مالبرانش "منذ البداية" . لكنه تصور مالبرانش بوضوح بوصفه "متحسماً" ، لم ينتبه أو يهتم بتقديم الدليل الفلسفى الصارم . ولذلك، فإنه يلاحظ من جهة وجود المادة أن "الكتاب المقدس والإمكان هما وحدهما الدليلان عند" مالبرانش" أضف إلى ذلك ما يسميه "الميل العظيم" لأن يفكر على هذا النحو"^(٨٢) . لم يهتم مالبرانش ، من وجهة نظر باركلى ، بأن يعيد الناس من الميتافيزيقا إلى الحس المشترك ؛ ويستخدم الأفكار العامة المجردة بصورة كبيرة . ومع ذلك على الرغم من أن موقف باركلى النقدي تجاه الخطيب المفوه كان - بلا شك - مخلصاً ، وتعبيراً عن رأى أمين ، فإن اهتمامه بأن يبعد نفسه عن "مالبرانش" يظهرنا على أنه رأى أن أسس عقد مقارنة لم تكن معدومة تماماً .

لقد وجد باركلى أن فلسفة ديكارت غير متجانسة ، ونقدتها باستمرار . وعندما يشير إلى وجهة نظر ديكارت التي تذهب إلى أننا لسنا على يقين بصورة مباشرة من

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

المجردة، المسئولة في نظر باركلي - عن مذهب الجوهر المادى . ونستطيع بوجه عام ، أن نقول إن باركلي نظر إلى لوك على أنه فيلسوف تجريبي بطريقة ناقصة ، وأنه ملاحظ غير كفاءٍ لمبادئه التى أعلنها .

٨ - وتجدر ملاحظة أن باركلي تأثر بفكرة لوك التى تذهب إلى أن الأخلاق يمكن أن تتحول إلى علم مثل الرياضات . ولذلك أعد مذكرة لكى ينظر جيداً فيما يقصده لوك بالقول بأن الجبر - يمدنا بأفكار بسيطة ، ولكى يفكر أيضاً فى منهج يقوم بنفس الاستخدام فى الأخلاق ... إلخ ، أى ذلك الاستخدام الذى يقوم به فى الرياضيات^(٩٢) ولقد كانت الفكرة التى تذهب إلى أنه يمكن تطبيق المنهج الرياضى على الأخلاق - باعتبار أنها علم برهاني - شائعة فى ذلك الوقت ، بسبب المنزلة التى حصلت عليها الرياضيات من خلال تطبيقها الناجح فى العلم الفيزيائى ، وبسبب الاعتقاد الواسع بأن الأخلاق اعتمدت فى السابق على السلطة ، وأنها تحتاج إلى أساس عقلى جديد . لقد رأى باركلي - بالفعل - أن الأخلاق لا يمكن أن تكون - على أية حال - فرعاً من الرياضيات البحتة ؛ بيد أنه شارك لفترة ما على الأقل فى الأمل فى جعلها معاتلة لفرع من الرياضيات التطبيقية أو كما يرى ، " رياضيات " مختلطة"^(٩٣). ولكنه لم يحاول على الإطلاق أن يحقق هذا الحلم بصورة نسقية ، غير أنه قام ببعض الملاحظات التى تبين أنه اختلف عن لوك فى وجهة نظره التى يأخذ منها شكل البرهان الأخلاقى ، فالرياضيات عند لوك تدرس العلاقات بين الأفكار المجردة ويمكن أن تقتفى البرهان عن طريق "أفكار بسيطة" ؛ أما باركلي فإنه لا ينظر إلى العلاقات بين الأفكار المجردة ، ولكنه ينظر إلى العلاقات بين العلامات أو الرموز . إننا عندما نعالج الأخلاق بصورة رياضية ، فإن ذلك لا يبرهن على العلاقات بين أفكار مجردة ، لأنها تهتم بكلمات ويقول إنه يبدو أن كل ما هو ضرورى لجعل الأخلاق علماً برهانياً هو إعداد قاموس للكلمات ثم نرى أى كلمات تحتوى على كلمات^(٩٤) . ولذلك، تكون المهمة الأولى المهمة هى تعريف الكلمات^(٩٥) . وعلى أية حال يتضح من بعض الملاحظات الموجودة فى المذكرات أن باركلي أدرك مع ذلك أن هناك صعوبة فى بلوغ اتفاق عام حول معنى المصطلحات الأخلاقية أكبر من الاتفاق العالم حول معنى الرموز الجبرية . فعندما يتعلم

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لقد قام باركلى بالتمييز بين لذات "طبيعية" مناسبة للإنسان من حيث إنه موجود عاقل وحسى أيضاً ، ولذات "خيالية" ، تغذى الرغبة دون أن تشبعها ، لقد افترض أن حب الذات ، من حيث إنه الرغبة فى السعادة هو الدافع الغالب فى السلوك ، غير أنه يؤكد حب الذات العاقل ، ويقلل من قيمة لذات الحس مقارنة بلذات العقل ، تماماً كما يقلل فى كتاباته المتأخرة ، ولا سيما فى كتابه "الحلقات" ، من شأن الإحساس مقارنة بالمعرفة العقلية .

وتبدو بعض ملاحظات باركلى أنها تمثل المذهب النفعى ووجهة النظر التى تقول إن الخير العام ، وليست السعادة الخاصة ، هو الموضوع المناسب للمجهود الإنسانى ولذلك فإنه يتحدث عن حقائق "أخلاقية" أو علمية من حيث إنها مرتبطة دائماً بمنفعة عامة^(١٠٠) . ويمكن أن نقرأ فى رسالته عن "الطاعة السلبية" أن الخير العام عند جميع الناس ، وكل الأمم ، وكل أزمنة العالم ، الذى يدبره الله ، يتم بلوغه عن طريق أفعال كل فرد التى تتفق مع الآخرين^(١٠١) . لكن الإصرار على أن الخير العام لا يتعارض ، فى رأى باركلى ، مع الإصرار على أولوية حب الذات العاقل . لأن حب الذات العاقل لا يؤدى إلى الأنانية ، فهو يشمل ما نطلق عليه اسم الغيرية . وقد دبر الله الأشياء حتى إن تعقب السعادة وفقاً للعقل يساهم باستمرار فى الخير العام والرخاء .

وفضلاً عن ذلك لأن باركلى تصور أن الأخلاق تتطلب قوانين أخلاقية عاقلة ، فإنه يثبت أن العقل يستطيع أن يتحقق من قانون أخلاقى طبيعى ، متضمناً الحرية الإنسانية والواجب . لكن تأكيد صحة المعايير الكلية والقواعد لا يتعارض مع القول بأن كل شخص يبحث عن مصلحته الخاصة . إن ما يأمر به القانون الأخلاقى هو أنه ينبغى علينا أن نبحث عن مصلحتنا الحقيقية وفقاً للعقل ، ويساعدنا على أن نتحقق أين تكمن مصلحتنا الحقيقية ، وهكذا ، كما يلاحظ باركلى فى كتابه "السيفرين" ترتبط مصلحة كل شخص الحقيقية بواجبه " ، و"الحكمة والفضيلة هما الشئ نفسه"^(١٠٢) .

ولأن باركلى اعتقد أن حب الذات العقلية يتضمن الغيرية ، فيجب أن نتوقع فقط أن يهاجم ما ينظر إليه على أنه مذهب الأنانية الضيق عن هوبز . كما أنه يهاجم أيضاً

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

عندما تظهر ملكات النفس النبيلة أنشطتها ، فإننا نكتشف خيرات تفوق خيرات الحس " ولذلك عندما يحدث تغير في أحكامنا ، فإننا لم نعد نطيع التوسلات الأولى للحس ، ولكننا نظل ننظر إلى نتائج الفعل البعيدة أى أننا ننظر إلى الخير الذى تأمله ، أو الشر الذى نخشاه ، وفقاً لجرى الأشياء العادى " (١٠٥) .

لكن ذلك ليس سوى خطوة أولى . إن تأمل الأزل مقارنة بالزمان يبين لنا أنه ينبغي على كل إنسان عاقل أن يفعل ويشارك بصورة أكثر فاعلية فى مصلحته الأزلية الدائمة ، وفضلاً عن ذلك ، فإن العقل يبين لنا أن هناك إلهاً يستطيع أن يجعل الإنسان سعيداً بصورة أزلية دائمة ، أو أن يجعله بائساً بصورة أزلية دائمة . وينجم عن ذلك أن الإنسان العاقل يطابق أفعاله مع إرادة الله الواضحة . غير أنه باركلى لا يحتفظ فقط بهذا المذهب النفعى اللاهوتى . فهو يقول إننا إذا نظرنا إلى العلاقة التى تكون بين الله والمخلوقات ، فإنه يتحتم علينا أن تنتهى إلى النتيجة نفسها . لأن الله من حيث إنه خالق لكل الأشياء وحافظ لها ، هو المشرع الاسمى : "ويجب على البشرية عن طريق كل روابط الواجب ، وهى ليست أقل من المصلحة ، أن تطيع قوانينه " (١٠٦) . إن الواجب والمصلحة يسيران فى نفس الاتجاه .

لكن كيف يمكننا أن نعرف هذه القوانين ، بمعزل عن الوحي ؟ "لأن القوانين قواعد موجهة لأفعالنا إلى الغاية التى يقصدها المشرع ، لكى يبلغ معرفة قوانين الله ، فإنه ينبغي علينا فى البداية أن نبحث عما تكون هذه الغاية . إن الأفعال البشرية هى تنفيذ خطئه (١٠٧) ولا بد أن تكون الغاية هى الخير ؛ لأن الله خير بصورة لا محدودة . لكنها لا يمكن أن تكون خير الله ؛ لأن الله كامل . ولذلك لا بد أن تكون الغاية هى خير الإنسان ، ومن ثم فإن الخير الأخلاقى هو الذى يصنع الإنسان ، بدلاً من أن يكون ذلك الإنسان أكثر رضا عن الله ، ويفترض الخير الأخلاقى طاعة قانون والإذعان له . ولذلك لا بد أن تسبق الغاية التى يتصورها المشرع - لا بد أن تسبق من الناحية المنطقية - كل تنوع بين الأفراد . وذلك يعنى أن الغاية لا بد أن تكون الخير ، ليس خير هذا الإنسان أو إذاك أو خير أمه ، ولكن خير الإنسان بوجه عام ، أعنى خير كل الناس .

وينجم عن ذلك أنه "مهما بدت القضية العلمية بوضوح للعقل السليم على أن لها

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لكن قلما يمكن الزعم بأن العناصر الميتافيزيقية الموجودة في فلسفة باركلي كان لها تأثير كبير . لقد كان العنصر التجريبي هو الأكثر فاعلية وتأثيراً . وقد طور هيوم - كما سنرى في الفصول القادمة - تحليله الظاهري . وامتدح جون ستيوارت مل في القرن التاسع عشر "اكتشافاته الفلسفية الثلاثة الأولى ، التي كان كل اكتشاف منها كافياً لأن يكون ثورة في علم النفس ، وحددت المجرى الكلي للتأمل الفلسفي اللاحق عن طريق ارتباطها ^(١١٢) . وهذه الاكتشافات الثلاثة هي ، كما يرى مل ، : نظرية باركلي في الإدراك المرئي (أي النظرية التي عرضها في كتابه " مقال نحو نظرية جديدة في الإبصار) ، ونظريته التي تقول إن البرهان خاص دائماً بجزئيات ، ووجهة نظره التي ترى أن الواقع يتكون من تجمعات أو تجميعات من الإحساسات . (لقد عرف مل نفسه الشئ الجسمي بأنه إمكان دائم من إحساسات) .

لقد كان "مل" محققاً تماماً في حديثه عن أهمية باركلي ، فقد ظل واحداً من الفلاسفة التجريبيين البريطانيين الكلاسيكيين البارزين ، وأثر تفكيره بصورة مباشرة أو غير مباشرة في جانبه التجريبي ، على التطور اللاحق للفلسفة الإنجليزية في هذا التراث، واليوم عندما أصبحت حركة التحليل اللغوي قوية في الفكر البريطاني نجد اهتماماً معيناً باستباقاته في نظرية هذا التحليل وممارسته . ومن المهم بيان هذا العنصر في فكره ، بيد أن باركلي نفسه يندم بلا شك على أن أولئك الذين يقدرونه بناء على أسس أخرى قد نظروا إلى العناصر الأكثر ميتافيزيقية الموجودة في فلسفته على أنها غير مقبولة بوجه عام .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- p.,1, 139: 11, p. 105 (Y.)
- Ibid. p. 106 (Y1)
- P., 1, 141: 11, p. 105. (Y2)
- Ibid, p. 106 . (Y2)
- Ibid, p. 105 (Y3)
- P.,1, 34: 11, p. 55. (Y4)
- P.,1, 62: 11, p. 67 . (Y6)
- D., 2:11,p. 211. (Y7)
- P.,1, 107: 11, p. 88 (Y8)
- P.,1, 103: 11, p. 86 . (Y9)
- D.M., 1, IV: P. 11. (Y.)
- D.M., 66, IV: p. 24 . (Y1)
- D.M., 17, IV: p. 28. (Y2)
- D.M., 17, IV: p. 15. (Y2)
- D.M.,39, IV: p. 20 . (Y3)
- D.M.,35, IV: p. 19 . (Y4)
- D.M.,69, IV: p. 29 . (Y6)
- D.M.,36, IV: p. 20 . (Y7)
- D.M.,72, IV: p. 30 . (Y8)
- D.M.,72, IV: p. 30 (Y9)
- D.M.,4AND 6,IV: P.32 . (1.)
- D.M.,72, IV: p. 12. (11)
- P.C., 782, IV: p.94. (12)
- A., 4.2 111, P. 142 . (12)
- P.,1, 146: 11, PP. 107-8 (11)
- D.,2, 11. 212. (14)
- P.,1, 148:11, P.10 (16)
- P.,1,152: 11, P.111 (17)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

Siris, 289 : v.p. 134 . (٧٤)

P.,1, 65 : 11, p. 69 . (٧٥)

A., 4,14: 111, P. 160 . (٧٦)

D.,3:11, p. 237 . (٧٧)

Ibid. (٧٨)

P.C., 800:1, P. 69 . (٧٩)

P.C.,548, p. 69 (٨٠)

D., 2:11, p214 . (٨١)

P.C., 686:1,p. 83 . (٨٢)

D.,3:11P. 230 . (٨٣)

(٨٤) هو الفيلسوف الإيطالي لوستيليو فنيني (١٥٥٨ - ١٦١٦) الذي حكم عليه بالموت حرقاً في تولوز لترويجه مبادئ الإلحاد والشعوذة . (المراجع) .

D.,2: 11,P. 213 . (٨٥)

P.C., 824: 1,P. 98 . (٨٦)

P.C., 825: 1,P. 98 (٨٧)

P.C., 822: 1P. 98 . (٨٨)

1,PP.25IF . (٨٩)

P.C., 688:1,P. 84 . (٩٠)

E., 125: 1, P. 221 (٩١)

P.C., 697: 1,P. 85 (٩٢)

P.C., 697: 1,P. 92 (٩٣)

P.C., 690: 1,P. 84 . (٩٤)

P.C., 853: 1,P. 101 . (٩٥)

P.C., 769: 1,P. 93 . (٩٦)

P.C., 773: 1,P. 93 . (٩٧)

P.C., 776: 1,P. 93 . (٩٨)

P.C., 100: 1,P. 84 . (٩٩)

A.5,4: 111, P. 178 . (١٠٠)

- Passive Obedince, 7: ov , p. 21 . (١٠١)
- A.3, 10 : 111, p. 129 (١٠٢)
- A. 1, 12: 111, p. 52 . (١٠٣)
- Passive Obedince, 5: iv , p. 19 . (١٠٤)
- Passive Obedince, 5: iv , p. 19 . (١٠٥)
- Ibid, 6: iv, p,20 . (١٠٦)
- Ibid, 7: iv, p,20 . (١٠٧)
- Passive Obedince, 5: iv , p. 22 . (١٠٨)
- Ibid, 12: vi, p. 23 . (١٠٩)
- Ibid, 7: vi, p. 45 . (١١٠)
- P.1., 92: 11, P.. 81 (١١١)
- Disserations and Discussions, 4, 155 . (١١٢)

الفصل الرابع عشر

هيوم (١)

حياته وكتاياته - علم الطبيعة البشرية - الانطباعات والأفكار - تداعى الأفكار - الجوهر والعلاقات - الأفكار العامة المجردة - علاقات الأفكار : الرياضيات - أمور الواقع - تحليل العلية - طبيعة الاعتقاد

١ - لقد ربط لوك - كما رأينا - قبول المبدأ الذى يقول إن كل أفكارنا تنشأ - أساساً - من التجربة بميتافيزيقا متواضعة ، وعلى الرغم من أن باركلى سار بالمذهب التجريبي إلى أبعد مما فعله لوك عن طريق رفض تصور لوك للجوهر المادى ، فإنه مع ذلك استخدم المذهب التجريبي فى خدمة فلسفة ميتافيزيقية روحية . وكان على هيوم القيام بمهمة إكمال العملية التجريبية وتقديم نفيض لا يتصالح مع المذهب العقلى الأوربي . ولذلك ينظر الفلاسفة التجريبيون المحدثون إلى هيوم على أنه جد الفلسفة التى قبلوها . ولا أقصد أن الفيلسوف التجريبي الحديث يقبل كل أقوال هيوم ، أو أنه يقلد كل طرق هيوم فى التعبير عن النظريات التجريبية والتحليل . لكن هيوم يظل بالنسبة له الفيلسوف البارز حتى نهاية القرن الثامن عشر الذى أخذ المذهب التجريبي بجدية ، وحاول أن يطور فلسفة تجريبية متسقة .

ولد ديفيد هيوم " فى "أنتبره" عام ١٧١١ . كانت رغبة أسرته أن يصبح محامياً ، غير أنه يخبرنا أنه حبه للأدب قد سيطر عليه ، ويشعر "بكراهية شديدة لكل شئ سوى بحوث الفلسفة ، والمعارفة العامة " . وعلى أية حال ، لم يكن والد هيوم ثرياً بدرجة كافية تمكن ابنه من أن يتابع ميوله ، فانخرط هيوم فى أعمال تجارية فى "برستول" .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

هنرى السابع العرش " عام ١٧٦١ ، وبقدر ما كان مهتماً بالفلسفة ، فإنه لم ينشر الكثير فى ذلك الوقت ، على الرغم من أن كتابه "أربعة أبحاث " ، الذى يتضمن بحثاً عن التاريخ الطبيعى للدين ، ظهر عام ١٧٥٧ .

ذهب هيوم إلى باريس عام ١٧٦٣ مع الإيرل هرتفورد ، السفير البريطانى فى فرنسا ، وأصبح فترة من الزمن سكرتيراً للسفارة الإنجليزية . وبينما كان فى باريس خالط مجموعة الفلاسفة الفرنسيين الذين اشتركوا فى تأليف "دائرة المعارف" وعندما عاد إلى لندن عام ١٧١٦ عاد معه روسو ، على الرغم من أن شخصية روسو المريبة أدت فى الحال إلى قطيعة فى علاقتهما ، وصار هيوم "وكيل وزارة" غير أنه عاد إلى "أدنبره" عام ١٧٦٩ ، حيث توفى عام ١٧٧٦ ، ونُشر كتابه "محاورات فى الدين الطبيعى" ^(١) ، الذى كتبه قبل عام ١٧٥٢ ، بعد وفاته عام ١٧٧٩ . وظهرت مقالاته عن الانتحار والخلود غفلاً ، وظهرت باسمه عام ١٧٨٣ .

ظهرت سيرة حياة هيوم ، التى حررها صديقه آدم سميث عام ١٧٧٧ . يصف فيها نفسه فى فقرة يوردها باستمرار بأنه "إنسان هادئ الطبع ، لديه القدرة على التحكم فى مزاجه ، نوافكاه صريحة واجتماعية مرحة ، لديه القدرة على إقامة علاقات ، لكن لديه استعداداً قليلاً للعداوة والبغضاء ، واعتدالاً كبيراً فى انفعالاته ، وحتى حبي للشهرة الأنبية وانفعالى الذى أتحكم فيه لم يعكز مزاجى على الإطلاق ، على الرغم من خيبة آمالى المستمرة " بدا ظهوره إذا حكمنا عن طريق ذكريات الإيرل شارلمونت ، بعيداً عن أى شئ من المحتمل أن ينسب إليه قارئ أعماله بانفعال ؛ لأن هيوم ، كما يرى شارلمونت ، يبدو أشبه بعضو المجلس المحلى الذى يأكل سلحفاة البحر أكثر منه فيلسوفاً مهذباً " . كما أنه يخبرنا بأن هيوم كان يتحدث الإنجليزية بلهجة إسكتلندية فيها تفخيم ، وأن لفته الفرنسية كانت بعيدة على أن تكون نموذجية. ومع ذلك ، لم يكن ظهوره الشخصى ولهجه ، على الرغم من أنها ذو أهمية بالنسبة لأولئك الذين يحبون أن يعرفوا تفاصيل عن إناس مشهورين ، لهما علاقة بأهميته وأثره كفيلسوف ^(٢) .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

من المنهج الاستنباطى . " وحيثما نجمع ونقارن تجارب من هذه النوع بحكمة ، فإننا قد نأمل فى أن نقيم عليها علماً لا يكون وضعياً فى اليقين ، ويكون أكثر سمواً فى المنفعة ، من أى علم بشرى آخر " (٥) .

وهكذا كان هدف هيوم هو أن يمدّ مناهج العلم النيوتونى - بقدر ما يكون ذلك ممكناً - إلى الطبيعة البشرية ذاتها ، وأن يمضى قُدماً بالعمل الذى بدأه لوك ، وشافيتسبرى ، وهاتشيسون ، وبطلر ، وهويرى - بالطبع أن علم الطبيعة البشرية يختلف بمعنى ما عن العلم الفيزيائى ، إنه يستفيد مثلاً من منهج الاستيطان ، وكان على وعى واضح بأن المنهج غير ممكن التطبيق خارج الميدان السيكلوجى . كما أنه شارك فى الوقت نفسه الفلاسفة الآخرين فى عصر التنوير السابقين على كائنا فى الفهم الناقص للاختلافات الموجودة بين العلم الفيزيائى وعلم العقل أو "الروح" . ومع ذلك ، فإن فهماً أفضل كان نتيجة تجربة مد المفاهيم العامة " للفلسفة الطبيعية " إلى عمل الإنسان . ونظراً إلى التقدم العظيم فى العلوم الطبيعية منذ عصر النهضة ، فإنه لا موجب للدهشة للقيام بالتجربة .

يقول هيوم فى كتابه " بحث فى الفهم البشرى " إنه يمكن معالجة علم الإنسان بطريقتين ؛ فالفيلسوف قد ينظر إلى الإنسان على أنه مولود أساساً ، ومن أجل العمل ، ويهتم ببيان جمال الفضيلة بقصد حث الإنسان على السلوك الفاضل . أو قد ينظر إلى الإنسان على أنه موجود يقوم بالبرهان والاستدلال بدلاً من النظر إليه على أنه موجود نشط وفعال ، يهتم بتطوير فهم الإنسان بدلاً من اهتمامه بتطوير وسلوكه . وينظر الفلاسفة الذين ينتمون إلى النوع الثانى إلى " الطبيعة البشرية على أنها موضوع للتأمل ويفحصونها بإمعان دقيق لكى يجدوا تلك المبادئ التى تنظم فهمنا ، وتثير انفعالاتنا ، وتجعلنا نستحسن أو نلوم أى موضوع معين ، أو سلوك " (٦) . إن النوع الأول من الفلسفة " سهل وواضح " ؛ فى حين أن النوع الثانى " دقيق وصعب الفهم " . ويُفضّل غالبية البشر النوع الأول ، فى حين أن النوع الثانى مطلوب إذا كان لابد أن يكون للنوع الأول أى أساس مؤكد ، حقاً ، إن النظر الميتافيزيقى الغامض لا يؤدى إلى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

"إدراكات" لكي تغطي مضامين الذهن بوجه عام ويقسم الإدراكات إلى إنطباعات وأفكار . الانطباعات هي معطيات التجربة المباشرة ، مثل الإحساسات ، أما الأفكار فيصفها هيوم بأنها نسخ أو صور باهتة للانطباعات في التفكير والبرهان . فإذا نظرت إلى حجرتي ، فإبنتى ألتقى انطباعات عنها . "وعندما أغلق عيني وأتصور حجرتي ، فإن الأفكار التي أكوّنها تكونُ تمثلات دقيقة عن الانطباعات التي شعرت بها ؛ وليس ثمة مجال لأي فكرة لا توجد في الانطباعات ... إن الأفكار والانطباعات يناظر بعضها بعضاً باستمرار " ^(٩) وتستخدم كلمة "فكرة" هنا بوضوح لتعني بصورة Image لكن إذا تجاوزنا عن هذه المسألة ، فإننا نستطيع أن نرى على نحو مباشر الاتجاه العام لتفكير هيوم ، فكما أن لوك استمد كل معرفتنا ، أساساً ، من "أفكار بسيطة" ، فكذلك أراد هيوم أن يستمد معرفتنا - أساساً - من الانطباعات؛ أي من المعطيات المباشرة للتجربة . لكن بينما توضح هذه الملاحظات المبدئية الاتجاه العام لتفكير هيوم ، فإنها تقدم تفسيراً ناقصاً جداً عنه ، وثمة تفسير أبعد مطلوب .

يصف هيوم الاختلاف بين الانطباعات والأفكار بمصطلحات واضحة . "إن الاختلاف يتمثل في درجات القوة والحيوية التي تؤثر بها على الذهن . وتجد طريقها إلى أفكارنا أو وعينا . وقد نطلق على تلك الإدراكات التي تدخل بقوة وحيوية أكثر اسم "الانطباعات" ويندرج تحتها كل إحساساتنا ، وانفعالاتنا ، وعواطفنا ، كما تظهر للمرة الأولى في النفس . وأعني بالأفكار الصور الخافتة لتلك الانطباعات الموجودة في التفكير والاستدلال ، مثل كل الإدراكات التي يثيرها الحديث الحالي مثلاً ، ما عدا تلك تنشأ من الرؤية واللمس ، وما عدا اللذة المباشرة أو الألم الذي قد يحدث " ^(١٠) . وينتقل هيوم إلى تعديل هذا القول بإضافة " أنه في حالة النوم ، والحمى ، والجنون ، أو في حالة من حالات انفعالات النفس القوية جداً ، قد تقترب أفكارنا من انطباعاتنا ؛ كما يحدث أحياناً ، من جهة أخرى أن انطباعاتنا تكون باهتة وضعيفة حتى إننا لا نستطيع أن نميزها عن أفكارنا " ^(١١) بيد أنه يصير بوجه عام على أن التمييز يظل صحيحاً ؛ ويلاحظ في كتابه " بحث .. " أن " أكثر الأفكار حيوية تظل أدنى من الإحساس الأكثر خوفاً وضعفاً " ^(١٢) . وعلى أية حال ، فإن هذا التمييز بين

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

هل الانطباعات مستمدة من الأفكار ، أو الأفكار مستمدة من الانطباعات ؟ للإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى أن نفحص فقط نظام ظهور الانطباعات والأفكار. واضح أن الانطباعات تسبق الأفكار . " فلكي أقدم لفعل فكرة عن اللون القرمزي أو البرتقالي ، أو فكرة عن الحلو أو المر ، فإنني أقدم له الموضوعات ، ومعنى آخر أنقل إليه هذه الانطباعات ، لكنني لا أنتقل بسخف لكي أحاول أن أنتج الانطباعات عن طريق إثارة الأفكار " (١٥) . ومع ذلك يذكر هيوم استثناء للقاعدة العامة التي تقول إن كل الأفكار المستمدة من إنطباعات تناظرها ، افترض أن شخصاً يألف كل ظلال اللون الأزرق ما عدا ظل واحد ، فإذا قدمنا إليه سلسلة متدرجة من ضرب اللون الأزرق ، سائرين من الأغمق إلى الأفصح ، وإذا لم يكن الظل المعين من اللون الأزرق الذي لم يره على الإطلاق غير موجود ، فإنه سيلاحظ فراغاً في السلسلة المتصلة . فهل من الممكن بالنسبة له أن يقي هذا النقص عن طريق استخدام خياله ويكون "فكرة" عن هذا الظل المعين ، على الرغم من أنه ليس لديه الانطباع المناظر على الإطلاق ؟ أعتقد أنه يستطيع أن يفعل ذلك (١٦) ، وفضلاً عن ذلك ، من الممكن بوضوح أن نكون أفكاراً من أفكار . لأننا نستطيع أن نبرهن على أفكار ونتحدث عنها ، التي هي نفسها أفكار عن انطباعات . إننا نكون بالتالي : أفكاراً ثانوية " تُستمد من أفكار سابقة بدلاً من أن تُستمد مباشرة من انطباعات ، غير أن هذا التعديل الثاني لا يتضمن - إن شئنا أن نتحدث بدقة - أي استثناء القاعدة العامة التي تقول إن الانطباعات تسبق الأفكار. وإذا سمحنا للاستثناء الذي ذكرناه في التعديل الأول ، فإننا نستطيع أن نعلن بيقين القضية العامة التي تقول إن إنطباعاته البسيطة تسبق أفكارها المناظرة .

ولابد من إضافة هذه المسألة وهي يمكن تقسيم الانطباعات إلى إنطباعات الإحساس، وانطباعات التفكير " ينشأ النوع الأول في النفس - أصلاً - من علل غير معروفة " (١٧) . فماذا إذن عن إنطباعات التفكير ؟ تُستمد هذه الانطباعات - إلى حد كبير- من الأفكار ، افترض أن لدى انطباعاً عن البرد الذي يلازمه ألم . أن "نسخة" هذا الانطباع تبقى في الذهن بعد أن يزول الانطباع . وتُسمى هذه "النسخة" "بالفكرة" وتستطيع أن تنتج انطباعات جديدة عن النفور - مثلاً - التي تكون انطباعات التفكير.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الوصف . فبعض من هذه الألفاظ يمكن أن تُفسر عن طريق التعريف أو الوصف ، بيد أننا نصل في النهاية إلى كلمات ، لا بد أن يعرف الطفل معناها بوضوح . أعنى أنه لا بد من بيان أمثلة للطريقة التي تُستخدم بها هذه الكلمات ، أعنى حالات لتطبيقها . ويلفة هيوم ، لا بد من إعطاء "انطباعات" للطفل ، وبالتالي ، من الممكن أن نشرح قصد هيوم باستخدام تمييز بين ألفاظ ، نعرف معناها بوضوح ، وألفاظ نعرف معناها عن طريق التعريف أو الوصف ، وبمعنى آخر ، من الممكن أن نستبدل تمييز هيوم السيكلوجى بين الانطباعات والأفكار بتمييز لغوى بين ألفاظ ، لكن الهدف الرئيسى وأعنى أسبقية التجربة ، أسبقية ما هو معطى بصورة مباشرة يبقى هو نفسه .

وتجدر الملاحظة إلى أن هيوم يفترض أن "التجربة" يمكن أن تنحل إلى مكونات ذرية ، أعنى الانطباعات أو المعطيات الحسية . لكن على الرغم من أن ذلك قد يكون ممكناً إذا نظرنا إليه على أنه تحليل مجرد خالص ، فإنه من المشكوك فيه إذا ما كان يمكن وصف "التجربة" بصورة . . . عة عن طريق هذه المكونات الذرية وتجدر الملاحظة أيضاً إلى أن هيوم يستخدم كلمة "فكرة" بطريقة غامضة . فهو أحياناً يشير بوضوح إلى الصور ، وإذا سلمنا بهذا المعنى للفكرة ، فليس من المعقول أن نتحدث عن الأفكار بوصفها نسخاً من انطباعات . لكنه يشير في أحيان أخرى إلى المفهوم بدلاً من الصورة ، ومن الصعب أن نرى كيف يمكن وصف علاقة التصور بذلك الذى تكون تصوراً عنه بصورة مشروعة بنفس الألفاظ مثلما نصف علاقة صورة بذلك الذى تكون صورة له . يستخدم هيوم فى كتابه "بحث فى الفهم البشرى" (٢٠) لفظى "الأفكار" والتصورات " بوصفهما لفظين مترادفين . وأعتقد أنه واضح أن تمييزه الأساسى هو بين المعطى بصورة مباشرة أعنى الانطباعات ، والمشتق ، الذى يعطى له الاسم العام "الأفكار" .

لقد قيل إن نظرية هيوم عن الانطباعات والأفكار تستبعد فرص الأفكار الفطرية . غير أن قوله يحتاج إلى بعض التعديل بالنظر إلى الطريقة التى يستخدم بها لفظ "الأفكار الفطرية" . فإذا أخذ لفظ "فطرى" على أنه يساوى لفظ "طبيعى" فإنه يجب الإقرار بأن كل الانطباعات والأفكار الموجودة فى الذهن فطرية أو طبيعية" (٢١) . وإذا

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

عام وفقاً لبعض المبادئ العامة للتداعى ، فى الذاكرة توجد رابطة لا يمكن أن تنفصل بين الأفكار . أما فى الخيال فإن هذه الرابطة التى لا يمكن أن تنفصل معدومة ؛ لكن هناك مع ذلك "مبدأً موحداً" بين الأفكار ، أى أن هناك خاصية الربط ، عن طريقها تقضى فكرة بطبيعتها إلى أخرى^(٢٥) . ويصفها هيوم بأنها "قوة أصلية" ، تهيمن بوجه عام . "أسبابها" غير معروفة فى الغالب ، ولا بد أن تنحل إلى كيفيات أصلية للطبيعة البشرية ، التى لا أزعج تفسيرها^(٢٦) . وبمعنى آخر، توجد فى الإنسان قوة فطرية أو دافع يحركه ، مع ذلك بدون دافع ، لأن يربط أنواعاً معينة من الأفكار معاً . لكن ماذا عساها أن تكون هذه "القوة الأصلية" فى ذاتها ؟ لا يقدم لنا هيوم تفسيراً لها . كما أننا نستطيع فى الوقت نفسه أن نتأكد من الكيفيات التى تجعل هذه القوة الأصلية تقوم بعملها . "إن الكيفيات التى ينشأ منها هذا التداعى ، والتى ينتقل عن طريقها الذهن من فكرة إلى أخرى ، ثلاث هى : التشابه ، والتجاور فى الزمان والمكان ، والعلة والمعلول" ^(٢٧) . إن الخيال ينتقل بسهولة من فكرة إلى أخرى تشبهها . وعلى نحو مماثل ، يكتسب الذهن عن طريق العادة الطويلة عادة تداعى الأفكار المتصلة ، سواء بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة ، فى زمان ومكان . أما بالنسبة للربط الذى يتم عن طريق علاقة العلة والمعلول ، فستكون لدينا فرصة فيما بعد لفحصها بالتفصيل ، ولذلك لن نقف عندها الآن^(٢٨) .

٥ - يلى القسم الخاص بتداعى الأفكار فى كتاب هيوم "رسالة .. أقسام عن العلاقات ، وعن الأعراض والجواهر . وهذه أفكار مركبة تثبت أنها نتائج للتداعى الذى ذكرناه من قبل . ولقد تبنى هيوم أحد تصنيفات لوك وهو يصنف الأفكار المركبة بهذه الطريقة . ويمكن أن نأخذ فكرة الجوهر أولاً .

يتسامل هيوم كما نتوقع من أى انطباع أو انطباعات تُستمد فكرة الجوهر ، على افتراض وجود فكرة كهذه . إنها لا يمكن أن تُستمد من انطباعات الإحساس . فإذا أدركتها العينان ، فلا بد أن تكون لوناً ، وإذا أدركتها الأذنان ، فلا بد أن تكون صوتاً ، وإذا أدركها الذوق فلا بد أن تكون طعماً . غير أن أحداً لا يقول أن الجوهر لون ،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

هيوم ، فى قسم متأخر من كتابه " رسالة .. " موضوع الذهن أو النفس ، تحت عنوان "الهوية الشخصية" وسنترك هذه المشكلة الآن ، على الرغم من أنه من المفيد أن نلاحظ فى الحال أنه لم يحصر نفسه ، كما فعل باركلى ، فى تحليل ظاهرى لفكرة الجوهر المادى .

وعندما يناقش هيوم العلاقات فى كتابه " رسالة .. " فإنه يميز بين معنيين لكلمة "علاقة" أولهما : أن الكلمة قد تُستخدم لتدل على كيفية أو كيفيات "ترتبط عن طريقها فكرتان معاً فى الخيال ، وتقضى الواحدة منهما بطبيعتها إلى الأخرى ، على المنوال الذى شرحناه من قبل " (٢٠) وهذه "الكيفيات" هى التشابه ، والتجاور ، والعلاقة العلوية ، ويطلق عليها هيوم اسم العلاقات الطبيعية ، ومن ثم ، ترتبط الأفكار فى حالة العلاقات الطبيعية بعضها ببعض عن طريق قوة التداعى الطبيعية ، حتى إن فكرة تميل بطبيعتها أو عن طريق العادة إلى أن تستدعى فكرة أخرى ، وثانيهما : هناك ما يطلق عليه هيوم اسم العلاقات الفلسفية . فنحن نستطيع أن نعقد مقارنة بين أية موضوعات ، كما نشاء ، شريطة أن يكون هناك على الأقل تشابه للكيف بينهما . فى هذه المقارنة لا تجبر قوة التداعى الطبيعية الذهن على أن ينتقل من فكرة إلى أخرى : فهو لا يفعل ذلك لأنه - ببساطة - اختار أن يقوم بمقارنة معينة .

ويحصى هيوم سبعة أنواع من العلاقات الفلسفية هى : التشابه ، والهوية ، وعلاقة الزمان والمكان ، ونسب الكم أو العدد ودرجات الكيف ، والتضاد ، والعلوية (٢١) . ويجب أن نلاحظ أن هناك تداخلاً معيناً بين العلاقات الطبيعية والعلاقات الفلسفية . فكل العلاقات الطبيعية الثلاث تظهر - بالفعل - فى قائمة العلاقات الفلسفية . على الرغم من أنها لا تظهر - بالطبع - بوصفها علاقات طبيعية . غير أن هذا التداخل لا يرجع إلى أى غلغة من جانب هيوم . فهو يرى - مثلاً - أنه لا يمكن مقارنة أى موضوعات إذا لم يكن هناك تشابه بينها . وبالتالي ، فإن التشابه هو علاقة لا يمكن أن توجد بدونها علاقة فلسفية . لكن لا ينتج عن ذلك أن كل تشابه ينتج تداعياً للأفكار . فإذا كانت كيفية عامة جداً ، وتوجد فى عدد كبير جداً من موضوعات ، أو فى كل

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

٦ - يعالج هيوم الأفكار العامة المجردة في الجزء الأول "رسالة .."، في إرتباط وثيق، بتحليله للأفكار والانطباعات، يبدأ هيوم بملاحظة أن "فيلسوفاً عظيماً؛ وهو باركلي، قرر أن كل الأفكار العامة « ليست شيئاً سوى أفكار جزئية ألحقت بلفظ معين، أعطاهما دلالة أكثر اتساعاً، وجعلها تستدعى عند الضرورة أفراداً آخرين يشبهونها ^(٣٢) . وربما لا يكون ذلك وصفاً موفقاً تماماً لموقف باركلي؛ لكن هيوم ينظر إليه، على أية حال، على أنه أحد الاكتشافات الحديثة العظيمة والتي لها قيمتها بدرجة كبيرة، ويقترح تأكيدها عن طريق حجج أخرى .

إن الأفكار المجردة هي، من جهة، فردية أو جزئية في ذاتها، ويمكن توضيح ما يقصده هيوم عن طريق حججه لصالح هذه القضية . أولاً: " لا يستطيع الذن أن يَكُون أى فكرة عن كم أو كيف نون أن يَكُون فكرة دقيقة عن درجات كل منهما " ^(٣٣) . إذ لا يمكن أن نميز الطول الدقيق لخط ما - مثلاً - عن طريق الخط نفسه، ولا يمكن أن نَكُون فكرة عامة عن خط نون أن يكون لدينا أى طول على الإطلاق، ولا نستطيع أن نَكُون الفكرة العامة عن خط يمتد كل الأطوال الممكنة . ثانياً: كل الانطباع محدد ومعين . ولأن الفكرة - بالتالى - هي صورة أو نسخة من انطباع، فلا بد أن تكون هي نفسها معينة ومحددة، حتى الرغم من أنها تكون أكثر ضعفاً وخفوتاً من الانطباع الذى استمدت منه، ثالثاً: كل شئ موجود، لا بد أن يكون فرداً، فلا يمكن أن يوجد مثلث - مثلاً - لا يكون مثلثاً جزئياً معيناً له خصائص معينة . فالتسليم بمثلث موجود لا يكون فى نفس الوقت واحداً من الأنواع الممكنة للمثلثات، هو خُلف محال، بيد أن ما هو خلف محال فى الواقع والحقيقة، يكون كذلك بالنسبة للفكرة .

واضح أن وجهة نظر هيوم تنتج من تصوره للأفكار وعلاقتها بالانطباعات، فإذا كانت الفكرة صورة أو نسخة، فلا بد أن تكون جزئية، ولذلك يتفق مع باركلي فى عدم وجود أفكار عامة مجردة - كما أنه يصر فى الوقت نفسه على أن ما يُسمى بالأفكار المجردة، على الرغم من أنها صور جزئية فى ذاتها، « قد تصبح عامة فى تمثيلها » ^(٣٤) . وما يحاول أن يفعله هو تحديد الطريقة التى يوجد فيها هذا الامتداد للمفهوم .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

٧ - يقرر هيوم فى كتابه « بحث الفهم البشرى » أنه « يمكن تقسيم كل موضوعات الذهن البشرى ، أو البحث ، بصورة طبيعية إلى نوعين: علاقات الأفكار وأمور الواقع . يتدرج تحت النوع الأول علم الهندسة ، والجبر ، والحساب ، وباختصار كل قول يكون يقيناً عن طريق الحدس أو البرهان . أما أمور الواقع ، التى تكون النوع الثانى من الذهن البشرى ، فإنه لا يتم التيقن منها بنفس الطريقة ، لا يكون البرهان على صدقها ، مهما يكن عظيماً ، ذا طبيعة تشبه النوع الأول » ^(٣٦) . ويقصد هيوم أن كل استدلال يخص العلاقات بين أشياء . وهذه العلاقات - كما يقرر هيوم - نوعان : علاقات الأفكار ، أو أمور الواقع . القضية الحسابية مثال للنوع الأول ، بينما القضية التى تقول إن الشمس سوف تشرق غداً هى مثال للنوع الثانى . وسنهتم فى هذا القسم بعلاقات الأفكار .

يقول هيوم إن أربع علاقات فقط من العلاقات الفلسفية السبع تعتمد على أفكار فقط ، وهى : التشابه ، والتضاد ، ودرجات الكم ، ونسب الكيف أو العدد ، العلاقات الثلاث الأولى من هذه العلاقات « يمكن إكتشافها منذ الوهلة الأولى ، وتندرج بصورة ملائمة تحت دائرة الحدس أكثر من دائرة البرهان » ^(٣٧) . عندما نهتم باستدلال برهانى ، فإننا نبقى - بالتالى - مع نسب الكم أو العدد ، أى مع الرياضيات . إن القضايا الرياضية تؤكد علاقات بين الأفكار ، والأفكار فقط . ففى الجبر - مثلاً - لا يهم يقين البراهين وصدق القضايا ما إذا كانت هناك موضوعات تناظر الرموز المستخدمة أم لا . إذا أن صدق القضايا الرياضية مستقل عن الأمور التى تتعلق بالوجود .

وهكذا ، فإن تفسير هيوم للرياضيات تفسير عقلى وليس تفسيراً تجريبياً ؛ بمعنى أنه يثبت أن العلاقات التى تؤكد لها علاقات ضرورية . إن صدق قضية رياضية يعتمد ببساطة - وقطعاً - على العلاقات الموجودة بين الأفكار ، أو كما نقول ، على معانى رموز معينة ؛ ولا يحتاج إلى تأكيد من التجربة . ويجب ألا نفهم - بالطبع - أن هيوم يقصد أن الأفكار الرياضية فطرية بالمعنى الموجود عند لوك لهذه الكلمة . فقد كان واعياً تماماً بالطرق التى نعرف بها معانى الرموز الحسابية والجبرية . إن قصده هو أن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ويبدو أن هيوم ترك هذه المسألة ، لأنه وضع الهندسة فى كتابه «بحث فى الفهم البشرى» فى نفس مقام الجبر والحساب . ويلاحظ أنه « على الرغم من عدم وجود دائرة ، أو مثلث ، فى الطبيعة على الإطلاق ، فإن الحقائق التى برهن عليها «إقليدس» تحتفظ بيقينها ووضوحها إلى الأبد » (٤١) .

٨ - يقسم هيوم العلاقات الفلسفية إلى علاقات ثابتة وعلاقات متغيرة . العلاقات الثابتة لا يمكن أن تتغير دون أن يكون هناك تغير فى الموضوعات المتصلة بها أو فى أفكارها .

وعلى العكس ، إذا بقيت الموضوعات ثابتة دون أن تتغير ، فإن العلاقات بينها تبقى ثابتة دون أن تتغير . والعلاقات الرياضية هى من هذا النوع . فإذا كانت لدينا أفكار معينة أو رموز لها معنى ، فإن العلاقات بينما تكون ثابتة . ولكى نجعل قضية حسابية أو جبرية غير صادقة ، يتحتم علينا أن نغير معانى الرموز ؛ وإذا لم نفعل ذلك ، فإن القضايا تكون صادقة بالضرورة ؛ أعنى أن العلاقات بين الأفكار تكون ثابتة . ومع ذلك ، يمكن أن تتغير العلاقات الثابتة دون أى تغيير فى الموضوعات التى تتصل بها ، أو فى الأفكار التى تتضمنها بالضرورة . فعلاقة المسافة المكانية بين جسمين يمكن أن تتنوع ، على الرغم من أن الأجسام وأفكارنا عنها تظل هى نفسها .

وينجم عن ذلك أننا لا نستطيع أن نصل إلى معرفة يقينية عن علاقات متغيرة عن طريق الاستدلال الخالص ؛ أعنى ببساطة عن طريق تحليل الأفكار وبرهان قبلى ؛ لأننا نعرفها عن طريق التجربة والملاحظة أو بالأحرى نعتمد على التجربة والملاحظة ، حتى فى تلك الحالات التى تتضمن الاستدلال . إننا نهتم هنا بأمر الواقع ، ولا نهتم بعلاقات مثالية خالصة . ولا نستطيع ، كما رأينا ، أن نبلغ نفس درجة اليقين عن أمور الواقع التى نبلغها عن علاقات الأفكار . إننا لا نستطيع أن ننكر قضية تقرر علاقة عن أفكار ، بالمعنى الموجود عند هيوم للفظ ، دون تناقض . فإذا كان لدينا - مثلاً - معنى الرمزين ٢ ، ٤ ، فإننا لا نستطيع أن ننكر أن $2 + 2 = 4$ دون الوقوع فى تناقض ؛ لأنه لا يمكن تصور العكس . غير أن نقيض كل أمر من أمور الواقع لا يزال ممكنًا ، لأنه لا يمكن أن يتضمن على الإطلاق تناقضًا ... فالقول بأن الشمس لن تشرق غدًا

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

(خاصة بأمور الواقع) تجاوز انطباعات حواسنا لا يمكن أن تقوم إلا على إرتباط العلة والمعلول^(٤٤) . ويمكننا أن نجاوز برهان ذاكرتنا وحواسنا عن طريق هذه العلاقة وحدها^(٤٥) . وبمعنى آخر ، كل استدلال فى أمور الواقع ، من حيث إنه يقابل علاقات الأفكار ، هو استدلال على ، أو أننا نقول : إذا شئنا إن نضع المسألة بصورة أكثر عينية ، أن لدينا برهاناً فى الرياضيات ، ويكون لدينا استدلال على فى العلوم التجريبية ، ولذلك إذا وضعنا فى الإعتبار النور الهام الذى يلعبه الاستدلال العلى ، فإنه يجب علينا أن نبحث فى طبيعة العلاقة العلية والأسس التى تكون لدينا للانتقال وراء شهادة الحواس المباشرة عن طريق الاستدلال العلى .

٩ - يتناول هيوم فحصه للعلاقة العلية بالسؤال ما هو الانطباع أو الانطباعات التى تستمد منها فكرة العلية ؟ لا يمكن أن يكون أصل فكرة العلية هو خاصية من خواص تلك الأشياء التى نطلق عليها اسم « العلل » . لأنها لا نستطيع أن نكتشف أى خاصية مشتركة بينها جميعاً . « من ثم لابد أن تصدر فكرة العلية من علاقة ما توجد بين الموضوعات ؛ ولابد أن نحاول الآن البحث عن هذه العلاقة ^(٤٦) .

العلاقة الأولى التى يذكرها هيوم هى التجاور « إننى أجد فى المقام الأول أنه أياً كانت الموضوعات التى ننظر إليها على أنها علل أو معلومات فإنها تكون متجاورة »^(٤٧) . ولا يقصد هيوم ، بالطبع ، أن الأشياء التى ننظر إليها على أنها علل ومعلومات تكون متجاورة باستمرار ؛ لأنه قد تكون هناك سلسلة أو حلقة من العلل بين الشيء (أ) ، الذى نسميه بالعلة ، والشيء (ص) الذى نسميه بالمعلول . لكننا نجد أن (أ) و(ب) متجاوران ، نجد أن (ب) و(س) متجاوران ، وهكذا ، حتى على الرغم من (أ) و(ص) ليسا متجاورين بصورة مباشرة . إن ما يعلن هيوم بطلانه هو الفعل على بعد بالمعنى الملائم للفظ . ومع ذلك ، لابد من إضافة أنه يتحدث عن الفكرة الشائنة عن العلية . فهو يعتقد أن ثمة اعتقاداً شائعاً وهو أن العلة والمعلول متجاوران باستمرار ، سواء بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة . غير أنه يلزم نفسه بصورة محددة فى الجزء الثالث من كتابه « رسالة ... » بالقول إن علاقة التجاور علاقة أساسية للعلاقة العلية . فهو يقول أننا نستطيع أن نفهم أن المسألة كذلك « حتى يمكننا أن نجد مناسبة أكثر

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ولذلك ليس صحيحاً أن نقول إن هيوم يؤكد بصورة كبيرة التجاور ، والتتابع الزمني بوصفهما العنصرين الجوهريين للعلاقة العلية . إنه يقرر - بالفعل - معالجتها كما لو كانا عنصرين جوهريين ، لكن ثمة عنصراً آخر ذا أهمية أكبر. «هل نقتنع - بالتالى - بهاتين العلاقتين - أعنى التجاور - التتابع - من حيث إنها تقدمان فكرة كاملة عن العلية ؟ كلا . إذ أن موضوعاً ما قد يكون مجاوراً لموضوع آخر وسابقاً عليه دون أن يكون علته إن هناك ارتباطاً ضرورياً لابد أن نضعه فى الاعتبار ، وهذه العلاقة ذات أهمية أكبر من أى من العلاقتين اللتين ذكرناهما سابقاً^(٥٢) . ومن ثم يظهر السؤال من أى انطباع أو انطباعات تستمد فكرة الارتباط الضرورى ؟ غير أن هيوم يجد فى كتابه « رسالة ... » أن عليه أن يتناول هذا السؤال ، بصورة غير مباشرة ، بالبحث - كما يقول - فى جميع المجالات المجاورة أملاً أن يلقى ضوءاً على ضالته . وذلك يعنى أنه وجد أنه من الضرورى مناقشة مسألتين هامتين فى البداية . الأولى : ما هو السبب الذى يجعلنا نقول إن من الضرورى أن يكون لكل شيء موجود وله بداية ، علة أيضاً . والثانية : لماذا نستنتج أن هذه العلة الجزئية لابد أن يكون لها معلومات جزئية بالضرورة ؟ وما هى طبيعة الاستدلال الذى نستدل منه على المعلول من العلة ، وما هى طبيعة الاعتقاد الذى نركن إليه^(٥٣) .

إن المبدأ الذى يقول أن ما يوجد لابد أن تكون له علة لوجوده ، ليس مبدئياً من الناحية الحدسية ، ولا يمكن البرهنة عليه فيما يرى هيوم ، وهو لا يقول كثيراً عن المسألة الأولى ، ويقنع نفسه - تقريباً - بتحدى أى شخص يعتقد أنه من المؤكد من الناحية الحدسية بيان أن كذلك ، وبالنسبة لعدم إمكان البرهنة على القاعدة أو المبدأ ، يثبت هيوم فى البداية أننا نتصور موضوعاً ما أنه غير موجود فى لحظة ما ، وبأنه موجود فى لحظة تالية دون أن تكون لدينا فكرة متميزة عن علة أو مبدأ منتج . وإذا تمكنا من تصور بداية لوجود عن طريق فصل فكرة العلة ، فإن « الفصل الفعلى لهذه الموضوعات سيكون ممكناً للغاية ! لأنه لا يحتوى على تناقض واستحالة عقلية ، ولا يمكن محضه - بالتالى - عن طريق أى استدلال من أفكار محضه ، بدونه يستحيل البرهنة على ضرورة علة ما »^(٥٤) . وينتقل هيوم بعد هذه الحجة التى ترتبط بنظريته عن الأفكار بوصفها نسخاً أو صوراً لانطباعات وترتبط كذلك بنزعتة الاسمية إلى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وجود أحدهما من وجود الآخر ^(٥٧) . وتبين الملاحظة الأخيرة أن هيوم يتصور الفكرة الموجودة لدى الإنسان العادى عن العلية ، ولا يتصور ببساطة الفكرة الموجودة عنها لدى الفيلسوف . فالإنسان العادى يلاحظ « الارتباط المستمر » بين (أ) و(ب) فى أمثلة متكررة ، حيث تكون (أ) مجاورة لـ (ب) ، وتسبقها ، ويسمى (أ) بالعلة ، ويسمى (ب) بالمعلول . « عندما ترتبط أنواع من الأحداث المعينة باستمرار فى الأمثلة ، بعضها ببعض ، فإنه لا يساورنا لك فى انتبؤ بظهور حدث ما بناء على ظهور حدث آخر ، ولا يساورنا الشك فى استخدام ذلك الاستدلال (أى الاستدلال العلى) الذى يمكن أن يكفل لنا وحده أى أمر من أمور الواقع أو الوجود . ونطلق - بالتالى - على الموضوع الأول اسم « العلة » ، ونطلق على الموضوع الثانى اسم « المعلول » ^(٥٨) . وقد نعرف العلة - من ثم - بصورة تتناسب هذه التجربة بأنها موضع يتبعه موضوع آخر ، وحيث تتبع كل الموضوعات التى تشبه الموضوع الأول موضوعات تشبه الموضوع الثانى . أو بمعنى آخر بحيث إذا لم يوجـ د الموضوع الأول ، فإن الموضوع الثانى لا يوجد على الإطلاق ^(٥٩) .

وعندما نقول أننا « نتذكر » حالات ماضية ، فإن هيوم يجاوز بوضوح ما تكفل التجربة العامة ما يقوله . لأننا قد نستدل جيداً على العلة من المعلول ، أو على المعلول من العلة دون أن نستدعى أى حالات ماضية . بيد أن هيوم يصحح هذا الخطأ فى الحال ، عن طريق مبدأ التداعى .

إذا ارتكز إيماننا بارتباطات عليّة معينة منتظمة على تذكر حالات ماضية ذات اقتران مستمر ، فإنه يبدو أننا نفترض المبدأ أو على الأقل نفعل كما لو كنا نفترض المبدأ الذى يقول إن « الحالات التى لا يكون لدينا عنها تجربة لابد أن تستدعى تلك الحالات التى يكون لدينا عنها تجربة ، وإن مجرى الطبيعة يستمر بصورة مطرودة باستمرار هو هو » ^(٦٠) . غير أن هذا المبدأ ليس يقيناً بصورة حدسية ولا يمكن البرهنة عليه . لأن فكرة التغير فى مجرى الطبيعة ليست متناقضة ذاتياً . ولا يمكن البرهنة على المبدأ عن طريق استدلال محتمل ومرجح من التجربة . لأنه يكمن فى أساس استدلالنا المحتمل . فنحن نفترض الاطراد باستمرار ، بصورة ضمنية ،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إن القول بأن فكرة الارتباط الضرورى مستمدة من مصدر ذاتى معناه أنها ، داخل إطار فلسفة هيوم ، مستمدة من بعض انطباعات التفكير . لكن لا ينبج من ذلك أن الفكرة مستمدة من علاقة الإرادة بمعلولاتها ، ثم بعد ذلك تستكمل بالاستقراء . « إن الإدارة هنا ، بما أنه ينظر إليها على أنها سبب أو علة ، ليس لها أى ارتباط أبعد بمعلولاتها يمكن الكشف عنها أكثر مما يكون للشيء المادى بنتيجته المناسبة .. وباختصار ، إن أفعال الذهن – من هذه الزاوية – هى نفسها أفعال المادة . فنحن لا ندرك سوى اقترانها المستمرة ..^(٦٤) . ومن ثم فإن علينا أن نبحث عن حل . افرض أننا نلاحظ حالات متعددة من الاقتتران العلى فإن هذا التكرار ، لا يمكن أن يقدم – بذاته فقط – فكرة الارتباط الضرورى . إن هذه المسألة قد يتم التسليم بها بالفعل . ولكي توجد هذه الفكرة ، « لابد أن سيكشف تكرار الحالات المتشابهة لاقتران مستمر شيئاً جديداً يكون هو مصدر هذه الفكرة أو نتيجة^(٦٥) » . غير أن تكرار لا يجعلنا نكتشف أى شيء جديد فى الموضوعات المقترنة . ولا ينتج أى كيف جديد للموضوعات نفسها . ومع ذلك ، فإن ملاحظة التكرار ينتج انطباعاتاً جديداً فى الذهن . « لأنه بعد أن نلاحظ التشابه فى عدد مناسب من الحالات ، نشعر مباشرة بتهيؤ الذهن لأن ينتقل من موضوع إلى الموضوع الذى يلزمه ... وتكون الضرورة عندئذ نتيجة لهذه الملاحظة ولا تكون شيئاً آخر سوى انطباعات داخلية فى الذهن أو تصميمات يحمل الأفكار من موضوع إلى موضوع آخر . وليس هناك انطباعات داخلية له أى علاقة بالعمل الحالى ، سوى النزوع ، الذى تنتجه العادة ، للانتقال من موضوع إلى ما يلزمه عادة » ، ومن ثم فالنزوع يسببه العادة أو التداعى ، فيجعلنا تنتقل من شيء من الأشياء لاحظنا أنه يقترب باستمرار بشيء آخر وذلك هو الانطباعات الذى تستمد منه فكرة الارتباط الضرورى . أعنى أن الميل ، الذى تنتجه العادة ، هو شيء معطى أى انطباعات وأن فكرة الارتباط الضرورى هى انعكاس أو صورة فى الوعى . ويمكن تطبيق هذا التفسير لفكرة الارتباط الضرورى على علاقات علية خارجية وعلى علاقات علية داخلية ، مثل العلاقة بين الإرادة ومعلوماتها .

فى استطاعتنا الآن أن نعرف فكرة العلية بدقة أكثر . فالعلية – كما رأينا من قبل – يمكن النظر إليها على أنها علاقة فلسفية أو علاقة طبيعية . فإذا نظرنا إليها

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لا وجود لضرورة مطلقة ولا لضرورة ميتافيزيقية للقول بأن كل بداية للوجود تلازم موضوعاً كهذا^(٧٠) . إننا لا نستطيع أن نبرهن على صدق المبدأ موضع اهتمامنا ، ومع ذلك يقول فى كتابه « بحث فى الفهم البشرى » أنه « تم الإقرار بصورة كلية بأنه لا يوجد شيء دون أن تكون هناك علة لوجوده »^(٧١) . وبالتالي لابد أن يرجع إيماننا بهذا المبدأ إلى العادة . ومع ذلك ، تجدر الملاحظة إلى أن العبارة التى اقتبسناها توا من كتاب هيوم « بحث .. » تستمر بهذه الطريقة : « وأن الصدفة ، عندما تفحص بدقة لا تكون سوى كلمة سالية ، ولا تعنى أى قوة حقيقية يكون لها وجود فى أى مكان فى الطبيعة^(٧٢) » . ولذلك فإن « الصدفة » تعنى عند هيوم حدثاً عرضياً أو ليس له علة وعدم الإيمان بالصدفة هو الاعتقاد بأن لكل حدث سبباً . والاعتقاد بأن لكل حدث سبباً يعنى - عند هيوم - الاعتقاد بأن كل علة هى علة ضرورية . صحيح ، ربما تقع أحداث تخالف التوقع ، وقد يؤدي ذلك بالعوام إلى الإيمان بالصدفة . لكن « الفلاسفة » (بما فى ذلك العلماء بالتاكيد) يجنون بناء على فحص دقيق لحالات عديدة أن الحدث غير المتوقع يرجع إلى المعلول الذى يبطل مفعوله علة غير معروفة السبب ، « تكون قاعدة تقول إن الارتباط بين العلل والمعلولات ضرورى بصورة متساوية »^(٧٣) . وهنا يوصف المبدأ الذى يقول إن كل حدث له علة بأنه مبدأ يكون « الفلاسفة » . بيد أن إيماننا بالمبدأ يبدو أنه نتيجة العادة .

يلاحظ هيوم أنه لا يمكن أن يكون هناك سوى نوع واحد من العلة « لأنه لما كانت كرتنا عن الفاعلية مستمدة من الاقتران المستمر بين موضوعين ، فى أى مكان نلاحظ ذلك ، فإن العلة تكون فعالة ، وحيثما لا تكون كذلك ، فإنه لا يمكن أن توجد علة ما من أى نوع على الإطلاق »^(٧٤) . والتمييز الأسكولائى بين علة صورية ، ومادية ، وفاعلة ، وغائية ، وهو تمييز مرفوض . وكذلك التمييز بين العلة والمناسبة ، من حيث إن هذين اللفظين يستخدمان بمعان مختلفة . وعلاوة على ذلك ، فكما أن هناك نوعاً واحداً فقط من العلة ، فكذلك هناك نوع واحد فقط من الضرورة . وينقص التمييز بين الضرورة الفيزيائية والضرورة الأخلاقية أى أساس واقعى . « إن الاقتران المستمر بين الموضوعات ، مع تهيقّ الذهن ، وهو الذى يكون ضرورة فيزيائية : وإبعاد الاقتران المستمر وتهيقّ الذهن هو نفس الشيء بالنسبة للصدفة »^(٧٥) .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إن التشديد على أهمية هيوم التاريخية لا يعنى بالضرورة قبول تحليله للعلية . فإذا أخذنا مثلاً واحداً من خط ممكن للنقد ، فإنه يبدو لى أنه على الرغم مما يقوله هيوم فى المسألة ، فإننا نعى إنتاجاً علياً جوائياً من نوع لا يمكن تفسيره ببساطة عن طريق تحليله . إنه يبدو أنه يفترض أن الصعوبة المشهورة فى تفسير كيف تؤثر إرادتنا على حركاتنا الجسمية ، أو حتى كيف نقوم بعمليات داخلية معينة كما نشاء ، تبين أنه حتى العلية هنا ، أى من الجانب الذاتى هى ببساطة اقتران مستمر ، أو تبين على الأقل أننا لا ندرك سوى اقتران مستمر ، بيد أن هذه الطريقة من البرهان تبدو أنها تفترض صحة الموقف الذى اثبتته أنصار مذهب المناسبة وهو أنه لا وجود لفاعلية عليّة منتجة ، أو قوة ، إذا لم نعرف فحسب أننا نفعل بصورة عليّة ، ولكن نعرف أيضاً كيف نفعل ذلك ، وصحة هذا الزعم أمر معروض للمناقشة . كما أنه من المهم أيضاً أن نميز بين السؤال عما إذا كان العالم يستطيع أن يوافق على فكرة العلية الموجودة عند هيوم ، والسؤال عما إذا كانت هذه الفكرة تمثل تحليلاً كافياً من وجهة النظر الفلسفية . إن عالم الطبيعة لا يهتم - مثلاً - بمشكلة الوضع المنطقي والأنطولوجي للمبدأ الذى يقول إن كل شيء يخرج إلى حيز الوجود ، يخرج عن طريق فاعلية علة خارجية . إذ ليس من الضروري بالنسبة له أن يهتم بمشكلة كهذه . بيد أن الفيلسوف يسأل هذا السؤال . ومعالجة هيوم له معرضة للنقد . فحتى إذا استطاع المرء ، مثلاً ، أن يتخيل فى البداية فراغاً ، من حيث إنه كذلك ثم يتخيل بعد ذلك أن (س) موجودة ، فإنه لا يترتب على ذلك مطلقاً وبصورة ضرورية أن (س) يمكن أن توجد دون علة خارجية . ولا ينجم من الواقعة التى نقول إنه لا وجود لتناقض لفظى بين القول بأن (س) خرجت إلى حيز الوجود ، والقول بأن (س) ليس لها علة ، نقول لا ينجم عن ذلك بالضرورة أن القولين متطابقان عندما نفحصهما من وجهة نظر « التحليل الميتافيزيقى » . إن لدينا - من ناحية أخرى - قضايا « صورية » وتحليلية ولدينا ، من ناحية أخرى فروض تجريبية : وليس هناك مكان للقضايا القبلية التركيبية فى تخطيطه . وتلك هى بحق المشكلة ، هل هناك قضايا يقينية مع إنها تخبر عن الواقع أم لا . ولكن مناقشة هذه المسألة بصورة كافية تعنى مناقشة طبيعية الميتافيزيقا ووضعها . فحالما نسلم بمقدمات هيوم وتصور « للذهن » لابد أن ينتج شيء ما يشبه تحليله للعلية . إننا لا نقبل مقدماته ، ثم نضيف نظرية ميتافيزيقية عن العلية .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إننا لا نستطيع أن نفسر - كما يرى هيوم - الاعتقاد فى قضية عن طريق عمليات الأفكار التى تقوم بالربط . فإذا أخبرنى شخص ما - وهذا مثال من أمثلة هيوم - بأن « يوليوس قيصر » مات فى فراشه ، فإننى أفهم قوله ، وأربط نفس الأفكار كما فعل هو ، ولكنى لا أقر بصحة القضية . إنه يجب علينا أن نبحث فى كل مكان عن الاختلاف بين الاعتقاد وعدم التصديق . فالاعتقاد ، فى رأى هيوم ، « لا يفعل شيئاً سوى أنه ينوع الطريقة التى نتصور بها أى موضوع ، إنه لا يستطيع سوى أن يضفى على أفكارنا قوة إضافية وحيوية . ولذلك ، قد يعرف الظن أو الاعتقاد بصورة أكثر دقة بأنه فكرة حية تربط أو تقترب بانطباع حاضراً^(٧٨) . فعندما نستدل - مثلاً - على وجود شيء من شيء آخر (عندما نعتقد أن شيئاً يوجد نتيجة الاستدلال) ، فإننا تنتقل من انطباع موضوع إلى الفكرة « الحية » عن موضوع آخر ، وحيوية الفكرة هذه هى التى تميز الاعتقاد . وعندما تنتقل من الانطباع إلى الفكرة « فإن الذهن ليس هو الذى يجبرنا على ذلك ، ولكنها العادة ، أو مبدأ التداعى . لكن الاعتقاد شيء أكثر من فكرة بسيطة . فهو طريقة معينة لتكوين فكرة ؛ ولأن نفس الفكرة لا يمكن إلا أن تتنوع عن طريق تنوع درجاتها الخاصة بالقوة والحيوية ، فإنه يترتب على ذلك بوجه عام أن الاعتقاد هو فكرة حيوية أنتجتها علاقة بانطباع حاضراً ، بناء على التعرف السابق^(٧٩) .

ويمكننا - بالتالى - أن نميز بين الاعتقاد والأوهام بالرجوع إلى الطريقة التى نتصور بها الأفكار التى لها صلة بموضوعنا . « إن فكرة مقبولة نشعر بأنها تختلف عن فكرة وهمية يقدمها لنا الوهم وحده : وسأحاول أن أفسر هذا الشعور المختلف بأن اسميه قوة أسمى ، أو حيوية أو صلابة أو رسوخاً أو ثباتاً^(٨٠) . إن الاعتقاد لفظ يفهمه كل شخص بصورة كافية فى الحياة العامة^(٨١) ، لكننا لا نستطيع أن نصفه فى الفلسفة إلا عن طريق الشعور .

ومع ذلك ، حتى إذا كانت كلمات مثل « نشاط » و« حيوية » تكفى لتمييز قضايا نؤمن بها عن الأوهام التى تعرف بأنها أوهام ، فهل يكون صحيحاً أن لدينا اعتقادات كثيرة عما لا يكون لدينا عنه مشاعر قوية على الإطلاق ؟ إننا نعتقد أن الأرض ليست مستوية وأن القمر كوكب تابع للأرض ، لكن ليس لدى معظمنا مشاعر قوية فى هذه المسائل . يبدو أنه يجب على هيوم أن يرجع فى الرد على ذلك إلى صفة الثبات

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

والاعتقاد هو بصورة أكثر ملاءمة فعل للجزء الحساس من طبائعنا وليس فعلاً للجزء المعرفي » (٨٤) .

وبالتالي : كيف يمكن أن نفصل بين اعتقادات عقلية واعتقادات غير عقلية ؟ لا يبدو أن هيوم يقدم أى إجابة واضحة جداً على هذا السؤال ؛ وعندما يعالج الاعتقادات غير العاقلة ، فإنه يميل إلى بيان كيف يعمل الذهن ، في رأيه ، بدلاً من أن يوضح كيف يتحتم علينا أن نميز بين اعتقادات عقلية واعتقادات ليست كذلك . بيد أن إجابته العامة على المشكلة تبدو أنها أكثر أو أقل من ذلك . إن اعتقادات كثيرة تكون نتيجة " التعليم " ، وبعضها ليست عقلية . والوسيلة التي نحافظ على أنفسنا منها هي أنه يجب علينا أن تلجأ إلى التجربة ، أو بالأحرى أن نخبر تلك الاعتقادات عن طريق التجربة . هل الاعتقاد الذي يكون نتيجة معرفتنا باستمرار أنه صادق يتلام مع الاعتقادات التي تقوم على تجربة الاعتقادات العلية ؟ إذا كان الاعتقاد الذي يكون نتيجة معرفتنا باستمرار أنه صادق لا يتفق أو لا يتسق مع الاعتقادات التي تقوم على تجربة العلاقات العلية ، فإنه يجب علينا أن نستبعده . إن التعليم علة « اصطناعية » ، ولا بد أن نفصل العلة « الطبيعية » للاعتقادات ، أعني العلاقات العلية بالمعنى الفلسفي ، أى صنوف الاقتران المستمرة والثابتة ، إننا نستطيع بالطبع ، أن نكون اعتقادات غير عقلية ، ترتكز على التجربة . ويقدم هيوم نموذج التعميمات عن أعضاء أمة أجنبية تكون نتيجة مقابلة أو مقابلتين مع الأجانب . بيد أن طريقة تصحيح أحكام تعسفية من هذا النوع واضحة : إنها الطريقة التي تصحح بها هذه الأحكام في الواقع ، إذا كانت تصحح . وفضلاً عن ذلك ، يمكن أن تنتج اعتقادات غير عقلية عن طريق تجربة صنوف من الاطراد أو الاقتران المستمر . غير أنه يمكن تصحيح هذه الاعتقادات عن طريق تفكير على ضوء تجربة أوسع تكشف عن حالات مناقضة ، أو بيان عوامل أخرى . يتحدث " تولستوى " في مكان ما عن اعتقاد بعض الفلاحين أن خروج براعم أشجار البلوط في الربيع يرجع إلى رياح معينة . وإذا كانت الرياح ملاصقة للأشجار وقبل خروج براعمها ، فإنه يمكن تفسير الاعتقاد . لكن إذا كشف الاعتقاد عن حالات تخرج فيها أشجار البلوط البراعم حتى عندما لا تهب هذه الرياح المعينة ، فإننا ننظر في اعتقاد الفلاحين . كما أنه حتى إذا خرجت براعم أشجار البلوط في كل الحالات عندما تهب الرياح المعينة فقط ، فإن الاعتقاد القائل بأن إنتاج البراعم تسببه الرياح

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الهوامش

(١) ترجمة الدكتور محمد فتحى الشنيطى ، ونشرته مكتبة القاهرة الحديثة بالقاهرة فى مايو عام ١٩٥٦ .
(المراجع)

(٢) ستكون الإشارة إلى صفحات كتاب هيوم " رسالة فى الطبيعة البشرية " وكتابه " أبحاث .. على طبعات
L.A. Selby - Bigge Oxford, 1951 reprint of 188 edition of the Treatise and 1951 im-
pression of 1902 edition the Enquiris)

وسنشير إلى : رسالة ... " بالحرف : T ، وسنشير إلى " بحث عن الفهم البشرى " بالحرف E ، وسنشير إلى
" بحث عن مبادئ الأخلاق : بالحرفين E.M وستكون الإشارة إلى صفحات كتاب " محاورات فى الدين
الطبيعى " بناء على طبعة (Norman Kemp Smith (Edinburgh, Second edition, 1947)
وستكون الإشارة إلى هذا العمل بالحرف : D .

T., Introduction, P.xx (٣)

Ibid . (٤)

T., Introduction, P.xx (٥)

E., 1,2,P.6 . (٦)

E., 1,7,P.12 . (٧)

E., 1,9,P.14 . (٨)

T., 1,1,P.3 . (٩)

T., 1,1,1,P.1 . (١٠)

Ibid, P.2 . (١١)

T., 2,11,P.17 . (١٢)

T., 1,1,1,P.3 . (١٣)

T., 1,1,1,1,P (١٤)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرلر. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

Ibid . (٤٠)
 E., 4,1,20,P.25 . (٤١)
 E., 4,1,20,PP.25-6 . (٤٢)
 T., 1,3,2,P.73 . (٤٣)
 Ibid,P.74 . (٤٤)
 E., 4,1,22,P. 26 . (٤٥)
 T., 1,3,1,P.75 . (٤٦)
 Ibid . (٤٧)
 Ibid . (٤٨)
 T., 1,4,5,p236 . (٤٩)
 T., 1,3,2,p.76 . (٥٠)
 Ibid. (٥١)
 Ibid, p.77 . (٥٢)
 Ibid, p.77 . (٥٣)
 T., 1,3,3,p.80 . (٥٤)
 T., 1,1,3,6,p.87-7 . (٥٥)
 Ibid, p. 87 . (٥٦)
 Ibid, p. 87 . (٥٧)
 E., 7,2,59,pp.74-5 . (٥٨)
 E., 7,2,60, p. 76 . (٥٩)
 T., 1,3,6,p.89 . (٦٠)
 T., 1,3,12,p.134 . (٦١)
 Abstract 16 . (٦٢)
 T., 1,3,6, p.88 . (٦٣)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الفصل الخامس عشر

هيوم (٢)

اعتقادنا في وجود الأجسام - الأذهان ومشكلة الهوية الشخصية -
وجود الله وطبيعته - النزعة الشكية

١ - رأينا في نهاية الفصل السابق أن الاعتقاد في وجود متواصل للأجسام بصورة مستقلة عن الذهن أو الإدراك هو اعتقاد طبيعي وأساسى بالنسبة لهيوم. بيد أنه يجب علينا أن نفحص بصورة أكثر دقة ما يقوله في هذه المسألة .

يقول هيوم إن الصعوبة الأساسية ، التى تنشأ من وجهة فكرتنا عن عالم الموضوعات الموجودة باستمرار والمستقلة عن إدراكنا ، هى أننا محصورون فى عالم الإدراكات ومقينون به ، ولا نتمتع باقتراب من عالم لموضوعات توجد بصورة مستقلة عن هذه الإدراكات . « ولما كان لا يوجد شئ للذهن سوى الإدراكات ، ولما كانت كل الأفكار مستمدة من شئ ماثل للذهن بصورة سابقة ، فإنه يترتب على ذلك أنه من المستحيل بالنسبة لنا أن نتصور أو نكوّن فكرة عن أى شئ يختلف بصفة خاصة عن الأفكار والانطباعات . دعنا نركز انتباهنا بعيداً عن أنفسنا بقدر المستطاع ؛ دعنا نطلق خيالنا إلى السماوات ، أو إلى الحدود البعيدة للكون ، فإننا لا نتقدم ، فى حقيقة الأمر خطوة واحدة على الإطلاق نواتنا ولا نستطيع أن نتصور أى نوع من الوجود ، سوى تلك الإدراكات التى تظهر فى هذا المحيط الضيق . وذلك هو كون الخيال ، ولا تكون لدينا فكرة سوى ما يُنتج هناك ^(١) ، ويمكن رد الأفكار فى النهاية إلى انطباعات ، والانطباعات ذاتية ، أى أنها تُنسب إلى ذات مُدرِكة . ولا نستطيع - بالتالى أن نتصور ماذا ستكون الموضوعات . أو ما هى ، بمعزل عن إدراكاتنا .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

نفسها ليست هي التى تؤدى بنا إلى أن نقوم بهذه التمييزات ، لأنه بقدر ما تهتم الحواس ، فإن كل هذه الانطباعات تكون على قدم المساواة .

وثانياً : ليس الذهن الذى يحدثنا على أن نعتقد فى وجود الأجسام المتصل والمتميز:» فمهما تكن الحجج المقنعة التى قد يتوهم الفلاسفة أنها تستطيع أن تبرهن على الإعتقاد فى موضوعات مستقلة عن الذهن ، فإنه جلى أن هذه الحجج لا يعرفها سوى قلة قليلة ؛ ولا تحت الأطفال ، والفلاحين ، والقطاع الأعظم من البشر على أن ينسبوا موضوعات إلى بعض الانطباعات ، وينكروا أن ينسبوها إلى البعض الآخر»^(٤) ولا نستطيع أن نبرر اعتقادنا تبريراً عقلياً ، حالما يكون لدينا . «إن الفلسفة تخبرنا بأن كل شئ يبدو للذهن لا يكون سوى إدراك ، ويتوقف على الذهن ويعتمد عليه »^(٥) . ولا نستطيع أن نستدل على وجود الموضوعات من الإدراكات ، إن هذا الإستدلال سيكون استدلالاً عالياً ، ولكى يكون صحيحاً ، يجب علينا أن نتمكن من ملاحظة اقتران تلك الموضوعات المستمر بتلك الإدراكات . ولا يمكننا أن نفعل ذلك . لأننا لا نستطيع أن نجاوز سلسلة إدراكاتنا لكى نقارنها بأى شئ بعيد عنها .

إن اعتقادنا فى وجود الأجسام المتصل والمستقل ، وعادة افتراض أن النظائر الموضوعية والمستقلة للانطباعات موجودة يجب ألا يرجع - بالتالى - إلى الحواس ولا إلى الذهن ولا إلى الفهم ، ولكن إلى الخيال . ومن ثم يثار السؤال : ما هى صفات الانطباعات المعينة التى تؤثر على الخيال وتؤدى إلى اقتناعنا بوجود الأجسام المتصل والمتميز ؟ من العبث أن نرجع هذا الاعتقاد أو الاقتناع إلى قوة أسمى أو قوة انطباعات معينة من حيث إننا نقارنها بانطباعات أخرى . لأنه جلى أن أغلبية الناس يفترضون أن حرارة النار ، التى توضع على مسافة مناسبة ، تكون فى النار ذاتها ، بينما لا يفترضون أن الألم الشديد الذى يسببه قرب النار لا يكون فى أى مكان آخر إلا فى انطباعات الذات المدركة ، ويجب علينا - بالتالى - أن نبحث فى مكان آخر عن الخصائص المحددة لانطباعات معينة ، تؤثر على الخيال .

يذكر هيوم خاصيتين محددين هما : الثبات ، والتوافق « فتلك الجبال ، والبيوت ، والأشجار ، التى تقع الآن أمام نظرى ، تبدو لى باستمرار بنفس النظام ، وعندما

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

مثلاً تحرك سفينة عن طريق المجاديف ، فى مجراه دون أى دافع جديد «^(٨) . عندما يلاحظ الذهن اطراداً أو توافقاً بين انطباعات ، فإنه يميل إلى أن يجعل هذا الاطراد كاملاً بقدر المستطاع . ويكفى افتراض وجود الأجسام المتصل لهذا الغرض، ويقدم لنا فكرة عن اطراد وتوافق أعظم من الاطراد والتوافق اللذين تقدمهما الحواس . بيد أنه على الرغم من أن التوافق قد يسبب افتراض وجود الأجسام المتصل ، فإننا بحاجة إلى فكرة الثبات لكى تفسر افتراضنا لوجودها المتميز : أعنى إعتمادها على إدراكاتنا . وعندما نعتاد على إيجاد أن إدراك الشمس يتكرر باستمرار بنفس الصورة الذى يتكرر فى ظهوره الأول - مثلاً - فإننا نميل إلى أن ننظر إلى هذه الإدراكات المختلفة والمنقطعة على أنها هى نفسها . ولكى نتخلص من هذا التناقض فإننا نتنكر لهذا الانقطاع ونمحوه «بافتراض أن هذه الأدراكات المنقطعة ترتبط عن طريق وجود حقيقى ، لا نحسه »^(٩) .

حقاً، إن هذه الملاحظات ليست واضحة ، ويحاول هيوم جاهداً أن يجعل موقفه أكثر دقة ووضوحاً ، ومن أجل ذلك ، يميز بين موقف السذج وبين ما يطلق عليه اسم «المذهب الفلسفى» . فالسذج «هم ذلك القطاع غير الفلسفى وغير المفكر من البشر، أعنى كلاً منا فى هذا الوقت أو ذاك »^(١٠) . ويقول هيوم إن هؤلاء الناس يفترضون أن إدراكاتهم هى الموضوعات الوحيدة . «إن الصورة الخالصة الماثلة للحواس هى الجسم الحقيقى بالنسبة لنا ، ونحن ننسب إلى هذه الصور المنقطعة هوية كاملة»^(١١) . وبمعنى آخر ، لا يعرف السذج شيئاً عن الجوهر المادى الموجود عند لوك ؛ إذ أن الموضوعات المادية عندهم هى ببساطة ما يدركونه . وهذا القول يعنى هيوم أن الموضوعات والإدراكات هى نفس الشيء بالنسبة للسذج . وإذا افترضنا ذلك مسبقاً ، فإن ثمة صعوبة تواجهنا بالتالى . فمن جهة أن المرور الهادئ للخيال جنباً إلى جنب مع أفكار الإدراكات المتشابهة يجعلنا ننسب إليها هوية كاملة «^(١٢) ومن جهة أخرى تؤدى بنا طريقة تكرارها المنقطعة ، أو كما يقول هيوم ظهورها ، إلى اعتبارها كيانات متميزة . غير أن هذا التناقض يسبب قلقاً ، ولا بد أن نمحوه بالتالى ولأننا لا نستطيع أن نضحى بالليل الذى ينتجه انتقال الخيال الهادئ ، فإننا نضحى بالبدأ الثانى ، صحيح أن صنوف الانقطاع فى ظهور الإدراكات المتشابهة يكون طويلاً ومستمرًا حتى إننا لا نستطيع أن نتغاضى عنها؛ لكن «لا يستلزم ظهور منقطع للحواس انقطاعاً فى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

هذه اللحظة، فإنه سيقتنع بعد ساعة بأن هناك عالماً خارجياً وعالماً داخلياً»^(١٥). إن النزعة الشكية هي وحدها الممكنة في هذه المسألة في المسار الفعلي للتفكير الفلسفي، وهي نظرية فقط حتى في هذا المسار. ولا بد أن نلاحظ أن هيوم لم يوص بالنظرية القائلة بأن صفات معينة (ما يسمى بالصفات الثانوية) تكون ذاتية، في حين أن صفات أخرى (أي الصفات الأولية) تكون موضوعية. فقد أثبت على العكس، أنه «إذا لم تكن الألوان، والأصوات، والطعوم، والروائح سوى إدراكات، فلا شيء يمكن أن نتصور أنه له وجوداً واقعياً، ومستقلاً، ومستمرّاً؛ ولا حتى الحركة، والإمتداد، والصلابة، التي تكون الصفات الأولية التي أصر عليها أساساً»^(١٦). حقاً إنه يسلم بأنه «عندما نستدل على معلول من علّة، فإننا لا نستنتج أن اللون، والصوت، والطعم، والرائحة، لها وجود متصل ومستقل»^(١٧). لكن «عندما نستبعد هذه الصفات المحسوسة، فإنه لا يبقى شيء في الكون يكون له هذا الوجود»^(١٨) ولقد قبل هيوم، بالتأكيد، الخطوط الأساسية لنقد باركلي للوك، غير أنه لم يتابعه إلى ما هو أبعد، لأنه على الرغم من أن باركلي كان يهدف إلى إحضار الشكاك، والملاحدة والماديين أيضاً، فإن حجه أبت - كما يرى هيوم - إلى نزعة شكية من حيث إنها لا تؤدي إلى إجابة ولا إلى اقتناع، وتأثيرها الوحيد هو أنها تحدث دهشة وحيرة وخلفاً أو ارتباكاً مؤقتاً، وذلك نتيجة للنزعة الشكية»^(١٩). ويمكن أن يكون الرد هو أن موقف هيوم شكى أكثر من موقف باركلي، لأنه أكد عن وعى تناقضاً أساسياً لا ينحل بين نتائج الاستدلال الفلسفي واعتقادنا الطبيعي. ومما هو عرضة للجدل أيضاً أن يميل إلى إساعة تقديم باركلي إلى حد أنه يصوره على أنه يريد أن يصحح آراء «السذج». لكن، على الرغم من أن كل ذلك قد يكون صحيحاً للغاية، فلا بد أن نتذكر أن هيوم ينحاز أساساً إلى السذج، ففكرته هي أن لدينا ميلاً حتمياً لا يمكن الاستغناء عنه للاعتقاد في وجود الأجسام المتصل والمستقل، وينتج هذا الميل الاعتقاد، ويؤثر هذا الاعتقاد في السذج والفلاسفة أيضاً. إن كل المحاولات لتقديم تبرير عقلي لهذا الاعتقاد محكوم عليها بالفشل. فربما يكون هناك شيء غير إدراكاتنا، لكننا لا نستطيع أن نبرهن على أن الأمر هكذا، فلا أحد يعيش، أو يمكن أن يعيش، حياته وفقاً لمبادئ شكية. إن الاعتقاد الطبيعي يهيمن لا محالة، وبحق.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

٢ - مشكلة الأذهان ليست معقدة وصعبة عند هيوم مثل مشكلة الأجسام . «إن العالم العقلي - على الرغم من أنه يتورط في أصناف من الغموض - ليس محيراً ومربكاً بتناقضات مثل التناقضات التي اكتشفناها في العالم الطبيعي . فما نعرفه عنه ، يتفق مع نفسه ، وما لا نعرفه ، ولا أن نقنع بتركه »^(٢٠) . وفضلاً عن ذلك ، فقد أدى التفكير بهيوم ، كما سنرى ، إلى نتيجة أقل تفاؤلاً ، إلا أن ذلك هو ما يقوله في البداية.

إذا تعرضنا في البداية لموضوع لا مادية النفس، فإن هيوم يفترض أن السؤال عما إذا كانت الإدراكات تلازم جوهرًا ماديًا أو جوهرًا لا ماديًا هو سؤال لا معنى له ، أي أننا لا نستطيع أن نعطيه معنى واضحاً، ولا نستطيع - بالتالي - أن نجيب عنه فمن الناحية الأولى : هل لدينا أي فكرة عن الجوهر ؟ إذا كانت الإجابة بنعم ، فما هو الإنطباع الذي ينتج هذه الفكرة ؟ قد يقال إن لدينا فكرة عن الجوهر ، لأننا نستطيع أن نعرفه بأنه « شئ قد يوجد بذاته » . بيد أن هذا التعريف سيلائم كل شئ يمكن تصوره . لأن ما يمكن تصوره بوضوح ويتميز يمكن أن يوجد بذاته ، بقدر ما يكون الأمكان موضع اهتمامنا ، ولذلك فإن التعريف لا يخدمنا في تمييز الجوهر عن العرض ، أو تمييز النفس عن الإدراكات . ومن ناحية ثانية ، ماذا نعني «بالملازمة» . الملازمة شئ يفترض أنه مطلوب لتدعيم وجود إدراكاتنا ، ولا شئ يبدو أنه مطلوب لتدعيم وجود إدراك ما . وذلك ليست لدينا فكرة عن الملازمة^(٢١) . إن الإدراكات لا يمكن أن تلازم جسماً ؛ لأنها لكي تلازم جسماً ، لابد أن تكون حالة في موضع ، غير أنه محال أن نتحدث عن عاطفة - مثلاً - على أنها حالة في موضع معين في علاقتها بالفكر الأخلاقي، بمعنى أنها فوقه أو تحته على يمينه أو على يساره ، ومع ذلك ، لا ينتج أن الإدراكات يمكن أن تلازم جوهرًا لا ماديًا . « إن هذه المنضدة ، التي تبدو لي الآن ، لا تكون سوى إدراك كل صفاتها هي صفات إدراك ما ، ومن ثم ، فإن الإمتداد هو الصفة الأكثر وضوحاً من كل صفاتها . إن الإدراك يتكون من أجزاء »^(٢٢) ، لكن ماذا نعني بالقول أن إدراكًا ممتدًا يلازم جوهرًا لا ماديًا؟ لا يمكن تفسير العلاقة المفترضة. وإذا قيل إن الإدراكات لابد أن تلازم شيئاً ، فإن ذلك هو احتجاج بالحجة التي هي موضع خلاف ، حقا ، أن موضوعاً يمكن أن يوجد ، ومع ذلك هو لا يوجد في مكان.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

للقد شأنها شأن نظرية إسبينوزا . والنتيجة التي ينتهي إليها هي أن «السؤال عن جوهر النفس غير معقول على الإطلاق ، وكل إدراكاتنا ليست قابلة لاتحاد مكاني سواء مع ما هو ممتد أو ما هو غير ممتد؛ إذ أن بعضها من نوع ما ، وبعضها من نوع آخر ^(٢٤) . ولذلك من الأفضل استبعاد المشكلة الخاصة بجوهر النفس ، لأننا لا نعرف عنها شيئاً .

بيد أنه إذا لم يكن هناك جوهر سواء ممتد أو غير ممتد ، يمكن أن نسميه بالنفس، فماذا نقول عن الهوية الشخصية ؟ كان هيوم مجبراً - بوضوح - على أن ينكر أن لدينا أى فرة عن الذات من حيث إنها تميز عن إدراكاتنا . ويخبرنا بأن بعض الفلاسفة تخيلوا أننا نعى الذات باستمرار بوصفها شيئاً يظل فى حالة دائمة من الهوية الذاتية غير أنه لو كانت لدينا فكرة واضحة ومعقولة عن الذات ، فلا بد أن تُستمد من انطباع ما . لكن «الذات أو الشخص ليس أى انطباع، ولكنها ذلك الذى نفترض ان انطباعاتنا وأفكارنا المتعددة تشير إليه . فلو أى انطباع أحدث فكرة الذات ، فلا بد أن يستمر هذا الانطباع هو نفسه بصورة ثابتة ، خلال المجرى الكلى لحياتنا؛ لأنه يُفترض أن الذات توجد على هذا النحو ، غير أنه لا وجود لانطباع دائم وثابت ومن ثم لا وجود لهذه الفكرة » ^(٢٥) . إننا نستطيع أن نميز كل إدراكاتنا ، ولا نستطيع أن نكتشف ذاتاً بمعزل عنها ، أو بمعزل عن التأكيد عليها . «لأن دورى ، عندما أغوص غوصاً عميقاً داخل ما أسميه بذاتى ، أن أعثر دائماً على هذا الإدراك أو ذاك كالحرارة أو البرودة ، والضوء أو الظل ، والحب أو الكراهية ، والألم أو اللذة ، وليس بمقدورى أن ألقى ذاتى فى أية لحظة من اللحظات دون إدراك ، وليس بمقدورى أن ألاحظ أى شئ سوى الإدراك.. وإذا اعتقد أى شخص أن لديه فكرة مختلفة عن ذاته اعتماداً على التفكير الجاد المنزه ، فلا بد أن أعترف بأننى لا أستطيع أن أجادله بالحجة المنطقية ، وكل ما أعترف به هو أنه ربما يكون على حق كما أكون أنا أيضاً على حق ، وأنا نخلف فى هذه المسألة اختلافاً جوهرياً ، فربما قد يدرك شيئاً بسيطاً ومتصلاً ، يسميه بذاته ، على الرغم من أنني على يقين بأنه لا وجود لهذا المبدأ بداخلى ^(٢٦) . إن نتيجة هيوم هي - بالتالى - أن «الذهن نوع من مسرح تظهر عليه إدراكات متمدة بصورة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لغوية بدلاً من أن تكون صعوبات فلسفية^(٢٩) . أعنى أن التساؤل عما إذا كان من الملائم أن نتحدث فى أى حالة معطاء عن شئ على أنه هو هو أهم أم لا ، هو مشكلة لغوية .

وإذا سلّمنا بتحليل هيوم الظاهرى للذات ، فليس من المفيد مناقشة إذا ما كان يؤمن بالخلود ، حقاً ، إنه لم ينكر - بوضوح - إمكان البقاء . وقد سجل «جيمس بوزول» J. Boswell فى مقابلته الأخيرة مع هيوم ، فى السابع من يوليو عام ١٧٧٦ ، أنه سأل هيوم عما إذا كان يعتقد أنه من الممكن أن تكون هناك حالة أخرى فى المستقبل - فرد هيوم بأنه من الممكن ألا تحترق قطعة من الفحم عندما توضع فى النار ، وبمعنى آخر إذا كان هيوم يقصد أن تؤخذ ملاحظته مأخذ الجد ، فإن البقاء يكون إمكاناً منطقياً ، ومع ذلك ، أضاف أنه وهم غير معقول إلى حد كبير أنه يوجد إلى الأبد .

ويبدو واضحاً بدرجة كافية مما يجب أن يقوله عن الموضوع فى موضع آخر أنه لا يعتقد فحسب أنه يمكن البرهنة على الخلود إما عن طريق حجج ميتافيزيقية أو عن طريق حجج أخلاقية ، بل يعتقد أيضاً أنه لا يؤمن به ، ويبدولى أن ذلك هو ما نتوقعه فقط، إذا وضعنا فى الاعتبار تفسيره للذات .

ومع ذلك ، من المهم أن نضيف أن هيوم أدرك أن تفسيره للذات يثير صعوبات ففى ملحق كتابه «رسالة ..» يعترف بأنه عندما نفسر ما يرتبط إدراكاتنا المتميزة معاً ويجعلنا ننسب إليها ببساطة حقيقية وهوية ، «أشعر بأن تفسيرى ناقص جداً ، ولا شئ يمكن أن يدفعنى إلى قبوله سوى دليل الاستدلالات الظاهرى . فإذا كانت الإدراكات موجودات متميزة ، فإنها لا تكون كلاً إلا عن طريق ارتباطها معاً ... بيد أن آمالى تلاشت عندما شرعت فى تفسير المبادئ التى توحد إدراكاتنا المتتابعة فى تفكيرنا أو وعينا إننى لا أستطيع أن أكتشف أى نظرية ترضينى فى هذا الموضوع وباختصار ، ثمة مبدآن لا أستطيع أن أعتبرهما متسقين؛ وليس فى مقدورى أن أتخلى عن أى منهما؛ أعنى أن كل إدراكاتنا المتميزة موجودات متميزة ، وأن الذهن لا يدرك على الإطلاق أى ارتباط حقيقى بين موجودات متميزة .. ومن جانبى ، يجب على أن أقر بميزة الفيلسوف الشاك ، وأعترف بأن هذه الصعوبة صعبة جداً بالنسبة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

تدرجية ، حتى نُسب اللاتناهي أخيراً إلى إله ، ويتضمن ذلك مذهب التوحيد ، لكن على الرغم من أنه يمكن ملاحظة التقليل من الخرافة في مجرى التطور الدينى ، فإن الانتقال من مذهب التعدد إلى التآليه صاحبه تطور التعصب ، والغطرسة ، والتحمس المفرط ، كما يبين سلوك «المسلمين» والمسيحيين . كما أن فكرة عظمة الإله اللامتناهي وجلالاته قد شجعت التاكيد على مواقف الانحطاط وممارسات الزهد وقهر النفس الغريبة على العقلية الوثنية . وعلاوة على ذلك ، بينما لا توجد عقيدة في اليونان القديمة - مثلاً - كما يفهمها المسيحيون ، وكانت الفلسفة حرة ولا يكبلها اللاهوت الدجماطيقى ، فإن الفلسفة استخدمت استخداماً سيئاً في خدمة العقائد اللاهوتية . إن هيوم لم يرفض - بالفعل - كل دين بصورة واضحة ، وبكلمات أخرى : يميز هيوم بين دين حقيقى من جهة ، والخرافة والتعصب من جهة أخرى . غير أننا عندما ننظر فى كتاباته لتفسير ما يعنيه بالدين الحقيقى ، فإننا نجد أن مضمونه واه إلى أقصى حد .

يخصص هيوم القسم الحادى عشر من كتابه «بحث فى الفهم البشرى» - بناء على عنوانه - لموضوع العناية الإلهية الخاصة والحالة المستقبلية . ولكى يفعل هيوم ما يشاء ، يضع ما يجب أن يقوله على لسان صديق أبيقورى يوجه - بناء على طلب هيوم- خطاباً إلى الأثينيين يلاحظ المتحدث أن الفلاسفة المتدينين يجارون حب استطلاع متهور ، بدلاً من الاقتناع بالعرف ، فى تجريب إلى حد أنهم يستطيعون تأسيس دين على مبادئ العقل ، ويثيرون بالتالى شكوكاً تنشأ بصورة طبيعية من بحث جاد ودقيق ، بدلاً من الرضا والإقناع ^(٣٢) . ويلاحظ - بالتالى - أن «الحجة الرئيسية أو الوحيدة على وجود الله مستمدة من نظام الطبيعة .. فانت تقر بأن تلك حجة تسير من معلولات إلى علل . فمن نظام العمل تستدل على أنه يجب أن تكون هناك خطة وتبدير فى الصانع . وإذا لم تستطع أن تبين هذه المسألة ، فإنك تقر بأن نتيجتك فاشلة : ولا تزعم البرهنة على نتيجة بحرية أعظم مما تبرره ظواهر الطبيعة ، وتلك هى مسلماتك وأود أن تلاحظ النتائج » ^(٣٣) .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

أن نرتد من العلة بأى استدلال جديد ، أو نبرهن على أى مبادئ جديدة للسلوك ، عندما نقوم بإضافات إلى مجرى الطبيعة العام والذي نخبره (٢٦) .

ولقد عبر لوك - بقدر كبير - عن وجهة النظر نفسها بالتفصيل فى كتابه «محاورات فى الدين الطبيعى» الذى نُشر بناء على رغبة هيوم بعد وفاته . المساهمون فى هذه المحاورات هم : «كلياتس ، وفيلون ، وديمان ، وقد بُلغ بامفيلوس المحادثة إلى هرمبوس . ولم يظهر هيوم بشخصه ، ولم يقرر أياً من وجهات النظر الخاصة التى تعبر عن رأيه الخاص ، ويلمح بامفيلوس إلى «منحى كلياتس الفلسفى الدقيق» ، و«نزعة فيلون الشكية التى لا تبارى» ، وإلى «استقامة ديمان الصلبة الثابتة» (٢٧) ، ولذلك قلما يُقر بأن هيوم يتحد مع كلياتس ، ويمكن لأولئك الذين يدعمون هذه الوجهة من النظر أن يلجأوا إلى استنتاج كلمات من كتاب «محاورات ...» عندما يلاحظ بامفيلوس إنه «بناء على مراجعة شاملة لا أظن سوى أن مبادئ فيلون أكثر ملاعة من مبادئ ديمان لكن مبادئ كلياتس لا تزال أكثر قرباً من الحقيقة» (٢٨) وفضلاً عن ذلك ، يلاحظ هيوم عندما كتب إلى «سيرجلبرت إيلوت» عام ١٧٥١ ، أن كلياتس هو «بطل الحوار» ، وأن أى شئ استطاع إيلوت أن يتصوره على أنه يتعزز موقف كلياتس سيكون «أكثر قبولاً» ، بالنسبة له ، لكن إذا كان من المحتم توحيد هيوم بكلياتس ، فلا بد أن تنسب إليه اعتقاداً راسخاً فى الحجة التى تبدأ من التدبير . «إننا نبرهن بواسطة هذه الحجة البعيدة ، وبواسطة فقط، على وجود إله فى الحال ومشابهته للعقل البشرى والذكاء البشرى» (٢٩) . غير أنه على الرغم من أن هيوم يتفق - بلا شك - مع رفض كلياتس لما يسميه بالحجج القبلية ، ومع ادعائه بأنه «ليس لكلمة موجود ضرورى معنى ، أو أنها ليست متسقة» (٣٠) ، فإنه يبدو لى أنه ليس من المناسب إلى حد كبير أنه ينتظر إلى الحجة التى تبدأ من التدبير على أنها مقنعة ، لأنه قلما يتفق ذلك مع مبادئه الفلسفية . ولا يتفق مع القسم الذى أشرنا إليه سابقاً من كتابه «بحث فى الفهم البشرى» . لأنه على الرغم من أن هيوم يقدم صديقاً وهمياً بوصفه متحدثاً فى هذا القسم ، فإنه يلاحظ فى شخصه الخاص «أننى أشك كثيراً فيما إذا من الممكن لعلّة ألا تُعرف إلا عن طريق معلولها ، كما تفترض باستمرار» (٣١) . إنه يبدو لى أن فيلون وليس كلياتس هو الذى يمثل هيوم ، فى كتاب «محاورات ...» من حيث إنه يمكن أن يقال إن أى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

منها تؤثر على السلوك البشرى، الدينى أو الأخلاقى . «وبالتالى يرتد الدين الحقيقى إلى معرفة قضية نظرية خالصة عن الاحتمال . وذلك هو الموقف الذى يناسب القسم الحادى عشر من كتاب هيوم «بحث فى الفهم البشرى» وما هيا هيوم نفسه لقبوله .

يسجل «بوزول» قول هيوم فى نهاية حياته إنه لم يفكر على الإطلاق فى أى إيمان بالدين منذ أن بدأ فى دراسة الدفاع العقلى عن اللاهوت الطبيعى ، وعن الدين فى أعمال هؤلاء الفلاسفة الذين وجد حججهم واهية حتى أنه توقف عن الإيمان بالنتائج . لقد كان رأى هيوم أن الدين ينشأ من انفعالات مثل : الخوف من المصائب والأمل فى المنفعة أو الإصلاح عندما تتجه هذه الانفعالات نحو قوة عاقلة وغير مرئية . وحاول الناس على مر الزمن أن يعقلوا الدين ويجدوا حججاً لصالح الإيمان ، بيد أن معظم هذه الحجج لم تصمد أمام التحليل النقدى . واعتقد أن ذلك يصدق على الحجج التى قدمها لوك وكلارك وميتافيزيقيون آخرون . ومع ذلك ، هناك ميل شبه تلقائى للنظر إلى العالم على أنه يظهر دليل التدبير أو النظام ، وليس من المعقول ، شريطة أن لا نزيد على ذلك ، أن نقول من أنه من المحتمل أن علّة أو علل الظواهر ، أيا كانت هذه العلل ، تحمل بعض المماثلة مع ما نسميه بالعقل ، لكن يكون العالم على المدى البعيد سرا لا ندرك كنهه ، ولا يمكن أن تكون لدينا معرفة يقينية بعلمه البعيدة .

وربما يتوقع القارئ رداً واضحاً على السؤال عما إذا كان يُنظر إلى هيوم على أنه ملحد ، لا أدرى ، أو مؤله . غير أنه ليس من اليسير تقديم «إجابة واضحة جلية» على هذا السؤال ، فهو يرفض - كما ذكر من قبل - أن يعرف صحة الحجج الميتافيزيقية على وجود الله ، أعنى أنه رفض أن يقر بأنه يمكن البرهنة على وجود الله ، إن ما فعله هو إنه فحص حجة التدبير التى يعالجها على أنها تؤدى إلى «الافتراض الدينى» . واضح من كتاب «محاورات ...» أنه يكره أيا من الحجج التى تقوم - أساساً - على مماثلة بين بنايات بشرية صناعية والعالم ، ومع ذلك يُسلم بأن هناك مبادئ معينة تعمل فى العالم ، أعنى «التنظيم» أو فى الحياة الحيوانية والنباتية ، أى الغريزة والذكاء . وتنتج هذه المبادئ الترتيب والنظام ونحن نعرف آثارها عن طريق التجربة . بيد أن المبادئ نفسها وحالات عملها أُلغاز ولا ندرك كنهها . ومع ذلك ، هناك نقاط من المماثلة بينها ، للحكم عن طريق آثارها ، وإذا لم نعن بتأكيد وجود الله سوى أن نؤكد أن علّة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ويعنى هيوم بالنزعة الشكية السابقة نزعة شكية «تسبق كل دراسة وكل فلسفة»^(٤١) . ويستشهد بالشك الديكارتي كمثال على ذلك ، آخذاً ذلك لا يشمل الشك فى كل معتقداتنا الخاصة التى تمسكنا من قبل فحسب ، بل يشمل أيضاً قوة ملكاتنا لبلوغ الحقيقة وقد يفترض تعريف النزعة الشكية السابقة الموقف الشكى الذى ينشأ فى أذهان غير الفلاسفة بدلاً من الشك الديكارتي الذى يكون جزءاً من منهج فلسفى تم اختياره عن عمد إلا أنه سابق - بالفعل - على بناء النسق الديكارتي وهو على أية حال النموذج الذى اختاره هيوم ، يقوم هيوم إن علينا كما يرى ديكارت ، أن نضمّر شكاً كلياً نطمئن أنفسنا عن طريق سلسلة من الاستدلال مستمدة من مبدأ أصلى لا يمكن هو نفسه الشك فيه أو المغالطة فيه . غير أنه لا وجود لمثل هذا المبدأ الأصلى وحتى إذا كان هذا المبدأ موجوداً ، فإننا لا نستطيع أن نتجاوزه إلا عن طريق استخدام الملكات نفسها التى وضعنا ثقتنا موضع شك . ونزعة شكية من هذا النوع ليست ممكنة بالفعل ، ولو كانت ممكنة ، فإنه لا رجاء منها . بيد أن هناك صورة معتدلة ومعقولة منزعة شكية سابقة . أعنى أنه يجب علينا أن نحرر أنفسنا ، بقدر المستطاع ، من كل هوى ونصل إلى حالة من الحياد ، قبل أن نتعقب البحث الفلسفى ، إنه ينبغى علينا أن نبدأ بمبادئ واضحة وجلية ، ونتقدم بعناية ، فاحصين كل خطوات استدلالنا . غير أن تلك مسألة من مسائل الحس المشترك . إذ لا نستطيع أن نأهل فى تحقيق تقدم آمن فى المعرفة دون هذه العناية والدقة .

أما النزعة الشكية اللاحقة فهى نزعة شكية «تجئ عقب العلم والبحث»^(٤٢) . وبمعنى آخر ، إنها نتاج الاكتشاف ، أو الاكتشاف المفترض ، عن طريق فلاسفة سواء أكانوا من الطابع الذى لا يثق فى مكاتنا الذهنية أو - على الأقل - من الطابع الذى لا يثق فى عدم ملاستها للوصول إلى أى نتيجة موثوق بها « فى كل موضوعات التأمل العجيبة التى يشغلون أنفسهم بها عموماً »^(٤٣) . وقد تُسم هذه النزعة الشكية اللاحقة إلى نزعة شكية فى الحواس ، ونزعة شكية فى الذهن ويناقد هيوم النزعة الشكية فى الحواس أولاً فى كتابه «رسالة..»^(٤٤) ، غير أنه يعكس نظام المعالجة فى كتابه «بحث عن الفهم البشرى» .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

التجربة ، لكن نبرهن على أن الإدراكات ترتبط - بالفعل- بموضوعات خارجية . « إن ذلك موضوع يتباهى به - بالتالى - الشكاك الأثر عمقاً وفلسفة باستمرار ، عندما يحاولون أن يدخلوا شكاً كلياً فى كل موضوعات المعرفة البشرية والبحث (٥٠) . »

وقد تهتم النزعة الشككية فى الذهن إما باستدلال مجرد أو بأمور الواقع . والاعتراض الشكى الأساسى على صحة الاستدلال المجرد مستمد ، كما يرى هيوم فى كتابه «بحث فى الفهم البشرى» من فحص أفكارنا عن الزمان والمكان . دعنا نفترض إن الامتداد لا ينقسم إلى ما لا نهاية ، فإن كمية معطاة (أ) تحتوى بداخلها على كمية (ب) تكون أقل بصورة لا نهائية من (أ) . وعلى نحو مماثل ، تحتوى (ب) بداخلها على كمية (ج) تكون أقل بصورة لا نهائية من (ب) ، وهكذا إلى ما لا نهاية . إن إفتراضاً من هذا النوع «يزعزع مبادئ الذهن البشرى الأكثر وضوحاً والأكثر طبيعية» (٥١) . كما أن عدداً لا متناهياً من أجزاء الزمان الواقعية ، التى تنتقل بالتتابع ويستنفذ بعضها بعضاً ، تبدو تناقضاً جلياً حتى إنه لا يستطيع إنسان - إنسان يفكر - ولم يفسد العلم حكمه- بدلاً من أن يطرده - أن يسلم به « (٥٢) .

أما بالنسبة للاعتراضات الشككية على «الدليل الأخلاقى» أو على استدلالات تخص أمور الواقع ، فإنها إما أن تكون شعبية أو فلسفية . يمكن أن يوضع تحت الأولى- الشعبية - إعتراضات مستمدة من تنوع آراء غير متطابقة بصورة متبادلة يتمسك بها أناس مختلفون ، أى الآراء المختلفة التى يتمسك بها نفس الشخص فى أوقات مختلفة ، . واعتقادات متناقضة لمجتمعات مختلفة وأمم مختلفة، وهكذا . ويرى هيوم - على أية حال - أن الاعتراضات الشعبية من هذا النوع هى إعتراضات غير فعالة . «إن المفسد العظيم لمذهب بيرون أو المبدأ المفرط للنزعة الشككية هو العمل ، والوظيفة ، ومشاكل الحياة العامة» (٥٣) . وربما لا يكون من الممكن أن ندحض هذه الاعتراضات فى حجرة الدراسة ، ولكنها « تتلاشى فى الحياة المعادية مثل الدخان وتترك الشاك الأكثر ثباتاً وتصميماً فى نفس الحالة مثل غيره من الفانين الآخرين » (٥٤) . والاعتراضات الفلسفية أكثر أهمية . والاعتراض الرئيسى بينها هو الاعتراض المستمد من تحليل هيوم الخاص للعلية ؛ لأنه - إذا سلمنا بهذا التحليل - لن تكون لدينا حجة للبرهنة على أن أ و ب يقتزمان فى المستقبل بصورة مماثلة لأنهما اقتزنا باستمرار فى تجربتنا الماضية .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

السلوك. بيد أن واحداً من أنصار بيرون لا يستطيع أن يتوقع أن يكون لفلسفته أى تأثير مستمر فى الذهن ، أو إذا كان لها ، فإن تأثيرها لا يفيد المجتمع . فهو لابد أن يعترف، على العكس، إذا كان يعترف بأى شئ بأن كل الحياة البشرية لابد أن تبنى وتتلاشى ، إذا كانت مبادئه يجب أن تهيمن وتسد بصورة كلية ورأسخة . إن كل حديث، وكل فعل يتوقف مباشرة ، ويظل الناس فى سبات تام ، حتى تضع ضروريات الحياة ، لا تُشبع ، حداً لوجودهم البائس . حقاً ، إننا كثيراً ما نخشى قليلاً حدثاً مصيرياً وحاسماً . إن الطبيعة قوية جداً باستمرار من حيث المبدأ ^(٥٨) . ويقول هيوم فى كتابه : « بحث فى الفهم البشرى » ، بعد أن تحدث عن الإدراك المركز للنقائض المتعددة التى يتورط فى الذهن البشرى : لحسن الطالع إلى حد كبير أن الذهن لا يستطيع أن يبدد تلك السحب ، فتكفى الطبيعة نفسها لتحقيق ذلك الغرض .. إنى أتناول العشاء ، وألعب لعبة النرد ، وأتحدث مع أصدقائى وأمزح معهم! عندما أعود، بعد ثلاث أو أربع ساعات من التسلية إلى التأملات ، تبو فاترة ومرهقة وسخيفة حتى إن نفسى لا تطاوعنى أن أمعن فيها بصورة أبعد . إننى أجد نفسى - من ثم - مجبراً بصورة مطلقة وضرورية على أن أعيس ، وأتحدث ، وأفعل مثل الإنسان الآخرين فى الشئون العامة للحياة » ^(٥٩) .

وعلى الرغم من أن هيوم يرفض - ربما نقول - ما يسميه « بالنزعة الشكية المفرطة » ، فإنه يسلم بنزعة شكية «دائمة ونافعة » ، «معتدلة » أو أكاديمية ، قد تكون - من بعض النواحي - نتيجة مذهب بيرونى (أو نزعة شكية مفرطة) عندما يتم تصحيحه عنه طريق الحس المشترك والتأمل ^(٦٠) ، تتضمن هذه النزعة الشكية المعتدلة - مثلاً - قصر أبحاثنا عن تلك الموضوعات التى تناسب تأمل قدراتنا الذهنية . « ويبدو لى أن الموضوعات الوحيدة للعلم المجرد أو للبرهان هى الكم والعدد ، وأن كل المحاولات لمد هذا النوع الأكثر كمالاتاً من المعرفة وراء هذه الحدود هى مجرد سفسطة ووهم » ^(٦١) . وبالنسبة للأبحاث الخاصة بأمور الواقع والوجود ، نكون هنا خارج مجال البرهان . « فما يكون قد لا يكون ، ولا يمكن لسلب واقعة ما أن يتضمن تناقضاً .. إننا لا نستطيع أن نبرهن على وجود أى موجود - بالتالى - عن طريق حجج مستمدة من

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الدفاع عن نفس الوقت عن نزعة شكية محكمة في الممارسة . ولا تبرهن هذه الواقعة على زيفها ، لكنها تبين أنه يجب علينا أن نعمل في الحياة العادية لا محالة وفقاً لاعتقاد طبيعي ، أو وفقاً لميول طبيعتنا البشرية ، وذلك ما ينبغي أن تكون عليه الأمور . إن الذهن ينحل - فهناك - على الأقل - قليل جداً يبقى راسخاً لا يتزعزع ، ولا يمكن الشك فيه . والروح والفلسفية هي روح البحث الحر . غير أن الطبيعة البشرية بعيدة جداً عن أن يحكمها العقل وحده ويوجهها ، فالأخلاق - مثلاً - تقوم على الشعور أو الوجدان بدلاً من أن تقوم على الفهم التحليلي . وعلى الرغم من أن الفيلسوف قد يصل في دراسته إلى نتائج شكية ، بمعنى أنه يرى كم لا يستطيع العقل أن يبرهن إلا قليلاً ، فإنه إنسان في نفس الوقت ؛ يجب أن يسمح لنفسه بأن تحكمه الاعتقادات الطبيعية التي تفرضها عليه الطبيعة البشرية المشتركة كما تفرضها على الآخرين، إذا أراد أن يعيش على الإطلاق . وبمعنى آخر ، لقد تعاطف هيوم قليلاً مع أى محاولة لتحويل الفلسفة إلى عقيدة ، أى إلى معيار للاعتقاد والسلوك يتم عرضه دجماًطيقياً . إنها ، إن شئت ، لعبة ؛ لعبة كان هيوم مغرمًا بها ، ولعبة لها استخداماتها . غير أنه على المدى البعيد « تكون الطبيعة قوية جداً باستمرار من حيث المبدأ » ^(٦٦) . كل فيلسوفاً ، لكن كن إنساناً في قلب فلسفتك .

الهوامش

- T., 1, 2, 6 pp. 67 - 88. (١)
T., 1, 4, 2 p. 187. (٢)
Ibid, p. 191. (٣)
Ibid, p. 193. (٤)
T., 1, 4, 2 p. 193. (٥)
Ibid, p. 194. (٦)
Ibid, p. 195. (٧)
T., 1, 4, 2 p. 198. (٨)
Ibid, p. 199. (٩)
T., 1, 4, 1 p. 205. (١٠)
Ibid. (١١)
Ibid. (١٢)
Ibid, pp. 207 - 8 (١٣)
Ibid, pp. 204. (١٤)
T., 1, 4, 1 p. 218. (١٥)
T., 1, 4, 4 p. 228. (١٦)
Ibid, p. 231. (١٧)
Ibid (١٨)
E., 12, 1, 122, p. 155, Note. (١٩)
T., 1, 4, 5 p. 232. (٢٠)
Ibid, p. 234. (٢١)
T., 1, 4, 5 p. 239. (٢٢)
Ibid, p. 235. (٢٣)

(٢٤) . T.,1,4, 5 p. 250 .

(٢٥) . T.,1,4, 6 pp. 251 - 2 .

(٢٦) . T.,1,4, 5 p. 252 .

(٢٧) . Ibid, p. 253 .

(٢٨) . T.,1,4, 6 p. 262 .

(٢٩) . T.,pp. 653 - 6 .

(٣٠) يبلو أنه يعنى - حرفياً على الأقل - أننا ننسب هوية إلى إدراكتنا . بيد أننا لا نفعل ذلك بوضوح؛ حتى لو نظرنا إليها على أنها أفعال لذات ملازمة ومستمرة . (المؤلف)

(٣١) . E., 11, 104, p. 136 .

(٣٢) . E., 11, 105, pp. 136 - 6 .

(٣٣) . E., 11, 110, p. 142 .

(٣٤) . E., 11, 114, p. 148 .

(٣٥) . E., 11, 11, p. 142 .

(٣٦) . D., Preface, p. 128 .

(٣٧) . D.,IX, p. 228 .

(٣٨) . D.,p. 143 .

(٣٩) . D., p. 190 .

(٤٠) . E., 11, 11, 5,p. 148 .

(٤١) . D.,X11, p. 227 .

(٤٢) . E., 12, 1,117, p. 150 .

(٤٣) . Ibid.

(٤٤) . T.,1,4 1-2, pp. 180- 218 .

(٤٥) . E., 12, 1,117, p. 151 .

(٤٦) . E., 12, 1,118, p. 151 .

(٤٧) . Ibid, p. 152 .

(٤٨) . E., 12, 1, 119, p. 153 .

(٤٩) . E., 12, 1, 121, p. 153 .

(٥٠) . E., 12,2, 124, p. 156 .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الفصل السادس عشر

هيوم (٣)

مدخل - العواطف ، المباشرة وغير المباشرة - التعاطف ، الإرادة والحرية - العواطف والعقل - التمييزات الأخلاقية والحاسة الخلقية - الأريحية والمنفعة - العدالة - ملاحظات عامة

١ - يشتهر هيوم أساساً بتحليلاته الأيستمولوجية وفحصه للعلية وفكرتى الذات والهوية الشخصية ؛ بمعنى آخر يشتهر بمضامين الكتاب الأول من كتابه رسالة فى الطبيعة البشرية . بيد أنه وصف هذا الكتاب بأنه محاولة لإدخال منهج الاستدلال التجريبي إلى الموضوعات الأخلاقية ^(١) . فهو يقول فى المقدمة إن العلوم الأربعة : المنطق ، والأخلاق ، والنقد ، والسياسة ، تشمل - فى الغالب - كل شئ يمكن أن يحثنا - بأى طريقة - على أن نعرف الذهن البشرى، أو يمكن أن يميل إلى تحسينه أو تزيينه « ^(٢) . ويوضح أنه يأمل فى أن يقيم أساس العلم الأخلاقى ، ويتحدث فى نهاية الكتاب الأول عن انقياده إلى موضوعات عديدة «تعد الطريق لآرائنا التالية» ^(٣) . ويشير إلى «تلك الأعماق الهائلة للفلسفة التى توجد أمامى» ^(٤) . ويصرح فى بداية الكتاب الثالث أن «الأخلاق موضوع يهنا بصورة تفوق كل الموضوعات الأخرى» ^(٥) صحيح أنه يستخدم مصطلح «الفلسفة الخلقية» ليعنى علم الطبيعة البشرية ، ويقسم هذا العلم إلى دراسة الإنسان بوصفه «موجوداً عاقلاً أكثر من كونه موجوداً نشطاً فعلاً» ، ودراسة الإنسان « من حيث إنه ولد أساساً ، من أجل الفعل» ^(٦) . لكن لا يمكن أن يكون هناك شك فى الأمية التى ينسبها هيوم الفلسفة الخلقية بالمعنى العادى . لقد تصور نفسه على أنه يواصل عمل شافيتسبرى، وهاتشيسون ، وبطلر .. إلخ ، وعلى أنه

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الكلمة، كما استخدمها فلاسفة آخرون في عصره، لتشمل الانفعالات ، والوجدانات بوجه عام . لقد اهتم بتحليل الجانب العاطفي من الطبيعة البشرية ، منظوراً إليه على أنه مصدر للفعل ، ولم يهتم بالحديث من الناحية الأخلاقية عن العواطف المفرطة .

٢ - يميز هيوم - كما رأينا في الفصل الرابع عشر - بين انطباعات الإحساس، وانطباعات التفكير. وذلك يعنى التمييز بين انطباعات أصلية وانطباعات ثانوية «الانطباعات الأصلية أو انطباعات الإحساس هي كذلك دون أى إدراك سابق ينشأ فى النفس من بناء الجسم من الأرواح الحيوانية ، أو من انطباق الموضوعات على الأعضاء الخارجية . أما انطباعات الحواس ، وكل الآلام الجسمية والذات : أما النوع الثانى فيندرج تحته العواطف ، والانفعالات الأخرى التى تشبهها » (١٠) . ومن ثم يستطيع ألم جسمى ، قبل ألم النقرس، أن يولد عواطف مثل الحزن، والامل ، والخوف ، ثم تكون لدينا عواطف ، أى عواطف ثانوية ، مستمدة من انطباع أصلى أو أولى، أعنى ، من ألم جسمى معين .

لقد قلت إن هيوم استخدم كلمة «عاطفة» لتشمل كل الانفعالات والوجدانات دون أن يحصرها باندلاعات غير منظمة لانفعال . بيد أن ذلك يحتاج إلى تعديل ؛ لأنه يميز بين انطباعات هادئة وانطباعات قوية أو ثانوية . فالإحساس بالجمال والقبح فى الأفعال، وأعمال الفن ، والموضوعات الطبيعية ، تنتمى إلى الفئة الأولى ، بينما ينتمى الحب والكراهية ، والسرور ، والحزن إلى الفئة الأولى ، بينما ينتمى الحب والكراهية والسرور، والحزن ، إلى الفئة الثانية ، ويسلم هيوم - بالفعل - بأن «هذا التقسيم ليس دقيقاً إلى حد كبير» (١١) ، على أساس أن طرب الشعر والموسيقى قد يكون قوياً للغاية، فى حين أن «طرب انطباعات أخرى ، خاصة ما يُسمى «بالانفعالات الطاغية» » قد يندثر إلى انفعال رقيق حتى إنه يصبح ، إلى حد ما ، غير مدرك (١٢) . بيد أن ما أريده هنا هو أنه يبدو أن هيوم يحصر كلمة «العاطفة» أو «الانفعال» فيما يسمى بالانطباعات الفكرية القوية، وذلك هو أحد الأسباب التى جعلتني أقول إن التقرير الأخير يحتاج إلى تعديل وليست هذه الانفعالات «القوية» ، أو العواطف بمعنى محدد مشوشة وغير منظمة بالضرورة. إن هيوم يفكر فى الشدة: إنه لا يصدر حكماً أخلاقياً . يقسم هيوم العواطف إلى عواطف مباشرة ، وعواطف غير مباشرة . الأولى هي تلك التى تنشأ من تجربة اللذة أو الألم ؛ ويذكر هيوم: الرغبة ، والنفور، والحزن ، والسرور، والامل ، والخوف واليأس والأمن.. فآلم النقرس - مثلاً - يولد انفعالات

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

فيها الناس. غير أن علل الزهو والضعة ليست أصلية بمعنى أنها «تلائم هاتين العاطفتين عن طريق تزويد معين وتركيب أولى من الطبيعة» ^(١٧). إن هناك عدداً هائلاً من العلل، ويعتمد كثير منها على البراعة والاختراع البشري (مثل المنازل، والأثاث، والملابس، مثلاً)؛ ومن المحال أن نفترض أن الطبيعة تتوقع وتزود بكل علة ممكنة لعاطفة ما. ولذلك على الرغم من أن تنوعاً عظيماً من العلل يثير الزهو والضعة من مبادئ طبيعية فإن ليس صحيحاً أن كل علة مختلفة تلائم عاطفتها عن طريق مبدأ مختلف. إن المشكلة - بالتالي هي اكتشاف عنصر مشترك بين العلل المتنوعة يعتمد عليه تأثيرها.

ويثير هيوم في حله لهذه المشكلة مبادئ تداعي الأفكار وتداعي الانطباعات فعندما تكون فكرة ما ماثلة للخيال، فإن أى فكرة أخرى تتصل بها عن طريق التشابه، والاتصال أو العلوية تتبعها، كما أن «كل الانطباعات المتشابهة ترتبط معاً، ولم يكد ينشأ انطباع حتى تتبعه بقية الانطباعات مباشرة» ^(١٨). (تختلف الانطباعات عن الأفكار في أنها لا تتداعي إلا عن طريق التشابه فقط). وهكذا، يساعد هذا النوعان من التداعي الواحد منهما الآخر، و«يتحد كلاهما في فعل واحد، ويمنحان الذهن دافعاً مزودجاً» ^(١٩). إذ أن علة العاطفة تولد فينا إحساساً. ففي حالة الزهو يكون إحساس اللذة، وفي حالة «الضعة» أو الحط من تقدير النفس يكون إحساس الألم. ويشير هذا الإحساس أو الإنطباع بصورة طبيعية وأصلية إلى النفس من حيث إنها الموضوع أو إلى فكرة النفس. هناك، بالتالي، علاقة طبيعية بين الانطباع والفكرة، ويسمح ذلك بعمل متصافر لنوعى التداعي - أى تداعي الانطباعات وتداعي الأفكار. فعندما تنشأ عاطفة ما، فإنها تميل إلى أن تستحضر تتابعاً من عواطف متشابهة عن طريق قوة مبدأ تداعي الانطباعات المتشابهة. كما أن الذهن ينتقل بسهولة من فكرة إلى أخرى (قل مثلاً فكرة جانب واحد من علل الزهو وموضوعه) عن طريق قوة مبدأ تداعي الأفكار. وتشهد هاتان الحركتان أرز بعضهما، وينتقل الذهن بسهولة من مجموعة إلى الأخرى عن طريق الترابط بينهما. هب أن شخصاً ما يعاني من أذى ألحقه به شخص آخر، وأن ذلك يولد فيه عاطفة ما، فإن هذه العاطفة (أى الانطباع) تستدعى فيه عواطف متشابهة. ويسهل هذه الحركة حقيقة نقول إن فكرة الشخص عن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إلى انطباعات ؛ أى أنها تتحول إلى عواطف مماثلة ، إلى حد أننا نربط أنفسنا بها عن طريق علاقة ما أو علاقات . «إن هناك تحولاً واضحاً لفكرة ما إلى انطباع فى التعاطف. وينشأ هذا التحول من علاقة الموضوعات بالنفس . فذاتنا تكون حاضرة لنا باستمرار وبصورة وثيقة » (٢٥) .

كما أننا قد ندرك علل عاطفة ما أو انفعال ما . ويقدم هيوم مثال رؤية الاستعدادات لعملية جراحية «مرعبة ومخيفة» (دون تخدير بالطبع) . فقد تثير هذه الاستعدادات فى ذهن الملاحظ - حتى على الرغم من أنه لا يكون المريض - انفعالا قوياً عن الخوف والفرع . « لا تتكشف عاطفة شخص آخر للذهن بصورة مباشرة . فنحن لا نحس إلا بعلمها أو آثارها . وتستبدل على العاطفة من هذه العلل والآثار : وتسبب هذه العلل والآثار بالتالى تعاطفنا » (٢٦) .

وثمة نزاع فيما إذا كان ما قلناه سابقاً يتفق مع مذهب الظواهر عند هيوم ، لأنه يبدو أنه يسلم بأكثر مما يكفله تحليله الظاهرى للذهن . غير أنه واضح على الأقل أنه يعى جيداً الروابط الوثيقة بين الموجودات البشرية . ويحاول أن يفسر الطابع المعدى للعواطف والانفعالات . إن عالم هيوم ليس - فى واقع الأمر - عالماً من نرات بشرية تنتشر بالتبادل ولكنه عالم التجربة العادية التى ترتبط فيها الموجودات البشرية ببعضها بدرجات متنوعة من علاقات متبادلة ، ويأخذ هيوم ذلك بوصفه شيئاً مسلماً به . إنه يهتم بالميكانيكا السيكلوجية للتعاطف . وهو على يقين بأن التواصل التعاطفى علّة مهمة فى توليد الانفعالات والعواطف .

٤ - بعد أن قلنا شيئاً عن علل ميكانيكا العواطف وعللها ، فإننا نستطيع الآن أن نتنقل إلى النظر فى العلاقات بين الإرادة ، والعواطف ، والذهن . ويمكننا - فى البداية- أن نسأل : ماذا يعنى بالإرادة ، وهل هو يعرف الإرادة الحرة ؟

يتحدث هيوم عن الإرادة بوصفها الآثار المباشرة للذة والأكم ، ومع ذلك فهى ليست- إن شئنا بصورة ملائمة - عاطفة . فهو يصفها بأنها «الانطباع الداخلى الذى تشعر به ونعيه ، عندما تصدر منا ، عن معرفة وقصد ، حركة بدنية جديدة ، أو إدراك ذهنى جديد » (٢٧) . إننا لا نستطيع أن نعرفها ، لأنها لا يمكن أن تتحل إلى ما هو

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

أى قهر خارجى . حقاً ، إن التلقائية هى الصورة الوحيدة للحرية التى نهتم بتأكيدها . لأن هيوم يثبت أنه إذا رجعت حرية الأفعال المزعومة إلى الصدفة ولا يحدثها الفاعل ، فإنه لا يكون من العدل بالنسبة لله أو الإنسان أن يجعل الموجودات البشرية مسؤولة عن أفعال شريرة ورديلة وأن يحكم على الموجودات الفاعلة بالاستنكار الأخلاقى . لأن الموجودات الفاعلة لن تكون - بالفعل - فاعلة على الإطلاق بأى معنى ملائم ، إن صحة وجهة نظر هيوم فى هذه المسألة تعتمد - بوضوح - على صحة فكرة عن العلية .

هـ - وبعد أن تخلص هيوم من الحرية - إلا عندما تترد إلى التلقائية - حاول أن يبرهن على صدق قضيتين ، القضية الأولى هى أن «العقل لا يمكن أن يكون وحده دافعاً لأى فعل من أفعال الإرادة»^(٣٠) ، وينشأ دفاعه عن هاتين القضيتين من حقيقة مؤداها «لا شىء نعتاد عليه فى الفلسفة حتى فى الحياة العامة ، أكثر من الحديث عن الصراع بين العاطفة والعقل ، وإعطاء الأفضلية للعقل ، والتأكيد على أن الناس ليسوا فاضلين إلا من حيث أنهم يعملون بمقتضى تعاليمه»^(٣١) .

العقل - من الناحية الأولى - بمعنى الفهم المجرد الذى يهتم بالعلاقات بين الأفكار أو بمسائل البرهان لا يكون مطلقاً على أى فعل من الأفعال . «إن الرياضيات فى حقيقة الأمر ، مفيدة فى كل العمليات الآلية ، والحساب مفيد - تقريباً - فى كل فن وحرفة ؛ لكن ليس لهما بذاتهما أى تأثير»^(٣٢) . فهما لا يؤثران على الفعل مالم تكن لدينا غاية من هدف أو تمليه أو تحدده الرياضيات .

أما العملية الثانية للفهم فتهم بالاحتمال ، ليس ميدان الأفكار المجردة ، ولكن ميدان أشياء ترتبط ارتباطاً عالياً بعضها ببعض ، أى بميدان أمور الواقع ، واضح هنا أنه عندما يسبب أى موضوع لذة أو ألمًا ، فإننا نشعر بانفعال تام وهو انفعال الانجذاب أو النفور ، وندفع إلى احتضان الموضوع موضع الاهتمام أو تجنبه . بيد أن الانفعال أو العاطفة تدفعنا أيضاً إلى سبب يخص الموضوعات التى لا بد - أو قد - ترتبط ارتباطاً عالياً بالموضوع الأسمى . «ووفقاً لتنوع استدلالنا ، فإن أفعالنا تلقى تنوعاً فيما بعد»^(٣٣) . لكن الدافع الذى يحكم أفعالنا لا يوجهه العقل فقط ؛ أى أنه لا ينشأ عنه . «ينشأ النفور أو الميل تجاه أى موضوع من توقع الألم أو اللذة»^(٣٤) .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

تهيمن على السلوك العام للشخص وميله الحالي . ومع ذلك «يتضمن ما نسميه بقوة العقل هيمنة العواطف الهادئة على العواطف العنيفة القوية» (٤٠) .

ويقبل هيوم بوضوح موقفاً لاعتقائاً عندما يؤكد وجهة النظر الخاصة بخضوع العقل للعواطف . فليس العقل ، ولكن الميل والنفور اللذين ينتجان تجربة اللذة والألم ، هما المصدران الأساسيان للفعل البشرى ، ويلعب العقل دوراً فى حياة الإنسان النشيطة ، ولكن من حيث إنه وسيلة للعاطفة ، لا من حيث إنه علّة وحيدة كافية ، فإذا نظرنا ببساطة ، بالطبع ، إلى النظرية التى تقول إن الميل البشرية وليست نتائج العقل المجرد هى العامل المؤثر فى السلوك البشرى ، فإننا قلما نسميها نظرية ثورية أو مغالياً فيها . فهى تعارض النزعة العقلية السقراطية ، لكنها هى تلك النزعة العقلية المغالى فيها والتي هاجمها باستمرار خصومها من حيث إنها تعارض التجربة ، إن هيوم لا يعرف بوضوح تام إن الإنسان ليس نوعاً من آلة حاسبة فحسب، ولكنه يعرف أيضاً أنه نون جوانب طبيعته الشهوانية والعاطفية لن يكون إنساناً . وما هو عرضه للخلاف فى نفس الوقت أن إنكاره لحرية عدم الاكتراث وتأكيد المذهب الحتمى السيكولوجى قد شجعه على أن يقلل بطريقة مغالى فيها من شأن الدور الذى يلعبه العقل العملى فى السلوك البشرى .

٦ - القول بأنه ليست هناك تمييزات أخلاقية أيا كانت ليس رأياً يتسق مع التجربة، والحس المشترك ، والعقل . «إن جعلنا تبلد الحس عند شخص كبيراً للغاية، فإنه لابد أن يتأثر فى الغالب ، بصور الصواب والخطأ ، وإذا جعلنا أهواءه صلبة عنيدة للغاية ، فإنه لابد أن يلاحظ أن الآخرين عرضة لانتطاعات متشابهة» (٤١) . لكن على الرغم من أن كل شخص يقوم بتمييزات أخلاقية ، فإن أساس هذا التمييز يكون مسألة للخلاف والجدل ، فهل هى تقدم ، كما يدعى البعض ، على العقل ، حتى إنها تكون هى هى بالنسبة لكل موجود عاقل ؟ أم أنها تقوم - كما يدعى البعض - على حاسة خلقية أو وجدان ، يركز على «البناء الخاص والتكوين الخاص للنوع البشرى» (٤٢) ويمكن تقديم حجج على كل نظرية ، وقد يقال - من جهة أخرى - إن كل نظرية منهما تجادل فى الخير والشر ، والصواب والخطأ ، الذى يحدث باستمرار فى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الفعل ، كما هو ، فإن ما يؤثر - أساساً - على سلوكنا هو الشعور الذي يكون لدينا نحو الأفعال . إذا فحصنا المسألة عن قرب أكثر نجد أن هيوم يقدم حججاً تفصيلية ، فى كتابه «رسالة ..» وفى الملحق الأول لكتابه «بحث فى مبادئ الأخلاق » ، على القول بأن التمييزات الأخلاقية ليست مستمدة من العقل ، «فالعقل يحكم إما على أمور الواقع أو على العلاقات»^(٤٤) فكما أن عمليات الفهم البشرى تنحل بذاتها إلى نوعين وهما : مقارنة الأفكار ، والاستدلال على أمور الواقع ، فإن الفضيلة التى يكتشفها الفهم لابد أن تكون موضوعاً لإحدى هاتين العمليتين ، ولا توجد عملية ثالثة من عمليات الفهم يمكن أن تكتشفها^(٤٥) .

أولاً التمييزات الأخلاقية ليست مستمدة من العقل من حيث إنها تهتم بأمور الواقع « خذ أى فعل تزعم أنه رذيلة : خذ القتل العمد - مثلاً وافحصه من جميع النواحي ، وانظر أيمكتك أن تجد أمراً من أمور الواقع أو وجوداً فعلياً ، يمكن أن تطلق عليه اسم الرذيلة ؟ إنك لن تجد بأى طريقة تأخذه سوى عواطف وانفعالات ، وإرادات وأفكار ولا يوجد أمر آخر من أمور الواقع فى هذه الحالة ... إنك لا تجد ما يسمى بالرذيلة على الإطلاق حتى تدبر تفكيرك إلى داخلك وتجد عاطفة الاستهجان تنشأ بداخلك تجاه ذلك الفعل . فنحن هنا بصدد أمر من أمور الواقع : لكنه موضوع للشعور، وليس موضوعاً للعقل . إن يكمن بداخلك لا فى الموضوع »^(٤٦) إن ما يقصده هيوم هو أن الفعل الفيزيائى للقتل هو ، أو قد يكون هو نفسه فى حالة قتل ، مثلاً يكون فى حالة قتل النفس الذى يمكن تبريره ، أو حالة التنفيذ بعد حكم قضائى .

ثانياً : لا يمكن أن تُستمد التمييزات الأخلاقية من العقل من حيث إنه يهتم بالعلاقات ، «ثمة رأى يجاهر به بعض الفلاسفة بصورة جادة ، هو أن الأخلاق قابلة للبرهان »^(٤٧) فى هذه الحالة لابد أن تتمثل الفضيلة والرذيلة فى علاقات ما ، وإذا كان الأمر هكذا فإنهما لابد أن يتمثلا فى علاقة : التشابه ، والتضاد ودرجات الكيف، ونسب الكم والعدد ، بيد أن هذه العلاقات توجد أيضاً فى الأشياء المادية كما توجد فى أفعالنا ، وعواطفنا ، وإرادتنا ، فلماذا ننظر إلى الرضا بين الموجودات البشرية على أنه فعل إجرامى ، فى حين أننا لا ننظر إليه على أنه خاطئ من الناحية الأخلاقية عندما

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

بوجه عام ، دون إشارة إلى مصطلحتنا الخاصة ، فإنه يسبب شعوراً أو جدائاً يصفه بأنه خير أو شرير من الناحية الأخلاقية » ^(٥٢) . كما أن اللذة الجمالية خالية من الغرض . لكن على الرغم من أن الجمال الأخلاقي والجمال الطبيعي يشبه بعضهما بعضاً بصورة وثيقة ، فإن الاستحسان الأخلاقي ليس هو الذى نشعر به ، مثلاً بالنسبة لمبنى جميل ، أو جسم جميل .

ولذلك يعرف فرض هيوم الفضيلة بأنها أى فعل عقلى أو كيفية تولد عند ملاحظ ما الشعور بالاستحسان ، فى حين أن الرذيلة تكون عكس ذلك ^(٥٣) . هل تتضمن وجهة النظر هذه نزعة نسبية محضة ، بناء على المبدأ الذى يقول ليس هناك نزاع حول الأنواع؟ واضح أن هناك - فى الغالب - اختلافات بين أحكام أناس مختلفين ، ويبدو أن هيوم اعتقد أن مشاعر الأخلاق العامة مشتركة بالنسبة لكل الناس ، ليس بمعنى أن كل الموجودات البشرية العادية تمتلك شعوراً أخلاقياً فحسب، ولكن أيضاً بمعنى أن هناك اتفاقاً أساسياً يقينياً فى عمل هذه المشاعر . فعندما نتحدث عن التمرد ضد طاغية ، فإنه يلاحظ أن فساد الحس المشترك الأكثر عنفاً هو وحده الذى يقودنا إلى أن نحكم على المقاومة بأنها ظلم . ثم يضيف قائلاً : «إن رأى العام للبشرية له سلطة فى كل الحالات ؛ لكنه معصوم من الخطأ تماماً فى حالة الأخلاق . وهو ليس معصوماً من الخطأ لأن الناس لا يستطيعون أن يفسروا بوضوح المبادئ التى يقوم عليها ^(٥٤) وإذا رجعت المشاعر الأخلاقية إلى التكوين الأصلى لعقول الناس ، فسيكون طبيعياً فقط أن يكون هناك اتفاق أساسى . وإذا قامت التمييزات الأخلاقية على المشاعر وليس على العقل ، فإننا لا نستطيع أن نتجاوز اتفاقاً فى الشعور ونلجأ إلى معيار آخر.

يثير هيوم فى كتابه «رسالة ..» سؤالاً هو «لماذا يولد أى فعل أو شعور - بوجه عام - رضا معيناً أو عدم رضا ؟ » ^(٥٥) بيد أننا سنؤجل الإجابة عن هذا السؤال لحين مناقشة الفضائل المختلفة . لأنه ربما لا يكون سبب إثارة نوع ما من الفعل شعوراً أخلاقياً هو نفسه - بدقة - سبب إثارة نوع آخر من الفعل شعوراً أخلاقياً . وعلى أية حال - كما يقول هيوم فى كتابه «بحث مبادئ الأخلاق» - «لا نستطيع سوى أن

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

٧ - دعنا نأخذ في البداية فضيلة الأريحية ، تشير الأريحية والسخاء في كل مكان استحسان البشرية وإراداتها الخيرة «إن صفة: اجتماعي، ومحسن، وعواطف، ورحيم ومعترف بالجميل، وودود ، وكريم، أو مرادفاتهما ، هي صفات معروفة في كل اللغات، وتعتبر بصورة كلية عن الفضيلة القصوى التي تستطيع الطبيعة البشرية بلوغها»^(٦٠). وفضلاً عن ذلك، عندما يثنى الناس على الإنسان الأريحي العطوف ، « فإن هناك ظرفاً ما يتم التأكيد عليه بكثرة ، وأعني السعادة والرضا اللذين يحصل عليهما المجتمع من تفاعله وأعماله الخيرة». ويفترض ذلك أن منفعة الفضائل الاجتماعية «تكون على الأقل جزءاً من قيمتها، وهي مصدر من ذلك الاستحسان والتقدير اللذين يوجه إليهما الاهتمام بصورة كلية... ويوجه عام، بقدر ما يكون الثناء متضمناً في صفة «نافع» البسيطة، بقدر ما يكون اللوم متضمناً في عكسها»^(٦١) .

وينبغي أن نلاحظ أن هيوم لم يقل إن الأريحية تُقدر كفضيلة بسبب منفعتها . إذ إن هناك بعض الكيفيات، مثل البشاشة، تكون مستحبة بصورة مباشرة، دون أي إشارة إلى المنفعة (التي تعنى عند هيوم ميلاً إلى توليد خير أبعد أو أقصى)، والأريحية نفسها تكون لذة ومستحبة، بيد أن الاستحسان الأخلاقي الذي تثيره الأريحية يسببه - في بعض منها - منفعتها .

وقبل أن نمضي قدماً في موضوع المنفعة، لابد أن نلاحظ أن هيوم يخصص ملحقاً لكتابه «بحث مبادئ الأخلاق» لكي يبين أن شيئاً مثل الأريحية أو بالأحرى ما نسميه بالأريحية ، ليس فحسب صورة مقنّعة من حب الذات، وربما تمتد وجهة النظر التي تقول إن الأريحية هي بالفعل صورة من حب الذات من المذهب الكلي الرخيص إلى محاولة فلسفية للمحافظة على الحقائق الواقعية للحياة الأخلاقية عندما تمتد بتحليل للطريقة التي يأخذ فيها حب الذات ذلك الشكل الخاص الذي نسميه بالأريحية. غير أن هيوم يرفض وجهة النظر هذه بجميع صورها. لأن «العلّة الأكثر بساطة ووضوحاً التي تُنسب إلى أي ظاهرة ربما تكون العلة الصحيحة»^(٦٢). وهناك - بالتأكيد - حالات يكون فيها من البساطة إلى حد كبير أن نعتقد أن شخصاً ما تحركه الأريحية وحب الخير أكثر مما تدفعه الاعتبارات الملتوية للمصلحة الذاتية لكي يفعل بطريقة أريحية. وأيضاً، لأنه حتى الحيوانات تظهر - أحياناً - الشفقة والحنان عندما لا يكون أثر من

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ذلك مبدأ موجود في الطبيعة البشرية. ولا بد أن نتوقف في مكان ما عندما نفحص العلل»^(٧٧).

وعندما يثبت هيوم أن منفعة الآخرين يمكن أن تكون مستحبة لنا بصورة مباشرة، حتى أن. «كل شئ يساهم في سعادة المجتمع يرجع مباشرة إلى استحساننا وإرادتنا الخيرة»، فإنه يبدو أنه عدل - أو بالأحرى غير- وجهة النظر التي وضعها من قبل في كتابة «رسالة...». لأنه يقول هناك «لا توجد عاطفة في الأذهان البشرية مثل حب البشرية، من حيث إنها كذلك فقط ، مستقلة عن كيفيات شخصية ، وعن خدمات ، أو العلاقات بالذات»^(٧٨). إن سعادة الآخر أو شقاءه تؤثر فينا - بالفعل - عندما لا تكون على مسافة بعيدة، وعندما نتمثلها في حقيقتها الصوية، «بيد أن ذلك لا يصدر إلا من التعاطف»^(٧٩). ويُفسر التعاطف، كما رأينا في الفصل الأخير، عن طريق مبادئ التداعي . غير أن فكرة تداعي الأفكار تنزوي ولا تظهر في كتابة «بحث في مبادئ الأخلاق» ويدعم هيوم وجهة النظر القائلة بأن فكرة لذات الناس الآخرين وألامهم تثير فينا عاطفتي حب الخير والأريحية بصورة مباشرة. وبمعنى آخر، تكون لذات الآخرين، وما هو «مفيد» لهم، أى ما يولد لذة فيهم ، أو يمكن أن تكون، مستحبة لنا. ولا داعي لأن نلجأ إلى آلية متداعية محكمة لكى نفسر العواطف الغيرية. وبوجه عام يميل هيوم في واحد منها، وربما لا يكون هذا الميل مستمداً من حب الذات .

٨ - لقد رأينا المنفعة عند هيوم أحد الأسباب التي تجعل الأريحية تصوذ استحساننا الأخلاقي. غير أنها ليست هي السبب الوحيد. ومع ذلك يرى أن «المنفعة العامة عى الأصل الوحيد للعدالة، وأن التأملات فى النتائج المفيدة لهذه الفضيلة هي الأساس الوحيد لقيمتها»^(٧٠).

إن المجتمع مفيد- بالطبع - للإنسان . دح الفرد وشأنه، ستجد أنه لا يستطيع أن يزود نفسه بحاجاته بوصفة موجوداً بشريا . ولذلك، تدفع المصلحة الشخصية الناس إلى المجتمع. غير أن ذلك ليس وحده كافياً . لأنه إذا لم تكن هناك اتفاقات تؤسس حقوق الملكية وتنظمها ، تنشأ الاضطرابات، فى المجتمع لا محالة. إن هناك حاجة «إلى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ولا يقدم هيوم أى تعريف واضح للعدالة ولا حتى - كما يبدو لى - أى إشارة واضحة بالفعل لما يعنيه بالمصطلح. إنه يؤكد فى كتابه «بحث فى مبادئ الأخلاق» أن «السلام العالم والنظام ملازم للعدالة، أو امتناع عام عن ممتلكات الآخرين»^(٧٧)، أما فى كتابه «رسالة..» تحت العنوان العام «العدالة والظلم» فنظر فى البداية إلى المسائل التى ترتبط بالملكية، ويخبرنا بأن «قوانين الطبيعة» الثلاثة الأساسية هى «تلك القوانين التى تربط بالحياة الدائمة للملكية، ونقل الملكية عن طريق الرضاء والقبول، والوفاء بالعهود»^(٧٨). وعلى أية حال، ما هو لى وواضح هو أن كل قوانين العدالة العامة والخاصة، ترتكز- فى رأيه - على المنفعة .

ونستطيع بالتالى أن نفهم ما يقصده هيوم بتسمية العدالة «فضيلة اصطناعية». فهى تفترض مقدماً اتفاقاً بشرياً ، يقوم على المصلحة الذاتية. إن العدالة تولد اللذة والاستحسان «عن طريق براعة أو اختراع ينشأ من ظروف البشرية وحاجتها»^(٧٩). إن معنى العدالة ينشأ من اتفاق يكون علاجاً «لمتاعب» موجودة فى الحياة البشرية. العلاج - إذن - ليس مستمداً من الطبيعة، ولكن من اختراع ، إذا شئنا أن نتحدث بصورة أكثر ملاءمة، الطبيعية تمد بعلاج فى الحكم على ما هو شاذ ومزعج فى الميول والعواطف وفهمه^(٨٠). ولا يعنى هيوم باستخدام كلمة «اختراع» أنها مجرد مسألة نوق، أو مسألة اختيار تعسفى سواء نظرنا إلى العدالة على أنها فضيلة وتؤسس قوانين العدالة أم لا. «إن معنى العدالة والظلم ليس مستمداً من الطبيعة، ولكنه ينشأ بصورة اصطناعية، ومع ذلك بصورة ضرورية، من التربية والاتفاقات البشرية»^(٨١). إن العدالة «اصطناعية» بمعنى أنها اختراع من اختراعات الإنسان، ويخترعها بوصفها علاجاً للأثنية البشرية والطمع الذى يرتبط بالزاد النادر الذى يودى إلى فقره . وإذا لم يتم إدراك هذه الظروف ، لن تكون هناك عدالة . «إنك إذا نظرت إلى العدالة على أنها بدون فائدة تماماً، فإنك تحطم بذلك ماهيتها، وتعلق الإلزام على البشرية»^(٨٢). غير أنه لابد من إدراك الظروف، ويكون «الاختراع» مطلوباً من أجل منفعة الإنسان. وحيثما يكون الاختراع واضحاً وضرورياً بصورة مطلقة، فمن المحتمل أن نقول إنه طبيعى مثل أى شئ يصدر مباشرة من مبادئ أصلية،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

العقل - بالطبع - فى تأسيس قواعد معينة. وهكذا يدرج هيوم فضيلة العدالة داخل النموذج العام لنظريته الأخلاقية. إن الشعور أساسى، غير أن ذلك لا يعنى أن العقل ليس له دور فى الأخلاق.

٩ - يشرح هيوم فى فهم حياة البشر الأخلاقية عن طريق دراسة الوقائع التحريية. فالقول بأن الناس يصنعون أحكاماً أخلاقية هو أمر واضح؛ لأنه واقعة تجريبية لا تحتاج إلى برهان. لكن ليس يصنعون واضحاً - بصورة مباشرة - ماذا يفعل الناس عندما يصنعون هذه الأحكام، وما هو الأساس البعيد للأحكام موضوع الاهتمام. لقد تصور بعض الفلاسفة أحكام أحكام القيمة على أنها نتاج الاستدلال، أى على أنها نتائج عملية منطقية. لقد حاولوا أن يبنوا نسق الأخلاق من جديد بوصفه نسقاً عقلياً يشبه الرياضيات. غير أن تفسيراً من هذا النوع يحمل تشابهاً قليلاً مع الوقائع. فحيثما يكون هناك اتفاق عام على القيم والمبادئ الأخلاقية، فإننا نستطيع أن نبرهن على إذا ما كانت حالة معينة تدرج - مثلاً - تحت مبدأ معين أم لا. وبعد أن نضع حكماً أخلاقياً، نستطيع أن نبحث عن أسباب لتدعيمه. بيد أن افتراض أن الأحكام الأخلاقية هى فعل المقام الأول نتيجة العقل، أى نتيجة عملية استنباطية تشبه الرياضيات، لا تلائم المعطيات المتاحة. إن أحكام الناس الأخلاقية تتأثر، من ناحية الممارسة، عن طريق التربية وعوامل خارجية أخرى. لكن إذا نحينا التساؤل جانباً سيكون جلياً إذا راقبنا تجربة أخلاقية عينية، أى عندما يضع شخص حكماً أخلاقياً سيكون هناك عنصر من المباشرة IMMEDIACY لا يُفسر بناءً على التفسير العقلى للأخلاق. إن الأخلاق تشبه الاستباطيقا أكثر من الرياضيات. وصحيح أن نقول إننا: «نشعر» بالقيم أكثر مما نستنبط القيم، أو نصل إلى أحكام أخلاقية عن طريق عملية الاستدلال المنطقى من مبادئ مجردة.

وعندما وجه هيوم الانتباه إلى عنصر المباشرة فى الحكم الأخلاقى، فإنه أكد مسألة لها أهميتها، بيد أن سيكولوجة العامة قد أعاقته عند تفسيره الأبعد للمسألة. فمن حيث إن رفض التسليم بأن التمييزات الأخلاقية تُستمد من عمليات العقل التى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ربما يكون طبيعياً أن هيوم يؤكد على السلوك، وصفات السلوك فقط، إذا سلمنا بتفسيره للحرية. لأنه إذا ارتدت الحرية إلى التلقائية، سيكون لفعل قيمة إما بوصفه تجلياً لسلوك، أو بسبب «منفعته» ولذلك، اعتدنا أن ننظر إلى أنماط السلوك والصفات الشخصية على أنها تتال الإعجاب أو العكس، بدلاً من أن ننظر إليها على أنها صواب أو خطأ، وهي كلمات نعكسها بالنسبة للأفعال. ولذلك إذا أكدنا صفات شخصية، بدلاً من أفعال، فمن المحتمل أن نميل إلى أن نجعل الحكم الأخلاقي أو حكم القيمة مشابهاً للحكم الاستطائقي. وتجد هيوم يمر- بالفعل - مر الكرام على الاختلاف بين الصفات الأخلاقية أو الفضائل والمنح الطبيعية والمواهب. وإذا نظرنا، على أية حال، إلى الأفعال على أن لها قيمة بسبب منفعتها، فإننا نميل إلى تطوير نظرية نفعية. ونجد خطين من التفكير في تحليل هيوم للأخلاق.

ولذلك، يبدو لي أن أخلاق هيوم مشروطة إلى حد كبير بمواقف تبنّاها من قبل، وتحتوى على خطوط مختلفة من التفكير. وقد طور «بنتام» و«جيمس مل» و«جون ستيوارت مل» العنصر النفعي فيما بعد، في حين أن الإصرار على الوجدان وجد حياة جديدة في المذهب التجريبي الحديث في نظرات الأخلاق الانفعالية .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- Ibid. (٢٢)
- Ibid, p. 318. (٢٣)
- T., 2.1.11. p. 318. (٢٤)
- Ibid, p. 320. (٢٥)
- T., 3.3.11. p. 576. (٢٦)
- T., 2.3.1. p. 339. (٢٧)
- T., 2.3.1. p. 404. (٢٨)
- Ibid, p. 407. (٢٩)
- T., 2.3.3. p. 413. (٣٠)
- Ibid. (٣١)
- Ibid. (٣٢)
- Ibid, p. 414. (٣٣)
- Ibid. (٣٤)
- T., 2.3.3. pp. 404 -15. (٣٥)
- Ibid, p. 418. (٣٦)
- (٣٧) يستخدم هيويم هنا كلمة «انفعال» بمعنى حرفى ليعنى حركة نشعر بها أو حركة ظاهريّة. (المؤلف)
- T., 2.3.3. p. 418. (٣٨)
- Ibid. (٣٩)
- Ibid, p. 418. (٤٠)
- E. M., 1.133.9. 170. (٤١)
- E. M., 1.134. 170. (٤٢)
- E. M., 1.137, pp. 172 -3. (٤٣)
- E. M., Appendix 1,237-287. (٤٤)
- T., 3,1, p. 463. (٤٥)
- T., 3,3, pp. 468 -9. (٤٦)
- Ibid, p. 463. (٤٧)
- Ibid, p. 468. (٤٨)

- E. M., Appendix 1,239, pp. 288 -9. (٤٩)
- T., 3.1.2. p. 470. (٥٠)
- Ibid, p. 472. (٥١)
- Ibid. (٥٢)
- E. M., Appendix 1,239, p.289. (٥٣)
- T., 3.2.9. p. 552. (٥٤)
- T., 3.1138. p. 475. (٥٥)
- E. M., 1.138. p. 174. (٥٦)
- E. M., Appendix 1,244, p. 293. (٥٧)
- E. M., Appendix 1,244, p. 293. (٥٨)
- Ibid, p. 274, pp, 293 -4. (٥٩)
- E. M., 2, 1,139, p. 176. (٦٠)
- Ibid, p. 176. (٦١)
- E. M., Appendix 2,251, p. 299. (٦٢)
- Ibid, p. 252, p, 300. (٦٣)
- Ibid, p. 253, p, 301. (٦٤)
- E. M., 5,1,177, p. 218. (٦٥)
- E. M., 5,2,178, p. 219. (٦٦)
- E. M., 5,2,178 note, pp. 219 -20. (٦٧)
- T., 3,2,1 p. 481. (٦٨)
- Ibid. (٦٩)
- E. M., 3,1,145, p. 183. (٧٠)
- T., 3,2, p. 489. (٧١)
- Ibid, p. 490 (٧٢)
- Ibid, (٧٣)
- Ibid, P. 491. (٧٤)
- Ibid. (٧٥)

- T., 3.2.2. pp. 499 - 500. (V٦)
- E. M., Appendix 3, 256, p. 304. (V٧)
- T., 3.2.6. p. 526. (V٨)
- T., 3.2.1. p. 477. (V٩)
- T., 3.2.2. p. 489. (٨٠)
- T., 3.2.1. p. 483. (٨١)
- E. M., 3, 1, 149, p. 188. (٨٢)
- T., 3, 2, 1, p. 484. (٨٣)
- E. M., Appendix 3, 255 - 6, pp. 303 -4. (٨٤)
- T., 3, 2, 3 p. 496. (٨٥)

الفصل السابع عشر

هيوم (٤)

السياسة بوصفها علماً - أصل المجتمع - أصل الحكومة - طبيعة
الولاء وحدوده - قوانين الأمم - ملاحظات عامة

١ - ينظر هيوم إلى السياسة على أنها علم بمعنى ما لهذه الكلمة. وكما رأينا من قبل تُصنف السياسة - التي توصف بأنها تنظر إلى الناس على أنهم يتحدثون في مجتمع ويعتمد كل منهم على الآخر - مع المنطق، والأخلاق، والنقد، بوصفها جزءاً من علم الإنسان ^(١). ويرى هيوم في مقال عنوانه «السياسة قد تكون علماً» ما أعظم قوة القوانين وقوة الصور الجزئية للحكومة، وما أقل اعتمادها على حالات الناس النفسية وأمزجتهم حتى إن النتائج التي تكون في الغالب عامة ويقينية قد تُستنبط أحياناً منها مثل أى نتيجة تقدمها لنا العلوم الرياضية. وفي نهاية كتاب «بحث في الفهم الإنساني» تنفصل السياسة عن الأخلاق والنقد. «إن الاستدلالات الأخلاقية إما أن تخص وقائع جزئية أو وقائع عامة؛ أم العلوم التي تعالج الوقائع العامة فهي السياسة، والفلسفة الطبيعية، والفيزياء، والكيمياء.. الخ، حيث يتم بحث كيفيات الأنواع ككل من الموضوعات والعلل والنتائج» ^(٢). ومع ذلك، «ليست الأخلاق والنقد، بصورة ملائمة، موضوعات للفهم مثل موضوعات الذوق والعاطفة» ^(٣). «إن لدينا هنا - بالتالي - تصنيفاً مختلفاً عن التصنيف الموجود في مقدمة كتاب «رسالة..»، ومهما يفكر هيوم في الأخلاق، فإنه يحاول أن يحافظ على السياسة بوصفها علماً، ويصنفها مع الفلسفة الطبيعية والكيمياء. ومع ذلك، يذكر هيوم السياسة مع الأخلاق والنقد في كتابة «محاورات في الدين الطبيعي». «طالما أننا نحصر تأملاتنا في التجارة أو في

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

وعلى أية حال، من المهم أن ندرك أن هيوم لا يتصور الموجودات البشرية البدائية على أنها تفكر في الأضرار التي تلحق بها دون مجتمع منظم، مستنبطة علاجاً، وتدخل في أى عقد أو اتفاق اجتماعي واضح. وبغض النظر عن الحقيقة التي نقول إنه لم يسلم بأن العهود والعقود تلزم بقوة بغض النظر عن مجتمع وقواعد العدالة، فإنه يصير على أن منفعة المجتمع مسألة نحس بها، أصلاً، بدلاً من أن نجعلها حكم تأملي. إذ يمكن هناك اتفاق بين الناس على الرغم من عدم إبرام عهود واضحة. وعندما يتحدث هيوم عن الاتفاق الذي تنشأ منه فكرة العدالة، والملكية والحق، فإنه يستخدم مثلاً مشهوراً يوضح ما يطلق عليه اسم «المعنى العام للمصلحة» الذي يتم التعبير عنه بالفعل، وليس بالكلمة. هذا المثال هو: «شخصان يجذبان مجداف قارب، إتهما يفعلان ذلك بالمعرف أو الاتفاق، وعلى الرغم من أن أحدهما لم يقدم وعداً للآخر على الإطلاق.. وعلى نحو مماثل تقوم اللغات بالتدريج عن طريق الأعراف البشرية بلا وعود»^(٦).

يقوم هيوم إنه ليس من الضروري فقط - لكي يتكون المجتمع - أن يكون مفيداً، بالفعل، الناس، ولكن يجب على الناس أيضاً أن «يشعروا بتلك الفوائد. وإذا لم نتصور أن الناس البدائيين وصلوا إلى هذه المعرفة عن طريق التفكير والدراسة، فكيف وصلوا إليها؟ ورد هيوم هو أن المجتمع ينشأ عن طريق الأسرة. فالشهوة الطبيعية تجذب أعضاء الجنس معاً وتحافظ على وحدتهم حتى تنشأ رابطة جديدة، أى اهتمامهم المشترك بنسلهم. «إن العادة التي تؤثر على أذهان الأطفال اللينة تجعلهم يشعرون، في وقت قصير، بالمزايا التي قد يجنونها من المجتمع، كما أنها تشكلهم عن طريق درجاته، أى عن طريق محو المآزق الصعبة، والوجدانات العنيدة التي تمنع اتحادهم»^(٧). ولذلك تكون الأسرة (أو بصورة أكثر دقة الشهوة الطبيعية بين الجنسين) هي «المبدأ الأول والأصيل للمجتمع البشري»^(٨). ويحدث الانتقال إلى مجتمع أوسع - أساساً - عن طريق الحاجة التي يشعر بها الناس إلى ترسيخ ملكية الخيرات الخارجية.

ولأن هناك شكاً في الشعور بحاجة وليس في دراسة حالة الإنسان بوعي، والوصول إلى حكم عام وتأمل على طريق الملازمة لمواجهتها، ولأن هذه الحاجة موجودة من الناحية العملية منذ بداية الحياة البشرية على الأرض، فإننا نستطيع أن نفهم أن هيوم لم يشعر بتعاطف مع نظرية حالة الطبيعة أكثر من أن يشعر بتعاطف مع

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الحكومة يصعب جدا الاتفاق على خطط ومشروعات من أجل الخير العام وتنفيذ هذه المشروعات بصورة منسجمة. إن المجتمع المنظم يعالج هذه المتاعب. «وهكذا تُبنى الكبارى، وتُفتح الموانئ، وترُفع الأسوار، وتُحفر القنوات، وتُجهز الأساطيل، وتنظم الجيوش، كل ذلك يتم فى كل مكان عن طريق رعاية الحكومة» (١٢).

إن الحكومة هى - بالتالى - «اختراع» ذو منفعة عظيمة للناس. لكن كيف تنشأ؟ هل هى ضرورية للمجتمع حتى إنه لا يمكن أن يكون هناك مجتمع بونها؟ يقول هيوم بوضوح فى كتابه «رسالة..» أنه لا يتفق مع أولئك الفلاسفة الذين أعلنوا أن الناس ليسوا قادرين على وحدة اجتماعية دون حكومة. فحالة المجتمع دون حكومة هى حالة من أكثر الحالات الطبيعية للناس، ولا بد أن تبقى عن طريق انضمام عدة أسر، وتستمر بعد الجيل الأول، ولاشئ يمكن أن يجبر الناس، ولا بد أن تبقى عن طريق انضمام عدة أسر، وتستمر بعد الجيل الأول، ولاشئ يمكن أن يجبر الناس على أن يتخلصوا منها سوى الثروات والممتلكات (١٣). إن وجود المجتمعات - كما يرى هيوم - دون حكومات منظمة هو أمر تحقق تجريبياً فى القبائل الأمريكية. ويبدو أنه يعنى، للوهلة الأولى على الأقل، أن الناس البدائيين - الذين يدركون ضرورة الحكومة بعد مدة - يجتمعون معاً لى يختاروا قضاة، ويحددوا سلطتهم، ويعدهم بالطاعة. ويحدث ذلك لأن «قوانين الطبيعة» (المبادئ الأساسية للعدالة)، والطابع الملزم للعهد مفترضة سلفاً، إنها تسبق تأسيس الحكومة، على الرغم من أنها لا تسبق تأسيس الاتفاق الذى يكون كامناً فى المجتمع.

وإذا كانت وجهة نظر هيوم هى بالفعل أن الحكومة تدين بأصلها لاتفاق أو عهد واضح، فإن ذلك قلما يتسق مع رؤيته العامة. لأنه يؤكد كما رأينا فيما يتعلق بأصل المجتمع المنفعة «التي تشعر بها» ويشكك فى النظرية العقلية عن العقود الاجتماعية. بيد أنه، مع ذلك قد يتحدث أحياناً، ولا أعتقد أنه يميل إلى القول بأن الحكومة تنشأ عن طريق اتفاقات واضحة. فمن المحتمل - فى رأيه - أن تنشأ الحكومة، ليس عن طريق تطور بسيط وتوسيع لسلطة أبوية أو لحكومة أبوية، ولكن عن طريق حروب بين مجتمعات مختلفة. إن الحرب الخارجية تنتج بالضرورة حرباً أهلية فى حالة المجتمعات التى لا توجد بها حكومة. ومن ثم فإن المبادئ الأولى للحكومة - كما يمكن أن نرى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

لم يبق لها ذكر، قامت أساساً على الاغتصاب، أو الغلبة، أو على كليهما، دون أى أدعاء لاتفاق عادل، أو خضوع إرادى للناس.. إن سطح الأرض يتغير باستمرار، عن طريق نمو ممالك صغيرة إلى إمبراطوريات كبيرة، عن طريق انحلال الممالك الكبيرة إلى ممالك أصغر، وعن طريق إقامة مقاطعات، وعن طريق هجرة القبائل. فهل هناك أى شئ يمكن اكتشافه فى كل تلك الأحداث سوى القوة والعنف؟ أين الاتفاق المتبادل، أو الترابط الإرادى الذى نتحدث عنه كثيراً؟ وحتى عندما تحل الانتخابات محل القوة، فما الذى تصل إليه؟ إنه قد يكون انتخاباً عن طريق أناس قلة أقوياء ولهم تأثيرهم ونفوذهم. أو قد يأخذ صورة التمرد الشعبى، أى أن الناس يتبعون زعيماً يدين بتقدمه ونجاحه إلى وقاحته الخاصة، أو إلى نزوة الجمهور المؤقتة، لدى معظمهم معرفة قليلة به ويقدراته، أو ليست لديهم معرفة، ولا وجود فى كلتا الحالتين لاتفاق عقلى حقيقى للناس.

وبالتالى أياً كان الأمر بالنسبة لسلطة قادة وشيوخ القبائل البدائية فى الحرب، الذين قد يقال إن الناس يتبعونهم بإرادتهم، فإن نظرية العقد عن أصل الحكومة ليس لها سوى سند تجريبي ضعيف من المعطيات المتاحة فى العصور التاريخية. إن النظرية مجرد وهم، لا تؤكدھا الوقائع. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن نبحث عن أسس واجب الولاء السياسى.

٤ - إذا سلمنا بأن هناك واجباً خاصاً بالولاء السياسى، فمن الواضح أن من العبث أن نبحث عن أساسه فى إجماع عام، وفى عهود إذا كان هناك دليل ضعيف، أو إذا لم يكن هناك دليل، على أن الإجماع مطلوب أو موجود. وبالنسبة لفكرة لوك عن إجماع ضمنى «ربما نجيب بأنه لا يمكن أن يكون لهذا الإجماع الضمنى مكان إلا حيثما يتصور شخص ما أن المسألة تعتمد على اختياره»^(١٥). لكن أى شخص يولد فى ظروف حكومة معترف بها وراسخة يعتقد أن يدين بالولاء لصاحب سيادة عن طريق واقعة هى أنه مواطن بالميلاد فى مجتمع سياسى نتحدث عنه. والافتراض مع لوك أن كل إنسان حر فى أن يترك المجتمع الذى ينتمى إليه بالميلاد هو افتراض غير حقيقى. «فهل نستطيع أن نقول بجدية إن فلاحاً فقيراً أو حرفياً لديه الاختيار الحر لأن يترك موطنه، عندما لا يعرف لغة أجنبية أو عادات ويعيش يوماً بعد يوم اعتماداً على أجور قليلة يحصل عليها؟

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

يؤسس الحكومة. «وهكذا يربط الرعايا نفس العهد، الذي يجبرهم (أى الرعايا) على الطاعة، بشخص معين، ويجعله موضوع ولأنهم»^(٢١). بيد أنه حالما تؤسس حكومة، ولم يعد الولاء يقوم على عهد، ولكن على مصلحة أو منفعة، فإننا لا نستطيع أن نلجأ إلى العهد الأصلي لكى يحدد من هو الحاكم الشرعى. وليست الواقعة التى تقول بأن بعض القبائل خضعت، فى الأزمنة السحيقة، لحاكم مرشداً لتحديد إذا ما كان «وليم أوف أورانج» أو «جيمس الثانى» هو الملك الشرعى .

أحد الأسس للسلطة الشرعية هو الحياة الطويلة لصاحب السيادة: «وأعنى الحياة الطويلة للحكم فى أى صورة من صور الحكومة، أو تتابع الأمراء»^(٢٢). وبوجه عام، لا توجد حكومات أو بيوت مالكة لا تدين بأصل سلطاتها إلى اغتصاب أو تمرد، أو يكون حقها الأصلي فى السلطة غير مأمون وغير مؤكد»^(٢٣). وفى هذه الحالة «يعطى الزمن وحده الرسوخ والثبات لحقهم ويجعلهم عن طريق التأثير التدريجى على عقولهم، يقبلون أى سلطة، ويجعلونها تبدو عادلة ومعقولة»^(٢٤). أما المصدر الثانى للسلطة العامة فهو تولى الحكم الراهن، الذى يمكن أن يجعل امتلاك السلطة أمراً مشروعا حتى عندما لا يكون هناك شك فى اكتسابها منذ زمن طويل. «إن حق السلطة ليس شيئا سوى التولى الدائم للسلطة، وتدعمه قوانين المجتمع ومصالح البشر»^(٢٥). والمصدر الثالث للسلطة السياسية المشروعة هو حق الاستيلاء. أما المصدر الرابع والخامس اللذان يمكن إضافتهما فهما حق الخلافة والقوانين الوضعية، عندما يؤسس المشرع صورة معينة معينة من الحكومة. وعندما توجد كل هذه الحقوق فى السلطة معاً، تكون لدينا العلامة الأكيدة لسيادة مشروعة، إذا لم يحتاج الصالح العام، بوضوح، إلى تغيير. لكن إذا نظرنا - كما يقول هيوم - إلى المسار الفعلى للتاريخ، فإننا سرعان ما نعرف معالجة كل النزاعات حول حقوق الأمراء باستهانة. إذ لا نستطيع أن نفصل فى كل النزاعات وفقاً لقواعد ثابتة عامة. ويرى هيوم فى الحديث عن هذه المسألة فى مقاله «العقد الأصلى» أنه «على الرغم من أننا قد نحكم على لجوء إلى رأى عام، فى العلوم النظرية للميتافيزيقا، والفلسفة الطبيعية، أو الفلك، على أنه غير منصف وغير قاطع فإنه مع ذلك لا يوجد، بالفعل، معيار آخر يمكن أن نفصل عن طريقه فى أى نزاع وخلاف فى كل المسائل الخاصة بالأخلاق، والنقد، فإذا

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

يخدع أميراً أو وزيراً آخر، أكثر من أن نتسامح مع إنسان نبيل عادي يخلف وعده»^(٢٩) . لكن إذا سألنا شخصاً ما أن يعين النسبة الدقيقة التي يحصل عليها بين أخلاق الأمراء وأخلاق الأشخاص العاديين، فإنه لن يقدم إجابة دقيقة. «قد يستطيع المرء أن يقرر في أمان أن هذه النسبة توجد نفسها، بدون أي فن أو دراسة للناس؛ كما قد نلاحظ في مناسبات عديدة»^(٣٠) . ولذلك، فإن هيوم على استعداد لأن يجد حقيقة ما في مبادئ سياسة ماركيافيللي، لكنه لم يكن على استعداد لأن يقرر أن هناك أخلاقاً واحدة للأمراء. وأخلاقاً للناس العاديين .

٦ - من خصائص نظرية هيوم السياسية البارزة انتباهه إلى معطيات تجريبية ورفضه لقبول فروض فلسفية لا تؤكد لها الوقائع المعروفة. ويصدق ذلك على موقفه من نظرية العقد الاجتماعي أو نظريات العقد الاجتماعي بصفة خاصة. فهو يقبل، بالفعل، هذه النظرية إلى حد ما فيما يتعلق بالأصول الأولى للحكومة. غير أنه يتصور قبيلة تجتمع بصورة إرادية حول قائد في حرب قبلية داخلية بدلاً من أن يتصور أي عقد صوري أو عهد. ويغض النظر عن هذا الإقرار، فإنه لا يجد حاجة تدعو إلى النظريات التعاقدية. ويضع مكان هذه النظريات العقلية فكرة المصلحة أو المنفعة التي «نشعر» بها .

ثمة عنصر قوي لما يمكن أن نسميه «بالوضعية» في فلسفة هيوم الساسية. فهو يلجأ إلى ما يحدث بالفعل، أو إلى ما يعتقد كل شخص أنه معيار، بدلاً من أن يلجأ إلى استدلالات قبلية. فالسلطة السياسية، مثلاً، هي باستمرار نتاج الاغتصاب، والتعرد، أو الغلبة، وإذا كانت السلطة مستقرة وراسخة، وليست طاغية أو ظالمة بصورة واضحة جلية، فإن الأغلبية الساحقة من المحكومين تقبلها من الناحية العملية بوصفها سلطة مشروعة. وهذا يكفي بالنسبة لهيوم. والمناقشات الغامضة حول مشروعية هذه السلطة، ومحاولات البرهنة على مشروعيته عن طريق «أوهام فلسفية» هي ضياع للوقت. ومن المفيد أن نبحث فيما عساه أن تكون حقوق السلطة التي تقبل بالفعل بوصفها حقوقاً. كما أن هيوم لا يميل إلى إضاعة وقت في مناقشة صور مثالية من الدولة. ففي مقاله عن «فكرة دولة كاملة»، لم ير بالفعل، أنه من المفيد أن نعرف ما هو أكثر كملاً من نوعها، حتى نصلح صوراً موجودة من الدستور والحكومة «عن طريق تغييرات معتدلة وتجديدات قد لا تسبب اضطراباً كبيراً للغاية للمجتمع». ويقدم اقتراحات تحت هذا

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الهوامش

- T., introduction, pp. xix - xx. (١)
 E. 12, 3, 132 pp. 164 - 5. (٢)
 Ibid, p. 165. (٣)
 D., 1, p. 135 . (٤)
 T., 3, 2, 2 p. 485. (٥)
 T., 3, 2, 2 p. 490. (٦)
 Ibid, p. 456. (٧)
 Ibid. (٨)
 Ibid, p. 493. (٩)
 E. m., 4, 164, p. 104. (١٠)
 E. m., 4, 164, p. 205. (١١)
 T., 3, 2, 7, p. 539. (١٢)
 T., 3, 2, 8, p. 541. (١٣)
 Ibid, pp. 539 - 40. (١٤)
 Of the Original Contract. (١٥)
 T., 3, 2, 8, p. 546. (١٦)
 T., 3, 2, 9, pp. 550 - 1. (١٧)
 T., 3, 2, 9, pp. 550 - 1. (١٨)
 E. M., 4, 164, p. 205. (١٩)
 T., 3, 2, 9, p. 551. (٢٠)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الفصل الثامن عشر

هيوم : ماله وما عليه

ملاحظات تمهيدية - آدم سميث - برايس - ريد - كامبل - بيتي -
ستيوارت - بروان - ملاحظات ختامية

١ - ربما يكون عنوان هذا الفصل مضللاً إلى حد ما ، لأنه يفترض أنه بعد موت هيوم مباشرة - إن لم يكن أثناء حياته - اندلعت المشاحنات حول صحة نظرياته الفلسفية. غير أن ذلك ليس تصويراً دقيقاً للموقف. ففي فرنسا رحبوا به بوصفه أديباً بريطانياً رائداً، وكان موضع حقارة في «صالونات» Salons باريس أثناء زيارته لهذا البلد. لكن على الرغم من أن مقالاته وكتابات التاريخية نالت حقها في التقدير، فإن فلسفته لم يكتب لها النجاح في بلده أثناء حياته. ولولا الفضيحة التي كان سببها سمعته اللاهوتية غير الطيبة، ماكان هناك اهتمام كبير بها . وبالتالي إذا نُظر إلى هيوم - بوجه عام - على أنه الفيلسوف البريطاني الرئيسي، وعلى أنه - بالتأكيد - المفكر البريطاني الرائد في عصره، فإن ذلك يرجع إلى أن نظرياته أخذت مكانتها الحقة، إن صحَّ التعبير، في المذهب التجريبي الحديث. فقد مارس - بلا شك - تأثيراً عميقاً في الفكر الفلسفي؛ بيد أننا إذا وضعنا في ذهننا التأثير الذي مارسه المذهب التجريبي عند هيوم على فكر كانط، فإن مظاهره الأكثر أهمية سوف تبقى لفترة طويلة بعد ذلك .

ومع ذلك كان هناك أثناء حياة هيوم عدد ضئيل من المفكرين في بلده قبلوا أفكاره الفلسفية برضا كبير أو قليل. وكان من بين هؤلاء الأكثر شهرة وتألقاً صديقه

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

خطاباً حاراً بالتهنئة من هيوم، ويبدأ سميث فى هذا الكتاب الأم من كتب الاقتصاد بالإصرار على العمل السنوى للأمة بوصفه مصدر مورها من ضرورات الحياة ووسائل راحتها، ويستمر فى مناقشة أسباب التحسن فى إنتاجية العمل وتوزيع نتاجه. ويعالج الكتاب الثانى طبيعة المخزون وتراكمه واستخدامه . أما الكتاب الثالث فيعالج التقدم المختلف للثروة فى أمم مختلفة، ويعالج الكتاب الرابع أنظمة الاقتصاد السياسى، ويعالج الكتاب الخامس دخل صاحب السيادة أو الدولة. وهناك عدد كبير من الملاحظات والمباحث الإضافية .

وفى عام ١٧٧٨ عُين «سميث» مستشاراً للجمارك فى استكلندا. وانتخب عام ١٧٨٧ رئيساً لجامعة جلاسجو. وتوفى فى السابع عشر من يوليو عام ١٧٩٠ .

ولن نهتم هنا بنظريات سميث الاقتصادية، ولكننا سنهتم بفلسفته الأخلاقية. وتجدر الإشارة - على أية حال - إلى أنه عندما كان يحاضر فى «جلاسجو» قسم مقررته إلى أربعة أجزاء هي: اللاهوت الطبيعى، والأخلاق، وجزء الأخلاق الذى يتصل بالعدالة، وتلك المؤسسات السياسية ، التى تشمل المؤسسات التى تتصل بالدخل والتجارة، التى تقوم على «الملاءمة للفرص» expediency، وليس على مبدأ العدالة، والتى تميل إلى زيادة ثروات الدولة وقوتها. ولذلك ، فإن الاقتصاد عند سميث هو جزء من جسم كل من المعرفة، تكون الأخلاق جزءاً آخر منها .

ومن الخصائص البارزة لنظرية سميث الأخلاقية المكانة المحورية التى تعطىها للتعاطف . إن إعطاء أهمية أخلاقية للتعاطف لم يكن، بحق، موقفاً جديداً فى الفلسفة الأخلاقية البريطانية، فقد أعطى «هاتشيسون» أهمية لها ، واستخدم هيوم مفهوم التعاطف استخداماً عظيماً كما رأينا، غير أن استخدام سميث له أكثر وضوحاً فى أنه يبدأ كتابه «نظرية العواطف الأخلاقية»^(١) . بهذه الفكرة، ولذلك يعطى لأخلاقه منذ البداية طابعاً اجتماعياً .

إن القول بأننا نستمد - فى الغالب - الحزن من حزن الآخرين لهو قول واضح، فى حقيقة الأمر ، حتى إننا لا نحتاج إلى أى أمثلة للبرهنة عليه^(٢) . وليس

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

العواطف، لكن حتى في هذه الحالات، نجد أن استحسنانا يرتكز، بالفحص والمعاينة، على التعاطف. وبأخذ سميث مثلاً لما يطلق عليه اسم طبيعة هزلية تماماً. فقد استحسن شخصاً هزلياً، والضحك الذي ينتج عن ذلك، حتى على الرغم من أنني لا أضحك، لسبب أو لآخر. غير أنني أعرف عن طريق التجربة ما هو نوع الفكاهة التي يمكنها أن تسليني وتجعلني أضحك، وألاحظ أن الشخص الهزلي الذي أتحدث عنه هو من هذا النوع. وحتى على الرغم من أنني لست في حالة نفسية تلائم الضحك، فإنني استحسن الشخص الهزلي، ومرح الصحبة، وهذا الاستحسان هو التعبير عن «التعاطف المشروط». فأنا أعرف، إن لم يكن بالنسبة لحالتي النفسية الراهنة أو ربما بالنسبة لمريضى، أنني أشارك - بالتأكيد - في الضحك، كما أنني إذا رأيت شخصاً غريباً يمر تظهر عليه علامات الكرب والألم، وعرفت أنه فقد والده أو والدته أو زوجته، فإنني أستحسن عواطفه، حتى على الرغم من أنني لا أشاركه بلاءه بالفعل. لأنني أعرف عن طريق التجربة أن مصيبة من هذا النوع تثير هذه العواطف بصورة طبيعية، وإذا كنت مضطراً على أن أغتتم الفرصة لأن أتأمل موقفه وأشارك فيه، فإننى أشعر، دون شك، بتعاطف صادق .

يجعل سميث الإحساس باللياقة Propriety العنصر الأساسى فى أحكامنا الأخلاقية. ويتحدث باستمرار عن ملائمة العواطف والانفعالات والوجدانات وعدم ملائمتها، ولياقتها، وعدم لياقتها. ويقول بالتالى إن لياقة الفعل الذى ينتج ، أو عدم لياقته، وحشمته، أو عدم كياسته، تكمن فى الملائمة أو عدم الملائمة، وفى اللياقة، وعدم اللياقة، التى يجدر أن الوجدان يتصل بالعلة أو الموضوع الذى يستثيرها ^(٩). وفضلاً عن ذلك «تكمن قيمة الفعل أو عدم قيمته، أى الكيفيات التى يستحق بها الثواب أو العقاب، فى الطبيعة النافعة أو الضارة للمعلومات (الآثار) التى يهدف إليها الوجدان، أو يميل إلى توليدها ^(١٠) . لكن عندما أستهجن استياء شخص ما من حيث إنه غير ملائم لعلته المثيرة ، فإننى أستهجن استيائه لأنها

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق ميتافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ومجهزاً تجهيزاً جيداً، أو لا يكون لدينا أى سبب آخر للثناء على شخص ما سوى أننا نمدح الصندوق الذى يضع فيه ثيابه»^(١٤) . إن عاطفة الاستحسان تتضمن بداخلها باستمرار إحساساً باللياقة يتميز تماماً عن إدراك المنفعة^(١٥) .

ولكى ندخل فى تحليلات «سميث» للفضائل والعواطف، لابد أن نخصص مساحة كبيرة جداً لأخلاقه. غير أنه لابد أن نسأل كيف يفسر الحكم الأخلاقى الذى ننقله معنا إذا كان الاستحسان الأخلاقى. هو تعبير عن التعاطف. والرد هو أننا لا نستطيع، فى رأيه، أن نستحسن أو نستهن عواطفنا الخاصة، وبوافعنا، أو سلوكنا، إلا عن طريق وضع أنفسنا فى موقف شخص آخر، وننظر إلى سلوكنا من الخارج، كما هو. ولو أن شخصاً قد نشأ فى أرض صحراوية، ولم يستمتع على الإطلاق بمجتمع بشرى، فإنه لا يستطيع أن يتصور لياقة أو عيب عواطفه الخاصة وسلوكه أكثر من أن يتصور جمال أو قبح وجهه»^(١٦) . إننا نصنع أحكامنا الأخلاقية الأولى عن سلوك الآخرين. بيد أننا نعرف حالاً أنهم يضعون أحكاماً عنا. ولذلك نهتم بشغف لأن نعرف إلى أى حد نستحق ثنائهم أو نهمهم، ونبدأ فى فحص سلوكنا عن طريق تصور أنفسنا فى مكان الآخرين، مفترضين أن نواتنا هى الملاحظون لسلوكنا. وهكذا فإننى «أشطر نفسى، كما هى، إلى شخصين ... الأول هو الملاحظ .. والثانى هو الفاعل، أى الشخص الذى أسمىه بصورة ملائمة نفسى، وأحاول أن أكون عن سلوكه رأياً ما، تحت سلوك ملاحظ ما»^(١٧) . وهكذا أستطيع أن أتعاطف مع صفاتى، وبوافعى، وعواطفى، وأفعالى، أو أنفر منها .

ومن الاعتراضات الواضحة التى يمكن أن توجه ضد نظرية «سميث» الأخلاقية عن التعاطف أنه يبدو أنها لم تقسح مجاًلاً لأى معيار موضوعى للصواب والخطأ، والخير والشر. وفى الرد على هذا الاعتراض يشدد سميث على فكرة «الملاحظ غير المتحيز» . فهو يقول - مثلاً - أنه «لا يمكن تصحيح سوء التمثل الطبيعى لحب الذات إلا عن طريق عين هذا الملاحظ غير المتحيز»^(١٨) . كما أن «قوة وجود عواطفنا الخاصة الأتانية تكفى أحياناً لأن تدفع الإنسان أثناء

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

طالما أن هذه القواعد - ما عدا قواعد العدالة - فضفاضة وغير دقيقة وغير محدودة، فإن سلوكنا لابد أن يوجهه - بالأحرى - إحساس باللياقة؛ أى يوجهه نوق معين إلى طريقة معينة للفعل، ولا يوجهه احترام للقاعدة من حيث هى كذلك، ومن الممكن - بالفعل - أن نوفق بين هذه الأقوال المتنوعة. فقد يقال - مثلاً - إنه على الرغم من أن الملاحظ غير المتحيز، إذا استمعنا إليه بانتباه، لا يخدع على الإطلاق، فإن العاطفة والعادات السيئة (التي ربما تنشأ من ظروف خارجية تجعل العادات مناسبة لأداء الغرض) قد تمنع تماماً الانتباه المطلوب إليه . ومع ذلك - يبدو - على أية حال، صحيحاً أن نقول مع نقاد سميث إنه يبين قدراته فى مبحثه الأخلاقى على أنه محلل سيكولوجى بصورة تفوق كونه فيلسوفاً أخلاقياً .

٣ - لقد لاحظنا من قبل أن فلاسفة نظرية الحاسة الخلقية يميلون إلى جعل الأخلاق مشابهة للاستطائيقا (للجمال)، واعتقد أن هذا الميل يرتبط بتركيزهم على صفات السلوك بدلاً من الأفعال. وبمقدار ما جعلوا الأخلاق مشابهة للاستطائيقا، فإنهم مالوا إلى إغفال الخصائص الأخلاقية التى تميز الحكم الأخلاقى. وقد استخدمت كلمة «مالوا» عن عمد؛ لأننى لا أقصد أنؤكد أنهم وحدوا الأخلاق والاستطائيقا، أو أنهم لم يقوموا بمجهود للتمييز بينهما عن طريق عزل الخصائص المحددة للحكم الأخلاقى .

وبالتأكيد لا يمكن أن يوصف آدم سميث - بصورة ملائمة - بأنه فيلسوف من فلاسفة نظرية الحاسة الخلقية. لأنه على الرغم من إعجابه بـ «هانشيسون»، وتقديره لإنجازاته بوصفه فيلسوفاً أخلاقياً، فإنه رفض بوضوح «كل تفسير لمبدأ الاستحسان، الذى يجعله معتمداً على عاطفة خاصة، تتميز عن كل عاطفة أخرى»^(٢٧) . ويشبه سميث، فى نفس الوقت، فلاسفة نظرية الحاسة الخلقية فى ميله إلى تنويب الأخلاق فى السيكلوجيا . (كما أننى استخدم كلمة «ميل» عن عمد) . ويمكن أن نلاحظ هذا الميل عند هيوم أيضاً، على الرغم من وجود عنصر بارز من المذهب النفعى فى فلسفته الأخلاقية كما رأينا .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الأفعال تكون صواباً في ذاتها ولا تحتاج إلى تبرير أبعد عن طريق عوامل خارجية، تماماً كما أن هناك بعض الغايات القصوى «إن هناك - بلا شك - بعض الأفعال التي نستحسنها في نهاية الأمر، ولا يمكن أن ننسب لتبريرها سبباً، كما أن هناك بعض الغايات، التي نرغبها في نهاية الأمر، ولا يمكن أن نقدم لاختيارها سبباً»^(٢٨). وإذا لم يكن الأمر كذلك، لن يكون هناك ارتداد لامتناه، كما يقول برايس.

أحيا «برايس» الآراء التي تمسك بها كُتاب أوائل مثل «كديوث» و «كلارك»، في عرضه فكرة الحدس العقلي للتمييزات الأخلاقية. وتعقب برايس المصدر التاريخي لإغفال هذه العملية العقلية عن طريق أنصار نظرية الحاسة الخلقية، والنزعة الذاتية التي تلتها، وتجريبية هيوم حتى نظرية لوك عن الأفكار، وتصوره للفهم. لقد استمد لوك كل الأفكار البسيطة من الإحساس والتفكير. غير أن هناك أفكاراً بسيطة وواضحة بذاتها يدركها الفهم أو يعاينها بصورة مباشرة. ومن بين هذه الأفكار فكرة الصواب والخطأ، وإذا خلطنا بين الفهم والخيال، فإننا نميل بالضرورة إلى أن نقيّد مجال الفهم إلى حد كبير. إن «قوى الخيال ضيقة جداً، وإذا حصرنا الفهم في نفس الحدود، فإننا لا يمكن أن نعرف شيئاً وستتلاشى الملكة الخالصة نفسها. لا شيء أكثر وضوحاً من أن أحدهما يدرك - في الغالب - بينما يكون الآخر أعمى ... ويعرف أشياء توجد في أمثلة لا حصر لها، لا يستطيع الآخر أن يكون عنها فكرة»^(٢٩). إن الاستدلال يدرس، عندما ننظر إليه على أنه قوة عقلية متميزة، العلاقات بين أفكار نمتلكها من قبل، لكن الفهم يعاين أفكاراً واضحة بذاتها ولا يمكن أن تنحل إلى عناصر مستمدة من التجربة الحسية.

ولجأ برايس، في دفاعه عن قضية تقول إن الفهم يمتلك أفكاراً أصلية وواضحة بذاتها، إلى «الحس المشترك». وإذا أنكر شخص ما وجود هذه الأفكار، فيجب عليه ألا يحتج لأن الموضوع لا يقبل الجدل والحجة، إذ لا شيء أكثر وضوحاً

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

والفعل من التعلق بها والميل إليها، يعنى الفعل بنور، واقتناع، ومعرفة، لكن الفعل من الغريزة هو فعل فى الظلام، واتباع لمرشد أعمى. إن الغريزة تندفع وتتهور، لكن العقل يأمر^(٣١)، ولذلك لا يمكن أن نصف فاعلاً - بصورة ملائمة - بأنه فاضل «إلا إذا فعل من وعى بالاستقامة»، وبالنظر إليها على أنها قاعدته وغايته^(٣٢). وعلى أية حال، تكون فضيلة الفاعل أقل باستمرار كلما فعل من ميل طبيعى، أو من الغريزة بدلاً من أن يفعل وفقاً لمبادئ عقلية خالصة^(٣٣). لقد وضع برايس فى اعتباره الثواب والعقاب إلى حد أنه يعبر عن دهشته أن أى شخص ينسى أنه قد يحصل على ثواب لا حد له عن طريق الفعل بصورة فاضلة، بينما قد يعانى خسارة لا متناهية عن طريق الفعل خلافاً ويصر على أن الفضيلة هى «موضوع الرضا الرئيسى لكل إنسان فاضل: أى أن ممارستها هى ابتهاجه الرئيسى، يولد الوعى بها سروره الأقصى»^(٣٤). بيد أن إصراره على الفعل بناءً على مبادئ عقلية خالصة، ومن نظر إلى صواب صحة الأفعال، الذى يجبر الفاعل ووجهة نظره التى تقول إن فضيلة الإنسان تكون أقل فى الدرجة إذا فعل من الغريزة أو ميل طبيعى تقترب بصورة واضحة من موقف كانط. ولم يستبعد كانط نفسه كل تصور للثواب من الأخلاق، لأنه على الرغم من أنه رأى أننا لا نفعل أفعالاً صحيحة وملزمة بالنظر، ببساطة، إلى الثواب، فإنه اعتقد بالتأكيد أن الفضيلة تنتج بصورة قصوى السعادة، أو تتحد بها. كذلك بالنسبة لبرايس، لابد أن نتصور السعادة على أنها الغاية التى تتصورها العناية الإلهية، وتنتج الفضيلة السعادة. غير أن هذه السعادة تعتمد على «الاستقامة»؛ ولا يمكن أن نكون فاضلين بحق إذا لم نفعل أفعالاً صواباً لأنها صواب.

٤ - درس «توماس ريد» (١٧١٠ - ١٧٩٦) T.Reid، ابن قسيس إسكتلندى، فى أبردلين، وبعد سنوات من عمله قسيساً فى أيرشية «نيو ماشار» New Macher تم اختياره لوظيفة فى «كلية الملك» وأبردلين، ونشر كتابه «بحث فى الذهن البشرى على مبادئ الحس المشترك» عام ١٧٦٤. وهكذا على الرغم من أن «ريد» كان أكبر من هيوم بسنة، فإن عمله الأول (ما عدا كتابه مقال عن «الكَم» ظهر متأخراً بصورة كبيرة عن كتابى هيوم «رسالة...» و«بحوث...» وباختصار، تم اختيار «ريد» أستاذاً لفلسفة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ما للتفكير»^(٢٨) . ومن ثم لا تكون الأفكار شيئاً عند لوك سوى الموضوعات المباشرة للذهن فى التفكير . وقد برهن الأسقف باركلي - سائراً على هذا الأساس - بسهولة على أنه لا وجود لعالم مادي .. غير أن الأسقف لم يرد التخلي عن عالم الأرواح ... ولم يظهر مستر هيوم محاباة مفضلة لعالم الأرواح . فقد قبل نظرية الأفكار فى درجتها الكاملة ، وأظهر - بالتالى - أنه لا وجود لمادة ولا ذهن فى الكون ؛ فلا شيء موجود سوى انطباعاته وأفكاره^(٢٩) . ولم يترك مذهب هيوم له - بالفعل - ذاتاً لكى يدعى امتلاك انطباعات وأفكاره^(٣٠) . ولذلك ، اقتطعت الأفكار «التي أدخلت إلى الفلسفة فى البداية فى الشكل الوضعى لصور أو تمثلات لأشياء مكوناتها بالتدرج وقوضت وجود كل شيء سوى ذاتها ، وأكمل كتاب هيوم «رسالة ...» «انتصار الأفكار» الذى ترك الأفكار والانطباعات بوصفها الوجود الوحيد للكون^(٣١) .

يستخدم «ريد» فى الهجوم على نظرية الأفكار طريقتين للاقترب من المسألة . الطريقة الأولى هى اللجوء إلى الحس المشترك ؛ إلى الاعتقاد العام ، أو اقتناع الناس العاديين . فالإنسان العادى مقتنع بأن ما يدركه هو الشمس ذاتها ، وليس أفكاراً أو انطباعات. غير أن ريد لم يكتف باللجوء إلى اعتقادات «السذج» . فهو يبرهن أيضاً - مثلاً - على أنه لا وجود لأشياء كهذه مثل الأفكار «بالمعنى الفلسفى للكلمة» ؛ فهى أوهام للفلاسفة هذا الوهم ؟ من الأخطاء الرئيسية ، من وجهة نظر ريد ، افتراض لوك أن «الأفكار البسيطة» هى المحيطات الأولية للمعرفة . إن «المذهب المثالى» يعلمنا أن العملية الأولى للذهن عن أفكاره هى الوعى البسيط ؛ أعنى التصور المجرى لشيء ما دون أى اعتقاد فيه ، ويعد أن نحصل على ألوان من الوعى البسيطة ، عن طريق مقارنتها معاً ، ندرك ألواناً من الاتفاق أو الاختلاف بينها ؛ وهذا الإدراك لاتفاق الأفكار أو اختلافها هو ما نسميه بالاعتقاد ، أو الحكم ، أو بالمعرفة . ويبدولى - بالتالى - أن ذلك كله وهم ، دون أساس فى الطبيعة ... فبدلاً من أن نقول إننا نحصل على الاعتقاد أو المعرفة عن طريق وضعها معاً ، ومقارنة ألوان الوعى البسيطة ، يجب علينا بالأحرى أن نقول إننا أنجزنا ألواناً من الوعى البسيطة عن طريق تحليل حكم طبيعى وأصلى^(٣٢) . لقد بدأ كل من لوك وهيوم بالعناصر المفترضة للمعرفة ،

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

شخص ، على الرغم من أن كثيراً من الناس يمكنهم أن يتعلموا أن يفعلوا ذلك . لكن قوة رؤية حقائق واضحة بذاتها توجد في كل الموجودات التي تستحق أن توصف بأنها عاقلة . وهي « هبة خالصة من السماء »^(٤٧) : ولذلك لا يمكن اكتسابها إذا لم يكتسبها المرء .

ما هي علاقة الحس المشترك بهذا المعنى الخاص للمصطلح بالحس المشترك بالمعنى « العام » للمصطلح ؟ إجابة « ريد » هي أن نفس درجة الفهم التي تجعل شخصا ما قادرا على أن يكتشف ماهو صادق وماهو كاذب في المسائل الواضحة بذاتها ، ويعى بتميز^(٤٨) .

ولذلك هناك كما يرى ريد مبادئ عامة تكون الأساس لكل استدلال ولكل علم . ونادرا ماتقبل هذه المبادئ العامة برهاناً مباشراً ، ولاتحتاج إليه . ولايحتاج الناس إلى تعلمها ؛ لأنها كذلك من حيث إن كل الناس ذوي فهم مشترك يعرفونها ، أو أنها كذلك على الأقل من حيث إنها تجد قبولا ، بمجرد أن تفترض وتفهم^(٤٩) . لكن ماهي هذه المبادئ ؟ يميز ريد بين حقائق ضرورية ، وعكسها مستحيل ، وحقائق عارضة Contingent ، وعكسها ممكن . وتضم كل فئة « مبادئ أولى » . ومن بين المبادئ الأولى التي تنتمي إلى الفئة الأولى البديهيات المنطقية (على سبيل المثال ، قولنا : كل قضية إما أن تكون صادقة أو كاذبة) ، والبديهيات الرياضية ، والمبادئ الأولى للأخلاق والميتافيزيقا . ومن أمثلة المبادئ الأخلاقية الأولى التي يقدمها ريد قولنا ينبغي أن لا يلام إنسان على عمل لم يكن في استطاعته منعه^(٥٠) . ويبدو لي أن هذه البديهيات الأخلاقية لاتمتلك يقينا أقل من بديهيات الرياضيات^(٥١) ويضع ريد تحت المبادئ الميتافيزيقية الأولى ثلاثة مبادئ «لأن مستر هيوم لم يشك فيها»^(٥٢) . المبدأ الأول هو «لا بد أن يكون للكيفيات التي ندرکها عن طريق حواسنا موضوعا نسميه «بالجسم» ، ولابد أن يكون للأفكار التي نعيها موضوع ، نسميه «بالذهن»^(٥٣) . وكل الناس العانيين يعرفون هذا المبدأ من حيث إنه صادق ، وتعبر اللغة العادية عن هذه المعرفة . والمبدأ الميتافيزيقي الثاني هو «مايوجد لابد أن تكون له علة أوجدته»^(٥٤) . والمبدأ الثالث هو «يمكن أن نستدل على التدبير والذكاء (العقل) الموجودين في العلة من علامات لها توجد في المعلول»^(٥٥) .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

إن القضايا التي تكون تحصيل حاصل بصورة واضحة لا تسبب صعوبة . فإذا افترضنا معاني الالفاظ ، فإنه لا يمكن إنكارها دون وقوع في الخلف والاستحالة . وعلى الرغم من أن وجود القضايا الإخبارية الضرورية مسألة خلافية ، فإن ريد يتمسك برأيه بأن هناك قضايا كهذه . إننى أعنى أنه يمكن التعبير عن الخلاف والجدال بين «ريد» وهيوم فى هذه المسألة بوضوح . بيد أن الخلاف والجدال ليس واضحاً تماماً عندما يمتد إلى اعتقاد طبيعى فيما يسميه ريد بالمبادئ الأولى عن حقائق عارضة ، ولم يجعله «ريد» واضحاً إن هيوم لم ينكر أن هناك اعتقادات طبيعية ، وكان على وعى تام بأن هذه الاعتقادات الطبيعية تكون أساساً أو إطاراً لحياة عملية . إنه يصدر بالفعل فى بعض الأحيان تأكيدات انطولوجية ، مثلاً يقول إن الناس ليسوا شيئاً سوى حزم أو تجمعات من إدراكات مختلفة ؛ لكنه - بوجه عام - لا يهتم بإنكار قضية معطاة ، بل يهتم بفحص أسس تأكيد القضية . فلا يقول هيوم - مثلاً - إنه لاوجود لعالم خارجى ، أو أن مجرى الطبيعة غير متوقع تماماً حتى إننا لانتعتمد على الاطراد على الاطلاق : إنه يهتم بفحص أسس الاعتقادات التى يمكن أن ننسبها بصورة عقلية ، تلك التى يشارك فيها مع الآخرين بوجه عام . ولذلك ، من حيث إن ريد يلجأ إلى اعتقاد طبيعى ، أى إلى ميول طبيعية وإلى القبول العام للبشر ، فإنه ملاحظاته لامت بصلة كبيرة من حيث إنها ضد هيوم . إن ريد أدرك - بالفعل - أن هيوم يتحدث عن اعتقادات طبيعية ، غير أنه يميل إلى تقديمه على أنه ينكر ما لم ينكره بالفعل . ولو أن ريد أثبت أن ما يسميه بالمبادئ الأولى تقبل البرهان ، لكان الخلاف والجدال مع هيوم واضحاً بصورة كافية . فهل يمكن - مثلاً - البرهنة على صحة الذاكرة أم لا ؟ غير أن ريد لا يعتقد أن مبادئه الأولى تقبل البرهان . إنه عندما يتحدث عن صحة الذاكرة (من حيث المبدأ) ، يقول إن المبدأ يمتلك إحدى العلامات الأكيدة لمبدأ أول : أعنى أنه لا يزعم أحد البرهنة عليه ، على الرغم من أنه لا يشك فيه إنسان عاقل . بيد أن هيوم كان يعنى جيداً أن الناس يميلون بطبيعتهم إلى الاعتقاد فى أن التذكر موثوق به من حيث المبدأ . ويرجع ريد إلى قبول الشهادة فى المحاكم ، ويلاحظ أن «ما هو خلف وغير معقول فى المحكمة (أى ليس هناك اهتمام بالشهادة) هو كذلك فى كرسى الفيلسوف»^(١٢) . غير أن هيوم لم يحلم - بالطبع - بافتراض أن الشهادة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

معينة تحتوي أو تفترض هذه الألفاظ . وإذا قيل إن المبادئ تنتمي إلى تكوين الطبيعة البشرية ، فإن ذلك يعني أن لدينا قوة طبيعية لتمييز الصدق الواضح بذاته لهذه المبادئ ، بيد أن هذه المبادئ لاتعرف بصورة سابقة على التجربة . لكن عندما يتحدث ريد عن القضية التي تقول إن الكيفيات المدركة المحسوسة ، والأفكار التي نعيها ، لابد أن يكون لها موضوعات ، أعنى الجسم والذهن ، فإنه يتحدث عن مبادئ الاعتقاد فى الطبيعة البشرية ، التي لانستطيع أن نقدم لها تفسيراً آخر سوى أنها تنتج بالضرورة من تكوين ملكاتنا» ^(٦٥) . ويصنف هذا المبدأ ، مثل البديهيات الرياضية ، بوصفه مبدأ أول لحقائق ضرورية . وعندما نتجه إلى المبادئ الأولى للحقائق العارضة ، فإننا نجد ريد يقول عن مبدأ اطراد الطبيعة إنه «جزء من تكويننا ، وينتج معلولاته قبل استخدام الذهن» ^(٦٦) . إن المبدأ سابق على التجربة ؛ «لأن كل تجربة تقوم على اعتقاد مؤداه أن المستقبل سيكون على غرار الماضى» ^(٦٧) . إننا مجبرون عن طريق طبيعتنا على أن نتوقع أن المستقبل سيكون على غرار الماضى . إن هناك نوعاً من التوقع الطبيعي الذي لايتزعزع .

وربما تكون طرق الحديث هذه متسقة . وعندما يتحدث ريد عن المبدأ الذي يقول إن الملكات الطبيعية التي نميز بواسطتها الصدق من الخطأ ليست مضللة أو خاطئة ، فإنه يرى «أننا مضطرون إلى أن نثق بقوة الاستدلال والحكم ، ولايمكن أن نشك فى هذه المسألة ، لأنها تضر تكويننا» ^(٦٨) . كما أنه يؤكد أنه «لايتصور إنسان هذا المبدأ ، إلا عندما يتأمل أسس المذهب الشكى ؛ مع إنه يحكم آراءه بلا استثناء» ^(٦٩) .

ولذلك ، يبدو أنه يقول : أولاً ، هناك ميل طبيعي لايتزعزع للثقة بقوانا الذهنية . ثانياً : لاتعرف هذه القضية بوضوح بوصفه صادقة من البداية . وقد يقول أقوالاً مماثلة ، ليس عن مبدأ اطراد الطبيعة فحسب ، بل أيضاً عن مبدأ العلية ، الذي ينظر إليه على أنه مبدأ ميتافيزيقي وضروري . لكنه يميل - كما أعقد - إلى أن يترك قراءه بانطباع هو أن مبدأ مثل : صحة التذكر ، ووجود العالم الخارجى ، هى مبادئ واضحة بذاتها ؛ بمعنى أن لدينا دافعا طبيعيا لايتزعزع للاعتقاد فيها ؛ فى حين أن البديهيات الرياضية - مثلاً - واضحة بذاتها ؛ بمعنى أنه حالما يكون لدينا معانى

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الأول يكون فكرة في الذهن ، في حين أن الثاني يكون كيفية لجسم ما واستنتج - بالتالى - أن اللون ... قوة معينة أو صفة فى أجسام تعرض للعين ظاهرا فى يوم جميل ... (٧١) . إن ريد لم يتردد - بالفعل - فى أن يقول إن «إحساساتنا لاتشبه أيا من كيفيات الأجسام» (٧٢) . وربما يكون من المدهش إلى حد كبير أن نسمع هذه الأقوال من شفاه بطل من أبطال العوام ، لكن الحقيقة هى - بالطبع - أنه على الرغم من أن ريد أثبت أن الفلسفة تخرج باستمرار بخسارة وخزى فى النزاع غير المتكافئ بينها وبين الحس المشترك» (٧٣) ، فإنه لم يقيد نفسه بتكرار وجهات نظر أناس بريئين من كل فلسفة وعلم .

٥ - ومن بين أصدقاء ريد «جورج كامبل» G. Campbell (١٧١٩ - ١٧٩٦) ، الذى أصبح رئيس «كلية ماريشال» ، فى أبردين ، عام ١٧٥٩ ، وأستاذنا للاهوت فى هذه الكلية عام ١٧٧١ . يدرج فى كتابه «فلسفة البلاغة» تحت العنوان العام للقضايا التى يعرف صدقها حدسيا : البديهيات الرياضية ، وحقائق الوعى والمبادئ الأولى للحس المشترك . ويشير إلى أن بعض البديهيات الرياضية ، تبين معانى الألفاظ فقط ، على الرغم من أن ذلك لا يصدق - فى رأيه - على كل المبادئ الرياضية . وتضم حقائق الوعى - مثلا - تأكيد وجود المرء . أما بالنسبة لمبادئ الحس المشترك فتضم : مبدأ «العلية» ، ومبدأ أطراد الطبيعة ، ووجود الجسم وصحة التذكر عندما يكون واضحا . ولذلك يعطى الحس المشترك معنى أكثر تحديدا من المعنى الذى أعطاه له ريد .

٦ - ومن أكثر الفلاسفة شهرة من «كامبل» «جيمس أوزوالد» J. Oswald (الذى توفى عام ١٧٩٣) ، وهو مؤلف كتاب «اللجوء إلى الحس المشترك للدفاع عن الدين» ، وجيمس بيتى J. Beattie (١٧٣٤ - ١٨٠٣) ، الذى اختير عام ١٧٦٠ أستاذا لفلسفة الأخلاق والمنطق فى «كلية ماريشال» ، بأبردين ، ونشر كتابه «مقال عن الحقيقة» عام ١٧٧٠ لا ينقد فيه آراء هيوم لحسب ، بل يتلذذ أيضا بكلام خطابهى وتتنيد فى فقرات تعبر - بلا شك - عن سخط شديد ، لكنها تبدو أنها فى غير موضعها فى عمل فلسفى . وغضب هيوم ، وذكرت بعض تعليقاته . يذكر «بيتى» فى كتابه «مقال عن الحقيقة» أن : «الحقيقة» ! ليست هناك حقيقة فيها ، إنها حجم هائل يقع فى حجم

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

٧ - و دوجالد ستيوارت D. Stewart (١٧٥٣ - ١٨٢٨) أكثر أهمية من بيتي . بعد أن درس في جامعة أدنبرة ، قام بتدريس الرياضيات هناك ، وفي عام ١٧٧٨ قام بتدريس فلسفة الأخلاق أثناء غياب البرفسور آدم فرجسون A. Ferguson (٧٩) . وعين ستيوارت خليفة له . وفي عام ١٧٩٣ نشر المجلد الأول من كتابه «مبادئ فلسفة الذهن البشرى» ، الذي لم يظهر منه المجلد الثاني والثالث حتى عام ١٨٢٧ . ونشر كتابه «مجلد فلسفة الأخلاق» عام ١٧٩٣ ، ونشر كتابه مقالات فلسفية عام ١٨١٠ . وفي عام ١٨١٥ و ١٨٢١ ظهر الجزءان من كتابه «رسالة تبين تقدم الفلسفة الميتافيزيقية ، والأخلاقية ، والسياسية منذ إحياء الآداب فى أوربا» الذى كتبته لكى يكمل «دائرة المعارف البريطانية» . ونشر أخيرا كتابه «فلسفة القوى الفعالة والأخلاقية» عام ١٨٢٨ ، قبل أسابيع قليلة من وفاته . كان ستيوارت محاضرا بارعا ومؤثرا ، يجذب الطلاب حتى من الخارج . وأقيم نصب تذكارى فى أدنبرة بعد وفاته تخليداً لذكراه . إنه لم يكن مفكراً أصيلاً بصفة خاصة ؛ بيد أنه كان رجلاً ذا ثقافة واسعة ، ومنح قوة التفسير والعرض .

يشير ستيوارت فى مقدمة كتابه «مجلد فلسفة الأخلاق» إلى أن معرفتنا بقوانين الطبيعة هى نتاج الملاحظة والتجربة تماما ؛ لأنه لا توجد حالة ندرك فيها ارتباطا ضروريا بين حدثين متتابعين ، بحيث قد يساعدنا على أن نستدل أحدهما من الآخر عن طريق الاستدلال قلياً . إننا نجد من التجربة أن أحداثا معينة تقترون بثبات ، حتى إننا عندما نرى الحدث الأول ، نتوقع الحدث الثانى ، بيد أن معرفتنا فى هذه الحالات لا تتجاوز الواقع (٨٠) . إنه يجب علينا أن نستخدم الملاحظة ، والتجربة المنظمة حتى نصل بصورة استقرائية إلى قوانين عامة ، نستطيع أن نستدل منها بصورة استنباطية (أى بصورة تركيبية) على معلولات .

وقد تبدو وجهة النظر هذه لا تتفق مع وجهة نظر ريد . لكن على الرغم من أن ريد أثبت أن صدق القضية التى تقول إن كل شىء له علة يعرف بصورة حدسية ، فإنه لم يثبت أن التجربة يمكن أن تخبرنا عن ارتباطات ضرورية معينة فى الطبيعة . «إن البديهيات العامة ، التى تركز على التجربة ، لا تمتلك إلا درجة من الاحتمال تناسب

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

قوانينها العامة ... وليس هناك أحد معرض - الآن - لخلط هذه الفلسفة التجريبية بالتأملات الميتافيزيقية التي ذكرناها توأ ... وثمة تمييز مشابه يتم بين المسائل التي قد تؤكد بالنسبة للذهن البشري ... فعندما نثبت حقيقة عامة ، مثل القوانين المتعددة التي تنظم تداعى الأفكار ، أو اعتماد الذاكرة على خطأ الذهن الذي نسميه بالانتباه ، فإن ذلك ماينبغي علينا أن نهدف إليه جميعا فى هذا الفرع من العلم . وإذا لم نجاوز الحقائق التي لدينا عنها دليل وعينا الخاص ، فإن نتائجنا لن تكون أقل يقينا من النتائج الموجودة فى الفيزياء ^(٨٢) .

لقد ضيق ستيوارت مجال السيكلوجيا بغير حق ، ونظر إلى بعض الأبحاث التي لا تصنف - عادة - بهذه الطريقة على أنها «ميتافيزيقية» ^(٨٤) . غير أن المسألة المهمة الخاصة بمناقشته لعلم الذهن هي منهجه الاستقرائى ، وإصراره على عدم خلط العلم بالتأمل . وحتى على الرغم من أنه يميل - أحيانا - إلى أن يضيق البحث السيكلوجى ومجالاته بغير حق ، فإن ذلك لايعنى أنه يغفل الحاجة إلى فروض مكونة فهو على العكس يوضح أنصار بيكون الذين رفضوا الفروض ، ولجأوا إلى عبارة نيوتن الشهيرة «أننى لم أتخيل فروضا» ، مأخوذة بمعنى حرفى . ولابد أن نميز بين الفروض التي «لامبرر لها» والفروض التي تدعمها ترجيحات تفترض عن طريق المماثلة . وتظهر فائدة الفرض عندما يتم التحقق أو التأكد من النتائج التي تستمد منه ، لكن حتى الفرض الذى يظهر أنه كاذب فيما بعد ، قد يبرهن على أنه ذو فائدة عظيمة ، ويقتبس ستيوارت ملاحظة هارلى ^(٨٥) فى كتابه «ملاحظات على الإنسان» ^(٨٦) وهي «أن أى فرض يمتلك درجة كافية من المعقولية لتفسير عدد من الوقائع ، يساعدنا على أن نفسر هذه الوقائع فى نظام مناسب ، وأن يكشف عن وقائع جديدة ، وأن يجرى تجارب من أجل الباحثين فى المستقبل .

ولذلك يقبل ستيوارت مايمكن أن نسميه ، بصراحة ، المنظور التجريبى فى معالجته للسيكلوجيا . غير أن ذلك لايعنى أنه يرفض نظريات ريد عن المبادئ الأولى ، أو مبادئ الحس المشترك . فهو ينظر - بالفعل - إلى لفظ الحس المشترك على أنه غامض وأنه يؤدي إلى سوء فهم وسوء تمثيل . لكنه يقبل فكرة المبادئ ، حتى ندرك

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

أنه على الرغم من أن الدليل المباشر للوعى يؤكد لنا الوجود الحالى للإحساسات أو للوجدانات ، والرغبات ... إلخ فإننا لا نعى ، بصورة مباشرة الذهن ذاته فى الإحساسا بالتمتع يحدس مباشرة للذهن حقا » إن الممارسة الأولى الخالصة للوعى تتضمن اعتقاداً باضرورة ، وليس اعتقاداً عن الوجود الحاضر لما نشعر به فحسب ، بل تتضمن أيضاً اعتقاداً عن الوجود الحاضر لما نشعر به فحسب ، بل تتضمن أيضاً تعتقداً عن الوجود الحاضر لذلك الذى يشعر ويفكر ... ومع ذلك ، فإننا نستطيع أن نقول بصورة ملائمة إننا نعى الحقيقة الأولى من هاتين الحقيقتين فقط ، وفقاً للتفسير الدقيق للتعبير ^(٩٢) . إن الوعى بالذات من حيث أنه موضوع للإحساس أو الشعور يأتى فى نظام الطبيعة ، إن لم يكن فى نظام الزمن ، بعد الوعى بالإحساس أو الشعور . وبمعنى آخر ، الوعى بوجودنا يصاحب أو يكمل ممارسة وعينا ^(٩٣) كما يهتم ستيورارت عندما يكتب عن الاعتقاد فى اطراد الطبيعة بمناقشة معنى كلمة «قانون» عندما نتحدث عن قوانين الطبيعة . فعندما يستخدم فى الفلسفة التجريبية من المنطقى بصورة صحيحة إلى حد كبير أن ينظر على أنه قضية خالصة عن حقيقة عامة من جهة ترتيب الطبيعة - أى حقيقة وجد أنه يتم التمسك بها فى تجربتنا الماضية بانتظام ، وجبرنا تكوين ذهننا على أن نجيب بثقة بناء على استمرارها فى المستقبل ^(٩٤) . إنه يجب علينا أن نعى تصور ما يسمى بقوانين الطبيعة على أنها تؤثر فى قدرة العلل الفاعلة .

إن الملكة الأخلاقية « مبدأ أصيل من مبادئ تكويننا لا يمكن أن ينحل إلى أى مبدأ آخر أو مبادئ أكثر عمومية منها ؛ فهي لا تنحل - بصفة خاصة - إلى حب الذات ، أو نظر متدبر إلى مصلحتنا ^(٩٥) . ويوجد فى جميع اللغات كلمات تساوى الوجوب ، والمصلحة ، يميزها الناس - باستمرار - فى دلالتها ^(٩٦) . ونذكر عن طريق هذه الملكة صواب الأفعال أو خطأها . ولا بد أن نميز بين هذا الإدراك وملازمة انفعال اللذة ، أو الألم الذى يختلف ويتنوع وفقاً لدرجة الإحساس الخلقى لدى الشخص . ولا بد أن نميز أيضاً إدراك جدارة الفاعل أو عدم جدارته . ولقد أخطأ «هاتشيسون» لعدم تمييزه بين صواب فعل ما من حيث إن ذهننا يستحسنه ، واستعداده لأن يثير انفعالات شخص ما الأخلاقية . كما أن «شافتسبرى» و «هاتشيسون» قد أغفل واقعة

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الإلزام لا يمكن تفسيره - ببساطة - عن طريق فكرتي الثواب والعقاب . لأن هاتين الفكرتين تفترضان سلفاً وجود الإلزام . وإذا فسرنا الإلزام عن طريق الإرادة الإلهية والأمر الإلهي ، فإننا نجد أنفسنا ندور في حلقة مفرغة من وجهة نظر ستيوارت .

وفى الختام يمكن أن ننظر باختصار شديد في خط الحجة على وجود الله عند ستيوارت . إنه يخبرنا بأن عملية الاستدلال «لا تتكون من خطوة واحدة فقط ، وتنتمي المقدمات إلى تلك الفئة من المبادئ الأولى التي تكون جزءاً جوهرياً من التكوين البشري . وهذه المقدمات نوعان في العدد . النوع الأول أن كل شئ يوجد لأبد أن تكون له علة . أما النوع الثاني فهو أن ربطاً لوسائل تتضافر لتحقيق غاية معينة يتضمن عقلاً» (١٩) .

يقبل ستيوارت زعم هيوم وهو أن كل محاولة للبرهنة على أن صدق المقدمة الأولى يتضمن افتراض ما يجب اثباته . كما أنه يقبل تطويل هيوم للعلة ، كما تهتم بها الفلسفة الطبيعية «عندما نتكلم في الفلسفة الطبيعية ، عن شئ ما يكون علة شئ آخر ، فإن كل ما نقصده هو أن الشئيين يرتبطان باستمرار ، حتى إننا عندما نرى الشئ الأول ، فإننا قد نتوقع حدوث الآخر . ونحن لانعرف هذه الارتباطات إلا من التجربة فقط .» (٢٠) . ويمكن أن نسمى العلة بهذا المعنى «عللاً طبيعية» . لكن هناك أيضاً معنى ميتافيزيقياً للعلة ، تتضمن فيه الكلمة ارتباطاً ضرورياً . ويمكن أن نسمى العلة بهذا المعنى «عللاً ميتافيزيقية أو فاعلة» . وبالنسبة للسؤال كيف تكتسب فكرة العلة هذه أى القوة والفاعلية ، فإن ستيوارت يقول إنه يبدو أن التفسير الأكثر احتمالاً للمسألة هو أن فكرة العلة أو القوة تلازم بالضرورة إدراك التغير بطريقة تماثل إلى حد ما الطريقة التي يتضمن فيها إحساس بوجود شئ يشعر ، ويتضمن فيها التفكير موجوداً يفكر» (٢١) . وعلى أية حال ، إن صدق القضية التي تقول إن كل شئ يوجد لأبد أن يكون له علة ، يدرك بصورة حدسية . وستيوارت على استعداد عند تطبيق هذا المبدأ ، لأن يسلم بأن كل الأحداث التي تحدث باستمرار في الكون المادى هي المعلومات المباشرة لعلة إلهية وقوة إلهية أى أن الله هو العلة الفاعلة التي تعمل باستمرار في العالم المادى . ولذلك يتفق ستيوارت مع وجهة نظر كلارك التي تقول إن مجرى الطبيعة ليس إن شئنا أن نتحدث بدقة سوى إرادة الله التي تنتج معلولات

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

٨ - لقد رأينا أن ستيوارت ، وريد - بحق - قبله قبلا تحليل هيوم للعلية بقدر ماهتم بها الفلسفة الطبيعية . وقد مضى «توماس براون» T. Brown (١٧٧٨ - ١٨٢٠) وهو تلميذ ستيوارت وخليفته في كرسي فلسفة الأخلاق في ادنبره ، خطوة أبعد في الاتجاه التجريبي . فقد ينظر إليه بالفعل ، على أنه حلقة وصل بين فلسفة الحس المشترك الاسكتلندية والمذهب التجريبي في القرن التاسع عشر عند جون ستيوارت مل وصموئيل الكسندر .

يعرف براون في كتابه «بحث في علاقة العلة والمعلول» (ظهر عام ١٨٠٤ ، ونقح وزيد فيما بعد) العلة بأنها مايسبق أى تغير بصورة مباشرة ، ويتبعها تغير مماثل ، وسيتبعها باستمرار بصورة مباشرة عندما توجد فى أى وقت فى ظروف متشابهة^(١٠٣) والعناصر ، والعناصر الوحيد التى ترتبط فى فكرة العلة هى السبق فى التسايع الملاحظ والسبق الذى لايتخلف . وليست القوة سوى لفظ آخر للتعبير عن «السبق ذاته ، وعدم تخلف العلاقة»^(١٠٤) . ولذلك عندما نقول إن «أ هى علة ب ، فإننا قد نسلم بأننا لا نعنى سوى أن أ يتبعها ب ، أى يتبعها ب باستمرار ونعتقد أنه لا بد أن يتبعها ب باستمرار»^(١٠٥) . وعلى نحو مماثل ، عندما أقول إن لدى من الناحية الذهنية قوة تحريك يدي ، فإننى لا أعنى أكثر من أنه عندما يكون جسمى فى حالة سليمة ، ولا تفرض على قوة خارجية فإن حركة يدي تتبع باستمرار رغبتى فى أن أحركها^(١٠٦) . وهكذا لابد من تحليل العلية فى الظواهر الذهنية بنفس الطريقة ، كما تحلل فى الظواهر الفيزيائية .

يرفض براون التمييز الذى قام به ستيوارت بين العلية الفيزيائية والعية الفاعلة . فالعلة الفيزيائية التى يتبعها وسيتبعها باستمرار تغير معين هى العلة الفاعلة لهذا التغير ، أو إذا لم تكن هى العلة الفاعلة له ، فلا بد من تقديم تعريف للفاعلية ، يتضمن أكثر من يقين تغير معين ، بوصفه تابعا فى تعاقب عاجل . إن العلية هى الفاعلية ، والعلة التى لا تكون فاعلة لا تكون - فى الحقيقة - علة على الإطلاق^(١٠٧) . لقد أكد المدافعون عن التمييز بين علل فاعلة وعلل فيزيائية أن هناك تمييزا دون أن يفسروا طبيعته . صحيح أن الله هو العلة القصوى لكل الأشياء ؛ غير أن ذلك ليس سببا للقول بأنه لا توجد علل فاعلة أخرى .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

يمكن ردها إلى هذا القانون من قوانين الفكر الأكثر عمومية وهو : أن كل تغير له علة لوجوده في ظرف ما أو ارتباطا لظروف ، تكون سابقة بصورة مباشرة ^(١١١) .

يجعل براون دراسة الظواهر الذهنية في محاضراته عن فلسفة الذهن البشرى ، التي نشرت بعد وفاته ، مشابهة لدراسة الظواهر الفيزيائية . «إن نفس الموضوعات العظيمة لابد أن تضع في اعتبارها تحليل ماهو مركب ، وملاحظة تتابع الظواهر واتفاقها ، بوصفها سابقة وتابعة على التوالي» ^(١١٢) . إن معرفتنا في كلتا الحالتين مقيدة بظواهر . إن فلسفة الذهن ، وفلسفة المادة تتفقان في هذه الناحية ؛ وهي أن معرفتنا مقيدة ، في كليهما ، بالظواهر المحضة ^(١١٣) . ولايشك براون في وجود المادة ، أو وجود الذهن ، بيد أننا نستخدم هاتين الكلمتين ، كما يصر ، لكي تدل على العلل غير المعروفة لكل من النوعين من الظواهر . إن معرفتنا بالذهن والمادة نسبية . فنحن نعرف المادة من حيث إنها تؤثر فينا ونعرف الذهن من حيث إنه يؤثر في الظواهر الذهنية التي نعيها . ولذلك يكمن علم للذهن ، بقدر ماهو متاح لنا ، في تحليل الظواهر الذهنية ، وفي ملاحظة ألوان من التتابع العلى واتفاقها المنتظم ، أى ملاحظة ألوان التتابع المنتظم ، في هذه الظواهر .

ومع ذلك لايعنى التصريح بهذا البرنامج أن براون يغفل الإيمان بحقائق أولية ، أو بمبادئ حدسية . فهو يلاحظ - بالفعل - أن تأكيد هذه المبادئ يمكن أن يصل إلى «درجة مغالى فيها وتدعو إلى السخرية ، كما يبدو لى أن الأمر هكذا - بالفعل - في أعمال بكتور ريد ، وبعض الفلاسفة الاسكتلنديين الآخرين ، من معاصريه وأسبقائه» ^(١١٤) . وإذا وافقنا على هذه العادة ، فإنها لاتشجع إلا على كسل ذهنى . وفي الوقت نفسه ليس أقل يقينا أن هذه المبادئ هي - بالفعل - جزء من طبيعتنا الذهنية ^(١١٥) . ولم يحاول براون أن يقدم قائمة بهذه المبادئ ، لكنه يذكر من بين المبادئ الأولى يلاعتماد «تلك التى أتصور أن الاقتناع بهريتنا لابد أن يقوم عليها» ^(١١٦) . فالاعتقاد فى هوياتنا من حيث إنها موجودات دائمة ، هو اعتقاد كلى لايتزعزع ، ومباشر ، وسابق ، أو مفترض سلفا عن طريق الاستدلال . ولذلك فهو اعتقاد حدسى . ووجد براون أن ذلك «صورة أخرى من الإيمان نضمها فى الذاكرة» ^(١١٧) . إنه «يقوم على

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

واضح مما قيل - بالتالى - أن براون بعيد جداً عن مواصلة المواقف التى قبلها ريد وستيوارت . فقد قبل ، فى حقيقة الأمر ، باستمرار موقفاً نقدياً تجاه موقفهما . وبالتالى ، نتوقع أنه يظهر استقلالاً شديداً مشابهاً فى تأملاته الأخلاقية . لقد عانت فلسفة الأخلاق ، من وجهة نظر براون ، من صنع تمييزات بدت لأولئك الذين صنعوها أنها نتيجة تحليل دقيق ، ولكنها ليست إلا تمييزات لفظية فقط . فقد اعتقد البعض - مثلاً - أن أمثلة مثل : ما الذى يجعل فعلاً ما فاضلاً ، ما الذى يكون الإلزام الأخلاقى بأداء أفعال معينة ، وما الذى يؤلف قيمة الشخص الذى يقوم بالأفعال ، هى أسئلة متميزة . لكن القول بأن أى فعل ننظر إليه يكون صواباً أو خطأً ، والقول بأن الشخص الذى يقوم به له قيمة أخلاقية ، أو ليس له قيمة ، هو - بقية - نفس الشيء . إذ أن امتلاك قيمة ، أى أن تكون فاضلين ، وأن نفعل واجبنا ، وأن نفعل وفقاً للإلزام - كل ذلك يشير إلى شعور واحد من مشاعر الذهن ، هذا الشعور هو الاستحسان الذى يلزم النظر إلى الأفعال الفاضلة . إنها - كما قلت - أحوال مختلفة تعبر عن حقيقة بسيطة ! وهى أن تأمل أى شخص ، يفعل كما نفعل نحن فى موقف معين ، يشير شعور الاستحسان الأخلاقى . ونستطيع - بالطبع - أن نسأل لماذا يبدو لنا أن الفضيلة هى أن نفعل بهذه الطريقة أو تلك . ولماذا يكون لدينا شعور بالإلزام ؟ ... إلخ . لكن الإجابة الوحيدة التى يمكن أن نقدمها على هذه التساؤلات هى واحدة بالنسبة لها كلها وهى أنه من المستحيل بالنسبة لنا أن ننظر إلى الفعل دون أن نشعر بأننا ، عندما نفعل بهذه الطريقة ننظر إلى أنفسنا وينظر الآخرون إلينا نظرة استحسان وإذا فعلنا بطريقة مختلفة ، فإننا ننظر إلى أنفسنا ، وينظر الآخرون إلينا ، نظرة استمئزاز ، أو على الأقل نظرة استهجان . وإذا قلنا أننا ننظر إلى فعل على أنه فاضل لأنه يميل إلى الخير العام ، أو لأنه يمثل الإرادة الإلهية ، فإن أسئلة متشابهة ستكرر ، ولابد أن تقدم لها إجابة متماثلة . ونستطيع - بالتأكيد - أن ننظر إلى أفعال فى ذاتها ، بغض النظر عن أى شاعل معين ، ونستطيع أن ننظر إلى صفات فاضلة أو ميول فى ذاتها ، لكن لدينا هنا تجريدات ، وهى تجريدات مفيدة بدون شك ، لكنها لاتزال مع ذلك تجريدات .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

نستطيع بالتالى ، أن نتحدث عن حاسة خلقية . ومع ذلك لابد أن نتحدث ، فى هذه الحالة ، عن ألوان من «الحاسة» بقدر ماتكون هناك أنواع متميزة من الشاعر . بيد أن أنصار نظرية الحاسة الخلقية بعنوان «بالحاسة» شيئاً غير الإحساس المرهف المحض . فهم يتصورون حاسة خلقية خاصة تماثل الحواس المتعددة مثل الرؤية ، واللمس . ولايستطيع براون أن يكتشف تماثلاً خاصاً للإدراكات أو للإحساسات ، بالمعنى الفلسفى لهذين اللفظين ، ولذلك ، فإننى أنظر إلى عبارة «الحاسة الخلقية» على أنها لها تأثيراً سئاً الحظ على الجدل بالنسبة للاختلافات الأخلاقية الأصلية للأفعال ، عن الماثلات الزائفة لا نستطيع أن نغفل افتراضه . إن خطأ «هاتشيسون» الكبير هو اعتقاده أن هناك صفات أخلاقية معينة فى أفعال ، تثير فىنا أفكار هذه الصفات بنفس الطريقة التى تقدم بها أشياء خارجية لنا فكرة اللون ، والشكل ، والصلابة . غير أن الصواب والخطأ ليسا صفتين للأشياء . فهما كلمتان لاتعبران إلا عن علاقة ، وليست العلاقات أجزاء موجودة لموضوعات أو لأشياء .. لا يوجد صواب ولا خطأ ، ولا فضيلة ولا رذيلة ، ولا استحقاق ولا عدم استحقاق بصورة مستقلة عن الفاعلين الفاضلين أو غير الفاضلين ، وعلى نحو مماثل ، إذا لم تكن هناك انفعالات أخلاقية تنشأ عند تأمل أفعال معينة ، لن تكون هناك فضيلة ، ورذيلة ، واستحقاق وعدم استحقاق ، لاتعبر إلا عن علاقات بهذه الانفعالات .

وهناك خطأ آخر وقع فيه بعض الفلاسفة ، وهو أنهم عندما نظروا إلى الانفعالات الجمالية ، افترضوا أن هناك جمالاً كلياً يسرى ، من حيث هو كذلك ، فى كل الأشياء الجميلة . وعلى نحو مماثل ، تصوروا أنه لابد أن تكون هناك فضيلة واحدة كلية ، تسرى فى كل الأفعال الفاضلة . وإذ ذلك جعل بعضهم الأريحية فضيلة كلية . ومع ذلك ليست هناك ، كما قلت مرارا ، فضيلة ، ولكن هناك أفعالا فاضلة فقط أو - إن شئنا أن نتحدث بطريقة أكثر صحة - هناك فاعلون فاضلون فقط : وليس هناك فاعل واحد فاضل ، أو أى عدد من فاعلين فاضلين ، يفعلون بطريقة واحدة مطردة ، أى يشيرون انفعالنا الأخلاقى محل التقدير والاهتمام ، ولكن هناك فاعلين يفعلون بطرق كثيرة مختلفة .. أى بطرق ليست أقل اختلافاً فى ذاتها - بسبب البساطة الحقيقية ، أو المفترضة ، للتعميمات أو التصنيفات التى نقوم بها . ولاينكر براون بالطبع أننا نستطيع أن نعم ونصنف . لكنه يرفض أى محاولة لرد كل الأفعال الفاضلة إلى فئة واحدة .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

والمعرفة ، لابد أن يكون أيضاً ، بهذا التفوق الخالص من التمييز ، سريعاً في الاستحسان والاستهجان .

ويتبين بجلاء أنه إذا قبل أى شخص الدليل الميتافيزيقي الذي يرفضه براون ، فإنه ينظر إلى لاهوت الطبيعي (لاهوت براون) على أنه يكون جزءاً من الأجزاء الضعيفة ، أو ربما أضعف جزء ، من فلسفته . ومع ذلك لو اعتقد أن القضايا التي تتحدث عن الله هي ، في أحسن الأحوال فروض ، فإنه ربما يتعاطف مع موقف براون العام ، حتى إذا لم ينظر إلى أدلته على أنها مقنعة .

٩ - لم يكن رأى كانط عن فلاسفة الحس المشترك الأسكتلنديين واضحاً . وغالباً ما تقتبس ملاحظاته عنهم في مقدمة كتابه «مقدمة لكل ميتافيزيقا يمكن أن تصير علماً ..» . يقول كانط إن خصوم هيوم مثل : ريد وأوزوالد ، وبيتي ، لم يكونوا على حق تماماً . لأنهم افترضوا ما شك فيه وتعهدوا بأن يبرهنوا على ما لم يعتقد ، على الإطلاق ، إنه موضع شك وخلاف . ولجأوا - فضلاً عن ذلك - إلى الحس المشترك مثل اللجوء إلى مبلغ الوحي ، واستخدموه كمعيار للحقيقة عندما لم يكن لديهم تبرير عقلي لتقديم آرائهم . وعلى أية حال «اعتقد أن هيوم طالب كثيراً بحس سليم مثل بيتي ، ولم يكن لدى بيتي فهم نقدي مثل الذي كان موجوداً عند هيوم» .

لا شك أن هذا الحكم حث عليه ما قام به بيتي بصفة خاصة ، وكان بعيداً جداً عن أن يكون أفضل مثل للمدرسة الأسكتلندية . ومع ذلك هناك مايبرر - بوضوح - ملاحظات كانط . وعلى الرغم من ذلك ، فإن براون نفسه كفيلسوف أسكتلندي ، وجه الانتباه إلى عدم الرغبة في وضع مجموعة كبيرة من مبادئ أولى للحس المشترك لا تنتهك حرمتها . إننا لا نستطيع أن نضع حدوداً لتحليل نقدي بهذه الطريقة الدجماتيقية . وعلاوة على ذلك ، لاحظ كل من « سيتوارت » و « براون » أن فلاسفة الحس المشترك الأوائل قد أساءوا غالباً ، فهم هيوم ، وكانوا على حق في أن يفعلوا ذلك .

وقد يبدو - فضلاً عن ذلك - أن تطور فلسفة الحس المشترك الأسكتلندية قدمت برهاناً تجريبياً على صحة نقد كانط ، لأن هذه الحركة التي بدأت ، كما رأينا ، في جزء كبير على الأقل ، بوصفها رد فعل عنيفاً لنظريات هيوم ، اقتربت كثيراً بالتدرج ، في

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

والقروض الضرورية للحياة ، فإن وجهة نظرهم صحيحة . ويبدو أيضاً أن أناساً مثل « بيتى » لم يفهموا أن « ديفيد هيوم » لم يهتم برفض اعتقادات طبيعية ، أو إنكار وجهة نظر الحس المشترك . لقد اهتم بفحص الأسباب النظرية التي يمكن تقديمها لتدعيم هذه الاعتقادات . وحتى عندما اعتقد أنه لا يمكن تقديم أسباب نظرية صحيحة ، أو براهين ، فإنه لم يفترض أنه يجب علينا أن نتخلى عن هذه الاعتقادات . إن وجهة نظره هي - بالفعل - أن الاعتقاد لابد أن يغلب في الممارسة ، على آثار العقل النقدي التي لاتتحل . ولذلك ، لا قفى نقد الفلاسفة الأسكتلنديين لهيوم بالغرض تماماً . لا يكفي أن نقدم عدداً كبيراً من مبادئ الحس المشترك ، لاسيما عندما يكون الميل إلى تصوير هذه المبادئ على أنها تمثل ميولاً للذهن البشرى لا مناص منها . إنهم لو أرادوا أن يدحضوا هيوم ، فإن مايفعلونه هو أ يبينوا أنه يمكن البرهنة نظرياً على صحة الاعتقادات الطبيعية عند هيوم ، التي فسرنا بمساعدة التداعى ، أو أن مبادئ الحس المشترك تدرك ، بالفعل ، حدسياً عن طريق مبادئ عقلية واضحة بذاتها . أو ، بصورة أكثر دقة ، كان يجب عليهم أن يركزوا على البديل الثانى ، لأنه لا يمكن البرهنة على المبادئ الأولى للحس المشترك من وجهة نظرهم . فلا يكفي فقط تأكيد المبادئ . لأنه كان مباحاً لهيوم أن يرد بالقول بأن ما يُسمى فى بعض الحالات . على الأقل ، بمبادئ الحس المشترك يعبر ببساطة عن اعتقادات طبيعية يمكن تفسيرها تفسيراً سيكولوجياً ، لكن لا يمكن البرهنة عليها فلسفياً ، أيأ كانت ضرورية بالنسبة للحياة العملية ، ولا غرابة أن المذهب التجريبي . من جهة ، والمذهب المثالى ، من جهة أخرى ، فى القرن التاسع عشر قد قللا من أهمية فلسفة الحس المشترك الأسكتلندية . وعندما برز شئ يشبه فلسفة الحس المشترك مرة أخرى فى الفكر البريطاى المعاصر ، فإنه أخذ صورة جديدة ؛ أعنى صورة التحليل اللغوى .

ومع ذلك نجحت الأسكتلندية فى القارة الأوربية ، فقد مارست عن طريق « فكتور كوزان » V.Cousin (١٧٩٢-١٨٦٧) تأثيراً ملحوظاً للغاية على الفلسفة الرسمية لفرنسا فترة من الزمن ، وقد رأى الفلاسفة الفرنسيون الذين تأثروا بالحركة الأسكتلندية أكثر من الخصائص التي أثارت تعليقات كانط النقدية ، فقد رأوا - مثلاً - استخدام المنهج التجريبي ، والميل إلى التركيز على معطيات واقعية متاحة بدلاً من .

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

الهوامش

This Work will be referred to as T.M.S. (١)

T.M.S., 1,1,1,p.2, 1812 edition. (٢)

Ibid. (٣)

Ibid. (٤)

Ibid, p.5. (٥)

Ibid, p.7. (٦)

Ibid, p.8. (٧)

T.M.s., 1,1,3,p.16 . (٨)

Ibid, p.20 . (٩)

Ibid . (١٠)

T.M.S., 1,1,4,p.24. (١١)

T.M.S., 4,4,p.325. (١٢)

Ibid. (١٣)

Ibid,p.20. (١٤)

Ibid. (١٥)

T.M.S., 3,p.190 . (١٦)

Ibid, p. 193. (١٧)

T.M.S., 3,8,p.231 . (١٨)

T.M.S.,3,4,p.266 . (١٩)

Ibid,p.273. (٢٠)

T.M.S., 3.5.p.276 . (٢١)

Ibid,p.579. (٢٢)

Ibid,p.291. (٢٣)

T.M.S.,5,2,. (٢٤)

T.M.S.,3,6,p.299. (٢٥)

Ibid,p.301. (٢٦)

T.M.S.,7,3,p.579. (٢٧)

Review, 1,3. (٢٨)

Review, 1,2. (٢٩)

Ibid. (٣٠)

Review. (٣١)

Ibid. (٣٢)

Review, 9. (٣٣)

Review,9. (٣٤)

Dedication to the Inquiry. (٣٥)

References to the Essays on the powers of mind are given according to the three (٣٦)
Volume edition of 1819, while references to the Inquiry was also given according to
1819 edition.

Essays,1,1,10:1,p.38. (٣٧)

Ibid, p. 39. (٣٨)

Essays, 2,12,10,pp.266-7. (٣٩)

Ibid, p. 267. (٤٠)

Inquiry, 2,6,pp.60-1. (٤١)

Inquiry, 2,4,pp.52-53. (12)

Inquiry, 7,4,p.394 . (12)

Ibid,pp.394-5. (11)

Essays,6,3:11,pp.233-4 . (10)

Ibid.p.234. (16)

Essays,6,2:11,p.234. (17)

Ibid.p.223. (18)

Essays, 1.2:1.p.57. (19)

Essays,8,3,5:11,p.338. (00)

Ibid. (01)

Essays,8,3,6:11,p.339. (02)

Ibid. (03)

Ibid. p.342. (04)

Ibid,p.352. (00)

Essays,6,5,3:11,p.304. (06)

Essays, 6,5,5:11,p.308. (07)

Essays,6,5,7:11,p.314. (08)

Essays,6,5,12:11,p.328. (09)

Essays,6,5,5:11,p.308. (10)

Essays,6,5,12:11,p.329. (11)

Essays,6,5,3:11,p.305. (12)

Ibid. (13)

Elements,2,1,4,p.301. (14)

1,5. (10)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

- Inquiry into the Relation of Cause and Effect, 4,7,pp.377-8 . (٨٩)
- Ibid. Note H,p.435 . (٩٠)
- Ibid, lecture,9,Vol,1,p.178, 1824 edition. (٩١)
- Ibid, lecture, 10, 1,p.194. (٩٢)
- Lecture on the philosophy of Human Mind, Lecture 13:1,p.265. (٩٣)
- Ibid,268. (٩٤)
- Ibid. (٩٥)
- Ibid,273. (٩٦)
- (٩٧) يعطى براون كلمة الشعور مجازاً واسعاً من المعنى . (المؤلف)
- Ibid, 275. (٩٨)
- Ibid, lecture,25,1,p.546. (٩٩)
- Ibid, lecture, 22, 1,p.460. (١٠٠)
- Lectures on the human Mind, lecture 24: 1.p.508. (١٠١)
- Ibid, lecture, 73,111,p. 529. (١٠٢)
- Ibid, 532. (١٠٣)
- Lectures on the Philosophy of Human Mind, lecture 73:111.p.533. (١٠٤)
- Ibid, 543. (١٠٥)
- Ibid, lecture, 77.IV,p.29. (١٠٦)
- Ibid,51. (١٠٧)
- Lectures on the philosophy of Human Mind, lecture 77:1.p.54. (١٠٨)
- Ibid, lecture 82, IV,pp.149-50. (١٠٩)
- Ibid, lecture , pp. 161-2 . (١١٠)
- lectures on the Philosophy of Human Mind, lecture 82:p.169. (١١١)
- Ibid. lecture, 93,IV, pp. 387. (١١٢)

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

ملحق

مراجع مختصرة من أجل ملاحظات عامة وأعمال عامة.
انظر المراجع فى نهاية المجلد الرابع من ديكارت حتى ليبنتس

الفصل الأول والثانى : هوبز (أ) نصوص :

- Hobbes: Opera Philosophica quae latine scripsit. Edited by W. Molesworth.
5 vols. London, 1829 - 45.
- The English Works of Thomas Hobbes. Edited by W. Molesworth. II vols.
London, 1839 - 45.
- The Metaphysical System of Hobbes. Selections edited by M. W. Calkins.
Chicago, 1905.
- Hobbes: Selections. Edited by F. J. E. Woodbridge. New York, 1930. The
Elements of Law, Natural and Politic (Together with A Short Treatise on
First Principles and parts of the Tractatus opticus), edited by F. Tönnies.
Cambridge, 1928 (2 nd edition).
- De Cive of the Citizen. Edited by S. P. Lamprecht. New York, 1949.
- Leviathan. Edited with an introduction by M. Oakeshott. Oxford, 1946.
- Leviathan. With an introduction by A. D. Lindsay, London (E. L.). of Liberty and
Necessity, edited with an introduction and notes by Cay von Brockdorff.
Kiel, 1938.

(ب) دراسات :

- Battelli, G. Le dottrine politiche dell' Hobbes e dello Spinoza. Florence, 1904.
- Bowle, J. Hobbes and His Critics: A Study of Seventeenth - Century
Constitutionalism. London, 1951.

- Brandt, F. Thomas Hobbes' Mechanical Conception of Nature. London, 1928.
- Brockdorff, Cay von. Hobbes als Philosoph, Pädagoge und Soriologe. Kiel, 1929.
- Die Urform der Computatio sive Logica des Hobbes. Kiel, 1934.
- Cooch, G. P. Hobbes. London, 1940.
- Gough, J. W. The Social Contract: A Critical Study of Its Development. Oxford, 1936 (revised edition, 1956).
- Hönigswald, R. Hobbes und die Staatsphilosophie. Munich, 1924.
- Laird, J. Hobbes. London, 1934.
- Landry, B. Hobbes. Paris, 1930.
- Levi, A. La filosofia di Tommaso Hobbes. Milan, 1929.
- Lyon, G. La philosophie de Hobbes. Paris, 1893.
- Polin, R. Politique et Philosophie chez Thomas Hobbes. Paris, 1953.
- Robertson, G. C. Hobbes. Edinburgh and London, 1886.
- Rossi, M. M. Alle fonti dei deismo e del materialismo moderno. I, Le origini del deismo. 2, L'evoluzione del pensiero di Hobbes. Florence, 1942.
- Stephen, L. Hobbes. London, 1904.
- Strauss, L. The Political Philosophy of Hobbes. Translated by E. M. Sinclair. Oxford, 1936.
- Taylor, A. E. Thomas Hobbes. London, 1908.
- Tönnies, F. Thomas Hobbes: Leben und Lehre. Stuttgart, 1925 (3 rd edition).
- Vialatoux, J. La cité de Hobbes. Théorie de l'État totalitaire. Essai sur la conception naturaliste de la civilisation. Paris, 1935.

الفصل الثالث: هيربرت أوف تشيربري وأفلاطونيو كمبردج

١ - لورد هيربرت أوف تشيربري

(أ) نصوص:

The Autobiography of Edward, Lord Herbert of Cherbury, with introduction and notes by S. L. Lee. London, 1886.

Tractatus de veritate. London, 1633.

Ee veritate Translated with an introduction by M. H. Carré. Bristol, 1937.

De causis errorum. London, 1645.

De religione gentilium. Amsterdam, 1663 and 1670; London, 1705.

De religione laici. Transliscussion of Lord Herbert's life and philosophy and a comprehensive bibliography of his works by H. R. Hutcheson. New Haven (U. S. A.) and London, 1944.

A Dialogue between a Tutor and His Pupil. London, 1768.

(ب) دراسات :

De Rémusat, C. Lord Herbert of Cherbury, sa vie et ses oeuvres. Paris, 1853.

Güttler, C. Edward, Lord Herbert of Cherbury. Munich, 1897.

Köttlich, R. F. Die Lehre von den angeborenen Ideen seit Herbert von Cherbury. Berlin, 1917.

٢ - كدورث

(أ) نصوص :

The True Intellectual System of the Universe, London, 1743 (2 vols), 1846 (3 vols). There is an edition (London, 1845) by J. Harrison with a translation from the Latin of Mosheim's notes.

Treatise concerning Eternal and Immutable Morality. London, 1731.

(ب) دراسات :

Aspelin, G. Cudworth's Interpretation of Greek Philosophy. Boon, 1935.

Beyer, J. Cudworth. Bonn, 1935.

Lowrey, C. E. The Philosophy of Ralph Cudworth. New York, 1884.

Passmore, J. A. Cudworth, an Interpretation. Cambridge, 1950.

Scott, W. R. An Introduction to Cudworth's Treatise. London, 1891.

٣ - هنري مور

(أ) نصوص :

Opera omnia. 3 vol. London, 1679.

Enchiridion metaphysicum. London, 1671.

Enchiridion ethicum. London, 1667.

The Philosophical Writings of Henry - More. Selected by F. I. Mackinnon. New York, 1925

(ب) دراسات :

Reimann, H. Henry Mores Bedeutung für die Gegenwart. Sein Kampf für Wirken und Freiheit des Geistes. Basel, 1941.

٤ - كمبلند

(أ) نصوص :

De legibus naturae disquisition philosophica. London, 1672. English translation by J. Maxwell. London 1727.

(ب) دراسات :

Payne, S. Account of the Life and Writings of Richard Cumberland. London, 1725.

Spaulding, F. E. Richard Cumberland als Begründer der englischen Ethik. Leipzig, 1894.

٥ - أعمال أخرى

(أ) نصوص :

The Cambridge Platoists. Selections from Whichcote, Smith and Culverwel, edited by E. T. Campagnac. London, 1901.

(ب) دراسات:

- Cassirer, E. *The Platonic Renaissance in England*. Translated by J. P. Pettegrove. Edinburgh and London, 1953.
- De Pauley, W. C. *The Candle of the Lord: Studies in the Cambridge Platonists*. New York, 1937.
- De Sola Pinto, V. *Perter Sterry; Platonist and Puritan, 1613 - 1672. A Biographical and Critical Study with Passages selected from His Writings*. Cambridge, 1934.
- Mackinnon, F. I. *The Philosophy of John Norris*. New York, 1910.
- Muirhead, J. H. *The Platonic Tradition in Anglo-Saxon Philosophy*. London, 1920.
- Powicke, F. J. *The Cambridge Platonists: A Study*. London, 1926.
- Tulloch, J. *Rational Theology and Christian Philosophy in England in the Seventeenth Century: II, The Cambridge Platonists*. Edinburgh and London, 1872.

الفصل الرابع حتي السابع : لوك (أ) نصوص:

- The Works of John Locke*. 9 vols. London, 1853.
- The Philosophical Works of John Locke (On the Conduct of the Understanding, An Essay concerning Human Understanding, the controversy with Stillingfleet, An Examination of Malebranche's Opinion, Elements of Natural Philosophy and Some Thoughts concerning Reading)*. Edited by J. A. St. John. 2 vols. London, 1854, 1908.
- Locke: Selections*. Edited by S. P. Lamprecht. New York , 1928.
- An Essay concerning Human Understanding*. Edited with introduction and notes by A. C. Fraser. 2 vols. Oxford, 1894.
- An Essay concerning Human Understanding*. Abridged and edited by A. S. Pringle-Pattison. Oxford, 1924.

An Essay concerning Human Understanding. Abridged and edited by R. Wilburn. London (E. L.).

An Early Draft of Locke's Essay, together with Excepts from His Journal. Edited by R. L. Aaron and J. Gibb. Oxford, 1936.

An Essay concerning the Understanding, Knowledge, Opinion and Assent. Edited by B. Rand. Cambridge (U. S. A.), 1931. (These two last-mentioned works are early drafts of Locke's Essay. According to Professor von Leyden, 'the text of the draft edited by Rand can only be considered authentic in a small degree...' See Notes concerning Papers of John Locke in the Lovelace Collection by W. von Leyden in The Philosophical Quarterly, January 1952, pp. 63 - 9. The Lovelace Collection is now housed in the Bodleian Library).

Two Treatises of Government (containing als Filmer's Patriarcha, edited by T. I. Cook). New York, 1947.

Two Treatises of Civil Government. With an introduction by W. S. Carpenter. London (E. L.).

Second Treatise of Civil Government and Letter on Toleration. Edited by J. W., Gough. Oxford, 1948.

John Locke: Essays on the Law of Nature. Latin text with translation, introduction and notes by W. von Leyden. Oxford, 1945.

Original Letters of Locke, Sidney and Shaftesbury. Edited by T. Forster. London, 1847 (2 nd edition).

The Correspondence of John Locke and Edward Clarke, Edited by B. Rand. Cambridge (U. S. A.), 1927. (See the remarks of Professor von Leyden in the article referred to above in the passage in brackets).

Lettres inédites de John Locke à ses amis N. Thoynard, Ph. van Limborch et E. Clarke. Edited by H. Ollion. The Hague, 1912.

(R. Filmer's Patriarcha and other Political Works, edited by P. Laslett, were published at Oxford in 1949).

(ب) دراسات :

Aaron, R. I. John Locke. Oxford, 1955 (2 nd edition). (This study can be highly recommended).

Great Thinkers: X, Locke (in Philosophy for 1937).

- Alexander, S. Locke, London, 1908.
- Aspelin, G. John Locke. Lund, 1950.
- Bastide, C. John Locke. Paris, 1907.
- Carlini, A. La filosofgia di G. Locke. 2 vol. Florence, 1920. Locke. Milan, 1949.
- Christophersen, H. O. A Bibliographical Introduction to the Study of John Locke. Oslo, 1930.
- Cousin, V. La philosophie de Locke. Paris, 1873 (6 th edition).
- Fowler, T. Locke. London, 1892 (2 nd edition).
- Fox Bourne , H. R. The Life of John Locke. 2 vols. London, 1876.
- Fraser, A. C. Locke. London, 1890.
- Gibson, J. Locke's Theory of Knowledge and its Historical Relations. Cambridge, 1917.
- Gough, J. W. John Locke's Political Philosophy. Oxford, 1950. The Social Contract (see Hobbes).
- Hefelbower, S. G. The Relation of John Locke to English Deism. Chicago, 1918.
- Hertling, G. V. Locke und die Schule von Cambridge. Freiburg. B., 1892.
- Hofstadter, A. Locke and Scepticism. New York, 1936.
- Kendall, W. John Locke and the Doctrine of Majority-Rule. Illinois, 1941.
- King, Lord. The Life and Letters of John Locke. 2 vol. London, 1858 (3rd edition).
- (This work includes some extracts from Locke's Journals and an abstract of the Essay).
- Klemmt, A. John Locke: Theoretische Philosophie. Meisenheim, 1952.
- Krakowski, E. Les source médiévales de la philosophie de Locke. New York, 1918.
- MacLean, K. John Locke and English Literature of the Eighteenth Century. New Haven (U. S. A.), 1936.
- Marion, H. John Locke. Penguin Books, 1952.
- Ollion, H. La philosophie générale de Locke. Paris, 1909.
- Petzäll, A. Ethics and Epistemology in John Locke's Essay concerning Human Understanding. Göteborg, 1937.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

Mathematical Principles of Natural Philosophy and System of the World.
Translated by A. Motte, revised and annotated by F. Cajori. Cambridge,
1934.

Opticks. London, 1730 (4th edition)' reprint New York, 1952.

Sir Isaac Newton: Theological Manuscripts. Selected and edited by
H. McLachlan. Boston, 1950.

Newton's Philosophy of Nature. Selections from his writings edited by H. S.
Thayer. New York, 1953.

(ب) دراسات :

Andrade, E. N. da C. Sir Isaac Newton. London, 1954.

Bloch, L. La Philosophie de Newton. Paris, 1908.

Clarke, G. N. Science and Social Welfare in the Age of Newton. Oxford, 1949
(2nd edition).

De Morgan, A. Essays on the Life and Work of Newton. Edited by F. E. B.
Jourdain. London, 1914.

Dessauer, F. Wietfahrt der Erkenntnis. Leben und Werk Isaak Newtons. Zürich,
1945.

McLachlan, H. The Religious Opinions of Milton, Locke and Newton.
Manchester, 1941.

More, L. T. Isaac Newton, A Biography. New York, 1934.

Randall, J. H., Jr. Newton's Natural Philosophy: Its Problems and
Consequences (in Philosophical Essays in Honor of Edgar Arthur Singer,
Jr. Edited by F. P. Clark and M. C. Nahm. Philadelphia, 1942, pp. 335 - 57).

Rosenberger, I. Newton und seine physikalischen Prinzipien. Leipzig, 1893.

Steinmann, H. G. Ueber den Einfluss Newtons auf die Erkenntnistheorie seiner
Zeit. Bonn, 1913.

Sullivan, J. W. N. Isaac Newton, 1642 - 1727. London, 1938.

Volkman, P. Ueber Newton Philosophia Naturalis. Königsberg, 1898.

Whittaker, E. T. Aristotle, Newton, Einstein, London, 1942.

Burtt, E. A. The Metaphysical Foundations of Modern Physical Science.

A Historical and Critical Essay. London, 1925; revised edition, 1963.

Cassirer, E. Das Erkenntnisproblem in der Philosophie und Wissenschaft der neueren Zeit. 3 vols. Berlin, 1906 - 20; later edition, 1922-3.

Dampier, W. C. A History of Science and its Relation with philosophy and Religion. Cambridge, 1949 (4th edition).

Mach, E. The Science of Mechanics. Translated by T. J. MacCormack. la Salle (Illinois), 1942 (5th edition).

Strong, E. W, Procedures and Metaphysics: A Study in the Philosophy of Mathematical Physical Science in the Sixteenth and Seventeenth Centuries. Berkeley, U. S. A. 4936.

الفصل التاسع : مشكلات دينية

١ - كلارك

(أ) نصوص :

Works. With a preface by B. Hoadley. 4 vols. London, 1738-42.

(Euvres Philosophiques. Translated by C. Jourdain. Paris, 1843.

A Demonstration of the Being and Attributes of God. London, 1705.

A Discourse Concerning the Unchangeable Obligations of Natural Religion. London, 1706.

One hundred and Twenty Three Sermons. Edited by J. Clarke. 2 vols. Dublin, 1734.

A Collection of Papers which Passed between the late learned Mr. Leibniz and Dr. Clarke. London, 1717.

(ب) دراسات :

Le Rossignol, J. E. The Ethical Philosophy of Samuel Clarke. Leipzig, 1892.

Zimmermann, R. Clarkes Leben und Lehre. Vienna, 1870.

٢ - تولاند

نصوص:

Christianity not Mysterious. London, 1696.

Pantheisticon. London, 1720.

٣ - تندال

نصوص:

Christianity not Old as the Creation. London, 1730.

٤ - كولنز

نصوص:

A Discourse of Free-thinking. London, 1713.

Philosophical Enquiry concerning Human Liberty and Necessity. London, 1715.

A Discourse of the Grounds and Reasons of the Christian Religion. London, 1724.

A Dissertation on Liberty and Necessity. London, 1729.

٥ - دودول

نصوص:

An Epistolary Discourse, proving from the Scriptures and the First Fathers that the Soul is a Principle naturally Mortal. London, 1706.

٦ - بولنجبروك

(أ) نصوص :

The Philosophical Works of the Right Hon. Henry St. Hohn, Lord Viscount Bolingbroke. Edited by D. Mallet. London, 1754 (5 vols). 1778, 1809; Philadelphia (4 vols) 1849.

Letters on the Study and Use of History. London, 1738 and 1752.

(ب) دراسات :

Brosch, M. Lord Bolingbroke. Frankfurt a M., 1883.

Hassall, A. Life of Viscount Bolingbroke. London, 1915 (2 nd edition).

James, D. G. The English Augustans: I, The Life of Reason; Hobbes, Locke, Bolingbroke. London, 1949.

Merrill, W. McIntosh. From Statesman to Philosopher. A Study of Bolingbroke's Deism. New York, 1949.

Sichel, W. Bolingbroke and His Times. London, 1902.

٧- مذهب التأليه بوجه عام

Carrau, L. La Philosophie religieuse en Angleterre depuis Locke jusqu'à nos jours. Paris, 1888.

Farrar, A. S. A Critical History of Free Thought. London, 1862.

Lechler, G. V. Geschichte des englischen Deismus. 2 vols. Stuttgart, 1821.

Leland, J. A View of the Principal Deistical Writers. 2 vols. London, 1837.

Noack, L. Die enlischen, französischen und deutschen Freidenker. Berne, 1853-5.

Sayous, A. Les déistes anglais et le christianisme rationaliste. Paris, 1882.

Stephen, L. History of English Thought in the Eighteenth Century. 2 vols. London, 1876.

(أ) نصوص :

Works. Edited by J. H. Bernard. 2 vols. London, 1900.

Works. Edited by W. E. Gladstone. 2 vols. London, 1910 (2 nd edition).

The analogy of Religion, natural and revealed, to the Constitution and Cause of Nature, with an introduction by R. Bayne. London (E. L).

Fifteen Sermons upon Human Nature, or Man considered as a Moral Agent. London, 1726, 1841, etc.

Fifteen Sermons (and Dissertation on Virtue). Edited by W. R. Matthews, London, 1949.

(ب) دراسات :

Broad, C. D. Five Types of Ethical Theory. (Chapter III, 'Butler', pp. 53-83) London, 1930.

Collins, W. L. Butler. Edinburgh and London, 1889.

Duncan-Jones, A. Butler's Moral Philosophy. Penguin Books, 1952.

Mossner, E. C. Bishop Butler and the Age of Reason. New York, 1936.

Norton, W. J. Bishop Butler, Moralist and Divine. New Burnwick and London, 1940.

الفصل العاشر : مشكلات الأخلاق

١- شافتمبرى

(أ) نصوص :

Characteristics, Edited by J. M. Robertson. 2 vols. London, 1900.

«الملكية الخاصة».. وهكذا يبين لنا «لوك» أن المجتمع السياسى والحكومة يرتكزان على أساس عقلى.. وعلى هذا الأساس يكون «العقد الاجتماعى» الذى يعرضه المؤلف بشيء من التفصيل مع الاعتراضات والردود على هذه النظرية المهمة التى كانت بعد ذلك، أساساً من أسس الديمقراطية..

أما الفصل الثامن: فيجعله المؤلف دراسة لـ «روبرت بويل» و«سير إسحاق نيوتن»، فقد كان الأول من بين أعضاء حلقة أصدقاء «لوك»، وقد اهتم بتحليل المعطيات الحسية بوجه عام. أما الثانى فقد كان أيضاً من أصدقاء «لوك»، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى المجلد الثالث من هذا الكتاب «تاريخ الفلسفة»، ويتحدث المؤلف عن عبقرية «نيوتن»، وكيف هيمن اسمه على الفيزياء حتى أننا نسميها فيزياء نيوتن. ويرى المؤلف أن «نيوتن» كان فيلسوفاً، بالإضافة إلى كونه رياضياً وفيزيائياً، وإن كان من غير الواضح كيف يمكن أن تتفق مיתافيزيقاه مع آرائه الطبيعية.

وفى الفصل التاسع يعرض المؤلف لبعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك، والأسقف بطرل. كما يعرض فى الفصل العاشر لبعض مشكلات الأخلاق عند فلاسفة الحاسة الخلقية، شافتسبرى، وهاتشسون... إلخ. ثم يقف وقفة طويلة عند الأسقف باركلى من الفصل الحادى عشر الذى يعرض فيه لحياته وأعماله ونظريته فى الإبصار إلى الفصل الثانى عشر الذى يتحدث فيه عن المثالية الذاتية الشهيرة عند «باركلى» «وجود الأشياء المحسوسة يعنى إدراكها»، إلى الفصل الثالث عشر والأخير الذى يتحدث فيه المؤلف عن الأشياء المتناهية، وجودها وطبيعتها وطابعها الخالد، ووجود الله وطبيعته، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتها، وبالله، وبالعلية... الخ.

ثم يخصص المؤلف بقية الكتاب للفيلسوف الإسكتلندى ديفيد هيوم، حيث يعتقد عنه خمسة فصول تكاد تكون كتاباً مستقلاً (حوالى ١٦٠ صفحة) من الفصل الرابع عشر الذى يبدأ فيه - كالعتاد - بحياته ومؤلفاته إلى الفصل الخامس عشر الذى يتحدث فيه عن اعتقادنا فى وجود الأجسام والأذهان، ومشكلة الهوية الشخصية، ووجود الله وطبيعته إلى الفصل السادس عشر الذى يتحدث فيه المؤلف عن العواطف المباشرة وغير المباشرة، والإرادة والحرية، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة.

۳ - هاتشيسون

(أ) نصوص:

Works. 5 vols. Glasgow, 1772.

(ب) دراسات:

Fowler, T. Shaftesbury and Hutcheson. London, 1882.

Rampendal, R. Eine Würdigung der Ethik Hutchesons. Leipzig, 1892.

Scott, W. R. Francis Hutcheson, His Life, Teaching and Position in the History of Philosophy. London, 1900.

Vignonoe, L. L'etica del senso Morale in Francis Hutcheson. Milan, 1956.

۴ - بطلر

For Texts and Studies see Bibliography under Chapter IX.

۵ - هارتلى

(أ) نصوص:

Observations on Man, His Frame, His Duty and His Expectations.

Edited by J. B. Priestley. 3 vols. London, 1934 (3rd edition).

(ب) دراسات:

Bower, G. S. Hartley and James Mill. London, 1881.

Heider, M. Studien über David Hartley. Bonn, 1913.

Ribot, T. Quid David Hartley de consociatione idearum senserit. Paris, 1872.

Schoenlank, B. Hartley und Priestley, die Begründer des Assoziationismus in England. Halle, 1882.

٦ - تيكو

(أ) نصوص :

The Light of Nature Pursued. Edited, with a Life, by H. P. St. John Mildmay.
7 vols. London, 1805 and reprints.

(ب) دراسات :

Harris, W. G. Teleology in the Philosophy of Joseph Butler and Avraham Tucker. Philadelphia, 1942.

٧ - بالي

(أ) نصوص :

Paley's Works, First published in 8 vols. in 1805-8, have been republished several times, the number of volumes varying from eight to one (1851).

The Principles of Moral and Political Philosophy. London, 1785, and subsequent editions.

Natural Theology, or Evidences of the Existence and Attributes of the Deity collected from the Appearances of Nature. London, 1802, and subsequent edition.

(ب) دراسات :

Stemmen, L. History of English Thought in the Eighteenth Century. 2 vols. London, 1876. (For Paley see I, pp. 405f., and II, pp. 121f.).

٨ - أعمال عامة

(أ) نصوص (مختارات) :

Rand, B. The Classical Moralists. Selections. London, 1910.

Selby-Bigge, L. A. British Moralists. 2 vols. Oxford, 1897.

Bonar. J. Moral Sense. London, 1930.

Machintosh, J. On the Progress of Ethical Philosophy, chiefly during the XVIIth and XVIIIth Centuries. Edited by W. Whewell. Edinburgh, 1872 (4th edition).

Martineau, J. Types of Ethical Theory. 2 vols. Oxford, 1901 (3rd edition, revised).

Moskowitz, H. Das Moralische Beurtheilungsvermögen in der Ethik von Hobbes bis J. S. Mill. Erlangen, 1906.

Raphael, D. Daiches. The Moral Sense. Oxford, 1947.

(This work deals with Hutcheson, Hume, Price and Reid).

Sidgwick, H. Outlines of the History of Ethics for English Readers. London, 1931 (6th edition).

الفصل الحادي عشر حتى الثالث عشر: باركلي (أ) نصوص:

The Works of George Berkeley, Bishop of Cloyne. Edited by A. A. Luce and T. E. Jessop. 9 vols. London, 1984 (Critical edition).

The Works of George Berkeley. Edited by A. C. Fraser. 4 Vols. Oxford. 1901 (2nd edition).

Philosophical Commentaries, generally called the Commonplace Book. An edition deiplomatica edited with introduction and notes by A. A. Luce. London, 1944.

(The Philosophical Commentaries are also contained in the critical edition of the Works, vols. 1.)

A New Theory of Vision and other Select Philosophical Writings (Principles of Human Knowledge and Three Dialogues), with an introudcution by A. D. Lindsay. London (E. L.).

Berkeley: Selections. Edited with introduction and notes by A. A. Luce. London, 1944.

(The Philosophical Commentaries are also contained in the critical edition of the Works, vol. 1).

A New Theory of Vision and other Select Philosophical Writings (Principles of Human Knowledge and Three Dialogues), with an introduction by A. D. Lindsay. London (E. L.).

Berkeley: Selections. Edited by M. W. Calkins, New York, 1929.

Berkeley: Philosophical Writings. Selected and edited by T. E. Jessop. London, 1952.

Berkeley: Alciphron ou le Pensée-mémoire. Translated with introduction and notes by J. Pucelle. Paris, 1952.

(ب) دراسات :

Baladi, N. La pensée religieuse de Berkeley et l'unité de sa philosophie. Cairo, 1945.

Bender, F. George Berkeley's Philosophy re-examined. Amsterdam, 1946.

Bread, C. D. Berkeley's Argument about Material Substance. London, 1942.

Cassirer, E. Berkeley's System. Giessen, 1914.

Del Bocca, S. L'unità del pensiero di Giorgio Berkeley. Florence, 1937.

Fraser, A. C. Berkeley. Edinburgh and London, 1881.

Hedenius, I. Sensationalism and Theology in Berkeley's Philosophy/ Oxford, 1936.

Hicks, G. Dawes. Berkeley. London, 1932.

Jessop, T. E. Great Thinkers: Berkeley (in Philosophy for 1937).

Johnston, G. A. The Development of Berkeley's Philosophy. London, 1923.

Joussain, A. Exposé critique de la philosophie de Berkeley. Paris, 1920.

- Laky, J. J. A Study of George Berkeley's Philosophy in the Light of the Philosophy of St. Thomas Aquinas. Washington, 1950.**
- Luce, A. A, Berkeley and Malebranche: A Study in the Origins of Berkeley's Thought . New York, 1934.**
- Berkeley's Immaterialism: A Commentary on His Treatise concerning the Principles of Human Knowledge. London, 1945.**
- The Life of George Berkeley, Bishop of Cloyne. London, 1949.**
- Metz, R. G. Berkeleys Leben und Lehre. Stuttgart, 1925.**
- Oertel, H. J. Berkeley und die englische Literatur. Halle, 1934.**
- Olgiati, F. L'idealismo di Giorgio Berkeley ed il suo significato storico. Milan, 1926.**
- Penjon, A. Étude sur la vie et sur les œuvres philosophiques de George Berkeley, évêque de Cloyne. Paris, 1878.**
- Ritchie, A. D. George Berkeley's 'Siris' (British Academy Lecture). London, 1955.**
- Sillem, E.A. George Berkeley and the Proofs for the Existence of God, London , 1957.**
- Stabler, E. George Berkeleys Auffassung und Wirkung in der deutschen Philosophie bis Hegel. Dresden, 1935 .**
- Stammler, G. Berkeleys Philosophie der Mathematik. Berlin, 1922. Testa, A. La filosofia di Giorgio Berkeley. Urbino, 1943 .**
- Warnock, G. J. Berkeley. . Penguin Books, 1953 .**
- Wild J. George Berkeley: A Study of His Life and Philosophy, London, 1936.**
- Sisdon, J . O . The Unconscious Origins of Berkeley's Philosophy, London, 1953 .**
- See Also Hommage To George Berkeley. A commemorative issue of Hermathena. Dublin, 1953. And the commemorative issue of the British Journal for the Philosophy of Science. Edinburgh, 1953.**

الفصل الرابع عشر حتى السابع عشر: هيوم (أ) نصوص :

- The Philosophical Works of David Hume.** Edited by T.H. Green and T.H . Grose.
4 vols. London, 1874 - 5 .
- A Treatise of Human Nature.** Edited by L.A. Selby - Bigge. Oxford, 1951 (reprint
of 1888 edition).
- A Treatise of Human Nature.** With an introduction by A.D. Lindsay. 2 vols.
London (E.L).
- An Abstract of a Treatise of Human Nature, 1740 . .** Edited by J. M. Keynes
and. P. Sraffa. Cambridge, 1938.
- Enquiries concerning the Human Understanding and concerning the Principles
of Morals.** Edited by L.A. Selby - Bigge. Oxford, 1951 (reprint of second
edition, 1902).
- Dialogues concerning Natural Religion.** Edited with an introduction by. N. K.
Smith London, 1947 (2 nd edition).
- The Natural History of Religion,** Edited by H. Chadwick and with an
introduction by H. E. Root London , 1956 .
- Political Essays.** Edited by C.W. Hendel. New York, 1953 .
- Hume: Theory of Knowledge. (Selections.)** Edited by D.C. Yalden Thomson.
Edinburgh and London , 1951 .
- Hume: Selections** Edited by C. W. Hendel. New York, 1927 .
- The Letters of David Hume .** Edited by J.V.T. Grieg. 2 vols . Oxford, 1932 .
- New Letters of David Hume.** Edited by R. Kilibansky and E. C. Mossner. Oxford,
1954 .

(ب) دراسات :

- Bagolini, L. Esperienza giuridica e politica nel pensiero di David Hume,** Siena,
1947 .

- Brunius, T. David Hume on Criticism. Stockholm, 1952 .
- Church, R. W. Hume's Theory of the Understanding . London, 1935.
- Corsi, M. Natura e società in David Hume. Folrence, 1954 .
- Dal Pra, M. Hume. Milan, 1949.
- Della Volpe, G. La filosofia dell' esperienza di David Hume. Florence, 1939 .
- Didier, J. Hume. Paris, 1912 .
- Elkin, W.B. Hume, the Relation of the Treatise Book I to the Inquiry, New York, 1904 .
- Glatke, A. B. Hume's Theory of the Passions and of Morals. Berkeley, U.S.A., 1950 .
- Greig, J. V. T. David Hume. (Biography.) Oxford, 1931 .
- Hedenuis, L. Studies in Hume's Aesthetics. Uppsala, 1937 .
- Hendel, C.W. Studies in the Philosophy of David Hume. Princeton, U.S.A., 1925.
- Huxley, T. David Hume. London, 1879 .
- Jessop, T.E. A Bibliography of David Hume and of Scottish Philosophy from Francis Hutcheson to Lord Balfour London, 1938 .
- Kruse, V. Hume's Philosophy in His Principal Work, A Treatise of Human Nature. Translated by P.E Federspiel. London 1939.
- Kuypers, M. S. Studies in the Eighteenth -Century Background of Hume's Empiricism. Minneapolis, U.S.A, 930 .
- Kydd, R.M. Reason and Conduct in Hume's Treatise Oxford, 1946 .
- Laing, B. M. David Hume. London , 1932 .
- Great Thinkers: XII , Hume (in Philosophy for 1937).
- Laird, J. Hume's Philosophy of Human Nature. London , 1932.
- Leroy, A -L . La critique et la religion chez David Hume. Paris, 1930.
- MacNabb, D. G. David Hume: His theory of Knowledge and Morality. London, 1951 .

- Magnino, B. *Il pensiero filosofico di David Hume*. Naples, 1935 .
- Maund, C. *Hume's Theory of Knowledge: A Critical Examination* London , 1937 .
- Metz R. *David Hume, Leben und Philosophie*. Stuttgart, 1929 .
- Mossner, E. C. *The Forgotten Hume: Le bon David* . New York, 1943 *The Life of David Hume*. London, 1954 . (The fullest biography to date.)
- Fassmore, J. A. *Hume's Intentions*. Cambridge, 1952 .
- Price, H.H. *Hume's Theory Of The External World* . Oxford, 1940.
- Smith N.K. *The Philosophy of David Hume*. London, 1941 .

الفصل الثامن عشر هيوم : ما له وما عليه

١- آدم سميث

(أ) نصوص :

- Collected Works*. 5 vols Edinburgh, 1811 - 12.
- The Theory of Moral Sentiments*. London, 1759 , and subsequent editions.
- The Wealth of Nations*. 2 vols London, 1776 , and subsequent editions.
- The Wealth of Nations*. With an introduction by E.R. A. Seligman. 2 vols. London (E.L) .

(ب) دراسات :

- Bagolini, L. *La simpatia nella morale e nel diritto: Aspetti del pensiero di Adam Smith*. Bologna, 1952 .
- Chevalier, M. *Étude sur Adam Smith et sur La fondation de la science économique*. Paris, 1874 .
- Hasbach, W. *Untersuchungen über Adam Smith*. Leipzig, 1891 .
- Leiserson, A. *Adam Smith y su teoría sobre el salario*. Buenos Aires, 1939 .

- Limentani, L. La morale della simpatia di Adam Smith nella storia del pensiero inglese. Genoa, 1914 .
- Paszehowsky, W. Adam Smith als Moralphilosoph. Halle, 1890.
- Rae, J. Life of Adam Smith . London , 1895 .
- Schubert, J. Adam Smith as Student and Professor. Glasgow, 1937 .
- Small, A.W. Adam Smith and Modern Sociology . London, 1909 .

۲- بـرایس (أ) نصوص

- A Review of the Principal Questions in Morals. Edited by D. Daiches Raphael. Oxford, 1948 .

(ب) دراسات

- Raphael, D. Daiches. The Moral Sense. Oxford, 1947 .
- (This work deals with Hutcheson , Hume, Price and Reid).

۳- رید (أ) نصوص

- Works. Edited by D. Stewart. Edinburgh, 1804 .
- Works. Edited by W. Hamilton. 2 vols. Edinburgh, 1846
- (6th edition, with additions by H.L Mansel, 1863 .)
- Euvres complètes de Thomas Reid. Translated by T.S. Jouffroy. 6 vols. Paris, 1828 - 63 .
- Essays on the Intellectual Powers of Man. (Abridged) Edited by A. D. Woozley London , 1941 .
- Philosophical Orations of Thomas Reid. (Delivered at Graduation Ceremonies.) Edited by W. R. Humphries. Aberdeen, 1937 .

(ب) دراسات

Bahne - Jensen, A. Gestaltanalytische Untersuchung zur Erkenntnislehre Reids. Glückstadt, 1941 .

Dauriac, L. Le réalisme de Reid. Paris, 1889 .

Fraser, A .C. Thomas Reid. Edinburgh and London, 1898 .

Latimer, J.F. Immediate Perception as held by Reid and Hamilton considered as a Refutation of the Scepticism of Hume. Leipzig, 1880 .

Peters,R. Reid als Kritiker von Hume. Leipzig, 1909 .

Sciacca, M.F. La Filosofia di Tommaso Reid con un'appendice sui rapporti con Gallupi e Rosmini. Naples, 1936 .

٤- بیانی

(أ) نصوص

Essay on the Nature and Immutability of Truth. Edinburgh, 1770, and subsequent editions.

Dissertations Moral and Critical. London, 1783 .

Elements of Moral Science. 2 Vols . Edinburgh, 1790 - 3 .

(ب) دراسات

Forbes, W. An Account of the Life and Writings of James Beattie 2 vols. Edinburgh, 1806 (2 nd edition , 3 vols, 1807)

٥- استیوارت

(أ) نصوص

Collected Works. Edited by W. Hamilton. 11 vols . Edinburgh, 1854 - 8 .

Elements of the Philosophy of the Human Mind. 3 vols . Edinburgh, 1792 - 1827 , and subsequent editions.

Outlines of Moral Philosophy. Edinburgh, 1793 (with notes by J. McCosh, London, 1863).

Philosophical Essays. Edinburgh, 1810 .

Philosophy of the Active and Moral Powers of Man. Edinburgh, 1828.

(ب) دراسات

A Memoir by J. Veitch is included in the 1858 edition of Stewart's Works . The latter's eldest son , M. Stewart, published a Memoir in Annual Biography and Obituary 1829 .

٦- براون

(أ) نصوص

An Inquiry into the Relation of Cause and Effect. London, 1818.

Lectures on the Philosophy of the Human Mind. Edited by D. Welsh. 4 vols. edinburgh, 1820 , and subsequent editions. Lectures on Ethics. London, 1856 .

(ب) دراسات

Welsh, D. Account of the Life and Writings of Thomas Brown. Edinburgh, 1825 .

٧- أعمال عامة

(أ) نصوص

Selectins from the Scottish Philosophy of Common Sense. Chicago, 1915 .

(ب) دراسات

Hessop, T.E. A Bibliography of David Hume and of Scottish Philosophy from Francis Hutcheson to Lord Balfour. London , 1937 .

Laurie, H. Scottish Philosophy in National Development . Glasgow, 1902 .

Mc Cosh, J Scottish Philosophy from Hutcheson to Hamilton. London, 1875.

Pringle - Pattison, A. S . Scottish Philosophy: A Comparison of the Scottish and German Answers to Hume. Edinburgh and London , 1885 and subsequent editions.

المؤلف فى سطور :

فردريك كويلستون (١٩٠٧ - ١٩٩٤)

فيلسوف إنجليزى ، وعالم لاهوت . درس فى كلية « مارلبورو » ، ثم فى كلية القديس يوحنا بجامعة أكسفورد ، وانتظم بعد ذلك فى سلك الكنيسة الكاثوليكية عام ١٩٣٠ ، وأصبح أستاذاً لتاريخ الفلسفة فى كلية « هيثروب » . ثم عمل بعد ذلك أستاذاً زائراً فى جامعة « سانتا كلارا » فى كاليفورنيا (١٩٧٤ - ١٩٧٥) ، وفى جامعة هاواى عام ١٩٧٦ . ألقى مجموعة من المحاضرات ضمن سلسلة محاضرات جيفورد فى جامعة « إبردين » عام ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، كما كان أستاذاً زائراً أيضاً فى « السويد » و « سانت أندروز » .

من أهم مؤلفاته :

موسوعته الكبرى فى « تاريخ الفلسفة » التى تضم تسعة أجزاء . و « الفلسفة والفلاسفة » ، و « حول تاريخ الفلسفة » ، و « الفلسفة والثقافة » ، و « الفلسفة فى روسيا » ، و « نيتشه ... فيلسوف الحضارة » ، و « القديس توما و نيتشه » .

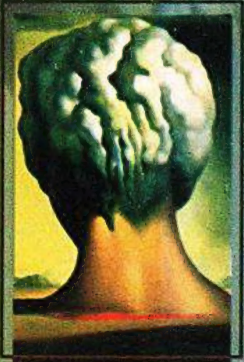
تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المراجع فى سطور :

أ . د . إمام عبد الفتاح إمام

من مواليد محافظة الشرقية ج . م . ع .

عمل أستاذًا بأداب عين شمس ، والكويت وهو الآن أستاذًا غير متفرع بجامعة المنصورة ، يشرف على أكثر من سلسلة فى المجلس الأعلى للثقافة بمصر .
له أكثر من مائة كتاب بن تأليف وترجمة ومراجعة .



هذا هو المجلد الخامس من موسوعة كولبستون الكبرى في تاريخ الفلسفة الغربية. ويتناول هذا المجلد الفلسفة الحديثة: الفلاسفة البريطانيين ابتداء من توماس هوبز: فيعالج «ميتافيزيقا الحركة» عنده، ويدرس الفلسفة المدنية. ثم يتناول أفلاطوني كمبريدج الذين استلهموا المذهب الأفلاطوني، واستمدوا منه التفسير الروحي والديني للواقع. وينتقل بعد ذلك إلى جون لوك وتأسيسه للمذهب التجريبي ثم تفصيلات هذا المذهب، ويتحدث عن المعرفة عنده بدرجاتها، ثم نظريتي لوك الأخلاقية والسياسية. وبعد لوك ينتقل إلى دراسة روبرت بويل وإسحاق نيوتن. ثم يتناول بعض المشكلات الدينية عند صموئيل كلارك والأسقف بطلر، ويقف عند الأسقف باركلي والمثالية الذاتية الشهيرة عنده حتى الأشياء المتناهية، وعلاقة الأشياء المحسوسة بذاتنا وبالله والعلمية. ويختم عمله بدراسة الفيلسوف الإسكتلندي ديفيد هيوم، والعواطف والعقل والأفكار الأخلاقية بصفة عامة، والسياسة وأصل المجتمع، وهيوم ما له وما عليه.